

الْكِتَابُ الْأَوَّلُ

في الفضائل وصالح الأخلاق والمثل العليا
التي يحُمَلُ بِكُلِّ مَنْ يَنْشُدُ السَّعَادَةَ فِي
الْدَّارَيْنِ أَنْ يَجْهَدَ جُوهْدَهُ فِي التَّحَلِّيِّ بِهَا

[وهذا الكتاب مكسورٌ على خمسة عشر باباً بينها]

[جميعاً لِحُمَةِ نَسَبٍ وَقَرَابَةِ]

الباب الأول

في البرِّ والتقوى

البرُّ وألوانه

قال علماؤنا ما خلاصته : إِنَّ أَصْلَ مَعْنَى الْبِرِّ : السَّعَةُ ، ومنه البرُّ - بفتح الباء - مقابل البحر ، ثم اشتُقَّ منه البرُّ بمعنى التوسع في فعل الخير ، وكُلُّ فِعْلٍ مَرْضِيٍّ ... وهكذا أطاؤه على التوسع في الإحسان إلى الناس ، وهو بُرٌّ الْبِرِّ ؛ وعلى صِلَةِ الرَّحِمِ ، وهي ذُنُوبُ الْبِرِّ ؛ وعلى التقوى ، وهي جَمَاعُ الْبِرِّ ^(١) ، قال تعالى : **وَالْكَنُ الْبِرِّ مَنْ اتَّقَى** ، وقال كبيد :

• وَمَا الْبِرُّ إِلَّا مُضْمَرَاتٌ مِنْ التَّقَى •

وَوَرَدَ الْبِرُّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ وَفِي شِعْرِ الْعَرَبِ مُقَابِلًا لِلْإِنِّمِ - وَالْإِنِّمِ : الشَّرُّ وَكُلُّ فِعْلٍ غَيْرِ مَرْضِيٍّ بِمَا يُؤْتِيهِمْ - قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِنِّمِ وَالْعُدْوَانِ** . واقتترانه بالتقوى يدلُّ على أَنَّ الْبِرَّ بِسَبِيلِ مَنْ التَّقْوَى ، وَرُوي أَنَّ سَائِلًا سَأَلَ الْمُصْطَفَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِنِّمِ ، فَقَالَ : الْبِرُّ مَا سَكَنْتَ إِلَيْهِ نَفْسُكَ وَاطْمَأَنَّ بِه قَلْبُكَ ، وَالْإِنِّمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَتَرَدَّدَ فِي صَدْرِكَ ، وَإِنْ أَتَاكَ النَّاسُ ، أَوْ كَمَا قَالَ . **« حَاكَ فِي نَفْسِكَ : أَيْ أَثَرَ فِيهَا وَرَسَخَ وَحَزَّ**

(١) ولأن البرَّ يطابق على كل أولئك ، قال الإمام البيضاوي : البرُّ ثلاثة : برٌّ في عبادة الله ، وبرٌّ في مراعاة الأقارب ، وبرٌّ في معاملة الأجانب

وَقَدَحَ ، وقوله : وإن أفتاك الناس : أى وإن جعلوا لك فيه رُخصةً وجوازاً ،
وقال زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ :

وَالِإِثْمُ مِنْ شَرِّ مَا يَصَالُ بِهِ وَالْبِرُّ كَالْفَيْثِ نَبْتُهُ أَمْرُ

« ما يصال به : ما يُفتخر به ، وأمر : كثير مبارك ، ومن أسماء الله البرّ -
بفتح الباء - ومعناه الواسع الخير ، وقوله تعالى : لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا
تَحِبُّونَ ، فمعناه : لن تنالوا برّ الله ، أى لن تنالوا خيري الدنيا والآخرة حتى
تنفقوا مما تحبون ، أمّا خير الدنيا فهو ما يسره الله للعبد من الهدى والنعمة ،
وأما خير الآخرة فهو الفوز بالنعيم الدائم في الجنة ، أو تقول : لن تنالوا
حقيقة البرّ - أى الخير - حتى تنفقوا مما تحبون ... والأبرار : الأخيار ، جمع برّ ،
وقد قوبلت كلمة الأبرار بالفجار في قوله تعالى : إِنَّ الْأَبْرَارَ لَنِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ
الْفُجَّارَ لَنِي جَحِيمٍ - والفجار : الذين ينبعثون في الشرور والآثام - وحج
مَبْرُور : مقبول يجازى بالبر ، أى الثواب ، أى خير الآخرة ؛ وبرّ في يمينه
أى صدق ، أى كان خيراً فيه هذا الصدق .

« وبعد » فكل ما أورده من معاني البر فإلى الخير مرّده ...



ولهم في البرّ مُطلقاً ، أى الخير غير مقيد بلون من ألوانه ، عبقریات وذخائر ،
فن ذلك قول الحُطَيْيَةِ :

وَمَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

« جَوَازِيهِ : جمع جازية اسم مصدر للجزاء ، كالعاقبة ، أى لا يعدم جزاء عليه ،

قال أبو عمرو بن العلاء : لم يقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت الحطية
هذا ، فقل له : فقول طَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ :

مَسْتَبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

فقال : هَن يَأْتِيكَ بِهَا يَمَن زَوَدَتْ أَكْثَر ، وليس ببيت مما قالته الشعراء
إلا وفيه مطعن ، إلا قول الخطيئة هذا . وَيُرَوَّى أَنَّ كَعْبًا الْحِمْيَرِيَّ - المشهور
بكعب الأحبار - لما سمع هذا البيت قال : والذي نفسى بيده : إِنَّ هَذَا الْبَيْتَ
لَمَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ ، ... وقال عَمِيدُ بْنُ الْأَبْرَصِ :

وَالْخَيْرُ يَبْقَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أَوْعَيْتَ مِنْ زَادٍ
« يقال : أَوْعَيْتَ الزَّادَ وَالْمَتَاعَ : إِذَا جَعَلْتَهُ فِي الْوَعَاءِ »
وقال أبو العتاهية :

لَيَعْلَمَنَّ النَّاسُ أَنَّ الثَّقَى وَالْبِرَّ كَانَا خَيْرَ مَا يُذْخَرُ

وَقَبْلَهُ قَالَ الْأَخْطَلُ - ورواه المبرِّد في الكامل للخليل بن أحمد واضع
علم العروض - :

وَإِذَا افْتَقَرْتَ إِلَى الذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ ذُخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ الْأَعْمَالِ
رَوَى صَاحِبُ الْأَغَانِي : أَنَّ دِشَامَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ لَمَّا سَمِعَ الْأَخْطَلَ وَهُوَ
يَقُولُ هَذَا الْبَيْتَ قَالَ : هَنِيَأُ لَكَ أَبَا مَالِكٍ هَذَا الْإِسْلَامُ ! فَقَالَ الْأَخْطَلُ :
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا زِلْتُ مُسْلِمًا فِي دِينِي ؛ وَقَبْلَ هَذَا الْبَيْتِ فِي دِيْوَانِ الْأَخْطَلِ :
وَالنَّاسُ هَمُّهُمْ الْحَيَاةَ وَمَا أَرَى طُولَ الْحَيَاةِ يَزِيدُ غَيْرَ خَبَالٍ
« الخبال : الفساد ، أو هو لون من الجنون ، ... »

وقال أحمد شوقي في نهج البردة : - وهذه الآيات يصح أن تذكر في
باب التقوى وفي باب الدنيا وفي الزهد ، كما يصح أن تذكر في هذا الموضع - :
يَا نَفْسُ دُنْيَاكِ تُخْفِي كُلَّ بُكْيَةٍ وَإِنْ بَدَا لَكَ مِنْهَا حُسْنٌ مُبْتَسِمٌ -
نُضِي بِنَفْسِكَ فَاهَا كُلَّمَا صَحَّكَتْ كَمَا يُفَضُّ أَذَى الرِّقَاءِ بِالسَّرِّمِ -
لَا تُخْزِلِي بِجَنَاحِهَا أَوْ جَنَاحَيْهَا الْمَوْتُ بِالزَّهْرِ يَثْلُ الْمَوْتُ بِالْفَحْمِ -

صَلَحُ أَمْرِكَ لِلْأَخْلَاقِ دَرْجَعُهُ فَقَوِّمِ النَّفْسَ بِالْأَخْلَاقِ تَسْتَقِمِ
وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرِ عَافِيَةٍ وَالنَّفْسُ مِنْ شَرِّهَا فِي مَرَاتِعٍ وَخِمٍ
«الجبثم: يريد الابتسام، أو موضع الابتسام، وهو الشجر. والرقشاء
من الحيات: المُنَقَّطَةُ بالسَّوَادِ وَالْبَيَاضِ. وأذى الرقشاء: سُتُّهَا. والثرم:
كسر السن من أصلها. والجنى: مَا يُجْنَى مِنَ الشَّجَرَةِ وَيَقْطَفُ مِنْ ثَمَرِهَا؛
يقول في هذا البيت: إن سعادة الدنيا وشقاءها بمنزلة سواء، وكلاهما ألم
غير أن أحد الألمين ينزل بساحة النفس سافراً غير مُتَكْرٍ - وهو جنايتها
أى آلامها - والآخر - وهو جناها أى لذاتها - يتسرب إليها من أبواب
غفلتها فيتجمل ويَحْلُبُ حَتَّى يَنَالُ مِنْهَا، إِذْ أَنْ مِنْ وَرَائِهِ السَّمُّ نَاقِعاً، فثَلْهُمَا فِي
ذَلِكَ مَثَلُ الْمَوْتِ بِالْفَحْمِ وَالْمَوْتِ بِالزَّهْرِ، كِلَاهُمَا مَوْتٌ، وَإِنْ كَانَ هَذَا مِنْ
أَثَرِ الْإِخْتِنَاقِ بِأَرْجِ الزَّهْرِ، وَذَلِكَ مِنْ دَخَنِ الْفَحْمِ. والمرتع: مَنْ رَمَعَتْ
الْمَاشِيَةَ: أَكَلَتْ مَا شَاءَتْ، وَالْمَرْتَعُ: مَكَانُ الرِّتْوَعِ، وَالْوَحْمُ: الرَّدْيُ الْوَبِيُّ،
وَقَالَ الْمَعْرَى:

وَلَفَعَلِ النَّفْسُ الْجَلِيلَ لِأَنَّهُ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ لَا لِأَجْلِ ثَوَابِهَا
«يقول المعرى: إِنْ فَعَلَ كُلُّ مَا هُوَ جَمِيلٌ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ مِنْ فَعَلَ
مَا لَيْسَ بِجَمِيلٍ، وَلَوْ لَمْ يَجْنِ الْمَرْءُ مِنْ وَرَاءِ الْجَلِيلِ وَفَعَلَهُ إِلَّا أَنَّهُ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ
وَأَسْمَى وَأَرْفَعُ؛ لَكَانَ فِي ذَلِكَ الْغَنَاءُ كُلُّهُ، أَمَّا فَعْلُ الْجَلِيلِ وَنُصَبَ عَيْنِ فَاعِلِهِ
ذَلِكَ الثَّوَابُ الَّذِي سَيَجَازِي بِهِ، فَإِنْ هَذَا إِسْفَافٌ بِالْإِنْسَانِيَةِ إِلَى الْحَضِيضِ
الْأَوْهَدِ، وَيُعْتَدُّ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَرْفَعُهَا اللَّهُ إِلَى أَسْفَلِ، وَجَمَلَةُ الْقَوْلِ: إِنَّهُ غَيْرُ
لَاقٍ بِالْكَالِ وَالْمَثَلِ الْأَعْلَى، أَلَيْسَ مِنْ كَانَ هَذَا شَأْنَهُمْ إِنَّمَا يَتَاجَرُونَ اللَّهَ الَّذِي
يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَالَّذِي هُوَ جَمِيلٌ يَحِبُّ الْجَمَالَ، وَتَسْتَرَى فِي بَابِ التَّقْوَى

كثيرا من عبقرياتهم في هذا المعنى - منى فمل الخير حبا في الخير، وولوعا بالحق والجمال والمثالية الكامنة فيه.



وبما روى لنا من أحاديث سيدنا رسول الله في هذا الباب قوله صلوات الله عليه: رأيت الجنة والنار فلم أر مثل الخير والشر... قال ابن الأثير في النهاية: أى لم أر مثلهما لا يميز بينهما فيبالغ في طلب الجنة والهروب من النار... أقول: ولعل الأظهر أن يكون المعنى: لم أر شيئا يكون وُصلةً إلى دخول الجنة مثل الخير، ولم أر شيئا يكون سبباً في دخول النار مثل الشر^(١).. هذا، وإن أبى المُلحدون وأشباه المُلحدين إلا أن يؤوّلوا الجنة بأنها الهناءة وغبطة الروح التي يشعُر بها الأخيار البررة ويرآحون لها في هذه الحياة، والنار بأنها الشقاوة التي يُعانها الأشرار الفجرة، ويتسعر لهبها في أحناء ضلوعهم، فهم وما يختارون ويَحْلُولِي لهم، إذ أن هذا - أى سعادة الخير في الدنيا وشقاوة الشرير فيها - حق وصحيح في ذاته، وإن لم يك مراداً لانتداء الله ورسله بالجنة والنار، حين يريدون الجنة والنار بمعناها المعروف، على أن الإسلام على ذلك يعتد بالسعادة والشقاوة في الدنيا كما أنه يعتد بهما فيما بعد الموت... وفي الحديث أيضا: خَيْرُكم من يُرَجَى خَيْرُهُ وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ، وَشَرُّكم من لا يُرَجَى خَيْرُهُ وَلَا يُؤْمَنُ شَرُّهُ... وقال صلوات الله عليه:

(١) ورد هذا الحديث عن أنس بن مالك هكذا: صلى لنا النبي صلى الله عليه وسلم ثم رقى المنبر، فأشار يده إلى قبة المسجد وقال: لقد رأيت الآن منذ صليت لكم الجنة والنار ممثلتين في قبة هذا الجدار فلم أر كاليوم في الخير والشر... الجامع الصغير،

خير الناس خيرهم لنفسه » ومعناه : إذا جاملَ الناسَ جاملوه وإذا أحسن إليهم كافأوه بمثله » وأما الحديث : خيركم خيركم لأهله ؛ فهو حث على صلة الرحم ، وسيأتي ... ومما يُؤثرُ من أحاديث سيدنا رسول الله في هذا الباب قوله صلوات الله عليه : شرُّ الناس من خافه الناس اتقاءً شره « ومثل هذا القول تبكيت للشرير ، وأنه وإن ظفر بما يظفر به من أغراض هذه الدنيا فهو خاسرٌ دائمٌ » وكان من دعاء سيدنا رسول الله : إن الخيرَ يَدَيْكَ والشرُّ ليس إليك « يريد : أن الشر لا يُتقرب به إليك ولا يُبتَغى به وجهك ، أو أن الشر لا يصعد إليك وإنما يصعد إليك الطيب من القول والعمل ، كما قال سبحانه : إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه . وفي هذا الدعاء إرشاد إلى استعمال الأدب في الثناء على الله والدعاء ، وأن تضاف إليه محاسن الأشياء دون مساوئها ... ومن كلمة لعلي بن أبي طالب : إن للخير والشر أهلاً ، فهما تركتموه منهما كفاكوه أهله » يقول رضى الله عنه : إنَّ لك باب من أبواب الخير وتركته فسوف يكفيك بعض الناس من جعله الله أهلاً للخير ، وإنَّ عنَّ لك بابٌ من أبواب الشر فتركته فسوف يكفيك بعض الناس من جعلهم الله أهلاً للشر وأذى الناس ، فاختر لنفسك أيما أحب إليك : أن تحظى بالمحمدة والثواب وتفعل ما إن تركته فمله غيرك وحظى بحمده وثوابه ، أو أن تتركه ، وأيما أحب إليك : أن تشقى بالدم عاجلاً والعقاب آجلاً وتفعل ما إن تركته كفاكه غيرك وبلغت غرضك منه على يد غيرك ، أو أن تفعله ؛ وإذا نـجـير بالعاقل أن يُؤثـرَ فعـلَ الخير وترك الشر ما وجد إلى ذلك سبيلاً . ومن قولهم في أوصاف البررة الأخيار : فُلانٌ نَقى الساحة من المآثم ، يرى الذمَّة من الجرائم ؛ إذا رضى لم يقل غير الصدق ، وإذا سخط لم يتجاوز

جَانِبَ الْحَقِّ ؛ يرجع إلى نَفْسِ أَمَارَةٍ بِالْخَيْرِ ، بعيدة من الشر ، مدلوله على سبيل البر ... ووصف أعرابي رجلا بلون من ألوان البر وبالأممية والذكاء والحصافة والآناة قال : كان - والله - الفهم منه ذا أذنين ، والجواب ذا لِسَانَيْنِ ، لم أرَ أحداً كان أُرْتَقَى لِخَلَلِ رَأْيٍ مِنْهُ ، ولا أبعدَ مسافة رَوِيَّتْ وَمَرَادَ طَرْفٍ ، إنما يرمى بهمة حيث أشار إليه الكرم ، وما زال - والله - يَتَحَسَّى مَرَارَةَ أَخْلَاقِ الْإِخْوَانِ وَيُسْقِيهِمْ عُذُوبَةَ أَخْلَاقِهِ ... « كان الفهم منه ذا أذنين : يريد أنه كان يعي ويتفطن لما يرى ويسمع فطنة أوفت على الغاية ، إذ أنها فطنة مضاعفة ، فكأن له أذنين . أما قوله : والجواب ذا لسانين : فإنما يريد قوة العارضة واللّسن ، وهذا غير قولهم : فلان ذو وجهين وذو لسانين ، يريدون : النفاق والذبذبة . ورتق الفتق : أصلحه ، والمراد : المكان من راد يرود : إذا جاء وذهب ، ويتحسى : يقال حسا الماء : شربه ، وتحساه : إذا شرب في مهلة ، وهو هنا مجاز »

ومن كلمة لابن المقفع يصف الرجل يتلاقى البر في بُرْدِيهِ بِالْوَانِ شَتَّى مِنَ الْمُثَلِّ الْعُلَمَاءِ وَأَخْلَاقِ السَّادَةِ ، في أسلوب بديع - وقد وردت هذه الكلمة في نهج البلاغة منسوبة لعلی بن أبی طالب رضي الله عنه - : كان لي أخ في الله ، كان أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عيني ، كان خارجا من سلطان بطنه ؛ فلا يتشهى ما لا يجد ، ولا يُكثِرُ إذا وجد . وكان خارجا من سلطان فرجه ؛ فلا يدعو إليه ، وؤنة ، ولا يستخف إليه رأيا ولا بدنا ، وكان لا يتأثر عند نعمة ، ولا يستكين عند مصيبة ، وكان خارجا من سلطان لسانه ؛ فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يمارى فيما علم . وكان خارجا من سلطان الجهالة ؛ فلا يُقَدِّم أبدا إلا على ثقة بنفسه ، وكان

أَكْثَرَ دَهْرِهِ صَائِتًا ، فَإِذَا قَالَ بَرَّ الْقَائِلِينَ ، وَكَانَ ضَعِيفًا مُسْتَضْعَفًا ، فَإِذَا جَدَّ الْجِدُّ فَهُوَ اللَّيْثُ عَادِيًا ، وَكَانَ لَا يَدْخُلُ فِي دَعْوَى ، وَلَا يَشَارِكُ فِي مِرَاءٍ ، وَلَا يُدْلِي بِحُجَّةٍ ، حَتَّى يَرَى قَاضِيًا فَهَمًّا وَشُهُودًا عَدُولًا ، وَكَانَ لَا يَلُومُ أَحَدًا فِيمَا يَكُونُ الْعَذْرُ فِي مِثْلِهِ حَتَّى يَعْلَمَ مَا عَذْرُهُ ، وَكَانَ لَا يَشْكُو وَجَعَهُ إِلَّا عِنْدَ مَنْ يَرْجُو عِنْدَهُ الْبُرَّةَ ، وَلَا يَسْتَشِيرُ صَاحِبًا إِلَّا أَنْ يَرْجُوَ مِنْهُ النَّصِيحَةَ . وَكَانَ لَا يَتَبَرَّمُ وَلَا يَتَذَخَّرُ ، وَلَا يَتَشَكَّى وَلَا يَتَشَهَّى ، وَلَا يَنْتَقِمُ مِنَ الْعَدُوِّ وَلَا يَغْتَبِلُ عَنِ الْوَلِيِّ ، وَلَا يُخْصُ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ دُونَ إِخْوَانِهِ ، مِنْ اهْتِمَامِهِ وَحِيلَتِهِ وَقُوَّتِهِ ... فَمَلِكٌ بِهَذِهِ الْأَخْلَاقِ إِنْ أَطَقَتْهَا ، وَلَنْ تَطِيقَ ، وَلَكِنْ أَخَذَ الْقَائِلُ خَيْرًا مِنْ تَرْكِ الْجَمِيعِ ... قَوْلُهُ كَانَ لِي أَخٌ الْحَ : فَلَيْسَ يَعْنِي أَخَا بَعِينِهِ وَلَكِنْ هَذَا كَلَامٌ خَارِجٌ مَخْرَجُ الْمَثَلِ ، وَعَادَةُ الْعَرَبِ جَارِيَةٌ بِذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِهِمْ فِي الشَّعْرِ : قُلْتُ لَصَاحِبِي ، وَيَا صَاحِبِي : وَقَوْلُهُ : فَلَا يَتَشَهَّى مَا لَا يَجِدُ ، فَإِنْ ذَلِكَ لِعَمْرَى مِنْ سَقُوطِ الْمَرْوَةِ . قَالَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ : جَنَّبُوا مَجَالِسَنَا ذَكَرَ تَشَهَّى الْأَطْعَمَةِ وَحَدِيثِ الْكَاحِ : وَمِنْ طُرْفِ الْجَاظِ مَارَوَاهُ عَنْ نَفْسِهِ : جَالِسْنَا فِي دَارٍ فَمَلْنَا تَشَهَّى الْأَطْعَمَةِ ، فَقَالَ وَاحِدٌ : أَنَا أَشْتَهِي سَكْبَاجَةً كَثِيرَةً الزَّعْفَرَانِ ، وَقَالَ آخَرٌ : وَأَنَا أَشْتَهِي هَرِيَسَةً كَثِيرَةً الدَّارِصِينِي ... وَإِلَى جَانِبِنَا امْرَأَةٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا بَيْتُ الدَّارِ ، فَضَرَبَتْ الْحَائِطَ وَقَالَتْ : أَنَا حَامِلٌ ، فَأَعْطُونِي مِلَّةً . هَذِهِ الْغَضَارَةُ - الصَّفْحَةُ - مِنْ طَبِيعَتِكُمْ ، فَقَالَ ثُمَامَةُ بْنُ الْأَشْرَسِ : جَارَتُنَا هَذِهِ تَشْمُ رَائِحَةَ الْأَمَانِيِّ وَقَوْلُهُ : وَكَانَ ضَعِيفًا مُسْتَضْعَفًا : يَرِيدُ : كَسِينُ الْجَانِبِ ، وَطَأَ الْأَكْنَافَ ، ... وَقَرَعَ رَجُلٌ بَابَ بَعْضِ الْخَيْرِينَ مِنَ السَّلَفِ ، فِي لَيْلٍ ، فَقَالَ لَجَارِيَتِهِ : أَبْصِرِي مِنَ الْقَارِعِ ، فَأَتَتْ الْبَابَ فَقَالَتْ : مَنْ ذَا ؟ قَالَ أَنَا صَدِيقُ مَوْلَاكَ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : قَوْلِي لَهُ : وَاللَّهِ إِنَّكَ لَصَدِيقٌ ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ ، فَقَالَ :

والله إني لصديق ، فهض الرجل وبيده سيف وكيس يسوق جارية ، وفتح الباب وقال : ماشأذك ؟ قال : راعنى أمر ، قال : لباك ماساءك ، فإنى قد قسمتُ أمرك بين صديق : فهذا المال ، وبين عدو : فهذا السيف ، أو مشوق : فهذه الجارية . فقال الرجل : لله بلادك ، مارأيت مثلك ... « أقول : هذه لعمرى هى أخلاق السادة النبلاء ذوى البر والمروءة والوفاء والحزم والظرف ، وكون - وجود - أمثال هؤلاء من ذوى الإنسانية العالية هو الذى يُحسِّنُ ظننا بالحياة ويجعلها فى أعيننا ، ويجعلها مُحتملة مطابقة ، لا كما نرى اليوم ... » وقال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت يصف رجلا قليل الخير - أى لا خير فيه - :^(١)

أَبَى لَكَ فِعْلَ الْخَيْرِ رَأَى مُقَصِّرٌ وَنَفْسُ أَضَاقَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ بِاعِهَا
إِذَا مَا أَرَادَتْهُ عَلَى الْخَيْرِ مَرَّةً عَصَاهَا وَإِنْ هَمَّتْ بِشَرٍّ أَطَاعَهَا

ومن قولهم فى قليل الخير :

هُوَ فِي الْخَيْرِ قُطُوفٌ وَهُوَ فِي الشَّرِّ وَسَاعٌ

« القُطُوف من الإنسان والحيوان : البطء المتقارب الخطو ، ووساع : واسع الخطو سريع السير ، ومن قولهم فى المتسارين فى الخير والشر . هما كَفَرَسَى رَهان ، وهذا فى الخير ، وأما فى الشر فيقال : هما كِحِمَارَى الْعِبَادَى . والعبادى : رجل من العباد ؛ وهم قوم من قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية فَأَنِفُوا أَنْ يَتَسَمَّوْا بِالْعَبِيدِ وَقَالُوا : نحن العباد ، وقد نزلوا بالحيرة ومنهم عَدَى بن زيد العبادى الشاعر المشهور . أما هذا العبادى فيروى أنه قيل له - أى حِمَارِكَ شَرٌّ ؟ فقال : هذا ، ثم هذا !

(١) كان عبد الرحمن هذا قد سأل محمد بن عمرو عامل سليمان بن عبد الملك

حاجة فلم يقضها ، فسألها عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقضاهها ، فقال أبياتا منها هذان اليتان

وقال الأشعرُ الرِّقْبَانُ - وهو شاعر جاهلي من بني أسد - يخاطب ابن عمِّه
 له يسمى رضوان ، يصفه بالشر واللؤم والنذالة والفسولة :

بِحَسْبِكَ فِي الْقَوْمِ أَنْ يَعْلَمُوا بِأَنَّكَ فِيهِمْ غَنِيٌّ مُضِرُّ
 وَقَدْ عَلِمَ الْمَعْشَرُ الطَّارِقُوكَ بِأَنَّكَ لِلضَّيْفِ جُوعٌ وَقُرُّ
 إِذَا مَا اتَّدَى الْقَوْمُ لَمْ تَأْتِهِمْ كَأَنَّكَ قَدْ وَلَدْتَكَ الْحُمُرُ
 مَسِيخٌ مَلِيخٌ كَلْحَمِ الْحَوَارِ فَلَا أَنْتَ حُلُوٌّ وَلَا أَنْتَ مُرُّ

« قوله : غَنِيٌّ مُضِرُّ ، فالمُضِرُّ : الذي له ضَرَّةٌ من المال ، وهي القطعة من
 المال والإبل والغنم ، أو المال الكثير ، كما هنا ، واتَّدَى القوم : اجتمعوا
 في ناديمهم ، والمسيخ : الذي لا طعم له ، والمليخ مثله ، وخصَّ به بعض اللغويين
 الحوَار الذي ينجر حين يقع من بطن أمه فلا يوجد له طعم ، ونال ابن الأعرابي :
 المليخ من الرجال : الذي لا تشتهي أن تراه حينك فلا تجالسه ولا تسمع أذنك
 حديثه ، والحوار : ولد الناقة ساعة تَضَعُهُ ... وما يَحْسُنُ إِرَادَهُ فِي هَذَا
 الْبَابِ لِلْبُسْتَةِ وَاشْتِبَاهِهِ قَوْلَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَدْ قِيلَ لَهُ : فَلَنْ لَا يَرْفِ
 الشَّرَّ - فَقَالَ : ذَلِكَ أَوْقَعَ لَهُ فِيهِ ، إِذْ أَنْ مَعْنَاهُ : أَنْ لَا يَكُونَ الْإِنْسَانُ مَغْفَلًا وَإِنَّمَا
 الْوَاجِبُ الْفِطْنَةُ وَالْحَذَرُ وَسُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ ، لَمَّا جُبِلَ عَلَيْهِ سَوَادُهُمْ مِنَ الشَّرِّ
 وَاللُّؤْمِ وَالْخِدَاعِ ، وَفِي مَعْنَاهُ يَقُولُ حَكِيمُ لَا بَنَةَ : اسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ
 وَكُنْ مِنْ خِيَارِهِمْ عَلَى حَذَرٍ ... وَقَدْ كَانَ الْفَارُوقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يَقْعَقَعُ
 لَهُ بِالْشَّنَانِ ^(١) وَكَانَ سَيِّئَ الظَّنِّ بِالنَّاسِ ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ شِدَّتُهُ وَصِرَامَتُهُ

(١) لَا يَقْعَقَعُ لَهُ بِالْشَّنَانِ : مَثَلٌ ، أَيْ لَا يَخْدَعُ وَلَا يَرْوَعُ ، وَأَصْلُهُ مِنْ تَحْرِيكِ الْجِلْدِ
 الْيَابِسِ لِلْبَعِيرِ لِيَفْرَعَ ، وَمَعْنَى الْقَعْقَعَةِ : التَّحْرِيكُ ، وَالشَّنَانُ : جَمْعُ شَنْ وَهُوَ الْقَرْبَةُ الْخَلْقُ
 أَوْ الْخَلْقُ - الْبَالِي - مِنْ كُلِّ وَعَاءٍ صَنَعَ مِنْ جِلْدٍ .

وحذرُهُ وسياسته الحازمة الرشيدة... «وبعد» فإنك ترى في باب طبائع الإنسان كثيرا من عقرياتهم في الشر ووصف الأشرار وحكمة امتزاج الخير بالشر في العالم ، كما أنه سيمرُّ بك قريبا كثير من عقرياتهم في التقوى وحسن الخلق...

ومن أروع وأجمع ما قيل في البر على سائر ألوانه قوله جلَّ شأنه : ليسَ البرَّ أنْ تُؤَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ...

«نزلت هذه الآية الكريمة بعد أن أكثر أهل الكتاب من يهود ونصارى ، الخوض في أمر القبلة حين حوّل رسولُ الله إلى الكعبة ، وزعم كل من الفريقين أن البرّ هو التوجّه إلى قِبَلَتِهِ ، فقنّد الله سبحانه هذا الزعم وبهرجه وقال : ليس البرُّ العظيم الذي يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البرّ هو أمر القبلة ، ولكن البرّ الذي يجب الاهتمام به وصرف الهمة إليه هو برٌّ مَنْ آمَنَ وقام بهذه الأعمال هذا ، وقوله . ليس البر أن تؤلّوا قالبرً بالنصب خبر ليس مُقدّم . وأن تؤلّوا ، وول بمصدر اسم ليس مؤخر ، وقوله : ولكن البر من آمن : إمّا مثل قول الخنساء ^(١) :

(١) الخنساء : هي تماضر بنت عمرو بن الشريد من سروات قبائل بني سليم من أهل نجد ، أشعر النساء في عصرها أدركت الإسلام وأسلمت توفيت سنة ٢٤ هـ وقوله فإنما هي إقبال وإدبار ، من أبيات ترى أخاها صخرا تقول فيها :

فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ * أَوْ تَقُولُ : وَلَكِنَّ الْبِرَّ : أَيْ ذَا الْبِرِّ
 أَوْ تَقُولُ ، إِنَّهُ عَلَى حَذْفٍ مِثْلُ مَضَافٍ ، أَيْ بِرٍّ مِنْ آمَنَ . وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : وَالْكِتَابُ ،
 يَعْنِي جَنْسَ كِتَابِ اللَّهِ ، أَوْ الْقُرْآنَ . وَقَوْلُهُ : عَلَى حَبِّهِ ، أَيْ مَعَ حُبِّ الْمَالِ
 وَالشُّعْبِ بِهِ ، وَقَدْ مَذَى الْقُرْبَى لِأَنَّ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ أَفْضَلُ ، كَمَا وَرَدَ فِي
 الْآثَرِ : صَدَقْتُكَ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةً وَعَلَى ذِي رَحِمِكَ اثْنَتَانِ ، صَدَقَةٌ وَصَلَةٌ ،
 وَابْنُ السَّيْلِ : الْمَسَافِرُ الْمُنْقَطِعُ ، وَقِيلَ الضَّيْفُ : لِأَنَّ السَّيْلَ يَرْعَفُ بِهِ - أَيْ
 يَتَقَدَّمُ بِهِ وَيَبْرِزُهُ لِلْمَقِيمِينَ كَمَا يَرْعَفُ الْأَنْفُ بِدَمِ الرَّعَافِ - وَقَوْلُهُ : وَفِي الرِّقَابِ : أَيْ
 وَفِي مُعَاوَنَةِ الْمَكَاتِبِينَ حَتَّى يَفْكَرُوا رِقَابَهُمْ وَقِيلَ : فِي شَرَاءِ الرِّقَابِ وَإِعْتَاقِهَا ،
 وَقِيلَ : فِي فَكِّ الْأَسَارَى . وَقَوْلُهُ : وَالْمُؤَفَّنُونَ بِعَهْدِهِمْ : عَطْفٌ عَلَى مَنْ آمَنَ
 وَقَوْلُهُ : وَالصَّابِرِينَ ، فَهُوَ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَدْحِ ، وَلَمْ يُعْطَفْ ، لِفَضْلِ الصَّبْرِ عَلَى
 سَائِرِ الْأَعْمَالِ ، وَالْبَأْسَاءُ ، أَيْ فِي الْأَمْوَالِ كَالْفَقْرِ ، وَالضَّرَاءُ ، أَيْ فِي الْأَنْفُسِ
 كَالْمَرَضِ . وَحِينَ الْبَأْسِ : أَيْ وَقْتُ مَجَاهِدَةِ الْعَدُوِّ ... أَيْلَسَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ
 - كَمَا قَالَ الْإِمَامُ الْبَيْضَاوِيُّ ، وَكَأَنَّا تَرَى - جَامِعَةً لِلْمَكَالَاتِ الْإِنْسَانِيَةِ بِأَسْرَافِهَا ، دَالَّةً
 عَلَيْهَا صَرِيحًا أَوْ ضَمْنًا ، فَإِنَّهَا عَلَى تَشَعُّبِهَا مَنْحَصَرَةٌ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : صِحَّةُ الْإِعْتِقَادِ ،
 وَحُسْنُ الْمَعَاشِرَةِ ، وَتَهْذِيبُ النَّفْسِ . وَقَدْ أُشِيرَ إِلَى الْأَوَّلِ بِقَوْلِهِ : مَنْ آمَنَ

فَمَا عَجُولٌ عَلَى بَوِّ مُطِيفٍ بِهِ لَهَا حَيْنَانِ إِعْلَانٍ وَإِسْرَارِ
 تَرْتَعُ مَا غَفَلَتْ حَتَّى إِذَا أَدَّكَرَتْ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ
 يَوْمًا بِأَوْجَدٍ مِنِّي حِينَ فَارَقَنِي صَخْرٌ وَلِدَهْرٍ إِحْلَاءٍ وَإِمْرَارِ
 الْعَجُولُ مِنَ الْإِبِلِ : الْوَالِدُ الَّتِي فَقَدَتْ وَلَدَهَا ، لِعَجَلَتِهَا فِي جِيئَتِهَا وَذَهَابِهَا جَزَعًا
 وَالْبَوُّ : جِلْدُ وَلَدِ النَّاقَةِ يَحْشَى تَبْنًا وَنَحْوَهُ وَيَقْرُبُ مِنْهَا فَتَعُطِفُ عَلَيْهِ وَتَدْرُ ، وَقَوْلُهَا : فَإِنَّمَا
 هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ : جَعَلَهَا نَفْسَ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ مَبَالِغَةً ، أَيْ أَنَّهُمَا تَنْتَهِيَانِ عَنِ الرَّعْيِ فَتَقْبَلُ
 وَتَدْرُ جَزَعًا

بِالله . إلى : والنبیین ، وإلى الثاني بقوله : وآتَى الْمَالَ ... إلى : والرقاب ،
وإلى الثالث بقوله : وأقام الصلاة ... إلى آخرها . ولذلك وَصَفَ الْمُسْتَجْمِعُ
لَهَا بِالْصِّدْقِ ، نظراً إلى إيمانه واعتقاده ، وبالتقوى : اعتباراً بمعاشرته للخلق
ومعاملته مع الحق سبحانه ، ولذلك قال عليه السلام : مَنْ عَمِلَ بِهِذِهِ الْآيَةِ فَقَدْ
اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ .

بِرُّ الْوَالِدَيْنِ وَصِلَةُ الرَّحِمِ

وعقوباتهم في الآباء والأبناء والأقارب من بابات شتى *

وإِلَيْكَ شَدَّوْا مِنْ عِبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي لَوْنٍ مِنْ أَلْوَانِ الْبَرِّ لَقَدْ نَرَاهُ بَادِي الرَّأْيِ قَلِيلَ
الْخَطَرِ ، وهو عند الله الْحَقُّ ، وَلَدَى إِلْقَاءِ الْبَالِ إِلَيْهِ ، وَإِنْعَامِ النَّظَرِ فِيهِ ، عَظِيمٌ
كُلُّ الْعِظَمِ ، خَطِيرٌ كُلُّ الْخَطَرِ ، ذَلِكَ هُوَ صِلَةُ الرَّحِمِ بِعَامَّةٍ ، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ بِمَخَاصِصِهَا ،
وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِرَّ الْوَالِدَيْنِ بِالتَّوْحِيدِ ، وَأَكْثَرَ فِي كِتَابِهِ الْمُنْزَلِ مِنَ الْحُضِّ
عَلَى هَذَا الْبَرِّ بِأَسْلُوبٍ يُخَيِّلُ إِلَى السَّمْعِ إِلَيْهِ أَنَّ بِرَّ الْوَالِدَيْنِ رَكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ
الدِّينِ ، وَأَسَاسٌ مِنْ أَسَاسِ الْأَخْلَاقِ لَا يُؤْبَهُ لِسَائِرِهَا بِدُونِهِ ، وَإِنَّهُ لَكُنْكَذَا ،
وَفِي الْحَقِّ إِنْ هَذِهِ الْإِشَادَةُ الْبَالِغَةُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ
لَمَّا يُعْتَدُّ مِنْ فَضَائِلِ هَذَا الدِّينِ الْحَنِيفِ وَخَصَائِصِهِ الَّتِي يَنَازِلُهَا . فَلْيُلْقِ أَبْنَاءُ
الْيَوْمِ بِالْهَمِّ إِلَى ذَلِكَ ، وَلِيَجْعَلُوهُ دَائِمًا نُصَبَ أَعْيُنِهِمْ ، إِنْ كَانُوا يَرِيدُونَ الْخَيْرَ
لَا نَفْسَهُمْ ، وَإِلَّا فَلَا يُبْعِدُ اللَّهُ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ... هَذَا وَسَتَسْمَعُ بَادِي ذِي بَدءٍ خَيْرَ

(هـ) البابة عند العرب : الوجه ، والبابات الوجوه وأنشدوا تميم بن مقبل :

بنى عامر ما تأمرون بشاعر تخير بابات الكتاب هجائيا

معناه : تخير هجائي من وجوه الكتاب ، ويقال فلان من أهون باباته الكذب
وهي أنواع خبثه ، وإذا قال الناس : هذا شئ . من بابتي ، فعناه من الوجه الذي أريده
ويصلح لي .

ما قالوا في هذا اللون من البر، ثم نعبه بخير ما قالوا في الآباء والأبناء والآقارب، مما يتأشب إلى هذا المعنى، وينشعب به القول، ولا يخلو بعضه من طرفة، حتى نستوعب المنتقى من كلامهم في كل باب، وحتى يكون فيما يستطرف منه استراحة للقارئ وانتقال ينفي ملل الجِدِّ عنه... فمن ذلك ما يقول الله عز وجل - وَتَجَزَّأَ بِهِذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ الْجَامِعَةُ عَنْ سَائِرِ الْآيَاتِ الَّتِي يَزْخَرُ بِهَا كِتَابُ اللَّهِ فِي بَابِ الْبِرِّ بِالْوَالِدِينَ - : وَاقْضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا، رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا، وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ... الْآيَاتِ

وقوله سبحانه : وَاقْضَى رَبُّكَ : أى أمر أمراً مقطوعاً به... وإنها لكلمة مُرَوِّعَةٌ تَرْجُحُ النَّفْسَ رَجًّا وتُزَلِّزُ أَرْجَاءَ هَازِلًا شَدِيدًا . ولا جَرَمَ أَنَّهُ كِتَابُ اللَّهِ الَّذِي أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ . أما قوله سبحانه : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ : أى قَضَى رَبُّكَ بَأَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ؛ لِأَنَّ غَايَةَ التَّعْظِيمِ لَا تَحْقُقُ إِلَّا لِمَنْ لَهُ غَايَةُ الْعِظَمَةِ وَنَهَايَةُ الْإِنْعَامِ . وقوله : وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، أى وَقَضَى بِأَنْ تُحْسِنُوا بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وقوله : إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا ، فِيمَا : هِىَ إِنْ الشَّرْطِيَّةُ زِيدَتْ عَلَيْهِمَا مَاتَا كِيدًا لَهَا ، فَيَكُونُ قَالَ : إِنْ يَبْلُغَنَّ ، وَأَحَدُهُمَا فَاعِلٌ يَبْلُغَنَّ ، وَأَفٍ : صَوْتٌ يَدُلُّ عَلَى التَّضَجُّرِ ، وَعِنْدَكَ : قَالَ الزُّخَرِيُّ : مَعْنَاهُ : أَنْ يَكْبُرَا وَيُعْجِزَا وَيَصِيرَا كَلًّا عَلَى وَلَدِهِمَا لَا كَافِلَ لَهُمَا غَيْرُهُ ، فُهُمَا فِي بَيْتِهِ وَكَتَفِهِ ، وَذَلِكَ أَشَقُّ عَلَيْهِ وَأَشَدُّ احْتِمَالًا وَصَبْرًا ، وَرَبَّمَا تَوَلَّى مِنْهُمَا مَا كَانَ يَتَوَلَّى مِنْهُ فِي حَالِ الطُّفُولَةِ ، فَهُوَ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَسْتَعْمَلَ مَعَهُمَا وَطْأَةَ الْخُلُقِ وَإِنْ الْجَانِبِ

والاحتمال ، حتى لا يقول لهما - إذا أضجره ما يُستَقْدَر منهما أو يَسْتَقِل منهُما - : أَفٍ ، فضلا عما يزيد على أَفٍ ... قال : ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما كما ترى ، حيث افتتح الآية بأن شَفَعَ الإحسان إليهما بتوحيده ، ونظمهما - التوحيد والإحسان إلى الوالدين - في سلك القضاء - الأمر - بهما معا ، ثم صَيَّقَ الأمر في مراعاتهما حتى لم يُرَخَّص في أدنى كلمة تنفكت من المتضرر ، مع موجبات الضرر ومقتضياته ، ومع أحوال لا يكاد يدخل صبر الإنسان معها في الاستطاعة ... وقوله : ولا تهرهما : أى لا تنههما عما يتعاطيان مما لا يعجبك ، وقل لهما قولاً كريماً : أى جيلاً ، كما يقتضيه حسن الأدب والنزول على الروعة . وقوله سبحانه : واخفض لهما جناح الذل ، قال الإمام الزمخشري : فيه وجهان : أحدهما أن يكون المعنى : واخفض لهما جناحك كما قال : واخفض جناحك للدؤمين ، فأضافه إلى الذل أو الذل^(١) كما أضيف حاتم إلى الجود ، على معنى واخفض لهما جناحك الدليل أو الذلول ، والثاني : أن تجعل لذلّه أو لذلّه لهما جناحاً خفيصاً كما جعل لبيد - الشاعر المخضرم - للشمال يداً وللقرّة زماماً^(٢) مُبالغة في التذلل والتواضع لهما ، وقوله سبحانه : من الرحمة : أى من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما ليكبريهما واقتقارهما إلى مَنْ كان أفقر خالق الله إليهما بالأمس ،

(١) الذل الأول من ذل ذلافه وذليل بمعنى الخضوع ، والذل الثاني بكسر الذال ، وبضمة أيضاً - من ذل يذل فهو ذلول بمعنى اللين (٢) في قوله من معلقته :

وَعْدَاةٍ رِيحٍ قَدْ كَشَفَتْ وَرَقَةً إِذْ أَصْبَحَتْ بَيْدَ الشَّمَالِ زِمَامُهَا
القرة : البرد يقول لبيد : كم من غداة تهب فيها الشمال - وهي أبرد الرياح - وبرد قد ملكت الشمال زمامه ، قد كففت عادية البرد عن الناس بنحر الجزر لهم ، وتحرير المعنى : كم من برد كففت غرب عادته بإطعام الناس .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : رَضَا اللهُ فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ ، وَسُخْطُهُ فِي سُخْطِهِمَا . وَرَوَى : يَفْعَلُ الْبَارُّ مَا يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ فَلَنْ يَدْخُلَ النَّارَ ، وَيَفْعَلُ الْعَاقُ مَا يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ فَلَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ : وَقَالَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ : إِنْ أَبَوَى بِلِغَامِ الْكَبِيرِ أَنْ أَلِيَّ مِنْهُمَا مَا وَلِيَا مِنِّي فِي الصَّغَرِ ، فَهَلْ قَضَيْتُهُمَا حَقَّهُمَا ؟ قَالَ : لَا ، فَإِنِهَا كَانَا يَفْعَلَانِ ذَلِكَ وَهُمَا يُحِبَّانِ بَقَاءَكَ ، وَأَنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ وَأَنْتَ تَرِيدُ مَوْتَهُمَا : وَعَنْ خَدِيفَةَ : أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَتْلِ أَبِيهِ وَهُوَ فِي صَفِّ الْمُشْرِكِينَ ، فَقَالَ : دَعُهُ يَلِيهِ غَيْرُكَ . وَسُئِلَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَّاضٍ عَنْ بِرِّ الْوَالِدَيْنِ ، فَقَالَ : أَنْ لَا تَقُومَ إِلَى خِدْمَتَيْهِمَا عَنْ كَسَلٍ ، وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ : أَنْ لَا تَرْفَعَ صَوْتَكَ عَلَيْهِمَا ، وَلَا تَنْظُرَ شَرًّا إِلَيْهِمَا ، وَلَا يَرِيَا مِنْكَ مُخَالَفَةً فِي ظَاهِرٍ وَلَا بَاطِنٍ ، وَأَنْ تَسْتَرْحِمَ عَلَيْهِمَا مَا عَاشَا ، وَتَدْعُوَ لَهُمَا إِذَا مَاتَا ، وَتَقُومَ بِخِدْمَةِ أَوْدَانِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا ، فَعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنْ مِنْ أَبَرِّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وَدِّ أَبِيهِ . . . أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : وَآتَ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ . فَهَذَا تَوْصِيَةٌ بِغَيْرِ الْوَالِدَيْنِ مِنَ الْآقَارِبِ بَعْدَ التَّوَصِيَةِ بِهِمَا ، يَقُولُ سَبْحَانَهُ : آتَوْهُمْ حَقَّهُمْ ، وَحَقَّهُمْ صَلَّتُهُمْ بِالْمُودَةِ وَالزِّيَارَةِ وَحَسَنِ الْمَعَامَرَةِ وَالْمُؤَالَفَةِ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْمُعَاضَدَةِ إِنْ كَانُوا مِيَّاسِيرَ ، وَتَعَهُدُهُمْ بِالْمَالِ إِنْ كَانُوا عَاجِزِينَ عَنِ الْكَسْبِ .

« انظر التفصيلات في كتب الفقه ، وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : إني أريد الغزو ، فقال عليه الصلاة والسلام : أَحْيِ أَبَوَاكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَمِنْهُمَا فَجَاهِدْ . وَسُئِلَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ ابْنِ الْوَالِدَيْنِ ، فَقَالَ : أَنْ تُبَدِّلَ لَهَا مَا مَلَكَتْ ، وَتَطِيعَهُمَا فِيمَا أَمَرَكَ ، مَا لَمْ يَكُنْ مَوْصِيَةً ، وَآيَةُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ

لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعِمُهُمَا، وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ...

ومما يُؤثرُ من أخبار البررة : ما يقول المأمون بن الرشيد : لم أرَ أحداً أبرَّ من الفضل بن يحيى - البرمكى - بأبيه ، بَلَغَ من برِّه به أن يحيى كان لا يتوضأ إلا بماء مُسَخَّنٍ وهما في السجن ، فنههما السجَّانُ من إدخال الحطب في ليلة باردة ، فقام الفضل - حين أخذ يحيى مضجعه - إلى مُقْمَرٍ^(١) كان يُسَخِّنُ فيه الماء ، فلاه ثم أدناه من المصباح ، فلم يزل قائماً وهو في يده حتى أصبح ... وقيل لعل بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم : إنَّكَ من أبرَّ الناس بأهلك ولَسْنَا نَرَاكَ تَأْكُلُ مع أُمِّكَ في صَحْفَةٍ ، قال : إني أخاف أن تَسْبِقَهَا يَدِي إلى شيءٍ سَبَقَتْ عَيْنُهَا إِلَيْهِ فَأَكُونُ قد عَقَقْتُهَا . وقيل لِعُمَرَ بن ذَرٍّ^(٢) - وقد مات ابنه - : كيف كان برُّ أَيْتِكَ بِكَ ؟ قال : ما مَاشَيْتُهُ قَطُّ نهاراً إلا مَشَى خَلْفِي ، ولا ليلاً إلا مَشَى أُمَامِي ، ولا رَقِي سَطْحاً وأنا تحت .

ومما يروى في باب العقوق وأحوال العقيقة : « والعقوقُ ضدُّ البرِّ »

(١) إناؤه من نحاس يسخن فيه الماء (٢) هو عمر بن عبد الله بن ذر بن زرارة بن مسعود الحمداني كان واعظاً بليغاً وعابداً صالحاً وكان ابنه - واسمه ذر - مباركا طيعا له . دخل يوما على ابنه وهو يجود بنفسه فقال : يا بني ، إنه ما علينا من موتك غضاضة - ذل وانكسار وقفور - ولا بنا إلى أحد سوى الله حاجة . فلما مات وصلى عليه وواراه وقف على قبره : وقال : يا ذر ، قد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك ، لانا لا ندرى ما قلت وما قيل لك . اللهم إني وهبت له ما قصر فيه مما افترضت عليه من حق ، فهب له ما قصر فيه من حقه واجعل ثوابي عليه - يريد ثواب صبره - له ، وزدني من فضلك ، إني إليك من الراغبين قال ابن خلكان : وكان عمر المذكور يعد من المرجئة ، وتوفي سنة ١٥٥ هـ

وأصله من العَقِّ وهو الشق والقطع ، يقال عَقَّ الولدُ والدَه يَعُقُّه عَقًّا وعقوقا ومَعَقَّةً : إذا شَقَّ عصا طاعته ، وعَقَّ والدَيه : قطعهما ولم يصل رحمهُ منهما وقد يُعَمُّ بلفظ العقوق جميعُ الرِّجَم ، والولد عاق ، والجمع عَقَقَة ، مثل كَفَرَة « فمن قولهم في العقوق : العقوقُ نُكْلٌ من لا يَشْكُلُ الشكل الموت والهلاك ، وأكثر ما يُسْتَعْمَلُ في فقدان الرجل والمرأة ولدهما ، يعنون أن مَنْ ابتلى بولدٍ عاقٍ فكأنه نُكِلَهُ ، وقال بعضهم لابن له عاقٍ : أنت كالإصْبَعِ الزائدة ، إن تُرِكَتْ شانتُ وإن قُطِعتْ آذت ... وقيل لأعرابيٍّ كيف ابْشُك ؟ - وكان عاقًا - فقال : عَذَابُ رَعِفَ به الدهر ، فَأَلْتَنِي قَدْ أَوْدَعْتُهُ الْقَبْرَ ، فإنه بَلَاءٌ لا يقاومه الصبر ، وفائدة لا يجب فيها الشكر » قوله رَعِفَ به الدهر : يريد تقدم به الدهر وعَجِلَ ،

وأورد أبو العباس المبرد في الكامل هذه الآيات لامرأة يقال لها أم ثواب الهزانية ، في ابنها - وكان لها عاقا - وقد اختارها أبو تمام في حماسه :

رَبَّيْتُهُ وَهُوَ مِثْلُ الْفَرْخِ أَعْظَمُهُ أُمُّ الطَّعَامِ تَرَى فِي رِيشِهِ زَغَبًا
حَتَّى إِذَا آضَ كَالْفُحَّالِ شَذَبَهُ أَبَارُهُ وَنَفَى عَنْ مَتْنِهِ الْكَرْبَا
أَنْشَأَ يُحْرِقُ أَثْوَابِي وَيَضْرِبُنِي أَبْعَدَ سِتِّينَ عِنْدِي يَبْتَغِي الْإِدْبَا
إِنِّي لَا أَبْصُرُ فِي تَرْجِيلِ لِمَتِهِ وَخَطَّ لِحْيَتِهِ فِي وَجْهِهِ عَجَبَا
قَالَتْ لَهُ عِرْسُهُ يَوْمًا لِتُسْمِعَنِي رِفْقًا يَا ابْنَةَ لَنَا فِي أُمْنَا أَرْبَا
لَوْ رَأَيْتَنِي فِي نَارٍ مُسْعِرَةٍ مِنَ الْجَحِيمِ لَزَادَتْ فَوْقَهَا حَطْبَا

« هذه آيات من شعر الفطرة ، تصف في دِقَّةٍ حالَ الابنِ العاقِ يكون ضَلَمَهُ وَهَوَاهُ مع زَوْجِه على أمه ، وكذلك تصف ذلك العداء القديم بين الكَنَّةِ

وَحَمَاتِهَا^(١)، وقولها: أَعْظَمُهُ أُمُّ الطَّعَامِ، وصف للفرخ، ومعناه: أكبر
أَعْضَائِهِ أُمُّ الطَّعَامِ: أى معدته، وكذلك قولها: ترى فى ريشه زغبا: وصف
آخر للفرخ، والزَّغْب: أول ما يبدو من ريش الفرخ، تصف ضعف نشأة
ابنها، وآض: صَارَ، والفُحَّال: خال النخل، أى الذَّكْرُ منه، وأَبَارُهُ: الذى
يصاحبه يقال: أَبَرَّتْ النخل: إذا لَقَّحَتْهُ، وشَدَّ بِهِ: قطع ما عليه من الكرايف
وهى أصول السَّعَفِ الغلاظ التى إذا يَدَبَسَتْ صارت أمثال الأكثاف،
ومتته: فتن كل شيء ماظهر منه، والكرب: ما يبق من أصول السَّعَفِ فى النخل
تريد: حتى إذا بلغ أشده واستوى طوله، وأنشأ: أصله أنشأ، تريد: ابتدأ
وأقبل، وقولها: أبعدستين عندى يبتغى الأدبا، تريد: أنضربه إياها يريد تأديبها
بعد أن بلغت الستين حق منه وعبت منه، إذ من العناء رياضة الهرم، وقولها:
إني لأبصر... البيت، فاللمة: الشعر الذى يلم بالملكب، والترجيل: تسريح الشعر
تصفه بالحسن والجمال، وعرسه: زوجه، وأما... أضاقها إلى نفسها خديعة،
وأربا: حاجة، تريد: لا ينبغي لك أن تهينا... .

وقيل لرجل أبطأ فى الزوج: لَمْ أَبْطَأْتُ؟ فقال: أريد أن أسبق أولادى
فى اليُسْتَم قبل أن يسبقونى فى العقوق...

وأورد المبرد أيضا عن رجل يسمى أبا المِخْش حديثا طريفا قال:
قال أبو المِخْش: كانت لى ابنة تجلس معى على المائدة فتبرز كفا كَأَنها
طَلْعَةٌ، فى ذراع كَأَنها جُمَارَةٌ، فلا تقم عَيْنُهَا على أَكْلَةٍ نفيسة إلا خَصَّتْنى بها

(١) الكنة: امرأة الابن - وامرأة الاخ أيضا - والحماة: أم زوجها؛ قال الشاعر:

إن الحماة أولعت بالكِنَّة وأنت الكِنَّةُ إلا ضِنَّة

فَزَوَّجْتُهَا .. وصار يجلس معي على المائدة ابن ثُلِي ، فَيُسَبِّرُ كَمَا كَانَتْهَا
كَرْنَاقَةً ، فِي ذِرَاعِ كَانَتْهَا كَرَبَةً ، فَوَاللَّهِ إِنْ تَسْبِقُ عَيْنِي إِلَى لُقْمَةٍ طَيِّبَةٍ إِلَّا
سَبَقَتْ يَدُهُ إِلَيْهَا ... « الطَّلْعَةُ فِي كَلَامِ أَبِي الْمَخْشِ هَذَا جَمْعُهَا طَلْعٌ ، وَهُوَ نُورُ
النَّخْلَةِ مَا دَامَ فِي الْكَافُورِ ، وَهُوَ عَاوُهُ الَّذِي يَنْشَقُّ عَنْهُ ، وَالْجَمَارَةُ : شَجْمَةُ النَّخْلَةِ
الَّتِي إِذَا قُطِعَتْ رِقَّةُ رَأْسِهَا ظَهَرَتْ كَأَنَّهَا قِطْعَةُ سَنَامٍ ، وَالْكَرْنَاقَةُ : طَرْفُ
الْكَرْبَةِ الْعَرِيضِ الَّذِي يَتَّصِلُ بِالنَّخْلَةِ كَأَنَّهُ كَتْفٌ ، وَقَوْلُهُ : إِنْ تَسْبِقُ عَيْنِي
فَإِنْ نَافِيَةٌ بِمَعْنَى مَا ،

وَأُورِدَ أَبُو تَمَامٍ فِي بَابِ الْمَجَاءِ مِنْ حِمَايَتِهِ لِأَحَدِ الشُّعْرَاءِ أَيْتَاتُهَا قِصَّةٌ
فِيهَا اعْتِبَارٌ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْتَبِرَ مِنْ عَقَقَةِ الْإِبْنَاءِ ، وَإِلَيْكَ هَذِهِ الْقِصَّةُ وَالْآيَاتُ :
كَانَ فِي زَمَنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ رَجُلٌ يُسَمَّى مُنَازِلَ بْنَ فُرْعَانَ ، وَكَانَ
لِمُنَازِلٍ هَذَا ابْنٌ يُقَالُ لَهُ خَلِيجٌ - وَهُوَ مِنْ رَهْطِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ - فَمَقَّ
خَلِيجٌ أَبَاهُ مُنَازِلًا ، فَقَدَّمَهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَرَبِيٍّ ، وَالْيَمَامَةِ ، مُسْتَعْدِيًا
عَلَيْهِ - وَقَالَ :

تَظَلَّمَنِي حَقِّي خَلِيجٌ وَعَقَّتَنِي عَلَى حِينٍ كَانَتْ كَالْحَنِيِّ عِظَامِي ^(١)
لَقَمَرِي لَقَدْ رَيْنَتْهُ فَرِحًا بِهِ فَلَا يَفْرَحُنْ بَعْدِي أَمْرٌ وَبُغْلَامُ
وَكَيْفَ أَرْجِي النِّفْعَ مِنْهُ وَأُمُّهُ حَرَامِيَّةٌ ؟ مَا غَرَّنِي بِحَرَامِ ^(٢)
وَرَجَّيْتُ مِنْهُ الْخَيْرَ حِينَ اسْتَزَدْتُهُ وَمَا بَعْضُ مَا يَزْدَادُ غَيْرَ غَرَامِ ^(٣)

(١) كَانَتْ كَالْحَنِيِّ عِظَامِي : أَيُّ كَانَتْ عِظَامِي كَالْحَنِيِّ ، وَهُوَ جَمْعُ حَنِيَّةٍ ، وَهِيَ الْقَوْسُ ،
لِأَنَّهَا حَنِيَّةٌ ، أَيُّ مَعْطُوفَةٌ

(٢) حَرَامِيَّةٌ : نِسْبَةٌ إِلَى حَرَامٍ وَهِيَ قَبِيلَةٌ

(٣) الْغَرَامُ هُنَا : الْعَذَابُ وَالشَّرُّ الدَّائِمُ وَالْبَلَاءُ الَّذِي لَا يَسْتَطَاعُ أَنْ يَتَفَصَّى مِنْهُ قَالَ
تَعَالَى : إِنْ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا : أَيُّ هَلَاكَ دَائِمًا مَلْحًا

فأراد إبراهيم بن عَرَبِي ضَرْبُهُ ، فقال : أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ ، لَا تَعْبَلْ عَلَى
أَنُعرف هذا ؟ قال : لا ، قال : هذا مُنَازِلُ ابنِ فُرعان ، الذي عَقَّ أباه ، وفيه
يقول أبوه :

جَزَتْ رَحِمٌ بَيْنِي وَبَيْنَ مُنَازِلٍ	جَزَاءً كَمَا يَسْتَنْزِلُ الدِّينَ طَالِبُهُ ^(١)
لَرَبِّيْتُهُ حَتَّى إِذَا آضَ شَيْطَمًا	يَكَادُ يُسَاوِي غَارِبَ الْفَحْلِ غَارِبُهُ ^(٢)
فَلَمَّا رَأَى أَبْصَرَ الشَّخْصَ أَشْخَصًا	قَرِيبًا وَذَا الشَّخْصَ الْبَعِيدَ أَقَارِبُهُ ^(٣)
تَغَمَّدَ حَقِّي ظَالِمًا وَلَوْ يَدِي	لَوْ يَدُهُ اللهُ الَّذِي هُوَ غَالِبُهُ ^(٤)
وَكَانَ لَهُ عِنْدِي إِذَا جَاعَ أَوْ بَكَى	مِنْ الزَّادِ أَحْلَى زَادِنَا وَأَطَابِيهِ
وَرَبِّيْتُهُ حَتَّى إِذَا مَا تَرَكَتُهُ	أَخَا الْقَوْمِ وَأَسْتَعْنَى عَنِ الْمَسْحِ شَارِبُهُ ^(٥)
وَجَمَعْتُهَا دُفْمًا جِلَادًا كَأَنَّهَا	أَشَاءُ نَحْيِي لَمْ تُقَطَّعْ جَوَانِبُهُ ^(٦)

(١) يدغو على ابنه منازل ، وجعل فعل الجزاء للرحم والجازى هو الله سبحانه
يقول : جرى الله منازل على الرحم أى القرابة التى بينى وبينه - فقد قطعها - جزاء
يستوفى له وعليه ، كما يستنزل صاحب الدين حقه من المدين

(٢) الشيطم : الطويل ، ولريته : جواب قسم انطوى عليه الكلام ، وريته وريته
وتريته وريته تريبا : بمعنى واحد ، وآض : صار ، وأصل الغارب فى الإبل - وهو
ما يكون قدامه السنام - ثم استعير حتى قيل لأعلى كل شيء : غوارب ، يقول : إنه رباه
حتى بلغ مبلغ الرجال

(٣) قريبا : حال ، والمعنى : أبصر الشخص مقاربا ، أى أبصره وأما قريب منه - أشخصا ،
وأقاربه : أظنه قريبا ، يقول : لما رأى شيئا كبيرا ضعف نظره واختلفت مواقع

بصارته حتى يرى الشخص القريب منه شخصا ويرى الشخص البعيد منه قريبا
(٤) تغمد حتى : ستره وأخفاه ، وقوله : ولوى يدي : أى قتلها وأزالها عن
حالتها وهيئتها

(٥) أخا القوم : قال الإمام التبريزى : نصب أخا القوم على الحال من الهاء فى
تركته ، وجاز كونه حالا وإن كان معرفة فى اللفظ لأنه لا يعنى قوما بأعيانهم وإنما
يريد تركته قويا لاحقا بالرجال (٦) وجمعها : الضمير إلى الخيل وإن لم

فَأَخْرَجَنِي مِنْهَا سَلِيلًا كَأَنِّي حُسَامُ يَمَانٍ فَارَقْتُهُ مَضَارِبُهُ ^(١)
 إِنَّ أُرْعِشْتَ كَفَا أَيْكَ وَأَصْبَحْتَ يَدَاكَ يَدَيَّ لَيْتَ فَإِنَّكَ ضَارِبُهُ ^(٢)
 فقال الوالى : يا هذا ، عَقَقْتُ قَعَقَقْتُ ، فما لكَ مَثَلًا إِلَّا قَوْلُ خَالِدٍ
 لِأَبِي ذُؤَيْبٍ :

فَلَا تَجْزَعَنَّ مِنْ سِيرَةٍ أَنْتَ سِرَّتَهَا فَأُولُ رَاضِي سِيرَةٍ مَنْ يَسِيرُهَا
 قال الإمام التبريزى : وذلك أن أبا ذُؤَيْبٍ ^(٣) هذا كان غلاما ، وكان
 لِرَجُلٍ صَدِيقَةً ، فكان الرجل يبعث أبا ذُؤَيْبٍ إلى صديقته بالرسائل ، فلما
 ترعرع أبو ذُؤَيْبٍ كَسَرَهَا على الصديق - يريد أفسدها وأمالها عنه إليه - ،
 ولما تَرَجَّلَ أبو ذُؤَيْبٍ - يريد صار رجلا - مُنِعَ مِنْهَا وَحُجِبَتْ عَنْهُ
 وَحُجِبَ عَنْهَا ، فكان يبعث خالدا إليها بالرسائل ، وخالد يومئذ
 غلام ، فلما ترعرع خالد كَسَرَهَا على أبي ذُؤَيْبٍ ، فقال أبو ذُؤَيْبٍ يعنف
 المرأة :

تُرِيدِينَ كَيْ تَجْمَعِينَى وَخَالِدَا وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْفَانِ وَيُنْحَكُ فِي غَيْدٍ
 وجعل يؤنب خالدا ، فقال خالد :

يذكرها وهذا أسلوب معروف لهم ، ودعما : جمع أدم ، وهو الأسود ، وجلادا : صلابا ،
 والأشياء بالفتح والمد : صغار النخل وقيل النخل عامة واحدة أشاة (١) السليب : الذى سلب
 ماله ، استعاره من الشجر يسلب ورقه ويعزى منه ، والمضارب : جمع مضرب : حد السيف ،
 يقول : لما جمعت من الخيل الدم الجلاد ما جمعت وأعددتها لى وله ، عدا على بعد
 أن ريته وبلغ مبلغ الرجال وجردنى من الخيل وتركنى سليبا ، فأشبه حال السيف
 اليمان القاطع تفلل حده (٢) أرعشت كفا أيك : يريد : أبعد أن كبر أبوك وبلغ
 من الكبر عتيا وأصبحت أنت شابا قويا ، تجترئ عليه وتمينه وتضربه

(٣) أبو ذُؤَيْبٍ هذا هو الشاعر أبو ذُؤَيْبٍ الهذلى ، وخالد هو ابن أخته ، والمرأة
 هى امرأة رجل يقال له عبد عمرو بن عامر من بنى عامر بن صعصعة ، انظر أمثال
 الميبدانى فى شرحه هذا المثل ، ولا تجزعن من سيرة أنت سرتها ، ،

فلا تَجْزَعَنَّ مِنْ سِيرَةٍ أَنْتَ سِرْتَهَا البيت
 ولأُمَيَّةَ بنِ أَبِي الصَّلْتِ الشاعرِ الجاهلي ^(١) أبياتٌ حسانٌ يشكو فيها هو
 الآخرُ ابنه الذي عَقَّه وأساءَ إليه : وقد اختارها أبو تمام في حماسه قال :
 غَذَوْتُكَ مَوْلودًا وَعُلائِكَ يَابِغًا تُعَلُّ بِمَا أُذْنِي إِلَيْكَ وَتُنْهَلُ ^(٢)
 إِذَا لَيْلَةٌ نَابَتْكَ بِالشَّكْوِ لَمْ أَبْتَ إِشْكُوكَ إِلَّا سَاهِرًا أَتَمَلُّ ^(٣)
 كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي طُرِفْتَ بِهِ دُونِي وَعَيْنِي تَهْمَلُ ^(٤)
 فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِي إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ فِيكَ أَوْمَلُ
 جَعَلْتُ جِزَائِي مِنْكَ جَبْهًا وَغُلْظَةً كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمُتَمِيزُ الْمُتَفَضَّلُ ^(٥)

(١) اسمه عبد الله بن ربيعة بن عوف من بني بكر بن هوازن . وكان ممن حزم
 الخزفي الجاهلية ورفض عبادة الأوثان والتمس الدين وطمع في النبوة فلما بعث سيدنا
 رسول الله صلى الله عليه وسلم حسده وقال : إنما كنت أرجو أن أكونه

(٢) وعلائك : من عال عياله يعولهم : كفاهم معاشهم ، ويروى : ومثلك ، من مان
 أهله يموئهم مونا : أنفق عليهم ، ويافعا : شابا ، من أيفع الغلام مثل أبقل الموضع فهو
 باقل وأورق النبت فهو وارق وأورس فهو وارس وأقرب فهو قارب : إذا
 قربت إليه من الماء ليلا ، وكلهن فزادر ، وتعل من عله يعله : سقاه ثانية ، وتهل من
 أنهل : سقاه أول سقية ، يريد ، إطعامه وسقيه مرة بعد أخرى
 (٣) الشكو : المرض نفسه قاله الليث وأنشد :

أَخِي إِنْ تَشَكَّى مِنْ أَذَى كُنْتُ رَطِبُهُ وَإِنْ كَانَ ذَاكَ الشَّكْوُ بِي فَأَخِي طِبِّي
 وأتملل : يريد يتقلب على فراشه من غمه عليه : قال اللغويون : إذا نبا بالرجل
 مضجعه من هم أو وصب قيل قد تملل ، وأصله أتملل ، من الملة وهي الرماد الحار يدفن
 فيه الخبز لينضج كأن المتقلب على فراشه من الهم يتقلب على تلك الملة

(٤) المطروق من طرقه الهم يطرقه - بالضم - طرقا : أتاه ونزل به ، مجاز من طرق
 القوم : جاءهم ليلا ، وتمل : تسيل وتفيض وقد هملت عينه تهمل - بالضم والكسر -
 هملا وهملانا : سالت وفاضت (٥) جبها مصدر جبها بالمكروه : استقبله به ،
 وذلك مجاز من جبها : صك جبته . ويروى : جعلت جزائي غلظة وفضاظة

فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرَ حَقَّ أَبِي قَتْلَكَ كَمَا الْجَارُ الْمُجَاوِرُ يَفْعَلُ^(١)
وَسَمَّيْتَنِي بِاسْمِهِ الْمُنْفَذِ رَأْيُهُ وَفِي رَأْيِكَ التَّفْنِيدُ لَوْ كُنْتَ تَعْقِلُ^(٢)
تَرَاهُ مُعِدًّا لِلْخِلَافِ كَأَنَّهُ بَرَدٍ عَلَى أَهْلِ الصَّرَابِ مُوَكَّلٌ^(٣)

* * *

ومن المستطرف من أقوالهم في الأولاد المتخلفين : ما يُروى أن رجلاً
بعث ابنه لِيَشْتَرِيَ حَبْلًا ، فقال له : أَجْعَلُهُ عَشْرِينَ ذِرَاعًا ، فقال الولدُ :
فِي عَرَضٍ كَمْ ؟ قال : فِي عَرَضٍ مُصِيبَتِي فِيكَ .. وكان لأبي العباس المبرِّدُ
صاحبُ الكامل ابنُ مُتَخَلِّفٍ ، فَيَقِيلُ لَهُ يَوْمًا : غَطَّ سَوْءَ تَعَالَى ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى
رَأْسِ ابْنِهِ .. وَقِيلَ لَصَبِي : لِمَ لَا تَتَعَلَّمُ الْآدَبَ ؟ فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَكْذِبَ
وَالِدِي ، لِأَنَّهُ قَالَ لِي : إِنَّكَ لَا تَقْلُحُ أَبَدًا ...

* * *

هذا وكما أن لوالدك عليك حقًا كذلك لولدك عليك حقٌّ : وما ورد
في ذلك ما جاء في الحديث : مَنْ حَقَّ الْوَلَدُ عَلَى الْوَالِدِ أَنْ يُحْسِنَ آدَبَهُ ، وَأَنْ
يُعِفَّهُ إِذَا بَلَغَ . « أَنْ يُحْسِنَ آدَبَهُ : أَنْ يُعْنِيَ تَرْبِيَتَهُ وَتَهْذِيبَهُ وَتَعْلِيمَهُ ،
وَأَنْ يُعِفَّهُ : أَيْ يَعْمَلْ عَلَى أَنْ يَكُونَ عَفَاً عَنِ الْحَرَامِ فِي زَوْجِهِ » ... وقال حكيم
مَنْ آدَبَ وَلَدَهُ صَغِيرًا ، سُرَّ بِهِ كَبِيرًا ، وَقَالُوا : مَنْ آدَبَ وَلَدَهُ ، أَرْغَمَ حَاسِدَهُ .
وَمَنْ آدَبَ الْإِسْلَامَ : إِذَا بَلَغَ أَوْلَادُكُمْ سَبْعَ سِنِينَ فَفَرُّوهُمْ بِالطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ
وَإِذَا بَلَغُوا عَشْرًا فَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا ، وَإِذَا بَلَغُوا ثَلَاثَةَ عَشْرٍ فَقَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي
الْمُضَاجَعِ ؛ وَمِنْ كَلَامِهِمْ : لَا عِيَّ ابْنُكَ سَبْعًا وَعَلَّمَهُ سَبْعًا وَجَالَسَ بِهِ إِخْوَانَكَ

(١) كما الجار المجاور يفعل : أي كما يراعى الجار حق الجوار من الوفاء به

(٢) المنفذ رأيه : اسم مفعول من فند رأيه : خطأه (٣) معدا : اسم فاعل ،

أعد الأمر عدته : هياه له

سبعاً يَتَّبِعَنَّ لَكَ أَخْلَافٌ هُوَ بَعْدَكَ أَمْ خَلْفٌ « الْخَلْفُ - بفتح اللام : الولد الصالح ، والخلف - بسكونها : الطالح ، تقول : أعطاك الله خَلْفاً مما ذهب لك ولا تقل خَلْفاً ، وتقول أنت خَلْفٌ سَوْءٌ من أبيك ، هذا هو الاعرف عند أهل اللغة ^(١) ، وقال رجل لأبيه . يا أبت ، إن عَظِيمَ حَقِّكَ عَلَى لَا يُذْهِبُ صَغِيرَ حَقِّي عَلَيْكَ ، وإن الذي تَمُتُّ بِهِ إِلَى أُمْتٍ بِمِثْلِهِ إِلَيْكَ ، ولستُ أَرْعَمُ أَنَا عَلَى سِوَاهُ ، ولكن لا يَحِلُّ الاعتداء ...

وقالوا : إِنَّ الْوَلَدَ الْبَارَّ أَبَرُّ مِنَ الْوَالِدِ ، لِأَنَّ رِءَ الْوَالِدَيْنِ طَبِيعَةٌ ، وَرِءَ الْوَلَدِ وَاجِبٌ ، وَالوَاجِبُ أَبَدًا ثَقِيلٌ ، وَلَعَلَّ الْمُنْبِيَّ يَنْظُرُ إِلَى هَذَا الْمُنَى إِذَا يَقُولُ :

إِنَّمَا أَنْتَ وَالِدٌ وَالْأَبُ الْقَا طَعُ أَخِيَّ مِنْ وَاصِلِ الْأَوْلَادِ

ومما يستطرف في هذا الباب ما يروى من احتجاج بعض العققة لعقوقهم : فقد قيل لبعض الفلاسفة : لِمَ تَعُقُّ وَالِدَيْكَ ؟ قال : لِأَنَّهُمَا أَخْرَجَانِي إِلَى السَّكُونِ وَالْفَسَادِ ... وَضَرَبَ رَجُلٌ أَبَاهُ ، فَقِيلَ لَهُ : أَمَا عَرَفْتَ حَقَّهُ ؟ قال : لَا ، لِأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ حَقِّي ، فَيَسَلُ : فَمَا حَقُّ الْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدِ ؟ قال : أَنْ يَتَخَيَّرَ أُمَّهُ ، وَيُحَسِّنَ اسْمَهُ ، وَيُخْتِنَهُ ، وَيُعَلِّمَهُ الْقُرْآنَ ، ثُمَّ كَشَفَ عَنْ عَوْرَتِهِ فَإِذَا هُوَ أَقْلَفٌ - لَمْ يُخْتَنَ - وقال : اسْمِي بُرْغُوث ... وَلَا أَعْلَمُ حَرْفًا مِنَ الْقُرْآنِ ، وَقَدْ اسْتَوَلَدَنِي مِنْ زَنْجِيَّةٍ ... فَقِيلَ لِلْوَالِدِ : احْتَمَلْهُ ، فَإِنَّكَ تَسْتَأْهِلُ ...

(١) قال الله عز وجل : خَلْفٌ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ، وَقَالَ لِيَد :

ذهب الذين يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرِبِ

وعبر رجل ابنه بأمه، فقال الابن: هي والله خير لي منك، لأنها أحسنت الاختيار فولدتني من حُرٍّ، وأنت أسأت الاختيار فولدتني من أمّة ... وقال رجل لابنه: ما أطيب الشُّكل يا بُنَيَّ! فقال الابن: اليُسْمُ أطيب منه يا أبت! وقيل لبعضهم: أيُّ ولدك أحبُّ إليك؟ قال: صَغيرُهم حتى يكبُرَ، ومَرَبُضُهم حتى يَبْرَأَ، وغائِبُهم حتى يَقْدَمَ ...

وأقول: وإنما قال صغيرهم حتى يكبر، لأن كبير الأولاد في العادة قلما يظفر من حب أبيه بمثل ما يظفر به الصغير، وقد قالوا في ذلك ما بين عن السبب، وهو ما روى أن رجلاً من العرب رأى بنه يثبون على الخيل وقد تنادوا بالغارة، فذهب يروم ذلك مرة وثانية فلم يقدر، فقال: من سرّه بنوه ساءت نفسهُ ... وفي ضدّ هذا المعنى يقول أكنم بن صيفي حكيم العرب:

إِنَّ بَنِيَّ صَيْفِيَّةٌ صَيْفِيُّونَ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ رِبْعِيُّونَ
 يقال أضاف الرجل يُصِفُ إضافةً: إذا لم يُولَدْ له حتى يُسَنَّ وَيَكْبَرَ
 وأولاده صَيْفِيُّونَ، والواحد صَيْفِيٌّ، والرَّبْعِيُّونَ: الذين وُلِدُوا في حدائِته
 وأول شبابه، ولما حضرت سليمان بن عبد الملك الوفاة تمثّل بهذا البيت
 لأنّه لم يكن في أبنائه من يُقلِّده العهد بعده، ومعنى ذلك عندهم: أن الأولاد
 الكبار أفضل من الصغار لدى الوالد، ولا سيما إذا كَبُرَ. وهذا على نقبض
 قول القائل: من سرّه بُنُوهُ ساءت نفسُهُ، وإن كان لكل وجه هو مولّيها،



وناول عمر بن الخطاب رجلاً شيئاً فقال له: خَدَمَكَ بنوك، فقال عمر:
 يَلِ أَغْنَانَا اللهُ عَنْهُمْ.

وكان يقال : ابْنُكَ رَيْحَانُكَ سَبْعًا ، وخادُمُكَ سَبْعًا ثم عدوُّ أو صديقٌ ...

وفي الآخر : رِيحُ الولدِ من رِيحِ الجنة ...

وكان رسول الله يُقَبِّلُ الحسنَ بْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وهو حفيد المصطفى - يوما ، فقال الأقرعُ بْنُ حَابِسٍ : إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنَ الأولادِ مَأْتِمَاتٍ واحداً منهم ، فقال رسول الله : فما أصنع إن كان الله تَزَعِ الرحمةَ من قلبك !

ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا مات الرجل انقطع عمله ، إلا من ثلاث : صَدَقَةٍ جارية ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أو وَلَدٍ صَالِحٍ يدعوه له . وقالوا : خيرُ ما أُعْطِيَ الرجلُ بعدَ الصحةِ والأمنِ والعقلِ وَلَدٌ مُوَافِقٌ من زوجةٍ موافقةٍ * وَمُتَعَةٍ العَيْشِ بين الأهلِ والولدِ *

وكانت العربُ تُسَمِّي مَنْ لا وَلَدَ لَهُ صُنْبُورًا ، والصُنْبُورُ في اللغةِ : الأَبْرُ لا عَقِبَ لَهُ ولا أَخٌ ، فإذا مات انقطع ذِكْرُهُ وكان كَفَّارُ قُرَيْشٍ يُطْلَقُونَ على رسول الله : صُنْبُورًا ، فأنزل الله : إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ « شَانِئَكَ : مبغضك ، والأبتر الذي لا عقب له » ...

وقال حكيم في مَيِّتٍ : إن كان له ولد فهو حَيٌّ وإن لم يكن له وَلَدٌ فهو مَيِّتٌ

ومن أمثال العرب : أَبْنُكَ ابْنُ بُوْحِكَ « أى ابنُ نَفْسِكَ لا من تَبَنَيْتَهُ ، ومثله : وَلَدُكَ مَنْ دَمِي عَقِيْبُكَ » يعنون : الذى نَفَسْتُ بِهِ فادَمَى النَفَاسُ عَقِيْبُكَ ، أى : ابْنُكَ من وَلَدَتِهِ لا من تَبَنَيْتَهُ ، وقيل لحكيم : ما السَّعادة ؟ قال : أن يكون للرجل ابنٌ واحدٌ ، فقليل له : الواحدُ يُخْشَى عليه الموتُ ! قال : لَمْ تَسْأَلُونِي عن الشقاوة ...

وهناك فريقٌ من الناس يذهبون إلى ذمِّ الولد وقلة جدّواه : وما يروى في هذا الباب أنه قيلَ لبعض الزهاد : هَلَّا تزوّجت ؟ فربما يكون لك خَلْفٌ ؟ فقال : كفى بالزهيد فيه قوله تعالى : إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ؛ وقوله سبحانه وتعالى : إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ... وقالوا : قِلَّةُ العيالِ أحدُ اليسارين ، وقال المتنبي :

وما الدهرُ أَهْلٌ أن يُؤمَلَ عنده حَيَاةٌ وأن يُشتاقَ فيه إلى النّسلِ
هَلِ الولدُ المَحْبُوبُ إِلَّا تَبَعَلَةٌ

وهلْ خَلْوَةُ الحَسَنَاءِ إِلَّا أذى البَعْلِ (١)

وقد ذُكِرَتْ خَلْوَاءُ البنينَ على الصّبا فلا تحسبني قلتُ ما قلت عن جهلٍ
وقال المَعْرِي - وهو إمام السّاخطين ، « أو المتشائمين كما يقولون اليوم » - :

أَرَى وَلَدَ الْفَقِي عَيْبًا عَلَيْهِ لَقَدْ سَعِدَ الَّذِي أَخْضَى عَقِيمًا
فَإِمَّا أَنْ يُرَبِّيَهُ عَدُوًّا وَإِمَّا أَنْ يُخَلِّفَهُ يَتِيمًا
وَإِمَّا أَنْ يُصَادِفَهُ حِمَامٌ فَيَسْقِي حُزْنَهُ أَبَدًا مُقِيمًا

وَبُشِّرَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ بِابْنٍ فَقَالَ : لَا مَرْحَبًا بِمَنْ إِنْ كُنْتُ غَنِيًّا أَذْهَلَنِي ،
وَإِنْ كُنْتُ فَقِيرًا أَتَعْبَى ، لَا أَرْضَى كَدِّي لَهُ كَدًّا ، وَلَا سَمِيَّ لَهُ فِي الْحَيَاةِ
سَعِيًّا ، أَهْتَمُّ بِفَقْرِهِ بَعْدَ وَفَاتِي ، حِينَ لَا يَنَالُنِي بِهِ سُرُورٌ ، وَلَا يُهِمُّهُ لِي حُزْنٌ ،
وَأَصْحَرُ الْحَسَنُ يَوْمًا - أَيِ ذَهَبَ إِلَى الصَّحْرَاءِ - فَرَأَى صَيَّادًا فَقَالَ : مَا أَكْثَرُ

(١) تبعة : يقال : فلان يعمل نفسه بتبعة : أي لهاها به كما يعمل الصبي بشيء من الطعام يتجزأ به عن اللبن . يقول : إن السرور بالولد المحبوب لا يدوم وإنما هو تعليل إلى وقت ، ثم قال : وخلوتك بامرأتك أذى لك في الحقيقة لأنها تجلب لك ولدًا تعتم من أجله وتتأذى بتربيته وربما كانت العاقبة إلى الشكر

ما يَقَعُ فِي شَبَكَتِكَ؟ قَالَ: كُلُّ طَيْرٍ زَاقٍ «أَيُّ يَزُقُّ أَفْرَاخَهُ أَيْ يُطْعِمُهَا
بِفِيهِ»، فَقَالَ الْحَسَنُ: هَلَكَ الْمُعِيلُونَ «أَيُّ الَّذِينَ لَهُمْ عِيَالٌ كَثُرَ»،
وَقَالَ الْمُصْطَافِي صَلَّي اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَحَدِ ابْنَيْ بِلْتِهِ: إِنَّكُمْ لَتُجَبِّنُونَ
وَأَنْتُمْ لَتُجْلُونَ وَأَنْتُمْ لَمِنْ رِيحَانِ اللَّهِ، وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا: الْوَلَدُ مَجْبَنَةٌ
مَجْهَلَةٌ مَبْخَلَةٌ.. «يَقُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ الْوَلَدَ يَحْمِلُ أَبَاهُ عَلَى الْجَبَنِ، فَلَا
يُجَاهِدُ وَلَا يَشْجَعُ، لِأَنَّهُ يُحِبُّ الْبَقَاءَ لِأَجْلِهِ، وَعَلَى الْجَهْلِ، بِمُلَاعَبَتِهِ إِيَّاهُ
وَنُزُولِهِ إِلَى مُسْتَوَاهُ، وَتَرْكِ الْعَقْلِ وَمُقْتَضَاهُ، أَوْ بَاشْتِغَالِهِ بِهِ عَنْ طَلَبِ الْعِلْمِ،
وَعَلَى الْبُخْلِ، لِأَنَّهُ يُبْقِي عَلَى الْمَالِ لِأَجْلِهِ وَيَبْخُلُ بِهِ وَيَشْخُ»..



وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي الْإِشْفَاقِ عَلَى الْأَوْلَادِ: فَوَلُ حِطَّانَ بْنِ الْمُعَلَّى - وَهُوَ
شَاعِرٌ إِسْلَامِي، وَأَيَّاتُهُ هَذِهِ فِي الْحَاسَةِ -:

أَنْزَلَنِي الدَّهْرُ عَلَى حُكْمِهِ مِنْ شَاخٍ عَالٍ إِلَى خَفِضٍ
وَعَالَنِي الدَّهْرُ بِوَفْرِ الْغِنَى فَلَيْسَ لِي مَالٌ سِوَى عِرْضِي
أَبْكَانِي الدَّهْرُ وَيَا رَبِّمَا أَتَحَكَّنِي الدَّهْرُ بِمَا يُرْضِي
لَوْلَا بُبَيَّاتُ كَرْغِبِ الْقَطَا رُدِدَنَ مِنْ بَعْضٍ إِلَى بَعْضٍ
لَكَانَ لِي مُضْطَرَبٌ وَاسِعٌ فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ
وَأَمَّا أَوْلَادُنَا يَبْنِيَانَا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ
لَوْ هَبَّ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ لَامْتَمَتَ عَيْنِي مِنَ الْقُمْضِ
«أَنْزَلَنِي الدَّهْرُ عَلَى حُكْمِهِ: أَنْزَلَهُ مِنَ الْعِزَّةِ إِلَى الذَّلَّةِ يَحْكُمُ فِيهِ بِمَا شَاءَ»
وَمِنْ شَاخٍ: مِنْ جَبَلٍ شَاهِقٍ طَوِيلٍ فِي السَّمَاءِ، وَإِلَى خَفِضٍ: إِلَى مَطَامِنٍ مِنَ
الْأَرْضِ، وَهَذَا تَمْثِيلٌ. وَعَالَنِي الدَّهْرُ: أَخَذَهُ غِيْلَةً مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرُ، وَبَوَفَرِ

الغنى : يريد : فى كثرة ماله ، وقوله : فليس لى مال سوى عرضى يريد : لم يبق له الدهر شيئا إلا أنى عليه سوى عرضه فلم ينتقصه . والعرض : قال ابن الأثير : موضع المدح والذم من الإنسان سواء كان فى نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره ، وقيل : هو جانبه الذى يصونه من نفسه وحسبه ويحامى عنه أن يُنتقص ويُتَلَبَّ ، وقال أبو العباس ثعلب : إذا ذكر عرض فلان فعناه أموره التى يرتفع أو يسقط من جهتها بحمد أو بدم ، فيجوز أن تكون أمورا يوصف هو بها دون أسلافه ويجوز أن تذكر أسلافه لتلحقه النقيصة بعيهم وقول الشاعر :

❖ وَأَذْرِكُ مَيْسُورَ الْغَنَى وَمَعْنَى عَرْضَى ❖ أى أفعالى الجميلة

وقوله : بما يرضى : أى أضحكنى أحيانا بما يرضينى . وقوله : كزغب القطا : واحدتها زغباء والذكر أزغب والصدر الزغب ، وهو أول ما يبدو من ريش الفرخ ، وكذا من شعر الصبي ، وقوله : رُدِّدْنِ من بعض إلى بعض : تصوير لهيئة تداخل الأفراخ وانضمام بعضهن إلى بعض أول نشأتهم ، يصف بناته بأنهن ضعاف لا يستطعن القيام بشؤونهن . ومضطرب : أى اضطراب ، أى تحرك . وأكبادنا : تمثيل لمعنى الشفقة عليهن ، وقد بينها بقوله : لو هبت الريح ... البيت ... والغمض بضم الغين : النوم ،

❖ ❖ ❖

ويقول إسحاق بن خلف ^(١) - من شعراء الدولة العباسية - فى بنت أخت له

(١) ترجم له صاحب الأغاني وإسحق هذا هو الذى يقول فى صفة السيف :

أَلْقَى بِجَانِبِ خَضْرِهِ أَمْعَى مِنَ الْأَجْلِ الْمَتْنَحِ
وَكَأَنَّمَا ذُرُّ الْهَبَا عَلَيْهِ أَنْفَاسُ الرِّيحِ

=

تسمى أئيمة كان حديبا عليها كلفا بها ، وهى من أبيات الحماسة :

لولا أئيمَةُ لم أَجَزْعُ من العَدَمِ ولم أَفَاسِ الدُّجَى في حِنْدِسِ الظُّلَمِ
وزادنى رَغْبَةً في العَيْشِ مَعْرِفَى ذُلَّ اليَقِيمَةِ يَجْفُوها ذُورُ الرَّحِمِ
أَحَازِرُ الْفَقْرَ يَوْمًا أَنْ يُلِمَ بها فَيَهْتِكَ السَّيْرَ عن لَحْمٍ على وَضَمِ
تَهْوَى حَيَاتِي وَأَهْوَى مَوْتَهَا شَفَقًا

وَالْمَوْتُ أَكْرَمُ نَزَالٍ عَلَى الْحَرَمِ

أَخَشَى فَظَاظَةَ عَمٍّ أَوْ جَفَاءَ أَخٍ

وَكُنْتُ أُبْقِي عَلَيْهَا مِنْ أَذَى الْكَلِمِ

«العَدَمُ: الفقر، وقوله: فهتك السر، فالهتك: جذبك السر تقطعه من موضعه

أو تشق منه جزءا فيبدو ماوراءه ، وإسناده إلى الفقر مجاز ، وقوله عن لحم على وضم ، فالوضم : ما وضع عليه اللحم من خشب ونحوه ، وكانت العرب في باديتها إذا نُحِرَ بغير لِّلْحَىِّ يَقْتَسِمُونَهُ ، تقلع شجراً وتضع عليه اللحم مُقْطَعاً يأخذ منه كل شريك قِسْمَهُ ولم يَعْرِضْ له أحد ، وكانت تضرب المثل في

== وهو الذى يقول فى مدح العربية من أبيات :

النحو يبسط من لسان الآلكن والمرءُ تَكَرَّمُهُ إِذَا لم يَلْحَن

قال المبرد : وأحسبه أخذ قوله : والمرء تَكَرَّمُهُ إِذَا لم يَلْحَن من حديث حدثنا به عن الأصمعي قال : كان يقال : ثلاثة يحكم لهم بالنبل لا يدري من هم : رجل رأته راكبا في شارة حسنة ، أو سمعته يعرب ، أو شممت منه طيبا . وثلاثة يحكم عليهم بالاستصغار حتى يدري من هم : رجل شممت منه رائحة نبيذ في محفل ، أو سمعته في مصر عربي يتكلم بالفارسية - أو الفرنسية أو الانكليزية أو غيرهما من اللغات - ورجل رأته على ظهر طريق ينازع في القدر .. ما أطيب هذا الكلام وأسماء وألقه بأخلاق السادة ..

ضعف النساء وقلة امتناعهن على طُلابهنَّ إِلَّا أَنْ يَدَّعْنَهُنَّ ، بذلك اللحم مادام مع الوضوء .
 وقوله : شفقًا ، أى خيفة ، وقد شفق يشفق - بالفتح - وأشفق عليه يشفق :
 خاف ، وقوله : والموت أكرم نزال على الحُرْم ؛ فالحرم ، جمع حُرمة ، وهى
 عيال الرجل ونساؤه ، يريد : أن الموت أكرمُ ضيف ينزل عليهن ، وفى هذا
 المعنى قولهم .. دَفَنُ البنات ، من المَسْكُرات ، وسيمر عليك كلامهم فى هذا المعنى
 فى باب النساء ، وقوله : وكنت أبقي عليها : من أبقيت عليه : إذا أُرغيت عليه
 ورحمته ... وقال عمرانُ بنُ حِطَّان - وقد كان رأسَ القَعْد من الصُّفْرىة
 « طائفة من الخوارج ، وكان خطيبهم وشاعرهم ، وهو من التابعين - :

أَقْدَزَادَ الْحَيَاةِ إِلَى حُبًّا بَنَاتِي أَنَّهُنَّ مِنَ الضَّعَافِ
 مَحَاقَّةَ أَنْ يَرَيْنَ الْبُؤْسَ بَعْدِي وَأَنْ يَشْرَبْنَ رَنَقًا بَعْدَ صَافٍ
 وَأَنْ يَعْرِينَ إِنْ كَسَى الْجَوَارِي فَتَلْبُو الْعَيْنُ عَنْ كَرَمِ عِجَافٍ
 وَلَوْلَا ذَاكَ قَدْ سَوِّمْتُ مَهْرِي وَفِي الرَّحْمَنِ لِلضَّعْفَاءِ كَافٍ
 أَبَا مَن لَنَا إِنْ غَبَتْ عَنَّا وَصَارَ الْحَيُّ بَعْدَكَ فِي اخْتِلَافٍ

« الرنق : الماء الكدر ، وكرم : قال ابن سيده وغيره : رَجُلٌ كَرَمٌ :
 أى كريم ، وكذلك الإِثْنان والجمع والمؤنث تقول : امرأة كرم ونسوة كرم
 لأنه وصف بالمصدر ، وعجاف : جمع عَجْفَاء على غير قياس ، والنجف : الهزال
 وسوّمت مهري : فالخيل المسوّمة : المرسلة وعليها ركبانها ، وفى التنزيل العزيز :
 والخيل المسوّمة ، من قولك سوّمت فلانا إذا خلّيته وسوّمته ، أى : وما يريد ، وقيل
 الخيل المسوّمة : هى التى عليها السمة والسومة وهى العلامة »

وقال شاعر جاهلى يمتدح ابنه لِيبْرَءَ به ، وهى من آيات الحماسة :
 رَأَيْتُ رِبَاطًا حِينَ تَمَّ شَبَابُهُ وَوَلَّى شَبَابِي لَيْسَ فِي بَرِّهِ عَثْبُ
 إِذَا كَانَ أَوْلَادُ الرِّجَالِ حَزَازَةً فَأَنْتَ الْحَلَالُ الْحُلُوُّ وَالْبَارِدُ الْعَذْبُ

لنا جانب منه دميثٌ وجانبٌ إذا رآتهُ الأعداءُ مُمتنعٌ صعبٌ
 وتأخذهُ عند المكارمِ هزةٌ كما هتزت تحت البارحِ الغصنُ الرطبُ
 «قوله ليس في برِّه عتبٌ : يريد ليس في بره لومٌ ولا سخط ، وقوله :
 إذا كان أولاد الرجال حرازةً ، فالحرازة : وجع في القلب من غيظٍ ونحوه
 والجمع حرازات ، وتروى : إذا كان أولاد الرجال مرارةً ، وهي الأنسبُ
 بقوله فأنت الحلال الحلو ، يكتنى به عن الرجل الذي لا رية فيه ، على المثل بالحلوى
 الحلال مما يُذاق ، يصف طيب أخلاقه ، وقوله : دميث : أى سهل لين ،
 والبارح : الريح تهب من الشمال في الصيف خاصة ،

وقال عمرو بن شأس - وهو شاعر فارس شهد مع سيدتنا رسول الله الحديبية
 وكانت امرأته تُؤذى ابنه عراراً - وكان من أمة سوداء - تُعيره بالسواد
 وتشتمه ، فلما أعت أباه عمراً أنشأ كلمة عدتها عشرون بيتاً اختار منها
 أبو تمام هذه الأبيات :

أرادت عراراً بالهوانِ ومن يُردُّ	عراراً لعمري بالهوانِ فقد ظلمَ
فإن كنتِ مني أو تُريدنِ صُحبتى	فكونى له كالسفنِ ربٍّ له الأدمُ
وإن كنتِ تهوينِ الفراقَ ظيقتى	فكونى له كالذئبِ ضاعت له الغنمُ
وإلا فسيرى مثلَ ماسارِ راكبٍ	تجشمَ خساً ليس في سيره يتمُّ
وإن عراراً إن يكن ذا شكيمةٍ	تقاسينها منه فما أملك الشيمُ
وإن عراراً إن يكن غيرَ واضحٍ	فإنى أحبُّ الجونَ ذا المنكبِ العممُ

«قوله : فإن كنت مني : نقل الكلام من الإخبار إلى الخطب ومعنى فإن كنت مني : فإن
 كنت توافقينى ، من قولهم فلان منياً ، أى : يوافقنا ، وقال المرصفي : معناه : فإن كنت
 مثل نفسى سيدة ، وقوله : أو تريدنِ صحبتى : أى أو تكونين مثل غيرك فى المعيشة لا حظَّ

لها في السيادة، وقوله: فكوني له كالسمن: أى كوني له كالسمن الذي لا يتغير،
والرب: خلاصة التمر بعد طبخه وعصره، والأدم: اسم جمع للأديم وهو الجلد
المدبوغ، يريد الأسقية التي يجعل فيها الرب. وكانت العرب تدهن وعاء السمن
بالرب لتمنع فسادَه ويزيد في طيب ريحه، فقوله: رُبَّ له الأدم: أى جعل فيه
الرب لئلا يفسد، وقوله وإن كنت تهوين الخ يقول: وإن كنت تؤثرين
مفارقتي مصممة على ذلك فكوني له ذنباً أهملت له الغنم يعيث فيها، ويقال لزوج
الرجل: ظعينة، وهى مقيمة، والأصل في الظعينة المرأة فى هودجها وهى سائرة،
وقوله: وإلا فسيرى الخ، فالخمس: فلاةٌ بعد ماؤها حتى إر الإبل لتدَّه في اليوم
الرابع سوى اليوم الذى شربت فيه وصدرت، واليتم: النور والتقصير
والإبطاء، يقول: وإلا فارقني وسيرى سير راكب تكلف ورود الماء
للخمس، وقوله: وإن عرارا... البيت، فالشكيمة: شدة النفس وإباؤها، والشيمة:
الخليقة، وكان عرار هذا حديد القلب ذرب اللسان، يقول: لا أقدر على
تغيير خلقه، فإما أن تلاميذه على ما تقاسينه من حديثه، وإما أن تفارقني فإنه أحب
إلى منك، وقوله غير واضح: أى غير أبيض: مستعار من وضع الصبح
وهو يابضه، والجون هنا: الأسود المشرب حمرة، والمنكب: مجتمع عظم
العضد والكتف، يصفه بالقوة والشدة، والعم: التام، قالوا: كان عرار
هذا أحد فصحاء العقلاء، توجه عن المهلب بن أبى صفرة إلى الحجاج رسولا
في بعض فتوحه، فلما تثلَّ بين يدي الحجاج لم يرفء وازدراه، فلما استنطقه
أبان وأعرب ماشاء وبلغ الغاية والمراد في كل ما سأل، فأنشد الحجاج
متمثلاً:

أرادت عراراً بالهوان ومن يرُدُّ عراراً لعمرى بالهوان فقد ظلم

فقال عرار : أنا - أيد الله الأمير - عرار ، فأعجب به وبذلك الاتفاق .

صلة الرحم : « وبعد » فلنورد بعض ما قلوا في صلة الرحم ، والرحم في الاصل : موضع تكوين الولد ، ثم سميت القرابة رحماً ، فالرحم : خلاف الأجنبي ، وقال ابن الأثير : ذوو الرحم : هم الأقارب ، ويقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب - قرابة - ويطلق في الفرائض - علم المواريث - على الأقارب من جهة النساء . ويقال : رَحِمَ ورَحِمَ ورَحِمَ ، وهى مؤنثة ، قال زهير بن أبي سُلي :

خُذُوا حَظَّكُمْ يَا آلَ عِكْرِمَ وَاذْكُرُوا

أَوَاصِرَتَا وَالرَّحِمُ بِالْغَيْبِ تُنْذِرُ (١)

ومما ورد في صلة الرحم : قوله جل شأنه : وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، أى وَاتَّقُوا الْأَرْحَامَ أَنْ تَقْطَعُوهَا ، وفي قراءة : وَالْأَرْحَامَ بِالْخَفْضِ ، وإذن يكون المعنى : تساءلون به وبالأرحام ، وهو قولهم : نشدتك بالله وبالرحم . . . ، وقال صلى الله عليه وسلم : الرحم شُجْنَةٌ مِنْ اللَّهِ - وفي رواية : من الرحمن - معلقةً بالعرش تقول اللَّهُمَّ صَلِّ مَنْ وَصَّائِي وَانْطَعِ مَنْ قَطَعَنِي ... قال الجوهرى : الشجنة بالضم والفتح والكسر : عروق الشجر المشتبكة ، و : بينى وبينه شجنة رحم : أى قرابة مشتبكة ، ومن ذا قولهم : الحديث ذو شجون : أى ذو شُعَبٍ وَاِمْتَسَاكِ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، وعبارة أبى عبيدة فى تفسير هذا الحديث : شجنة من الله : أى قرابة من الله مشتبكة كاشتباك العروق ، شبه بذلك مجازاً واتساعاً ، وأصل الشجنة : شعبة من غصن

(١) من أبيات جميلة تراها فى خزانة البغدادى ج ٢ ص ٢٨٧ ، طبعة السلفية ،

من غصون الشجر ثم استعمل اتساعاً في الرحم المشبكية ، وقال عبد الله بن أبي أوفى : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : لا يجالسنا قاطع رحم ، فقام شاب ، فأتى خالة له ، - وكان بينه وبينها شيء - فأخبرها بقول النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستغفرت له واستغفر لها ، ثم رجع والنبي صلى الله عليه وسلم في مجلسه فأخبره ، فقال النبي : إن الرحمة لا تنزل على قاطع رحم . وفي الحديث : من أحبَّ أن يُبْسَطَ له في رزقه ، ويُنْسَأَ له في أجله ، فليصل رحمه . يُنسأ : يؤخر ومنه الحديث . صلة الرحم مَثْرَاةٌ في المال مَنَسَاةٌ في الأثر . منسأة : مفعلة من النَّسَأِ أى مَظَنَّةٌ له وموضع ، والأثر : الأجل ، وفي الحديث : لا تستنسؤا الشيطان أى إذا أردتم عملاً صالحاً فلا تؤخروه إلى غد ولا تستمهلوا الشيطان ، يريد : أن ذلك مُهْلَةٌ مُسَوَّلَةٌ من الشيطان . ولعل المراد من تبسيط الرزق ومد العمر : البركة والخير والسعادة ورفاعة العيش ، وللعلماء في ذلك كلام كثير راجعه في المطولات ، ...



وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم : من كان منهم يؤثر أقرباه بالولايات والعِمالات وإسناد أمور الدولة إليهم ، فإنما كان ذلك - بعد كفاية الأقرباء واستحقاقهم - للبر صرفاً ، أى امتثالاً لأمر الله في وجوب صلة الرحم ، ومن كان منهم يؤثر الأجانب ويُقْصِي الإقاربَ ويَحْرِمُهُم أعمال الدولة . فإنما كان ذلك للبر أيضاً ، إذ كان ذلك إمعاناً في التورع والتأثم وتركاً لما يريب إلى مالا يريب ... وفي ذلك يقول الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه : كان عمر يمنع أقرباه ابتغاء وجه الله ، وأنا أعطى قراباتي لوجه الله ، ولن يرى مثلي عُمر ... فنأمل قوله : ولن يرى مثلي عُمر ... أى لن يبلغ إنسان مبلغه في

الحزم والسياسة الرشيدة وَضَبِطَ النفس أَنْ تَسْتَرْسل مع ما يُشبه الهوى ...
يعنى أَنْ عُمَرَ أَفْضَلَ مِنِّي، رَضِيَ اللهُ عن الجميع ..

ومما يروى في معنى حث الأقارب على التعاون: أَنْ أَكْثَمَ بنَ صَيْفِي
حَكِيمَ العرب دعا أولاده عند موته، فاستدعى بِضُمَانَةٍ من السهام «أى حُرْمَةً
منها، لغة في الإضمائة، وتقدم إلى كل واحد أَنْ يَكْسِرَهَا، فلم يقدر واحد
على كسرها، ثم بَدَّهَا وتقدم إليهم أَنْ يَكْسِرُوهَا، فاستسهلوا كسرها، فقال:
كونوا مجتمعين، لِيَفْجَزَ من نَأْوَأكم «أى عاداكم، عن كَسْرِكم، لعجزكم ...
وقال الشاعر في هذا المعنى:

إِنْ الْقِدَاحُ إِذَا اجْتَمَعَ فَرَاةُهَا بِالْكَسْرِ ذُو حَرْدٍ وَبَطْشٍ أَيْدٍ^(١)
عَزَّتْ فَلَمْ تُكْسَرْ، وَإِنْ هِيَ بَدَّدَتْ فَالْوَهْنُ وَالتَّكْسِيرُ لِلْمُتَبَدِّدِ
وقال آخر في هذا المعنى:

إِذَا مَا أَرَادَ اللهُ ذُلَّ قَبِيلَةٍ رَمَامَا بِتَشْقِيَتِ الْهَوَى وَالتَّخَاذُلِ
«وهذا كما يقال في الأقارب يقال في كل جماعة بينهم حُرْمَةٌ تجمعهم، من
وطن وغير وطن، ومما يروى: أَنْ رجلاً من العرب قتل ابن أخيه، فدفع
إلى أخيه لِيَقْتَادَ منه فلماً أهوى بالسيف أُرْعِدَتْ يَدَاهُ، فَأَلْقَى السيف من
من يده وَخَفَّاهُ، وقال: - والبيتان في الحماسة -:

(١) الحرد بتسكين الراء وبفتحها لغتان: الغضب والغيظ، قال الأشهب
ابن رُمَيْلَةَ:

أَسْوَدُ شَرِّى لَاقَتْ أَسْوَدَ خَفِيَّةٍ تَسَاوَوْا عَلَى حَرْدٍ دِمَاءَ الْأَسَاوِدِ
والأيد: القوى

أَقُولُ لِلنَّفْسِ تَأْسَاءَ وَتَعَزِيزَةً إِحْدَى يَدَيَّ أَصَابَتْهُ وَلَمْ تُرَدِّ (١)
يَكْلَاهُمَا خَلْفَ مَنْ فَقَدْ صَاحِبَهُ هَذَا أَخِي حِينَ أَدْعُوهُ رِذَا وَلَدِي (٢)
وفي مثل هذا المعنى يقول الحارث بن وعلـة الذهلي - وهي من
آيات الحماسة - :

قَوْمِي هُمْ قَتَلُوا، أُمِّيمَ، أَخِي فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي
فَلَنْ عَفَوْتُ لَا عَفْوَنَ جَلَلًا وَلَنْ سَطَوْتُ لَا وَهْنَنَ عَظْمِي
لَا تَأْنِسَن قَوْمًا ظَلَمْتَهُمْ وَبَدَأْتَهُم بِاللَّسْمِ وَالرَّغْمِ
أَنْ يَأْبُرُوا نَحْلًا لَعَنِيهِمْ وَالشَّيْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْمِي
وَزَعَمْتُمْ أَنْ لَا حُلُومَ لَنَا إِنَّ الْعَصَا قُرِعَتْ لِذِي الْحِلْمِ
وَوَطِئْنَا وَطَأً عَلَى حَنْقٍ وَطَأَ الْمُقَيِّدِ نَابِتَ الْهَرَمِ
وَرَزَكْنَا لَحْمًا عَلَى وَضْمٍ لَوْ كُنْتَ تَسْتَبِقُ مِنَ اللَّحْمِ

• يقول في البيت الأول : قَوْمِي - يَا أُمِيمَةَ - هم الذين قَتَعُونِي بِأَخِي
وَوَتَرُونِي فِيهِ ، فإذا حاولت الانتصارَ منهم عاد ذلك بالنكابة في نفسي ،
لأن عَزَّ الرجل بعشيرته . وهذا الكلام تحزن وتفجع وليس بإخبار . وقوله :
فَلَنْ عَفَوْتُ ... البيت . يقول : إن تركتُ طلب الانتقام منهم صفحتُ
عن أمرٍ عظيم . وإن انتقمْتُ منهم أُرْهَنْتُ عَظْمِي : أي أضعفْتُه ، ويقال :

(١) تأساء: تفعال من الأسوة ، بقول : أعزى النفس عنه متأسيا بغيري من
قتل ولده، وقوله إحدى يدي: مبتدأ، وأصابتي خبر، ولم ترد: في موضع الحال، والجملة
في موضع نصب على أنه مفعول لقوله أقول

(٢) يقول: كل واحد من الأخ والواثر والابن المفقود يصلح لأن يرضى به عوضا
عن فقدان الآخر

عفوت من الذنب : إذا صفحت عنه ، والسطو : الأخذ بعنف ، والجلال :
 من الأضداد : يكون الصغير ويكون العظيم ، وهو المراد ههنا . وقوله :
 لا تأمنن قوما ... ألبيتين ، حوّل الكلام عن الإخبار إلى الخطاب مُتَوَعِّدًا ،
 والרגم : مصدر رغمت فلانا : إذا فذلت به ما يرغم أنفه ويُذله ، وقوله :
 أن يأبروا : في موضع نصب على البدل من قوما في البيت الذي قبله ، كأنه
 قال : لا تأمنن أبرّ قويم ظلمهم نخلا لغيرهم ، يقال : أبرت النخل وأبرته :
 إذا لقمته . يقول : إذا ظلمت قوما فلا تأمنهم أن يلتقموا منك فتشتفي
 أعداؤك منك : فتكون كمن أصلح أمر غيره ، وقال بعضهم : المعنى : إن
 ظلمتونا تحوّلنا عنكم ، فلا يكون لكم بعدنا مُقَامٌ - إقامة - فتتحولون أو
 يملككم العدو ، فيكون ما أبرّنا نحن وأنتم لهم دوننا ودونكم ، وقال
 أبو العلاء المدي : قد اختلف في معنى هذا البيت ، قيل : أراد أنه يُفَارِقُهُمْ
 ويَهْبِطُ هو وتوّه أرضا ذات نخل كان لغيرهم فيدفعونهم عنه ويأبرونه ،
 كأنه يتهدّد بهم بترّخله عنهم ، لأن ذلك يؤديهم إلى الذلّ ، واستدلوا على هذا
 الوجه بقوله في القصيدة :

قَوْضُ خِيَانِكَ وَالتَّمِيسُ بَلَدًا يَنْأَى عَنِ الْعَاشِيكِ بِالظُّلَمِ

وقيل : بل يريد أنه يحاربهم فيصلحهم لغيره فيجعلهم كالنخل التي قد
 أبرت ، إذ كان عدوّهم ينال غرضه منهم إذا أعانه عليهم ، وقيل : بل عني
 أنه يسبي نساءهم قوطاً فيكون ذلك كالإبار الذي هو تلقيح النخل . قال
 التبريزي : وهذا الوجه أشبه بمذهب العرب بما تقدم ، لأنهم يكونون عن
 النخلة بالمرأة . وقوله : ورعتم أن لاحلوم لنا : فأكثر ما يستعمل الزعم فيما
 كان باطلا أو فيه آرياب ، والحلوم : العقول ، وقرع العصا : كتابة عن التنبيه ،

واختلف في أول من قرعت له العصا ، ف قيل عمرو بن الظرب العدواني وقيل عمرو بن جُحمة الدوسي ، وخبرهما : أن كل واحد منهما كان حَكَمًا للرب يتحاكمون إليه في كل مُعضلة ، قالوا : إن العرب أتوا عمرو بن جُحمة يتحاكمون إليه ، فغَطَطَ في حكومته - وكان قد أَسَنَ - فقالت له ابنته : إنك قد صِرْتَ تَهِمُ في حكومتك - أي تغلط - فقال : إذا رأيت ذلك مني فاقْرَعِي العصا ، فكان إذا قرعت له العصا فِطِن . يقول : زعمتم أنه لا عقول لنا وأنا سفهاء ، فإن كان الأمر على ما زعمتم فبهونا أتم ، وهذا تهكم من الشاعر بهم ، وقوله : وَوَطَّنَنَا ... ألبيت ، فالحنق : الغيظ ، والهرم : شجر ، أو البقلة الحقاء - هي التي تُسَمَّى الرَّجْلَة - ، أو ضَرْبٌ من الخِمَض فيه مُلوحة وهو أذله وأشدّه انبساطا على الأرض واستبطاحا ... وفي المثل : أذل من الهرمة ، يقول : وأثرتُ فينا تأثير الحنق الغضبان كما يؤثر البعير المُقَيَّد إذا وَطِنَ هذا النبت الضعيف ، وَخَصَّ المقيد لأن وطأته أثقل ، لأنه لا يتمكن من وضع قوائمه على حسب إرادته . كما خص الحنق لأن إبقائه أقل . ومن قول العرب : أعوذ بالله من وطأة الدليل ، أي من أن يطأني ، لأن وطأته أشد لسوء مَلَكَتِهِ ، كما قال امرؤ القيس :

فإنك لم يَفْخَرْ عليك كفاخِرٍ ضعيفٍ ولم يَغْلِبْكَ مثلُ مُغْلَبٍ
وخص الثابت وأراد : الحديث الثابت ، وهو أغض له وأرق ، ويرى :
يأبِس الهرم ، وقوله وتركنا لحما على وضم : فالوضم : الخشبة التي يَصْعُقُ
الجزار اللحم عليها يُوقَى بها اللحم من الأرض ، أو تقول : خِوانُ الجزار ، وقد تقدم
يقول . تركنا لادفاع بنا كاللحم على الوضم يتناوله من شاء ، ثم قال : لو كنت
تستقي من اللحم ، أي لو كنت تترك بقية ، قال النربزي : جعل ذلك مثلا

لاستفساده لهم وسماحته بهم،

والعرب تقول في العطف على القريب والحمية له وإن لم يكن وادًا:
«أَنْفَكَ مِنْكَ وَإِنْ ذَنْ»^(١) «وَعِيْصَكَ مِنْكَ وَإِنْ كَانَ أَشْبَابًا»^(٢) وقال
قائلهم - وهو حريث بن جابر - :

إِذَا ظَلِمَ الْمَوْلَى قَزَعْتُ لِحْظَهُ فَحَرَّكَ أَحْشَائِي وَهَرَّتْ كِلَابِيَا^(٣)

وقيل لأعرابي: ما تقول في ابن العم؟ فقال عدوك وعدو عدوك، ولما
مات عبادة بن الصامت بكى عليه أخوه أوس بن الصامت، فقيل له: أتبكي
عليه وقد كان يريد قتلك؟ فقال: حركني للبكاء عليه ارتكاضا في بطن،
وارتضاعنا من نذري... ودخل رجل من أشراف العرب على بعض الملوك،
فسأله عن أخيه فأوقع به يعيبه ويشتمه، وفي المجلس رجل يشؤد -
يبغضه - فشرع معه في القول، فقال له: مهلاً إني لا كل لحى ولا أدعه
لأكل... وقال الشاعر - قيل هو وزارة بن سبيع، وقيل فضلة بن خالد، وقيل
دودان بن سعد، وكلهم من بني أسد، شعراء جاهليون، والآيات من الحماسة:

لَعَمْرِي لَرَهْطُ الْمَرْءِ خَيْرُ بَقِيَّةٍ عَلَيْهِ وَإِنْ عَالُوا بِهِ كُلَّ مَرْكَبٍ
مِنَ الْجَانِبِ الْأَقْصَى وَإِنْ كَانَ ذَاغِيَّ جَزِيلٍ وَلَمْ يُخْبِرْكَ مِثْلُ مُجَرَّبٍ

(١) ذَنْ أَنْفَهُ يَذَنْ: إذا سال، والذنان والذنين: الخياط الرقيق الذي يسيل من
الاتف (٢) العيص: منبت الشجر، والأشب: الملتف، ومعنى المثل: أصلك منك
وإن كان ذا شوك مشتبك غير سهل: أي أصلك منك وإن كان أقاربك على خلاف
ما تريد، فاصبر عليهم فإنه لا بد منهم..

(٣) هر الكلب يهر هريراً: إذا نبح وكثر عن أنيابه، ومن طبع الكلب أن
يهر دون أهله ويذب عنهم

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ عَدَى لَسْتَ مِنْهُمْ فِكَلْ مَا عُلِفَتْ مِنْ خَيْثٍ وَطَيْبٍ
 « عالوا به يريد : علوا به ، كل مركب : صعب أو ذلول ، يريد : وإن
 حمله مالا يستطيع ، ومن الجانب الأقصى ، يريد : من الحى الأبعد ، وقوله :
 ولم تك منهم ، يروى : * إذا كنت في قوم عدى لست منهم *
 وعدى بالكسر : غرباء ، فأما قوم عدى فقد ورد فيها الضم والكسر
 وقوله : فكل ما علفت : فهذا مثل ، يريد به : المسألة والمدارة ، ويروى للشاعر
 بعد هذا البيت :

فَإِنْ حَدَّثَكَ النَّفْسَ أَنَّكَ قَادِرٌ عَلَى مَا حَوَّثَ أَيْدِي الرِّجَالِ فَكَذَّبْ

وقديما أكثروا من شكوى الأقارب : من جهة أنهم يحكم تجاورهم
 وقرابتهم أدنى إلى الحسد والعداوة ، فقالوا : الأقارب عقارب وأنهم بك
 رحما أشدهم بك لدغا ، وقال بعض حكماء العجم : ثلاث لا يُستصاح فسادهم
 بشيء من الحيل : العداوة بين الأقارب ، وتحاسد الأكفاء ، والركاكة في
 الملوك ... ولذلك شكوا من أن عداوة الأقارب أشد على النفس من عداوة
 الأبعد فقالوا : - والقائل طرفة بن العبد - :

وَوَظَلُّ دَوَى الْقَرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقَعِ الْحُسَامِ الْمُهَنَّدِ
 ونال الشريف الرضى :

وَلِلَّذِلِّ بَيْنَ الْأَقْرَبِينَ مَضَاضَةٌ وَالَّذِلُّ مَا بَيْنَ الْأَبْعَادِ أَرْوَحُ
 وَإِذَا أَتَاكَ مِنَ الرِّجَالِ قَوَارِصُ فِسْهَامِ ذِي الْقَرْبَى الْقَرِيبَةِ أَجْرَحُ (١)
 ففهم من يحمل ويبقى على مقتضيات القرابة ، ويتجافى عن ذنوب

(١) القوارص : جمع قارصة وهي الكلمة المؤذية قال الفرزدق :

قَوَارِصُ تَأْنِيْنِي وَتَحْتَرُونَهَا وَقَدْ يَمْلَأُ الْفَطْرُ الْإِنَاءَ فَيُفْعَمُ

أقربائه على الرغم من عدائهم ، فيقولون - والقائل محمد بن عبد الله الأزدي -
صحابي جليل - وهذه الآيات في الحاسة - :

لَا أَدْفَعُ ابْنَ الْعَمِّ يَمْشِي عَلَى شَفَا وَإِنْ بَلَغْتَنِي مِنْ أَذَاهُ الْجَنَادُ
وَلَكِنْ أُوَاسِيهِ وَأَنْسَى ذُنُوبَهُ لَتَرْجِعَهُ يَوْمًا إِلَى الرَّوَاجِعِ
وَحَسْبُكَ مِنْ ذُلٍّ وَسُوءِ صَنِيعَةٍ مَنَاوَاةُ ذِي الْقُرْبَى وَإِنْ قِيلَ قَاطِعُ

« الشفا : حرف الشيء وحده ، مثل الشفير ، وقد أشفى على الهلاك : أشرف
والجناد في الأصل - كما قال أبو خنيفة الدينوري - : الجنادب الصغيرة ، وجنادب
الضب : دواب أصغر من القردان تكون عند جحره فإذا بدت هي
عُلمَ أن الضب خارج فيقال حينئذ : بدت جناده ، ثم قيل لأوائل الشر :
بدت جناده ، يقول الشاعر : لا أَدْفَعُهُ يَمْشِي عَلَى حَدِّ الْهَلَاكِ وَإِنْ بَالِغٌ فِي
الْإِسَاءَةِ ، وَالْمَنَاوَاةُ : المماذاة ، وأصله الهمز يقال : ناواه مُنَاوَاةً : أى عاداه ،
وقوله : وإن قيل قاطع : يريد : وإن قيل في ذى القربى إنه قاطع لرحمه فلا
يحملك ذلك على مناوآته ، وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب :

مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا مَهْلًا ذَوَالِنَا لَا تَنْبِشُوا بَيْنَنَا مَا كَانَ مَدْفُونًا
لَا تَطْمَعُوا أَنْ تُهَيِّنُوا وَنُكْرِمَكُمْ وَأَنْ نَكْفِيَ الْإِذَى عَنْكُمْ وَتُوْذُونَا
مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا مِنْ تَحْتِ أَثْلَتِنَا سِيرُوا رُوبَدًا كَمَا كُنْتُمْ تَسِيرُونَا
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّا لَا نُحِبُّكُمْ وَلَا نَلُومُكُمْ إِنْ لَمْ تَحْبُونَا
كُلُّهُ رِيْسَةٌ فِي بُغْضِ صَاحِبِهِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ تَقْلِيكُمْ وَتَقْلُونَا

« مهلا : يريد : رفقوا وسكونا لاتعجلوا ، ويريد بنى عمه : بنى أمية ، وقد
كان في صدورهم أحقاد ، وقوله لاتنبشوا : يريد لاتستخرجوا ما كان بيننا

من العداوة مدفونا في الصدور، وقوله: من نحت أثنتنا، فالأثلة: واحد الأثل وهو من الغضاه شجر طوال مستقيم الخشب ومنه تصنع الأقواح والجفان ونحتها: قشرها أو نشرها، يريد: هلا بني عمنا في إظهار المثالب والمعايب التي تلصقونها بنا، وقوله: كل له نية الخ يريد: إنا وإياكم لعلی طرفی نقيض نحن نبغضكم لاغتصابكم الملك واستيلائكم على أموال المسلمين وأنتم تبغضوننا على قربابتنا من النبي صلوات الله عليه، وقلاه يقليله قلى: أبغضه، وقد حذف نون الرفع من تقولنا ضرورة.

وقال ذو الأصبع العدواني: ^(١)

لولا أواصر قربي لست تحفظها ورهبة الله في مؤلى يعاديني
إذن برئيتك برياً لا انجبار له إني رأيتك لا تنفك تبريني

ومهم من اضطرَّ إلى الاتِّقام من أقاربه: أو من تربطه بهم آصرة ماثم مأسف، فقال قيس بن زهير في ذلك:

شفيت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شفاني
قتلت ياخوتي سادات قومي وقد كانوا لنا حلي الزمان
فإن أك قد بردت بهم غليلي فلم أقطع بهم إلا بناني

وقال النمرى:

فإنك حين تبغضهم أذاه وإن ظلموا لمحترق الضمير

(١) واسمه مُحَرَّثان بن الحارث بن محرز، شاعر فارس من قدماء الشعراء في الجاهلية، وبيتاه هذان من قصيدة له في ابن عم له اسمه عمرو وهي قصيدة بارعة جداً أولها:

يامن لقلب شديد الهم محزون أمتى تذكّر ليلى أم هارون
وقد ترجم له صاحب الأغاني، انظر الجزء الثالث طبعة دار الكتب،

وقال المتنبي في ذلك :

وكيف يَتَمُّ بِأُسْكَ في أناسٍ تُصِيبُهُمْ فَبُؤْلُكَ الْمُصَابُ
وقال البحرى من قصيدة له يمدح بها المتوكل على الله العباسى ويذكر
صلح بنى تغلب - :

وَفِرْسَانِ هَيَجَاءِ تَجِيئُشْ صُدُورُهَا بِأَحْقَادِهَا حَتَّى تَضِيقَ دُرُوعُهَا
تُقَتِّلُ مِنْ وَرَى أَعْزَى نَفُوسِهَا عَلَيْهَا بِأَيْدٍ مَاتَكَادُ تُطِيعُهَا
إِذَا احْتَرَبَتْ يَوْمًا فِقَاضَتْ دِمَاؤُهَا تَذَكَّرَتْ الْقُرْبَى فَمَاضَتْ دِمُوعُهَا
وقال سيدنا على كرم الله وجهه - حين تصفح القتلى يوم الجمل : شَفَيْتُ
نَفْسِي ، وَجَدَعْتُ أَنْفِي - وسيمر بك هذا الكلام بتمامه في موضع آخر من هذا
الكتاب ... ومنهم من يركب رأسه وَيُحِبُّ فِي عِدَاءِ أَقَارِبِهِ خَبًا وَلَا يِيَالِي -
وقد قال قائلهم - أوس بن حَبَاءَ التيمي - :

إِذَا الْمَرْءُ أَوْلَاكَ الْهُوَانَ فَأُولُهُ هَوَانًا وَإِنْ كَانَتْ قَرِيبًا أَوَاصِرُهُ

ويبلغ الحق بهذا الصنف من الناس أن يظهر الأجنبي على القريب

وقد شبه العرب هذا الصنف بذئب السوء قال الفرزدق - :

وَكُنْتُ كَذَائِبِ السُّوءِ لَمَّا رَأَى دَمًا بِصَاحِبِهِ يَوْمًا أَحَالَ عَلَى الدِّمِ
« وهو معلوم أن الذئب إذا رأى بصاحبه دمًا أقبل عليه ليأكله ، وإنه
لبديهي أن هذا التماؤ للآجنبي على القريب لا يشعر إلا الضرر الموبق ، وقد
قال قائلهم في ذلك - وهو أبو يعقوب الخُرَيْمِيُّ - :

كَانُوا بَنِي أُمِّ فَرَّقَ شَمَلَهُمْ عَدَمُ الْعُقُولِ وَخِفَةُ الْأَحْلَامِ

وقد ورد في علاج العداء الذي يحدث بين الأقارب : وهو علاج مُسَكِّن ... ولكنه لا علاج غيره - قولُ أَكْثَمَ بْنِ صَيْفِيٍّ حَكِيمِ الْعَرَبِ : تَبَاعَدُوا فِي الدِّيارِ تَقَارَبُوا فِي الْمَوَدَّةِ ... وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري : مُرِّدْ ذِي الْقَرَابَاتِ أَنْ يَتَزاورُوا وَلَا يَتَجاورُوا ... وقال في هذا المعنى وزاد شاعرٌ جاهلي من بني أسد - وكان له ابن عم يترصد له مرافع السوء - :

داوِ ابْنَ عَمِّ السُّوءِ بِالنَّايِ وَالْغِنَى كَفَى بِالْغِنَى وَالنَّايِ عَنْهُ مُداوِيَا
يَسُلُّ الْغِنَى وَالنَّايُ أَذْواءَ صَدْرِهِ وَيُيَسِّدِي التَّدَانِي غِلْظَةً وَتَقَالِيَا
أَعَانَ عَلَى الدَّهْرِ إِذْ حَكَ بَرَكُهُ كَفَى الدَّهْرُ لَوَوَكَلَتْهُ بِي كَافِيَا

« النَّايُ : البعد ، والغنى : مصدر غَنِيَ عن الشيء يَغْنَى : استغنى عنه ، وأَطْرَحَهُ فلم يلتفت إليه ، وَيَسُلُّ : ينتزع برفق ، وأَذْواءَ صدره : أضغاثه وأحقادَه ، والتَّدَانِي : يريد إظهار التقارب منه ، وتَقَالِيَا : تباغضا ، وحَكَ بَرَكُهُ : فالحك : إممرار جرم على جزم ، والبرك في الأصل : كل كل البعير ، وهو صدره الذي يدكُّ به مآخِته ، استعاره لاهر ، وقوله . كَفَى الدَّهْرُ أَخ : يريد : كَفَى حَدَثَانِ الدَّهْرِ وَحْدَهُ فِي الْإِسَاءَةِ فَلَا تَكُونُ إِعَانَتُهُ وَحَادِثُ الدَّهْرِ مَا عَلَيْهِ »



ومن كلامهم في الإخوة : ما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : حَقُّ كَبِيرِ الْإِخْوَةِ عَلَى صَغِيرِهِمْ حَقُّ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ ... وَيُرْوَى أَنَّ إِخْوَةَ حَضَرُوا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَتَكَلَّمُوا أَصْغَرَهُمْ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَلَكَبَرُ الْكَبِيرُ ... « الْكَبِيرُ : جمع الأكبر ، كأخمر وأخمر : أى ليبدأ الأكبر بالكلام ، أَرَقَدَهُوا الْأكْبَرُ ، إرشادا إلى الأدب في تقديم الأسن ، وقيل لحكيم معه أخ أكبر منه : أهذا أخوك ؟ فقال بل أنا أخوه ... وكان بين الحسن والحسين رضي الله عنهما كلام ، فقيل للحسين : ادْخُلْ

على أخيك فهو أكبر منك ، فقال : إني سمعتُ جدِّي صلى الله عليه وسلم يقول : أيما اثنين جرى بينهما كلام ، فطلب أحدهما رضا الآخر ، كان سابقه إلى الجنة ، وأنا أكره أن أسبق أخى الأكبر ، فبلغ قوله أخاه ، فأتاه عاجلا وأرضاه ...

ومما يتصل بالإخوة وينشعب به القول في هذا الباب : ما روى في الأخوين يختلفان في النجابة والتخلف والحسن والدمامة ، فهذا كَيْسٌ رَفِيعٌ ، وهذا أَحَقُّ وضيق ؛ وهذا جميل ، وهذا دميم ، قال الأصمعي : لم يقل أحد في تفضيل أخ على أخ وهما لأب وأم مثل قول ابن المعتز لأخيه صخر :

أبوك أبى وأنت أخى ولكن تفاضلتِ المناكبُ والرؤس
وفي هذا المعنى يقول بعضهم :

تفرّد بالعلياء عن أهل بيته وكلُّ يَهْدِيهِ إلى المجدِّ والدُّ
وتختلف الأثمارُ في شجراتها إذا شَرِقَتْ بالماء والماء واحدٌ

وقال رجل لأخيه : لَا تُهْجُوَنَّكَ ، فقال : كيف تهجونى وأنا أخوك لأبيك وأُمِّك ؟ فقال :

غَلَامٌ أَتَاهُ الْأَوْثُمُ مِنْ شَطْرِ نَفْسِهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ شَطْرِ أُمِّ وَلَا أَبٍ
وقال رجل لآخر ، وكان هذا الآخر قبيحاً ومعه أخٌ صبيحٌ ، : مَا أُمِّكَ إِلَّا شَجَرَةُ الْبَلُوطِ ، تحمل سنة بَلُوطًا وسنة عَفْصًا ^(١) وفي هذا المعنى يقول آخر :

(١) البلوط : أبو فروة ، والعفص : تتره يكون على شجرة البلوط أو ضرب منه

أَمَا رَأَيْتَ بَنِي بَذْرٍ وَقَدْ خُلِقُوا كَأَنَّهُمْ خُبْرُ بَقَالٍ وَكِتَابٍ^(١)

قطيعة الإخوة

ومما جاء في قطيعة الإخوة وتبريرها — والقطيعة الهجران ، ضد الصلة — : ما روى أنه قيل لأعرابي : لِمَ تَقْطَعُ أَخَاكَ شَقِيقَكَ ؟ فقال : أَنَا أَقْطَعُ الْفَاسِدَ مِنْ جَسَدِي الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ إِلَيَّ مِنْهُ ، فَكَيْفَ لَا أَقْطَعُهُ إِذَا فَسَدَ ! وَكَتَبَ الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ الْوَزِيرُ إِلَى الْمَأْمُونِ — الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ — : أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْمَخْلُوعَ — يَرِيدُ الْأَمِينَ أَخَا الْمَأْمُونِ — وَإِنْ كَانَ قَسِيمَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الذَّنْبِ وَاللَّحْمَةِ ، فَقَدْ فَرَّقَ كِتَابُ اللَّهِ بَيْنَهُمَا فِيمَا اقْتَضَى عَلَيْنَا مِنْ نَبَا نُوحٍ ، فَقَالَ : يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، فَلَا صِلَةَ لِأَحَدٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، وَلَا قَطِيعَةَ مَا كَانَتِ الْقَطِيعَةُ فِي ذَاتِ اللَّهِ ، وَالسَّلَامُ . . . وَقِيلَ لِزُرَّجِمَرٍ : أَخَوُكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ صَدِيقُكَ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا أَحَبُّ أَخِي إِذَا كَانَ صَدِيقًا . وَيَقَالُ : الْقَرَابَةُ مُحْتَاجَةٌ إِلَى الْمَوَدَّةِ ، وَالْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ الْأَنْسَابِ ، وَالْبَيْتُ الْمَشْهُورُ فِي هَذَا :

فَإِذَا الْقَرَابَةُ لَا تُقَرِّبُ قَاطِمًا وَإِذَا الْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ الْأَنْسَابِ

الناس تجاه البنات

وقد كان الأوائل نُجَاهَ الْبَنَاتِ — وَكَذَلِكَ النَّاسُ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا — قَرِيقِينَ — : فَأَمَّا فَرِيقٌ فَقَدْ كَانُوا يُفَضِّلُونَهُنَّ وَيَحْنُونَ عَلَيْهِنَّ ، وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي ذَلِكَ مَا يُرْوَى أَنَّ مَعْنَ بْنَ أُوَيْسَ الْمُزَنِّيَّ — شَاعِرَ إِسْلَامِيٍّ مِنَ الْفَحُولِ —

(١) البقال : بائع البقول ، والكتاب : المدرسة يحفظ فيها كتاب الله وما إليه

كَانَ مِثْنَانًا - وَكَانَ لَهُ ثَمَانُ بَنَاتٍ ، وَكَانَ يُحْسِنُ مُحَبَّتَهُنَّ وَتَرَبَّيْنَهُنَّ ، قَوْلًا
لِبَعْضِ عَشِيرَتِهِ بَلَتْ ، فَكَرِهَهَا وَأَظْهَرَ جَزَعًا مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ مَعْنُ :

رَأَيْتُ رِجَالًا يَسْكُرُهُنَّ بَنَاتِهِمْ

وَفِيهِمْ - لَا تُكْذِبُ - نِسَاءُ صَوَالِحٍ

وَفِيهِمْ - وَالْأَيَّامُ يَعْثُرْنَ بِالْفَتَى - عَوَائِدُ لَا يَمْلِكُنَّهُ وَنَوَاحٍ

وَدَخَلَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى مُعَاوِيَةَ وَعِنْدَهُ ابْنَتُهُ عَائِشَةُ ، فَقَالَ : مَنْ
هَذِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ : هَذِهِ مُفَاحَةُ الْقَابِ ، فَقَالَ : أَنْيْذِمَا عَنْكَ ، قُلْ :
وَلَمْ ؟ قَالَ : لَا سَهْنٌ يَلِدُنَ الْإِعْدَاءَ ، وَيُقَرِّبُنَ الْبُعْدَاءَ ، وَيُورِثُنِ الضَّغَائِنَ ^(١) ،
فَقَالَ : لَا تَقُلْ ذَلِكَ يَا عَمْرُو ، فَإِنَّ اللَّهَ مَا مَرَضَ التَّرَضَى وَلَا نَدَبَ الْمَوْتَى وَلَا
أَعَانَ عَلَى الْإِحْزَانِ مِثْلَهُنَّ ، وَإِنَّكَ لَوَاجِدٌ خَالًا قَدْ نَفَعَهُ بَنُو أُخْتِهِ ، فَقَالَ
لَهُ عَمْرُو : مَا أَعْلَمُكَ إِلَّا حَبَبَتَهُنَّ إِلَى ..

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْبَنَاتُ حَسَنَاتٌ . وَالْبَنُونَ نَعَمٌ ، وَالْحَسَنَاتُ مُثَابٌ عَلَيْهَا ،
وَالنَّعَمُ مَسْئُولٌ عَنْهَا ...

وَأَمَّا الْفَرِيقُ الْآخَرُ فَيَكْرَهُ الْبَنَاتَ : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ
وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ - كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَقَدِيمًا قَالُوا : نِعْمَ
الْحَتَنُ الْقَبْرِ ^(٢) ... وَدَفَنُ الْبَنَاتِ مِنَ الْمَكْرَمَاتِ ...

✽ وَمَا خَتَنُ فِينَا أَعْفُ مِنَ الْقَبْرِ ✽

وَنَظَرَ أَمِيرَاجِي إِلَى بَلْتِ تَدْفِنُ ، فَقَالَ : نِعْمَ الصَّهْرُ صَاهَرْتُمْ ... وَقَالَ

(١) يُوْرَثُ : مِنْ أَزْثِ النَّارِ : أَوْقَدَهَا (٢) الْحَتْنُ : زَوْجُ الْبَنَتِ

الحسين بن علي رضي الله عنه : والد الميت مُتَّعَبٌ ، والدُ بنتَيْنِ مُثْقَلٌ ،
 ووالد ثلاث فعلى الناس أن يُعينوه ... وقال الزهري : كانوا لا يَرَوْنَ على
 صاحب ثلاث بناتِ صدقةً ولا جهاداً ... وكانت العربُ لا تأكل طعام
 صاحب البناتِ وقد قال قائلهم :

إذا ما المرءُ شبَّ له بناتٌ عَصَبَنَ برأسه عَتْنَا وَعَارَا

وأد البنات : وناهيك في هذا الباب شُنْعَةٌ وَسُوءٌ صَنِيعَةٌ بما كان العربُ يفعلون
 في الجاهلية من وأد البنات^(١) ... وما فِتْنُوا إلى أن أُرْسِلَ سَيِّدُ البشرِ صلوات الله
 عليه ، فنَهَى عن ذلك ، وأزل الله عز وتقدس : وإذا المَوْوَدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ
 ذنبٍ قُتِلَتْ ؟ وكثيراً من الآيات في هذا المعنى المُفْطِيع ... ودخل قيس بن
 عاصم المِنَقَرِيُّ - وهو سَيِّدُ أهل الوبر - على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :
 إني وأدتُ آفَئَتِي عَشْرَةَ بَنَاتٍ ، فما أَصْنَعُ ؟ فقال رسول الله : أَعْتَقْ عَنْ
 كُلِّ مَوْوَدَةٍ نَسَمَةً ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : فما الذي حَمَلَكَ على ذلك
 وأنت أكثرُ العربِ مالا ؟ فقال : مخَافَةٌ أَنْ يَنْكِحَهُنَّ مِثْلُكَ^(٢) ، فنبسم رسول
 الله وقال : هذا سيدُ أهل الوبر ... قال قيس : ما وَلِدْتُ لي ابْنَةً إِلَّا وَأَدْتُهَا
 سوى بُنْيَةٍ وَلَدْتُهَا أُمُّهَا وأنا في سَفَرٍ ، فلما عُدْتُ ذَكَرْتُ أنها وَلَدَتْ ابْنَةً
 مَيِّتَةً ... فَأَوْدَعْتُهَا أَخْوَالَهَا حَتَّى كَبُرَتْ ، فَأَدْخَلْتُهَا مَنْزِلِي مُتَرَيِّنَةً ،

(١) وأد بنته يتدعا وأدا : دفنها في القبر وهي حية

(٢) هذه عَجْرُفَةٌ وعَنْجَبِيَّةٌ من هذا الأعرابي الجلف في حق الصديق رضي الله عنه

وإن كان قيس بن عاصم سَيِّدَ أهل الوبر ، وما أحلم سيدنا رسول الله الذي أُرْسِلَ
 لِيَتِمَّ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ ، والذي أُمِرَ بأن يدعو الناس إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة
 الحسنة.

فاستَحَسَنَتُهَا ، فقلتُ : مَنْ هذه ؟ فقالت : هذه ابْنُكَ ، وهى التى أَخْبَرْتُكَ
أنى ولدْتُهَا مَيْتَةً ، فَأَخَذْتُهَا وَدَفَنْتُهَا حَيَّةً وهى تَصِيحُ وتقول : انتُرْ كنى
هكذا ؟ فلم أَعْرِجْ عليها ، فقال صلى الله عليه وسلم : من لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ ...

الخال والخولة

بقى بعد ذلك أن نورد شيئا مما قالوا فى الخولة والخال : والقول فى ذلك
ينشعب أيضا ، فقد قالوا فى مَدْحِ الخال وَدَمِّهِ ، وقالوا فى معنى نِزَاعِ
الولد إلى خاله ^(١) ، فَلَمَنْتَقِي شيئا مما قالوا فى هذه المعانى ، فأما قولهم فى
اعتبار الخولة وكونها كالأبوة ، فمن ذلك ما روى أن الأسود بن وهب
خال رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن عليه ، فبسط صلى الله عليه وسلم له
رِدَاءَهُ ، فقال الأسود : حَسْبى أن أَجْلِسَ على ما أنت عليه ، فقال صلى الله عليه
وسلم : أَجْلِسْ فإن الخال والد ... ومن طريف هذا الباب ما روى أن الحجاج
قال لابن معمر : إنك تزعم أن الحسن والحسين ابنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم ؟ قال : نعم ، قال : والله لا قُتِلْتُكَ ، فقال ابن معمر : أليس الله يقول :
وَمَنْ ذُرِّيَّتِهِ دَارِدَ وَسُلَيْمَانَ ، إلى قوله : وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى ، وإنما عيسى
ابنُ مَرْيَمَ : ابن بنت ، فقال نَجَوْتُ ... وأما من عَدَّ الخولة ليست من النسب
والفرابة ، فمن قولهم فى ذلك - والقائل ضَمْرَةٌ بن ضَمْرَةَ بن جابر بن قَطَنَ
- شاعر جاهلى - وقيل غيره - :

إذا كنتَ فى سَعْدٍ وأَمَلِكِ مِنْهُمْ غريباً فلا يَغْرُرْكَ خَالُكَ من سَعْدٍ

(١) نزح فلان إلى أبيه أو خاله ينزع نزوعا ونزاعا : ذهب إليه وأشبهه ، ومثله نزح
الإنسان إلى أهله والبعير إلى وطنه نزاعا ونزوعا : حن واشتاق

فَإِنَّ ابْنَ أُخْتِ الْقَوْمِ مُصْغًى لِنَاوُهُ إِذَا لَمْ يُزَاجِمْ خَالَه بِأَبٍ جَلَدٍ^(١)
 وتقدم شابٌ إلى عبد الله بن الحسين رضى الله عنه فقال : إِنَّ جَدِّي أَوْصَى
 بِثُلُثِ مَالِهِ لَوْلَدٍ وَلَدِهِ ، وَأَنَا مِنْ وَلَدِ بِنْتِهِ ، وَالْوَصَى لَيْسَ يُعْطِينِي مِنْهُ ، فَقَالَ :
 لَاحِقٌ لَكَ فِيهِ ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الشَّاعِرِ :

بَنُونَا بَنُو أَبْنَائِنَا وَبَنَاتُنَا بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الْإِبَاعِدِ
 • يقول : إن بنى أبنائنا مثل بنينا ، أما بنو بناتنا فليسوا منا وإنما هم أبناء
 الأجانب ، فبنونا خبر مقدم وبنو أبنائنا مبتدأ مؤخر ، وهذا البيت لا يعرف
 قائله على مُهَرَّرَتِهِ . قال الإمام العيني : هذا البيت استشهد به النحاة على جَوَازِ
 تقديم الخبر ، والفرَضِيُّونَ - علماء المواريث - على دخول أبناء الأبناء
 في الميراث وأن الانتساب إلى الآباء ، والفقهَاءُ كذلك في الوصية ،
 وأهلُ المعاني والبيان في التشبيه ، ولم أر أحدا منهم عَزَّاهُ إلى قائله ،
 وقالوا في نزاع الولد إلى خاله :

عَلَيْكَ الْحَالُ إِنَّ الْحَالَ يَسْرِي إِلَى ابْنِ الْأُخْتِ بِالشَّبَةِ الْمُبِينِ
 وقالوا :

لِكُلِّ امْرِئٍ شَكْلٌ يَقَرُّ بِعَيْنِهِ
 وَقُرَّةُ عَيْنِ الْفَسْلِ أَنْ يَصْحَبَ الْفَسْلَا
 وَتَعْرِفُ فِي تَجْدِيدِ امْرِئٍ تَجْدَ خَالِهِ
 وَيَسْذُلُ أَنْ تَلْقَى أَخَا أُمِّهِ تَذَلًّا

(١) مصغى لِنَاوُهُ : نقص حظه ، يقال أصغى فلان إناء فلان : إذا أماله ونقصه
 من حظه يقول هذا الشاعر : لا تغتر بخؤلك فإنك منقوص الحظ مالم تزاحم أخوالك
 بآباء شراف وأعمام أعزة .

«الفصل : النذل الذى لامرءة له ولا جلد» وقال رافع بن هريم:-
شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم، يخاطب بنى أخوته:-

قَهْلًا عَيْرَ عَمَّكُمْ ظَلَمْتُمْ إِذَا مَا كُنْتُمْ مُتَظَلِّينَا
عَفَارِيْنَا عَلَى وَأَكْلٍ مَالِي وَجُبْنَا عَنْ رِجَالٍ آخِرِينَا
وَلَوْ كُنْتُمْ لِمُكَيْسَةٍ أَكَاكْتُمْ وَكَيْسُ الْأُمِّ كَيْسُ اللَّبْنِينَا
وَلَكِنْ أُمُّكُمْ حَمَقَتْ فَجَنَّمْ غِثَانَا مَا نَرَى فِيكُمْ سَمِينَا

وموضع هذه الآيات باب إيجاب الآلهات فى كتاب الدساء وترى نظائرله هناك
«قوله متظللينا، تقول : تظلنى مالى : أى ظلمنى مالى، و«ما» فى : إذا ما كنتم :
زائدة ، والمكيسة : المرأة التى تلد أولادا أكياسا ، وأكاست المرأة : ولدت
ولدا كيسا، والكيس : خلاف الحق ، ورجل كيس : أريب ظريف ، وقوله :
ولكن أمكم حمقت : أى صارت حمقاء، والغثا : جمع غثيث بمعنى مهزول ،

مدعو القرابة البعيدة

وبما يستطرف من محاسنهم فى مدعى القرابة البعيدة : قول رجل لآخر :
لست ترعى حقى وبيننا قرابة ا فقال : من أين ؟ قال : إن أباك كان قد خطب
أمى ، فلو تم الأمر لكنت أنا أنت ... فقال : هذه والله رحم مائة ...
وتعرض رجل لهشام بن عبد الملك وأدعى أنه أخوه ، فسأله : من أين ذلك ؟
قال : من آدم ! فأمر بأن يُعطى درهما ، فقال : لا يُعطى مثلك درهما ،
فقال هشام : لو قَسَمْتُ ما فى بيت المال على القرابة التى ادَّعَيْتَهَا لم يَبْلُكَ
إِلَّا دُونَ ذَلِكَ ... وفى هذا المعنى - معنى ادعاء القرابة وانتفاؤها -
يقول حسان بن ثابت :

لَعَمْرُكَ إِنَّ لَكَ مِنْ قُرَيْشٍ كَيْلَ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النِّعَامِ ^(١)

محاسنهم في الآباء والأبناء والأقارب من بابات شتى
ولنعطف على سائر محاسنهم في الآباء والأبناء والقربات من بابات شتى :
عن ذلك تفاخرهم بالحسب وكرم المحدث ، قال عدى بن أرطاة لإياس : دُلَّنِي
على قوم من القُرَاءِ أَوْلَهُمْ ، فقال : القُرَاءُ ضربان : ضربٌ يعملون للدنيا ،
غما ظَنُّكَ بهم : وضربٌ يعملون للآخرة فلا يعملون لك ، ولكن عليك
بأهل البيوتات الذين يَسْتَحْيُونَ لأحسابهم ... وقال زهير بن أبي سلمى :
وما يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فإِنَّمَا تَوَارَتْهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وقال :

وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطُّ إِلَّا وَشِيجَهُ وَتُغْرُسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النُّحُلُ
« الْخَطُّ : الرِّيح ، قال أبو حنيفة الدينوري العالم النباني الأشهر : الْخَطُّ :
الرياح ، وهو نسبة قد جَرَى مجرى الاسم العلم ونسبته إلى الخط ، خط البحرين ،
وإليها ترقأ السفن إذا جاءت من أرض الهند ، وليس الْخَطُّ - الذي هو الرياح -
من نبات أرض العرب . وزاد الجوهري : وإنما نسبت إلى الخط لأنها تحمل
من بلاد الهند فتقوم به . ووشيجه : فالوشيج شجر الرياح ، ...
ودخل بعض أولاد عبد الله بن الزبير على سليمان بن محمد ، فجلس على مُعْرُقَةٍ

(١) الإل : القرابة ، والسقب : ولد الناقة ، والرأل : ولد النعام ، هجو حسان
أبا سفيان الحارث بن عبد المطلب ، وزعم بعضهم أن هذا الشعر يقوله حسان لعقبة بن
أبي معيط ، وذكروا أنه كان لزنية ولذلك قال له عمر حين أمر رسول الله بضرب
عقبة ، فقال : أقتل من بين قريش صبرا ، فقال عمر : « حَقَّ قَدْجَ لَيْسَ مِنْهَا ،

« الوسادة يتكأ عليها ، فاغناظ من ذلك وقال : « من أجلسك دهنًا ؟ قال : صَفِيَّةُ
بنت عبد المطالب : فمكن فضبه . وقال أبو تمام :

تَسَبَّ كَانَ عليه من شمس الضحى ثُورًا وَرَمَنَ فَلَتَى الصَّباحَ عمودا

وقالوا فيمن يشبه أباه في علاء ابنتاه : شَيْفِئَةُ أُمِّهَا من أخزم^(١) و :
وإنَّ امرءًا في الفضل أشبهَ جدُّهُ ووالدُهُ الأذنى لغيرِ ظلوم
وقال أبو تمام فيمن مكارمُهُ تَدُلُّ على كرمِ أسلافه :

فُروِخٌ لَا تَرِفُ عَلَيْكَ إِلَّا شَهِدَتْ بِهَا على طِيبِ الأرومِ^(٢)

وفي الشَّرَفِ الحديثُ دليلُ صِدْقٍ لِمُعْتَبِرٍ على الشَّرَفِ القديم
وقال عامر بن الطفيل^(٣) في المستغنى بنفسه عن حسيبه :

إني وإن كنتُ ابنُ فارسٍ عامِرٍ وفي السَّرِّ منها والصِّمِّ المَهْذَبِ^(٤)

فما سوَّدَتْني عامِرٌ عن وِزَانَةٍ أبى الله أنْ أَسْتَوْبَأْتُمْ ولا أبِ

ولَكِنِّي أَنحَى جِهاها وَأَتَقَى إذاها وأَرْمِي من رَمَاها بِمَقْنَبِ^(٥)

(١) الشَّيْئَةُ : العادة والطبيعة وهذا مثل ، وأصله لأنَّ أخزم الطائي وهو جدُّ
جندمرتين - حاتم الطائي ، وكان له ابن يقال له أخزم كان عاقاً فأتى وترك بنين فوثبوا يوماً
على جندم أبي أخزم فأدسموه فقال :

إن بني طرجوني بالدم شَيْئَةُ أُمِّهَا من أخزم

يعنى أن هؤلاء أشبهوا أباهم في العقوق

(٢) الأروم : جمع أرومة ، وهي الأصل

(٣) شاعر مخضرم وفارس مذكور بعيد الصوت في العرب

(٤) وفي السَّرِّ منها : من سر الوادى ، وهو أكرم . وضع فيه يريد أنه في

كرم موضع من نسبها (٥) مقنَّب كُنْبَر : جماعة الخيل والرجال والجمع مقانِب
ويروى : من رماها بِمَنْكَب ، والمنكَب في الأصل : مجتمع عظم العضد والكتف ، ضربه
مثلاً للشدة والقوة

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب :
 كَسْنَا وَإِنْ كُرِمَتْ أَوَارِئُنَا يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ تَسْكِلُ
 نَبْنَى كَمَا كَانَتْ أَوَارِئُنَا تَبْنَى وَتَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا
 وقال المتنبي :

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحُلِ
 وقال :

لَا يَقْوَى شَرَفُ بِلْ شَرَفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي
 وَمَا فَضَّلَ الْوَلَدَ عَلَى الْوَالِدِ بِأَحْسَنَ مِنْ قَوْلِ الْمَتْنِيِّ :
 وَإِنْ تَكُنْ تَغْلِبُ الْغَلَاءُ عُنْصَرَهَا فَإِنَّ فِي الْخَرْمَعْنَى لَيْسَ بِالْعَنْبِ
 وقوله أيضا :
 * فَإِنَّكَ مَاءُ الْوَرْدِ إِنْ ذَهَبَ الْوَرْدُ *

وقال ابن الرومي فيمن ازداد شرف آباءه به :
 وَكَمْ أَبٍ قَدْ عَلَا بِأَبْنٍ دُرًّا شَرِيفٍ كَمَا عَلَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ عَدْنَانُ
 يَسْمُو الرِّجَالُ بِآبَاءِ وَأَوْتَةٍ تَسْمُو الرِّجَالُ بِأَبْنَاءِ وَتَزْدَانُ



وقالوا في أنه لا اعتداد بمن شرف أصله إذا لم يشرف بنفسه :
 - والقائل المعلم الأول أرسطوطاليس - : إذا كان الإنسان خسيس الأبوين
 شريف النفس ، كانت خسته أبويه زائدة في شرفه ، وإذا كان شريف الأبوين
 خسيس النفس ، كان شرف أبويه زائدا في خسته . وقال ابن الرومي :
 وَمَا الْحَسَبُ الْمُرُوثُ لَا دَرَّ دَرُّهُ يُحْتَسَبُ إِلَّا بِأَخَرٍ مُكْتَسَبُ
 إِذَا الْعُودُ لَمْ يُشْمِرْ وَإِنْ كَانَ شُعْبَةً
 مِنَ الشُّمَيْرَاتِ اعْتَدَهُ النَّاسُ فِي الْحَطَبِ

« لا دَرْدَرَة : لازكا عمله ، دعاء عليه أن لا يجعله الله نافعا ،

وقال سقراط - في الاعتذار عن شرفت نفسه ولم يشرف أصله - وقد
عَيَّرَهُ رجل بحسبه - : حَسْبِي مِنِّي ابتداءً ، وَحَسْبُكَ إِلَيْكَ انتهى ... وقال قائل
في هذا المعنى : لَأَنَّ يكون الرجل شريف النفس دَنَاءَ الأصل ، أَفْضَلُ من
أن يكون دَنَاءَ النفس شريف الأصل ، ألا ترى أَنَّ رأس الكلب خيرٌ من
ذَنَبِ الأسد !

ومما يستظرف من اعتذار المتخلفين الأندال ، عن تخلفهم عن آبائهم الأشراف
ماروى : أنه قيل لأعرابي : ما أَشْبَهْتَ أَبَاكَ ! فقال : لو أَشْبَهَ كُلُّ رجل أَباه
كُنَّا كَأَدَمَ ... وخطب رجل قَصَرَ عن أبيه إلى رجل رفيع القدر ، ابنته ، فقال
له العظيم : لو كنتُ مِثْلَ أَيْكَ ! فقال : لو كنتُ مِثْلَ أَبِي لم أَخْطُبْ إِلَيْكَ ...

ومن محاسنهم في ذم من قصر عن آبائه : قول بعضهم :

لَئِنْ فَخَرْتَ بِأَبَاءٍ لَمْ شَرَّفْ لَقَدْ صَدَقْتَ وَلَكِنْ بِنِسْمَا وَلَدُوا
وقول أبي تمام :

يَا أَكْرَمَ النَّاسِ آبَاءَ وَمُفْتَخَرًا وَالْأَمَّ النَّاسِ مَبْلُوءًا وَتَخْتَبِرًا

ونظر رجل إلى ابنٍ نذلٍ من أب كريم فقال : سبحان الله من قائل :
يُخْرِجُ الْحَبِثَ مِنَ الطَّيِّبِ . وقال شاعر في لثيم النفس كريم الأبوين :
فَلَا يَعْجَبَنَّ النَّاسُ مِنْكَ وَمِنْهُمَا فَمَا حَبَثُ مِنْ فِضَّةٍ بِعَجِيبِ
« الحبث من الحديد والفضة ونحوهما : مانفاه الكبير ولا خير فيه ،

وقالوا فيمن يَخْزَى من ذكر آبائه : فمن ذلك أن رجلاً سُئِلَ عن نسبه ، فقال : أنا ابن أخت فلان ، فقال أعرابي : الناس ينتسبون طولاً وأنت تنتسب عرضاً

ومن محاسنهم فيمن لا يُعْتَدُّ بأبيه : قول الأخطل :
وَإِذَا وَضَعْتَ أَبَاكَ فِي مِيزَانِهِمْ رَجَحُوا وَشَالَ أَبُوكَ فِي الْمِيزَانِ
« شال الميزان : ارتفعت إحدى كفتيه ، ويقال : شال أبوك في الميزان ، وهو مثل في المفاخرة يقال : فاخَرْتَهُ فشال ميزانه : أى فَخَرْتَهُ بِأَبَائِهِ وَغَلَبْتَهُ ، وقال بعض شعراء أَصْفَهَانَ :

تَبَجَّحَ بِالْكِتَابَةِ كُلُّ وَغْدٍ فَهُبُّجًا لِلْكِتَابَةِ وَالْعَمَالَةِ
أَرَى الْآبَاءَ نَسَبَتْهُمْ جَمِيعًا إِلَى الْإِبْنَاءِ مِنْ فَرَطِ النَّذَالَةِ

وقالوا في الابن يجارى أباه : العصا من العُصِيَّةِ وَ : هل تَلِدُ الحية إلا حَيَّةً
وقال شاعر :

وإنَّ أَحَقَّ النَّاسِ أَنْ لَا تَلُومَهُ عَلَى الشَّرِّ مَنْ لَمْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ وَالِدُهُ
إِذَا الْمَرْءُ أَلْفَى وَالِدِيَهُ كُلِّيهِمَا عَلَى اللَّؤْمِ فَأَعْدِرُهُ إِذَا خَابَ رَأْدُهُ^(١)

وقالت الخنساء - وقيل لها : مَا دَحَتْ أَخَاكَ حَتَّى هَجَوْتَ أَبَاكَ ؟ فقالت :

جَارَى أَبَاهُ فَأَقْبَلَا وَهُمَا يَتَعَاوَرَانِ مُلَاعَةً الْحُضْرِ
حَتَّى إِذَا تَزَّتِ الْقُلُوبُ وَقَدْ لَزَّتْ هُنَاكَ الْعُذْرُ بِالْعُذْرِ
وَعَلَا هُتَافُ النَّاسِ أَتِيَهُمَا قَالَ الْمُجِيبُ هُنَاكَ : لَا أَدْرَى

(١) أصل الرائد : الذى يتقدم القوم يبصر لهم السكلا ومساقط الغيث

بَرَزَتْ صَحِيفَةُ وَجْهِ وَالِدِهِ وَهَضَى عَلَى غُلُوَائِهِ يَجْرِي
أَوَّلَى فَأَوَّلَى أَنْ يَسَاوِيَهُ لَوْلَا جَلَالُ السَّنِّ وَالْكِبَرِ
وَهُمَا وَقَدْ بَرَزَا كَأَنَّهُمَا صَقْرَانِ قَدْ حَطَّأَا إِلَى وَكْرٍ

«قوله: مُلَاءَةُ الْحَضَرِ: فالْحَضَرُ: العدوُّ والجَرى، وإنما تريد بمُلَاءَةِ الْحَضَرِ: الْغُبَارَ
وَكَانَ عَدِيَّ بْنِ الرَّقَاعِ نَظَرَ إِلَى هَذَا فِي قَوْلِهِ يَصِفُ حِمَارًا وَأَتَانًا:
يَتَعَاوَرَانِ فِي الْغُبَارِ مُلَاءَةً بَيْضَاءَ مُحَدَّثَةً هُمَا تَسْتَجَاهَا

وَنَزَتْ الْقُلُوبُ: يَرِيدُ طُمَحَتْ وَأَشْرَأَتْ لِتَعْرِفَ مِنَ السَّابِقِ، وَلُزَّتْ: قَرْنَتْ.
وَالْعَذَرُ: جَمْعُ عَذَارٍ وَهُوَ مَا سَالَ مِنَ اللَّجَامِ عَلَى خَدِّ الْفَرَسِ، وَيُرْوَى الْقَدَرُ
بِالْقَدْرِ، وَالْقَدَرُ: الْمَنْزِلَةُ، وَالْكِبَرُ: أَظْهَرُهَا بَضْمُ الْكَافِ بِمَعْنَى الْإِكْبَرِ أَيْ وَلَوْلَا
جَلَالُ الْإِكْبَرِ، وَلَكَ أَنْ تَقْرَأَهَا الْكِبَرُ بِكَسْرِ الْكَافِ أَيْ الْكِبَرِ وَلَكِنَّهُ
أَسْكَنَ الْبَاءَ ضَرُورَةً،

أَمَّا الْإِسْلَامُ فَقَدْ عَدَّ الشَّرَفَ وَالْحَسَبَ إِنَّمَا دُوَّ بِالِاتِّقِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: إِنْ
أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاهُمْ، قَالَ بَعْضُهُمْ: مَا بَقِيَ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ لِأَحَدٍ شَرَفٌ
أَبُوَّةٌ... وَرَأَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَجُلًا يَقُولُ أَنَا ابْنُ بَطْحَاءٍ مَكَّةَ، فَوَقَفَ
عَلَيْهِ وَقَالَ: إِنْ كَانَ لَكَ دِينٌ فَلَكَ شَرَفٌ، وَإِنْ كَانَ لَكَ عَقْلٌ فَلَكَ مُرُوءَةٌ.
وَإِنْ كَانَ لَكَ عِلْمٌ فَلَكَ شَرَفٌ، وَإِلَّا فَأَنْتَ وَالْحِمَارُ سَوَاءٌ، وَقَالُوا: كَانَ
الشَّرَفُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْبَيَانِ وَالشَّجَاعَةِ وَالسَّمَاةِ، وَفِي الْإِسْلَامِ بِالْإِيمَانِ وَالتَّقَى...



وَقَالُوا فِي الدَّعْوَةِ: أَيْ ادَّعَاءِ الْوَلَدِ الدَّعِيَّ غَيْرَ أَبِيهِ، أَيْ اتِّسَابِهِ إِلَى
غَيْرِ أَبِيهِ، وَقَدْ كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَتَنَهَى الْإِسْلَامُ عَنْهُ، وَكَانَ سَيِّدُنَا
رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَبَنَّى زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ عَتِيقَ الرَّسُولِ، فَكَانُوا يَقُولُونَ لَهُ: ابْنُ

محمد ، فأمر الله عزّ وجل أن ينسب الناس إلى آبائهم وأن لا ينسبوا إلى من تنبأهم فقال : وما جعل أديعاءكم أبناءكم ذلّكم قولكم بأفواهكم « أى للاحقيقة لله فى الواقع ، والله يقول الحق » أى ماله حقيقة عينية « وهو يهدى السبيل ، آدعوهم لا بانهم هو أقسط عند الله » هو : أى دعوتهم لا بانهم ، وأقسط : عدل ، ومعناه البالغ فى الصدق ، فإن لم تعدلوا آباءهم فأخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم ، وكان الله غفورا رحيما ...

والأحاديث فى ذلك متوافرة ، فمنها قوله صلوات الله عليه : الولدُ للفراش وللعاهر الحجرُ ... « يعنى أن الولد لصاحب الفراش ، من السيد أو الزوج ، وللزاني الحية والحرمان ، وهذا كما تقول : مالك عندى شئ غير التراب ، وما بيدك غير الحجر ، وذهب قوم إلى أنه كنى بالحجر عن الرجم ، قال ابن الأثير : وليس كذلك لأنه ليس كلُّ زانٍ يُرجم ، .. وقالوا فى التعريض بالنسب - والقاتل أبو نواس :

إذا ذكرتَ عديّاً فى بنى ثعلٍ فقدّم الدال قبل العين فى النسب
ودخل ابن مُكرّم على أبى العيناء - صاحب الزوادر والمجون وكان ضرباً -
ليهنّيه بآبن وُلِدَ له ، فوضع عنده حجراً ، فلما خرج أخبرَ أبو العيناء ،
فقال : لعن الله هذا ، أما تعلمون ماذا عنيّ ؟ إنما أراد قول رسول الله :
'ولد للفراش وللعاهر الحجر' ...

ولقى رجل رجلاً فقال له : بمن أنت ؟ قال : قُرشي والحمد لله ، فقال :
لحمد لله فى هذا الموضع ريبة ... وقال زياد بن أبيه - وهو ابن أبي سفيان لربيّة -
لم جل : يادعيّ ، فقال : الدّعوة قد تشرّف بها المدعى على ، فكيف عيّرها !

وفي قولهم فيمن لا يشبه والدیه وذویه خَلَقَة :

أَلَوَاهُمُ إِلَيْكَ عَنْ أَنْسَاهِم مُعْتَذِرَه

وكان بأَصْبَهَانَ رجل مجنون يعرف بابن المستهام ، فقيل لأحمد بن عبد العزيز : إنه مليح ذو نوار ، فاستحضره ، فلما تأمله قال - أي المجنون - :

في اختلاف الوجوه من آلِ عَجَلٍ لَدَلِيلٌ على فسادِ النساء
فأراد أحمد أن يبيّش به ، ثم كفّ عنه مخافة أن يتحدث الناس بذلك ...
ومن طريف ما قالوا أيضا في التعريض بالرجل أن ابنه من زنيّة ، ما يروى
أنه قيل لرجل : إن امرأة فلان ولدت بعد الزفاف بِخَمْسَةِ أَشْهُرٍ فقال : إنه
بَنَى جَدَارَه على أَسٍ غيره ...

وخاصم ذو الرمة رجلا من ولد زياد بن أبيه فقال له الزیادی : يادعيّ ،
فأنشد ذو الرمة :

بُئْسَنُ قَالَتْ يَا جَمِيلُ أَرَبْتَنَا قُلْتَ كَلَانَا يَا بَشِيرُ مَرِيبٌ ^(١)

ومما يصح أن يذكر في هذا الباب : كما يصح أن يذكر في كتاب النساء قولهم في أن الولد الذي يَنْسِلُ من الأقارب يخرج ضاويا ضعيفا ، فمن ذلك قوله صلوات الله عليه : «اغْتَرِبُوا لَا تُضْرُوا» أي تزوجوا الغرائب دون القرائب فإن ولد الغريبة أنجب وأقوى من ولد القرية ، وقد أضوت المرأة إذا ولدت ولدا ضعيفا ، فعنى لا تضروا : لا تأتوا بأولاد ضاوين ، أي ضعفاء نحفاء ، الواحد : ضارٍ ، وكذلك قال صلوات الله عليه : لَا تَنْكِحُوا الْقَرَائِبَ الْقَرِيبَةَ

(١) أَرَبْتَنَا : رأينا منك ما يرينا ونكرهه منك

فإن الولد يُخلَق ضاويًا ... ونظر عمر رضى الله عنه إلى قوم من قريش صغار الأجسام فقال : ما لكم صغرتم ؟ قالوا : قُربُ أمهاتنا من آبائنا ، قال : صدقتم ، اغتربوا لاتضُّوا ... وقال العتيبي : زَوْجُ أهل بيت ، بعضهم فى بعض ، فلما بلغوا البطن الرابع بلغ بهم الضعف إلى أن كانوا يَحْبُون حَبْوًا لا يستطيعون القيام ضعفا ...

الرضاعة

وكذلك نورد هنا قولهم فى الرضاعة : قال رسول الله : يَحْرُمُ من الرضاعة ما يَحْرُمُ من النسب . انظر كتب الفقه ، ونهى رسول الله عن رضاع الحُمَّاء وقال : لا تسترضعوا الحُمَّاء فإن الولد يَنْزِعُ إلى اللبن ... وقال رجل فى وصف آخر نسبته إلى الرعونة : كيف لا يكون أرعن وقد أرضعته فلانة ! والله إنها كانت تَرْقُ الفَرْخَ - أى بفيها - فأرى الرعونة فى طيرانه .. ورووا أن الحسن البصرى رحمه الله عليه كانت أمه تَغْشَى أمَّ سَلَمَةَ زوج سيدنا رسول الله ، فدرت عليه من لبنها ، فورث منه عليه وفصاحته وورعه :

الإحسان

وعقرياتهم فى الجود واصطناع المعروف وقرى الأضياف

وذم البخل والسؤال

وهذا لَوْنُ ثانٍ من ألوان البرِّ هو فى الواقع يَنْظُمُ لَوْنَيْنِ ، فأما أولهما فهو هذا الذى نحن بصددِهِ الآن ، وهو الجود واصطناع المعروف ، وسائر ما يُمْتُّ إلى ذلك بسببِ واصل من قرى الأضياف وذم البخل ، وأما الآخر فهو حُسن الخلق ، وسنفرد له وَصْلاً تراه عقيب هذا .

تحفى الإسلام بالإحسان: وكما أنَّ صَلَاةَ الرَّحْمِ بِعَامَّةٍ، وَبِرَّ الوالدين بِخَاصَّةٍ،
 بما تَحَفَّى به الإسلام كُلَّ التحفَى، حتى قَرَنَهُ بالتوحيد وبالتقوى، ترى هذا الدينَ
 الحنيفَ، لقد تحفى كذلك كُلَّ التحفَى بالإحسانِ إلى مُسْتَحَقِّهِ، وذَمَّ الشُّحَّ ونَعَا،
 على أهليه، وامتدَحَ الجودَ وآوَه به كُلَّ التَّوْبَةِ، حتى قَرَنَ ذَكَرَهُ بالإيمانِ،
 ووصفَ أهله بالفلاحِ، والفلاحُ اسمُ جامعٌ لسعادة الدارينِ، فقال سبحانه
 وتقدس: أَلَمْ، ذلك الكتاب لَارِيبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُمْنُونَ بِالْغَيْبِ
 وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ
 مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ، أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ..
 وقال في وصف الأنصار: وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ،
 وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ... «الخصاصة: الفقر، ويرقى:
 يَصَان، وقال عزَّ وجلَّ: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
 أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
 وَاسِعٌ عَلِيمٌ، إلى أن قال سبحانه: وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ
 اللَّهِ وَتَثْبِيئاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ حَبَّةٍ بَرَبَوَّةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلاتٍ ضَعُفَيْنِ...
 الآيات... «قوله سبحانه: كمثل حبة... الآية، فإن ذلك تمثيل لا يقتضى
 وقوعه، والجنة: البستان، والربوة: الموضع المرتفع، وشجره في العادة يكون
 أحسن منظراً وأزكى ثمرأً، والوايل: المطر العظيم، وقال: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى
 تَنْفِقُوا مما تحبون، وما تَنَفَّقُوا مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يَخْلُفُهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ.
 «والبر ههنا: فهو بِرُّ اللَّهِ، أى خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أى السَّعَادَةُ وَالْفَلَاحُ
 وَالْفُوزُ، أو تقول: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ: أى لَنْ تَنَالُوا حَقِيقَةَ الْبِرِّ حَتَّى تُنْفِقُوا
 مما تحبون»

قال الراغب في الذريعة : وَحَقُّ لِلْجُودِ أَنْ يُقَرَّنَ بِالْإِيمَانِ ، فَلَا شَيْءَ أَخْصَّ بِهِ ، وَأَشَدُّ مُجَانَسَةً ، مِنْهُ ، إِذْ مِنْ صِفَةِ الْمُؤْمَنِ انْشِرَاحُ الصَّدْرِ : فَمَنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يُبَشِّرْهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُضِلَّهُ يُغْلِقْ صَدْرَهُ حَتَّى قَدْ حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ . . . وهذا من صفات الجواد والبخیل ، لأن الجواد يُوصَفُ بِسَعَةِ الصَّدْرِ لِلْإِنْفَاقِ ، والبخیلُ يُوصَفُ بِضِيقِ الصَّدْرِ لِلْإِمْسَاكِ . . .

الناس مجبولون على البخل

« وأما بعد » فَإِنَّ أَكْثَرَ هَذَا النَّاسِ لَقَدْ جُعِلُوا عَلَى الْبُخْلِ ، فَالْبُخْلُ هُوَ الْأَصْلُ ، وَلِأَنَّمَا الْجُودُ فِي سَائِرِ أَوَانِهِ ، تَكَلُّفٌ وَتَعَمُّلٌ وَحَمْلٌ لِلنَّفْسِ عَلَى مَكْرُوهِهَا وَعَلَى غَيْرِ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ ، وَقَدْ قِيلَ لِحَاتِمِ الطَّائِي الَّذِي يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْجُودِ : كَيْفَ تَجِدُ الْجُودَ فِي قَلْبِكَ ؟ فَقَالَ : إِنِّي لَا جِدُهُ ، كَمَا يَجِدُهُ النَّاسُ ، وَلَكِنِّي أَحْمِلُ نَفْسِي عَلَى خُطْطِ الْكَرَامِ (١) ، وَقَالَ بَعْضُ الْأَجْوَادِ : إِنَّا لَنَجِدُ كَمَا يَجِدُ الْبُخْلَاءُ وَلَكِنَّا نَصْبِرُ وَلَا يَصْبِرُونَ . . . وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ الْبَحْتَرِيُّ : وَأَشَقُّ الْأَفْعَالِ أَنْ تَهَبَ الْأَنْفُسُ مَا أَعْيَقَتْ عَلَيْهِ إِلَّا كُفٌّ وَيَقُولُ أَبُو يَعْقُوبَ الْخَرَّيْمِيُّ :

وَدُونَ النَّدَى فِي كُلِّ قَلْبٍ ثَلِيَّةٌ بِهَا مَصْعَدُ حَزْنٍ وَمُنْحَدَرُ سَهْلٍ (٢)
ويقول أبو العتاهية :

إِطْرَحْ بِطَرَفِكَ حَيْثُ شُدَّتْ فَلَنْ تَرَى إِلَّا بِخِيلًا
ويقول ابن نباتة السعدي :

(١) الخطط: جمع الخططة ، وهي الحال والامر والخطب

(٢) الثنية : المكان المرتفع الصعب المطلع ، أى أن الكرم شاق على النفس

كيف السبيلُ إلى الغنى والبخلُ في الناسِ فظنه
وأكثرُ من يتسَخَّى ويَجُودُ فإِثْمًا يَجُودُ رَغْبًا أَوْ رَهْبًا - رَغْبًا فِي عَاجِلِ
الْجَزَاءِ * كَمُلُقَى الْحَبِّ لِلطَّيْرِ لِيَصِيدَ بِهِ لَا لِيَنْفَعَهُ *
وَمَنْ يَظُنُّ نَشْرَ الْحَبِّ جُودًا وَيَنْصُبُ تَحْتَ مَا نَشَرَ الشَّبَاكَ ^(١)
وَرَهْبًا مِنْ عَابٍ يَلْتَصِقُ بِهِ أَوْ مَكْرُوهٍ يُصِيبُهُ :

مِثْلُ الْحِمَارِ الْمَوْقِعِ الظَّهْرَ لَا يُعْطِيكَ شَيْئًا إِلَّا إِذَا رَهَبَا ^(٢)
وَهَنَّاكَ صِنْفٌ مِنَ النَّاسِ يُعْطَى وَيَمْنَعُ لَا يُجَلَا وَلَا كَرَمًا ، وَإِنَّمَا يَكُونُ
ذَلِكَ تَهَوُّرًا وَانْدِفَاعًا مِنْهُ مَعَ نَزْوَةٍ مِنْ نَزَوَاتِ الْفُوسِ ، كَمَا قَالَ الْأَدِيبُ
أَبُو بَكْرِ الْخَوَارِزْمِيُّ فِي الْوَزِيرِ الصَّاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ :

لَا تَحْمَدَنَّ ابْنَ عَبَّادٍ وَإِنْ هَطَلَتْ يَدَاهُ بِالْجُودِ حَتَّى أَنْجَلَ الدِّيمَاءَ
فَإِنَّهَا خَطَرَاتٌ مِنْ وَسَاوِسِهِ يُعْطَى وَيَمْنَعُ لَا يُجَلَا وَلَا كَرَمًا
وَقَلَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَجُودُ اسْتِجَابَةً لِفَطْرَتِهِ ، وَلِدَاعِي الضَّمِيرِ ، كَمَا يَقُولُونَ ،
فَلْيَنْتَهِزْ هَذَا ، وَلْيَتَلَحَّظْ كَذَلِكَ أَنَّ الْبُخْلَ رَذِيلَةٌ تَسْتَتِيعُ رَذَائِلَ ، وَنَاهِيكَ
بِالْجُبْنِ رَذِيلَةٌ ، هِيَ أَلْزَمُ الرَّذَائِلِ لِلْبُخْلِ : كَمَا أَنَّ الْجُودَ فَضِيلَةٌ تَسْتَتِيعُ فَضَائِلَ ،
وَحَسْبُكَ بِالشَّجَاعَةِ فَضِيلَةٌ هِيَ أَخْصُ الْفَضَائِلِ بِالْجُودِ :

(١) للبتني ، وقوله ومن يظن : عطف على كل نفس في البيت قبله وهو :

وَأَمَّا فِدَاؤُكَ كُلِّ نَفْسٍ وَإِنْ كَانَتْ لِمَمْلَكَةٍ مَلَكَ

يقول : الملوك يجودون لطلب العوض كما نثر الصائد حبا تحت الشبكة ، ولا يعتد
ذلك جوداً لأنه إنما نثر لآخذ الصيد الذي هو خير من الحب

(٢) للحكم بن عبد الأسد ، والموقع الظهر : الذي يظهره آثار الدبراكثرة ما حمل
عليه وركب ، فهو ذلول .

ذَرِينِي فَإِنَّ الشُّحَّ يَا أُمَّ هَيْتَمَ - إِصْلَاحَ أَخْلَاقِ الرِّجَالِ سَرُوقٌ^(١)

وإذا اختبرت علمت غير مُدَا فِعِرْ أَنْ السَّامِحَ سَجِيَّةُ الْإِبْطَالِ
وقال أبو تمام في ذلك - من أبيات يمدح بها خالد بن يزيد الشيباني :
وإذا رأيت أبا يزيد في نَدَى وَوَعَى وَمُبْدَى غَارَةٍ وَمُعِيدَا
يَقْرِى مُرَجِيهَ مُشَاشَةٍ مَالِهَ وَشَبَا الْأَسِنَّةِ نُفْرَةً وَوَرِيدَا
أَيَقْنَتَ أَنْ مِنَ السَّامِحِ شَجَاعَةٌ تُدْمِي وَأَنْ مِنَ الشَّجَاعَةِ جُودَا^(٢)
وقال المتنبي :

هو الشجاع يَعْدُ الْبُخْلَ مِنْ جُبْنٍ وَهُوَ الْجَوَادُ يَعْدُ الْجُبْنَ مِنْ بُخْلٍ
وقد عدوا الشجاعة لوناً من الجود فقال مسلم بن الوليد :
يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ الْبَخِيلُ بِهَا وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ

(١) من أبيات جميلة نبيلة لعمر بن الازهر، وبعد البيت :

ذَرِينِي وَحُطِّي فِي هَوَايَ فَإِنِّي عَلَى الْحَسَبِ الْعَالِي الرَّفِيعِ شَفِيقٌ
وَمُسْتَمْنَحٌ بَعْدَ الْهُدُوءِ دَعْوَتُهُ وَقَدْ كَانَ مِنْ سَارِي الشَّتَاءِ طُرُوقٌ
فَقُلْتُ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا فَهَذَا مَيْتٌ صَالِحٌ وَصَدِيقٌ
أَصْفَتْ فَلَمْ أَفِحْشْ عَلَيْهِ وَلَمْ أَقُلْ لِأَحْرَمَةٍ إِنَّ الْفِئَاءَ مَضِيقٌ
لَعَمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بِلَادٌ بِأَهْلِهَا وَلَكِنْ أَخْلَاقُ الرِّجَالِ تَضِيقُ

(٢) الوغى : الحرب ، وقرى الضيف يقربه قرى : أضافه وأحسن اليه ، والمشاشة واحدة المشاس وهو رأس العظم الذى يمكن مضغه ، يقول : انه يطعم المجتدى ماله حتى انه ليسش العظم وهذه مبالغة في أنه يمكن المجتدى من ماله . والشبا : جمع شباة ، وشباة كل شيء : حذته ، والثغرة : نقرة البحر

ولأجل هذين الملاحظين ، تظاهرت الآياتُ والاحاديثُ وما أثر عن
الأوائل من العلماء والحكماء والشعراء والربّانيين ، على ذمّ البخل وامتداح الجود
والإحسان ، وأكثروا وأفثتوا وأبدعوا ، الأمرُ الذي يدلُّ على أنهم قدروا
أثر الجودِ والبخل في الخلق حقَّ قدره ، وأنهم لذلك شنّوا هذه الغارة الشّعواء
على الإنسانِ الانانيِّ الكزّ الشحيحِ الكاين في نفس كلِّ إنسان ...

عقرياتهم في مدح الجود وذم البخل

ولنأخذ الآن في عقرياتهم في ذم البخل ومدح الجود والإحسان واصطناع
المعروف ، والكلام في هذه المعاني يدخلُ بعضه في بعض ... كتب رجلٌ من البخلاء
إلى رجلٍ من الأسخياء يُخَوِّفُهُ الفقرَ ، فأجابه : الشيطانُ يَعِدُكُمْ الفقرَ ويأمرُكم
بالفحشاء واللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً منه وفضلاً ... وإنى أكرهُ أن أتُركَ أمراً قد
وقع لِأمرٍ لَعَلَّهُ لَا يَقَعُ . ويقول سبحانه : إِنَّ الشَّيْطَانَ يَعِدُ النَّاسَ الْفَقْرَ
فِي الْإِنْفَاقِ ، أَى يقول لهم : إن عاقبة إنفاقكم أَنْ تَفْتَقِرُوا - والوعدُ كما
يُسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ يستعمل في الشَّرِّ - ويأمرُكم بالفحشاء ، أَى يغريكم بالبخلِ
ومنع الصدقات إغراءً لَلْأَمْرِ لِلْأُمُورِ ، فالفحشاءُ هنا : البخلُ ، والفاحشُ
عند العرب : البخيل ، قال طرفةُ بنُ العبد في مُعَلَّقَتِهِ :

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي

عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمَتَشَدِّدِ ^(١)

ثم قال سبحانه : والله يعِدكم في الإنفاق مغفرةً لذنوبكم وكفارةً لها ، وأن

(١) بتمام : يخنار ، والعقائل : كرائم الأموال والنساء ، الواحدة عقيلة ، والفاحش
البخيل ، يقول طرفة : إن المات لا يبقى على الأجواد والبخلاء فيصطنع الكرام وكرائم
أموال البخلاء فلا يجدى البخل على صاحبه ، فالجود أحرى لأنه أحمد .

يُخْلِفَ عَلَيْكُمْ أَفْضَلَ مِمَّا أَنْفَقْتُمْ» وقيل لإبليس : مَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيْكَ ؟ فقال : عَابِدُ بُخَيْلٍ ... قيل : فَمَنْ أَبْغَضُ النَّاسَ إِلَيْكَ ؟ قال : فَاسِقُ سَخِيٍّ ، فَإِنْ سَخَاةً يُنْجِيهِ ... أفرأيتَ ! أليس هذا الكلامُ تمثيلاً جليلاً لِحَالِي الْبُخِيلِ وَالْجَوَادِ ! حتّى إنهم فضّلوا الفاسق السخّيَّ على العابد البخيل ، وأحسَنُ منهما جميعاً لعمرى : العابدُ الكريمُ ، وإنّما كان العابدُ البخيلُ مفضولاً ، لأنَّ العبادةَ الحقَّ لا تجتمع والبُخلُ ... وقال بعضهم لآخر : إِنَّكَ مُتَلَاَفٌ ، فقال : مَنَعَ الْجُودُ سُوءَ ظَنِّ بِالْمَعْبُودِ ، قال تعالى : وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . ومن هذا قول بعض الحكماء : عَلَيْكُمْ بِأَهْلِ السَّخَاةِ وَالشَّجَاعَةِ فَأَنَّهُمْ أَهْلُ حُسْنِ ظَنِّ بِاللَّهِ ، وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْبُخْلِ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِمْ مِنْ ضَرِّ بُخْلِهِمْ ، وَمَذَمَّةِ النَّاسِ لَهُمْ ، وَإِطْبَاقِ الْقُلُوبِ عَلَى بُغْضِهِمْ ، إِلَّا سُوءَ ظَنِّهِمْ بِرَبِّهِمْ فِي الْخَلْفِ - أى العوض - لَكَانَ عَظِيماً ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ مُحَمَّدُ الْوَرَّاقُ :

مَنْ ظَنَّ بِاللَّهِ خَيْرًا جَادَ مُبْتَدئًا وَالْبُخْلُ مِنْ سُوءِ ظَنِّ الْمَرْءِ بِاللَّهِ
وورد في الحديث : خَصَلَتَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ : الْبُخْلُ وَالْكِبَرُ
وقال بعضهم في هذا المعنى :

أَنَاسٌ تَأْتَهُونَ لَهُمْ رُؤَاؤُهُ تَفْغِيمُ سَمَاوُهُمْ مِنْ غَيْرِ وَبَلٍ^(١)
ومن أمثالهم في ذلك : رَبُّ صَلَفٍ تَحْتَ الرَّاعِدَةِ ... « الراعدة : السحابة ذات الرعد ، والصلف قلة الخير ، وهذا المثل يضرب للبخيل مع الوُجْدِ والسعة ، ولأنَّ اللغة كلام كثير في هذا المثل رَاجِعُهُ فِي مَادَّةِ «صَلَفٍ» بِلِسَانِ

(١) تَأْتَهُونَ : من التيه وهو الزهو والكبر ، والرواء : حسن المنظر ، والوبل : المطر العظيم

العرب ... ومن قولهم في البَحِيل لا يُرْجَى خَيْرُهُ ولا يَمِضُ حَبْرُهُ :
يُعالج نفساً بينَ جَنْبَيْهِ كَرْزَةً إِذَا هُمْ بِالْمَعْرُوفِ قَالَتْ لَهُ مُهْلًا
ومن المستطرف من كُنَايَاتِهِمْ فِي هَذَا الْمَعْنَى مَا رَوَى : أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ
لِزَوْجِهَا : وَاللَّهِ مَا يُقِيمُ الْفَارُ فِي دَارِكَ إِلَّا لِحَبِّ الْوَطَنِ ... وَقَالَ رَجُلٌ : إِنِّي
أَقْصِدُ فَلَانًا رَاجِيًا نَدَاهُ ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ :
وَتَرْجُو النَّدَى مِنْ إِنَاءٍ قَلْنَا ارْتَشَحَا

كَالْمُسْتَذِيبِ لِشَحْمِ الْكَلْبِ مِنْ ذَنْبِهِ
وقال ابن الرومي - وهو من مُقَدِّعَاتِ الْمُضْحِكَةِ - :

يُقْتَرُّ عَيْسَى عَلَى نَفْسِهِ وَلَيْسَ بِيَاقٍ وَلَا خَالِدٍ
وَلَوْ يَسْتَطِيعُ لِنَقْتِيرِهِ تَنْفَسُ مِنْ مَنْخَرٍ وَاحِدٍ

« الْمَنْخَرُ : ثَقْبُ الْأَنْفِ ، وَقَالَ آخَرُ :

يُحِبُّ الْمَدِيحَ أَبُو خَالِدٍ وَيَفْزَعُ مِنْ صَلَةِ الْمَادِحِ
كَبُكْرٍ تَوَدُّ لَذِيذَ النِّكَاحِ وَتَهْلَعُ مِنْ صَوْلَةِ النَّاكِحِ

وقال الْبُخْتَرِيُّ - وهو معنى بديع - :

جِدَّةٌ يَذُودُ الْبُخْلُ عَنْ أَطْرَافِهَا كَالْبَحْرِ يَدْفَعُ مَاحُهُ عَنْ مَائِهِ ^(١)

وقال بشار :

إِذَا جِشَّتْهُ فِي حَاجَةٍ سَدَّ بَابَهُ فَلَمْ تَلْقَهُ إِلَّا وَأَنْتَ تَكْمِنُ
إِذَا سَلَّمَ الْمَسْكِينُ طَارُ فَوَادُهُ مَخَافَةَ سُؤْلِ وَاعْتِرَافِهِ جُنُونُ

(١) الجدة : الغنى ، ويذود : يدفع

وقال ابن الرومي . وهو كذلك من هجائه المضحك :

تَجَنَّبَ سُلَيْمَانُ قُفْلَ الذِّدَى فَقَدْ يَدُسُّ النَّاسُ مِنْ فَجْحِهِ
ولو كان يملكُ أَمْرَ أُنْتِهِ لما طَمِعَ الْحَشُّ فِي سَلِجِهِ

« الْحَشُّ : المستراح - موضع قضاء الحاجة - والسلح : النجس - الغائط - »

وقال ابن الرومي أيضا - وهو معنى بدیع - وإن كان من بابة غير هذه البابة :

وَإِذَا أَمْرُؤُ مَدَحَ أَمْرَاءَ النِّوَالِهِ وَأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَرَادَ هِجَاءَهُ
لَوْ لَمْ يُتَقَدَّرْ فِيهِ بَعْدَ الْمُسْتَقَى عِنْدَ الْوُرُودِ لِمَا أَطَالَ رِشَاءَهُ

« الرشاء : جبل الدلو » وقالوا : من لم يأت الخير صغيرا لم يأت كبيراً ، وفي ذلك يقول المعلوط السعدي - وهو شاعر إسلامي - :

إِذَا الْمَرْءُ أَعْيَبَتْهُ الْمَرْوَةُ نَاشِئًا فَطَلَبُهَا كَهَلًا عَلَيْهِ شَدِيدُ^(١)

. وقالوا في البخيل كلما ازداد ثراء ازداد بخلاً وكرازة ، والفائل ابن الرومي -

والبيتان من أوابده وتوليداته البديعة :

إِذَا عَمَرَ الْمَالُ الْبَخِيلَ وَجَدَّتْهُ يَزِيدُ بِهِ يُبْسًا وَإِنْ ظَنَّ يَرْطُبُ
وَلَيْسَ عَجِيبًا ذَاكَ مِنْهُ فَإِنَّهُ إِذَا عَمَرَ الْمَاءَ الْحِجَارَةَ تَصْلُبُ
وقال :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَالَ يُهْلِكُ أَهْلَهُ إِذَا جَمَّ آتِيهِ وَسَدَّ طَرِيقَهُ

(١) من أبيات جميلة يقول فيها :

مَتَى مَا يَرِ النَّاسُ الْغَنَى وَجَارُهُ فَقِيرٌ يَقُولُوا عَاجِزٌ وَجَلِيلُ
وَلَيْسَ الْغَنَى وَالْفَقْرُ مِنْ حِيلَةِ الْفَتَى وَلَكِنْ أَحَاطَ قَسَمَتْ وَجُدُودُ
فَكَمْ قَدَرْنَا مِنْ غَنَى مُذَمَّمٍ وَصُعْلُوكٍ قَوْمَ مَاتَ وَهُوَ حَمِيدُ
إذا المرء البيت

وَمَنْ جَاوَرَ الْمَاءَ الْغَزِيرَ جَمَّهُ وَسَدَّ سَبِيلُ الْمَاءِ فَهُوَ غَرَبُهُ

وقال :

الْمَالُ يُكْسِبُ رَبَّهُ - مَا لَمْ يَفِضْ فِي الرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ - سُوءُ ثَنَاءٍ

كَلِمَاءٍ تَأْسُنُ بَشْرَهُ إِلَّا إِذَا حَبَطَ السَّقَاةُ جَمَامَهُ بِدَلَاءٍ

« تأسن : تنغير ، وخبطه : ضربه ، والجمام : بتثايت الجيم : معظم الشيء »

عقرياتهم في الجود واصطناع المعروف

ولندع البُخلَ والبخلَاءَ لحظةً وننتقل إلى عقرياتهم في الجود والإحسان واصطناع المعروف : جاء في كلية ودمته : إن أحسنَ الناسَ عَيْشاً من حُسْنِ عَيْشِ الناسِ في عَيْشِهِ ، وإن من أَلَذِّ اللَّذَّةِ الإِفْضَالَ عَلَى الإِخْوَانِ ، وفي الحديث : ليس لك من مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَنْفَيْتَ ، أَوْ لَيْسَتْ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ أُعْطِيتَ فَأَمْضَيْتَ ، وما سوى ذلك فهو مِلْكُ الْوَارِثِ وقال شاعرهم :

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أَمْسَكَتَهُ فَإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَاَلْمَالُ لَكَ

وقال سعيد بن العاص من خطبة له : مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً فَلْيُنْفِقْ مِنْهُ سِرّاً وَجَهراً حَتَّى يَكُونَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يُتْرَكُ لِأَحَدٍ رَجُلَيْنِ : إِمَّا مُصْلِحٍ ، فَلَا يَقْلُ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وَإِمَّا مُفْسِدٍ فَلَا يَبْقَى لَهُ شَيْءٌ ... فقال معاوية : جَمَعَ أَبُو عِثْمَانَ طَرَفَيْ الْكَلَامِ ...

وقال الأحنف بن قيس : مَا شَأْنُكُمْ رَجُلًا مُذْ كُنْتُ رَجُلًا ، وَلَا زَحَمْتُ رُكْبَتَيْ رُكْبَتَيْهِ ، وَإِذَا لَمْ أَصِلْ مُجْتَدِيَّ حَتَّى يَنْتَسِحَ جَبِينُهُ عَرَقاً كَمَا يَنْتَسِحُ الْحِمِيْتُ ، فَوَاللَّهِ مَا وَصَلْتُهُ ... « قوله : مجتدى : يريد . الذي يأتيه يطلب ماله يقال : اجتدها يجتديه واعتفاه يعتفيه واعتراه يعتريه واعتثره يعتثره وعراه

يَعْرُوهُ ، : إِذَا قَصَدَهُ يَتَعَرَّضُ لِنَائِلِهِ . وَيَنْتَبِحُ كَيْضَرِبُ : يَرْشَحُ ، وَالْحَمِيْتُ :
وعاء السمن . يقول الأحنف : لِمَنَ لَا يُحَوِّجُ سَائِلَهُ إِلَى أَنْ يَتَرَشَّحَ جَبِينَهُ
عِرْقًا ، لِمَبَادِرَتِهِ بِإِعْطَائِهِ ، وَقَالَ مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ لَوَرْدَانَ مَوْلَى عَمْرِو بْنِ
الْعَاصِ : مَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا تَلَذُّهُ ؟ قَالَ : الْعَرِيضُ الطَّوِيلُ ، قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ :
أَنْ أَتَى أَخًا قَدْ نَكَبَهُ الدَّهْرُ فَأَجْبُرَهُ ، قَالَ : نَحْنُ أَحَقُّ بِهَذَا مِنْكَ . . . قَالَ :
إِنَّ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْكَ مَنْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ . . . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ثَلَاثَةٌ لَا أَكَاثِمُهُمْ :
رَجُلٌ بَدَأَنِي بِالسَّلَامِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ لِي فِي الْمَجْلِسِ ، وَرَجُلٌ اغْتَبَرَتْ قَدَمَاهُ
فِي الْمَشْيِ إِلَى إِزَادَةِ التَّسْلِيمِ عَلَيَّ ؟ فَأَمَّا الرَّابِعُ فَلَا يَكَاثِمُهُ عَنِّي إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ،
قِيلَ : وَمَنْ هُوَ ؟ قَالَ : رَجُلٌ نَزَلَ بِهِ أَمْرٌ فَبَاتَ لَيْلَتَهُ يَفْسِكُرُ بَيْنَ يُنْزِلُهُ ، ثُمَّ
رَأَى أَهْلًا لِحَاجَتِهِ فَأَنْزَلَهَا بِي . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا : لَا يُزْهَدَنَّكَ فِي
الْمَعْرُوفِ كَفْرٌ مِنْ كَفَرِهِ ، فَإِنَّهُ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لَمْ تَصْطَنِعْهُ إِلَيْهِ : « كَفَرُ
مِنْ كَفَرِهِ : يَرِيدُ : كَفَرُ النِّعْمَةِ ، أَيْ عَدَمُ شُكْرِهَا ، وَقَوْلُهُ : مَنْ لَمْ تَصْطَنِعْهُ إِلَيْهِ
يَرِيدُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ »

وَأُنَشِدُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُمُفَرٍ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، أَحَدُ الْأَجَوَادِ فِي الْإِسْلَامِ
قَوْلَ الشَّاعِرِ :

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمَضْنَعِ^(١)

فَقَالَ : هَذَا رَجُلٌ يَرِيدُ أَنْ يُبْخَلَ النَّاسُ ، أَمْ طَرِ الْمَعْرُوفِ مَطَرًا فَإِنْ
صَادَفَ مَوْضِعًا فَهُوَ الَّذِي قَصَدَتْ لَهُ ، وَإِلَّا كُنْتَ أَحَقَّ بِهِ

« وَبَعْدَ » فَهَنَّاكَ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَمَا تَرَى مَذْهَبَانِ ، فَذَهَبَ يَرَى إِعْطَاءَ

(١) الصَّنِيعَةُ : مَا أَسْدَبَتْ مِنَ الْمَعْرُوفِ ، وَبَعْدَ هَذَا الْبَيْتِ :

فَإِذَا صَنَعْتَ صَنِيعَةً فَانْعَمِ بِهَا لِلَّهِ أَوْ لِدَوَى الْقَرَائِبِ أَوْ دَعِ

المستحق وغير المستحق ، الكريم ، اللئيم ، الشاكر ، والكافر : ويةقول
هذا المذهب - والقائل الشاعر محمود الوراق :

فإمّا كريمٌ صُنْتُ بالجودِ عِرْضَهُ وإمّا لئيمٌ صُنْتُ عن أَوْمِهِ عِرْضِي
وقال بعضهم : لأنْ أُخْطِئَ باذلاً ، أَحْبَبْتُ إِلَىَّ مَنْ أَنْ أُصِيبَ مانعاً ، باذلاً
ومانعاً : حالان من فاعل أُخْطِئَ وأُصِيبَ «

ومذهب آخر يرى حرمانَ اللئيمِ وَمَنْ يُسْتَخْزَرُ بِإِعْطَائِهِ ، قال قائلهم :
انْقُوا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ وَاللَّئِيمِ إِذَا شَبِعَ . وقالوا : اللئيمُ يُزْدَادُ بِالْعُرْفِ
خَبَالاً ، كما يزداد المريض من كثرة الطعام وبالا ، « خبالا : فسادا ،
وقال شاعر :

* ليس في مَنَعٍ غَيْرِ ذِي الْحَقِّ بُخْلُ *

وقال الآخر :

وَمَنْ يَصْنَعِ الْمَعْرُوفَ مَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ

يُلَاقِي كَمَا لَاقَى مُجِيرُ أُمِّ عَامِرٍ ^(١)

(١) أم عامر : الضبع ، وكان من حديث هذا المثل أن قوما خرجوا إلى الصيد
في يوم حار ، فبينما هم كذلك إذ عرضت لهم أم عامر ، وهي الضبع ، فطردوها - أي
حاولوا صيدها - فألعبتهم حتى ألجأوها إلى خباء أعرابي فافتجمت ، فخرج إليهم
الأعرابي فقال : ما شأنكم ؟ فقالوا : صيدنا وطريدتنا . قال : كلا ، والذي نفسي بيده
لا تصلون إليها مائت سيفي بيدي . فرجعوا وتركوه ، فقام إلى لفحة - « اللفحة :
الناقة الحلوب الغزيرة اللبن ، فخلبها وقرب إليها ماء ، فأقبلت مرة تلغ من هذا ومرة
تلغ من هذا حتى عاشت واستراحت ، فبينما الأعرابي نائم في جوف بيته إذ وثبت عليه
فبقرت بطنه وشربت دمه وأكلت حشوته - أمعاه - وتركته فجاء ابن عم له فوجده
على تلك الصورة فالتفت إلى موضع الضبع فلم يرها فقال : صاحبتى والله ، وأخذ سيفه
في كنانته واتبعها فلم يزل حتى أدركها فقتلها وأنشد البيت

وأخيرا قالوا - والقائل أبو العتاهية :-

إذا المال لم يُوجِبْ عليك عطاءه صنيعة تقوى أو خليل مُخالِفُه

منعتَ وبعض المنع حزمٌ وقوة ولم يبتذلْ المالَ إلا حقائقُه^(١)

وقال الحسنُ والحُسَيْنُ رضوان الله عليهما لعبد الله بن جعفر : إنك قد أسرفتَ في بذلِ المالِ ! قال : بأبي أيتها ، إن الله عودني أن يُفْضَلَ عليَّ ، وعودته أن أفضَلَ على عباده ، فأخاف أن أقطع العادة ، فيقطع عني ... ومروءة يزيد بن المهلب بأعرابية ، في خروجه من بين عمر بن عبد العزيز^(٢) ، يريد البصرة ، فقرئته عتزا فقبلها ، وقال لابنه معاوية : مامعك من النفقة ؟ فقال : ثمانمائة دينار ، قال : فادفعها إليها ، فقال له ابنه : إنك تريد الرجال ، ولا يكون الرجال إلا بالمال ، وهذه بُرضيها اليسير ، وهي بعد لا تعرفك ، فقال له : إن كانت ترضى باليسير فأنا لا أرضى إلا بالكثير ، وإن كانت لا تعرفني ، فأنا أعرف نفسي ، اذفَعها إليها ...

وأورد المبرِّدُ في الكامل ما يأتى : وأشرف عمر بن هُبيرة الفَزَارِيُّ - وإلى العراقيين يزيد بن عبد الملك - من قصره بالكوفة يوما ، فإذا هو بأعرابيَّ

(١) حقائقه : جمع حقيقة : ما يحق عليك أن تحميه

(٢) وذلك سنة ١٠١ للهجرة ، وكان عمر بن عبد العزيز أخذه بعدة وعدهما سليمان بن عبد الملك ، وذلك أن يزيد كان عامله على حراسان ، فانتح جرجان وطبرستان ، ثم بشره بفتحهما في كتاب أرسله إليه يقول فيه : وقد صار عندى من خمس ما أقام الله على المسلمين بعد أن صار لكل ذى حق حقه في النى والغنيمة ستة آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله ... ثم مات سليمان وولى الخلافة عمر ، فسأل يزيد ، فتلکأ فأمر بسجنه ، ثم هرب لما بلغه شدة مرض عمر الذى مات به مخافة من يزيد بن عبد الملك الخليفة بعده لما كان بينهما من التباغض

يُرْقَصُ جَمَلَهُ الْآلُ^(١) فقال : لحاجبه : إن أرادني هذا فأوصله إليّ ، فلما دنا الأعرابي سألّه ، فقال : قصدت الأمير ، فأدخله إليه ، فلما مثل بين يديه قال له عمر : ما خطبك ؟ فقال الأعرابي :

أَصْلَحَكَ اللَّهُ قُلَّ مَا بِيَدِي فَمَا أَطِيقُ الْغِيَالِ إِذْ كَثُرُوا
أَلَحَّ دَهْرٌ أَنَحَى بِكُلِّكِلِهِ^(٢) فَأَرْسَلُونِي إِلَيْكَ وَانْتَظَرُوا
رَجُوكَ لِلدَّهْرِ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ غَيْثَ سَحَابٍ إِنْ خَانَهُمْ مَطَرُ
فَأَخَذْتُ عَمَرَ الْأَرْبَحِيَّةَ ، فجعل يَهْتَرُ في مجلسه ، ثم قال : أرسلوك إليّ وانتظروا الإذن والله لا تجلس حتى ترجع إليهم غانماً وأمر له بألف دينار ، وَرَدَّه على بعيره ... قال المبرد : وَحُدِّثُ أَنْ الْخَبَرَ لِمَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ . أقول : وقد أورده ابن خلكان منسوبا لمعن .



وهذا معن بن زائدة هو الآخر له في المكارم عُزْرٌ وأوضاع ، وهو أشهر في باب الأريحية والجود والإقدام والحلم من أن يُتَوَهَّ به ، ودو معن بن زائدة الشيباني ، كان في أيام بني أمية مُتَنَقِّلاً في الولايات ، ومنقطعا إلى يزيد ابن عمر بن هُبَيْرَةَ وإلى العراقيين ، فلما أَدَالَ من بني أمية بنو العباس ، وجرى بين أبي جعفر المنصور وبين يزيد بن عمر المذكور ماجرى ، أُنْبِئِي يومئذ معنُ يزيدَ بلاءَ حسنا ، فلما قُتِلَ يزيد خاف معن من أبي جعفر المنصور ، فاستتر عنه مدة وجرى له مُدَّةٌ استتارِهِ غرائب ، وهنا يحدثنا شاعره الفحلُ مَرْوَانُ بْنُ حَفْصَةَ بحديث طريف من هذه الغرائب . قال :

(١) الْآلُ : ما تراه في الضحى كالماء بين السماء والأرض ، ويرقصه : يحمله على الرقص ، وهو نوع من السير كالخبب

(٢) أَنَحَى : اعتمد ومال ، والكلكل : الصدر ، استعاره لوطاة الدهر وثقله

أخبرني معنٌ وهو يومئذ مُتَوَلَّى بِلَادِ الْيَمَنِ : أَنَّ الْمَنْصُورَ جَدَّ فِي طَلْبِي ، وَجَعَلَ
لِمَنْ يَحْمِيْنِي إِلَيْهِ مَالًا ، قَالَ مَعْنٌ : فَاضْطَرَرْتُ لِإِلْحَاحِهِ فِي الطَّلَبِ إِلَى أَنْ
تَعَرَّضْتُ لِلشَّمْسِ حَتَّى لَوَّحَتْ وَجْهِي ، وَلَبِثْتُ جُبَّةً صُوفٍ ، وَرَكِبْتُ بُجَلا
وَخَرَجْتُ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْبَادِيَةِ لِأَقِيمَ بِهَا ، فَلَمَّا خَرَجْتُُ مِنْ بَابِ حَرْبٍ -
أَحَدِ أَبْوَابِ بَغْدَادَ - تَبِعَنِي أَسْوَدٌ مُتَقَلِّدٌ سَيْفًا حَتَّى إِذَا غَبَّتْ عَنِ الْحَرَسِ ،
قَبِضَ عَلَى خِطَامِ الْجُلِّ ، فَأَنَاحَهُ ، وَقَبِضَ عَلَى يَدِي ، فَقُلْتُ لَهُ : مَا بَكَ ؟ قَالَ :
أَنْتَ طَلِيبَةٌ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قُلْتَ : وَمَنْ أَنَا حَتَّى أَطْلُبَ ؟ قَالَ : أَنْتَ مَعْنُ بْنُ
زَائِدَةَ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا هَذَا ، اتَّقِ اللَّهَ عِزَّ وَجَلِّ ، وَأَيُّنَ أَنَا مِنْ مَعْنٍ ؟ فَقَالَ :
دَعْ هَذَا ، فَإِنِّي - وَاللَّهِ - لَا أَعْرِفُ بِكَ مِنْكَ ، فَلَمَّا رَأَيْتَ مِنْهُ الْجِدَّةَ قُلْتَ لَهُ : هَذَا
عِقْدُ جَوْهَرٍ قَدْ حَمَلْتُهُ مَعِيَ بِأَضْعَافِ مَا جَمَلَهُ الْمَنْصُورُ لِمَنْ يَحْيِيهِ بِي ، فَخُذْهُ
وَلَا تَكُنْ سَيِّئًا لِسَفْكِ دَمِي ، قَالَ : هَاتِهِ ، فَأَخْرَجْتَهُ إِلَيْهِ ، فَنَظَرَ فِيهِ سَاعَةً ،
وَقَالَ صَدَقْتَ فِي قِيَمَتِهِ ، وَلَسْتُ قَابِلَهُ حَتَّى أَسْأَلَكَ عَنْ شَيْءٍ ، فَإِنْ صَدَقْتَنِي
أَطْلَقْتُكَ ، قُلْتَ : قُلْ ، قَالَ : إِنْ النَّاسَ قَدْ وَصَفُوكَ بِالْجُودِ ، فَأَخْبِرْنِي :
هَلْ وَهَبْتَ مَا لَكَ كُلَّهُ قَطْ ؟ قُلْتَ : لَا ، قَالَ فَنِصْفَهُ ، قُلْتَ : لَا ، قَالَ : فَنُكْلَهُ
قُلْتَ : لَا ، حَتَّى بَلَغَ الْعُشْرَ ، فَاسْتَحْيَيْتَ وَقُلْتَ : أَظُنُّ أَنِّي قَدْ فُكِلْتُ
هَذَا ، قَالَ : مَا ذَاكَ بِعَظِيمٍ ، أَنَا وَاللَّهُ رَاجِلٌ - يَرِيدُ مِنَ الْمَشَاةِ - وَرِزْقِي مِنْ
أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ كُلِّ شَهْرٍ عَشْرُونَ دِرْهَمًا ، وَهَذَا الْجَوْهَرُ قِيَمَتُهُ أَلُوفٌ
دِينَائِرٍ ، وَقَدْ وَهَبْتَهُ لَكَ وَوَهَبْتُكَ لِنَفْسِكَ وَلِجُودِكَ الْمَأْثُورِ بَيْنَ النَّاسِ
وَلِتَعْلَمَ أَنَّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَنْ هُوَ أَجْوَدُ مِنْكَ ، فَلَا تُعْجِبُكَ نَفْسُكَ ، وَلِتَحْقِرْ
بَعْدَ هَذَا كُلِّ جُودٍ فِعْلَتَهُ وَلَا تَتَوَقَّفَ عَنْ مَكْرُمَةٍ ، ثُمَّ رَمَى الْعِقْدَ فِي حِجْرِي ،
وَتَرَكَ خِطَامَ الْجُلِّ ، وَوَلَّى مُنْصَرَفًا ، فَقُلْتُ : يَا هَذَا ، وَاللَّهِ لَقَدْ فَضَحْتَنِي ،

وَأَسْفَكَ دُمِي عَلَى أَهْوَنُ مَا فَعَلْتُ ، نَحْذُ مَا دَفَعْتُهُ لَكَ ذَائِقِي غَيْثٍ عَنْهُ ، فَضَحَكَ
 وَقَالَ : أَرَدْتُ أَنْ تُكَذِّبَنِي فِي مَقَالِي هَذَا ! وَاللَّهِ لَا أَخْذَتُهُ وَلَا أَخَذَ لِمَعْرُوفٍ
 ثَمَنًا أَبَدًا ، وَهَضِي لِسَابِلِهِ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ طَلَبْتَهُ بَعْدَ أَنْ أَوْنْتُ ، وَبَذَلْتُ لِمَنْ يَجِيءُ
 بِهِ مَا شَاءَ فَمَا عَرَفْتُ لَهُ خَبْرًا ، وَكَأَنَّ الْأَرْضَ ابْتَلَعَتْهُ ... أَلَا تَرَى مِمِّي أَنْ
 مَا فَعَلَهُ هَذَا الْجَنْدِيُّ الْفَقِيرُ إِنْ لَمْ يَفْقُ بِهِ مَعْنَى بَنٍ زَائِدَةٍ وَأَشْبَاهَ مَعْنَى بَنٍ
 زَائِدَةٍ ، فِي بَابِ الْمَرْوَةِ وَالْفَتْوَةِ وَالنَّجْدَةِ وَالْكَرَمِ وَعَبْرِيَةِ الرُّوحِ فَإِنَّهُ لَا يَقِلُّ
 عَنْهُمْ !

جُهِدُ الْمُقِلِّ إِذَا أَدْطَاكَ نَائِلُهُ وَمُكْرَرٌ مِنْ غَيْثِ سَيَّانٍ فِي الْجُودِ
 فهو كما قال الشاعر :

وَلَمْ يَكْ أَكْثَرُ الْفَتِيَانِ مَالًا وَلَكِنْ كَانَ أَرْحَبَهُمْ ذِرَاعًا



وَمِنْ هُنَا حَثُّوا عَلَى الْجُودِ وَالْمَرْوَةِ وَاتَّسَخَّى حَتَّى فِي حَالَةِ الْعُسْرِ وَالضَّقِيقِ
 فَمِنْ ذَلِكَ مَا قَرَأْنَاهُ مَلْسُوبًا لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي حَالِدٍ الْبَرَمَكِيِّ أَوْ لَامْرَأَةٍ
 مِنَ الْعَرَبِ تَوْصِي بِهِ ابْنَهَا ، وَهُوَ : إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَيْكَ الدُّنْيَا فَأَنْفِقْ ، فَإِنَّهَا لَا تَقْفَى ،
 وَإِذَا أَذْبَرْتَ عَنْكَ فَأَنْفِقْ فَإِنَّهَا لَا تَبْقَى . أَخَذَهُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ فَقَالَ :

وَأَنْفَقْ إِذَا أَنْفَقْتَ إِنْ كُنْتَ مُوسِرًا

وَأَنْفِقْ عَلَى مَا خَيْلَكَ حِينَ تُعْسِرُ

فَلَا الْجُودُ يُفْنِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُقْبِلٌ

وَلَا الْبَخْلُ يُبْقِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُدْبِرٌ

وقال الآخر في معناه :

لَا تَبْتَخُنْ بِدُنْيَا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ فَلَيْسَ يَنْقُصُهَا التَّجْدِيرُ وَالسَّرْفُ

فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَأَنْجِدْ أَنْ نَجُودُ بِهَا وَالشُّكْرُ مِنْهَا إِذَا مَا أَذْبَرْتَ خَلْفُ



ولا تنسَ أن مرادهم بالإففاق والجود هنا : الإففاقُ في سبيل الله والبرِّ
لا في سبيل الشيطان والإثم ، والجودُ على ذوى الحقوق ومن هم في حاجة إليك
حتى مع إدبار الدنيا عنك ، وبالحرى مرادهم بالسرف : السرفُ في الشرف ، وما
يُكسب المرءَ مَحْمَدَةً وَمَقَّةً ^(١) . ويؤثر عن معاوية أو المأمون - وقد قيل
لا أحدهما : لاخير في السرف - فقال : لا سرف في الشرف ...

وقال سلم بن قتيبة : أحدكم يحقر الشيء فيأني ما هو شر منه ، يعنى المنع ،
يريد الحث على إعطاء القليل إن لم يستطع إعطاء الكثير ، وقال حماد بن عمار
في ذلك من آيات :

بُتَّ النَّوَالِ وَلَا تَمْنَعْ قَلْبُهُ فكل ما سدد فقرا فهو محمود

يقول فيها :

إِنَّ الْكَرِيمَ لِيُخْفِيَ عَنْكَ عُسْرَتَهُ حَتَّى تَرَاهُ غَنِيًّا وَهُوَ بِجُودٍ
إِذَا تَكَرَّمْتَ أَنْ تُعْطِيَ الْقَائِلَ وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرْ الْجُودُ
وَالْبَخِيلُ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلَلٌ زُرُقُ الْعْيُونِ عَلَيْهَا أَوْجُهُ سُودُ
أَوْزُقُ بَخِيرٍ تُرَجَّى لِلنَّوَالِ فَسَا تُرَجَّى الثَّمَارُ إِذَا لَمْ يُورِقِ الْعُودُ

والعرب تقول : من حقر حرم ... « حقر الشيء : عده حقيراً ، أى
من حقر بسيراً يقدر عليه ولم يقدر على الكثير ضاعت لديه الحقوق ، وفي
الحديث : لا تردوا السائل ولو بظلفٍ مُحْرِقٍ « الظلف من كل ما يجتر من

الحيوانات كالبقرة والظبي بمنزلة الحافر من الفرس، ويقال : أحرق الشيء بالنار وحرّقه شدّد لكثرة ، وقال المعري :

إذا طرَقَ الْمِسْكِينُ بِأَبْكَ فَأَجِبْهُ قليلاً ولو مِقْدَارَ حَبَّةِ خَرْدَلٍ
ولا تَحْتَقِرْ شيئاً تُسَاعِفُهُ به فكم من حِصَاةٍ أَيْدَتْ ظَهْرَ مِجْدَلٍ
المجدل : النصر المشرف ، وكان ابن عباس يقول : صاحب المعروف لا يقع ، فإن وقع وجد مُتَّكأً . وهذا من قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : المعروف يَبْقَى مِصْرَاعُ السُّوءِ ... وكان ابنُ عَبَّاسٍ يقول أيضا : ما رأيت رجلاً أوليتهُ معروفاً إلا أضاع ما بيني وبينه ، ولا رأيت رجلاً أوليتهُ سوءاً إلا أظلم ما بيني وبينه ، وما يروى في هذا المعنى أن رجلاً كان في مجلس خالد بن عبد الله القسريّ ، فقام من المجلس ، فقال خالد : إني لأُبْغِضُ هذا الرجلَ وماله إلى ذنْبٍ ، فقال رجل من القوم : أوله أيها الأميرُ معروفاً ففعل ، فما كُنتُ أن خَفْتُ على قلبه وصار أحَدَ جُلُساته . وفي هذا المعنى يقول سيّد مُوسَى قِيّ الإسلام أبو إسحاق الموصلي :

أرى الناسَ سُخْلانَ الجِوَادِ ولا أرى بخيلاً له في العالمين خيلاً
ومن خَيْرِ حالات الفَقِي لو عَلِمَتْه إذا نال شيئاً أن يَكْرَهَ يُبْذِلُ
فإني رأيت البخل يُزْرَى بأهله فأكرمت نفسي أن يُقالَ بخيلُ

وبقول المتنبي :

وأَحْسَنُ وجه في الوريّ وَجْهُ مُحْسِنٍ وأَيَمُّنُ كَيْفَ في الوريّ كَيْفَ تُنْعِمُ
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ انْصَلَتْ نِعَمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ ، فمن لم يحتمل تلك المُنُونُ عُرِضَ لَزوال تلك النِّعَمِ ، وقال خالد بن عبد الله القسريّ أيضا : حوائج الناس إليكم نَعَمٌ مِنْ اللَّهِ عليكم ،

قَلَامَلُوا النَّعْمَ فَتَحَوَّلَ نِقَمًا، قال الشاعر :

بَدَا - حِينَ أَثَرَى - بِإِخْوَانِهِ قَتَلَلْ عَنْهُمْ شَبَابَ الْعَدَمِ ^(١)
وَذَكَرَهُ الْحَزْمُ غَبَّ الْأُمُورِ فَبَادَرَ قَبْلَ انْتِقَالِ النَّعْمِ
وعن سيدنا رسول الله : تَنْزِيلُ الْمَعُونَةِ عَلَى قَدَرِ الْمَثُونَةِ «ومعناه : أنه كلما
تكاثر على المرء من يحق عليه أن يعولهم ويقوم بمؤنتهم ، ففعل ، أو كلما أنفق
المرء في سبيل البر ، أعطاه الله بمقدار ذلك ، وجاء في الحديث المرفوع :
مَنْ وَسَّعَ وَسَّعَ عَلَيْهِ ، وَ : كَلِمَا كَثُرَ الْعِيَالُ كَثُرَ الرِّزْقُ ...

وقالوا في معنى النجدة وإقالة العثرات وواجبات ذوى الجاه :
بَذَلُ الْجَاهِ زَكَاةَ الشَّرَفِ . وفي الحديث : إِنْ اللَّهُ يَسْأَلُ الْعَبْدَ عَنْ جَاهِهِ كَمَا
يَسْأَلُهُ عَنْ مَالِهِ وَنَعْمِهِ ، فيقول : جعلتُ لك جاها فهل نصرت به مظلوما
أو قومت به ظالما أو أغثت به مكروبا ؟ وفي الحديث أيضا : أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ
تُعِينَ مَنْ لَاجِأَ لَهُ ... وقال أبو تمام :

وَإِذَا أَمَرُوا أَسَدِي إِلَى صُلَيْبَةٍ مِنْ جَاهِهِ فَكَأَنَّمَا مِنْ مَالِهِ
وكان زياد بن أبيه يقول لأصحابه : آشَفَعُوا لِمَنْ وَرَاءَكُمْ فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ
أَرَادَ السُّلْطَانُ - يَرِيدُ : كُلُّ مَنْ بِيَدِهِ الْأَمْرُ - وَصَلَ إِلَيْهِ ، وَلَا كُلُّ مَنْ وَصَلَ
اسْتَطَاعَ أَنْ يُكَلِّمَهُ ... وَالْأَصْلُ فِي هَذَا قَوْلُهُ سَبَّحَانَهُ : مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً
يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتِنًا . «قال المفسرون : الشفاعة الحسنة : هي التي روعي بها
حَقُّ مُسْلِمٍ وَدُفِعَ بِهَا عَنْهُ شَرٌّ أَوْ جُلِبَ إِلَيْهِ خَيْرٌ وَابْتَغِيَ وَجْهَ اللَّهِ وَلَمْ

(١) بدا ، هي : بدأ ، بالهزم ، فسهل للشمر ، والشابة : طرف السيف وحذ كل شيء
وفلل : كسر

تَوَخَّذْ عَلَيْهَا رِشْوَةً ، وَالسَّيِّئَةُ مَا كَانَتْ بِخِلَافِ ذَلِكَ . وَقوله سبحانه : يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا : فَذَلِكَ النَصِيبُ : دُونَ ثَوَابِ الشَّفَاعَةِ وَجَزَائِهَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَقوله يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا : أَيْ نَصِيبٌ مِنْ وَزْرِهَا مُسَاوٍ لَهَا فِي الْقَدْرِ ، وَقوله عز وجل : وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ، فَاَلْمُقِيتُ : الْمُقْتَدِرُ مِنْ أَقَاتِ عَلَى الشَّيْءِ : إِذَا قَدَّرَ ، قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ وَقِيلَ لِأَبِي قَيْسٍ بْنُ رِفَاعَةَ - :

وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ

وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ مُقِيتًا ^(١)

وَفُسِّرَ الْمُقِيتُ بِالْحَافِظِ وَاشْتِقَاقُهُ مِنَ الْقُوَّةِ ، فَإِنَّهُ يَقْوَى الْبَدَنُ وَيَحْفَظُهُ . .

وَمِنْ أَجْلِ مَا قِيلَ فِي الْجُودِ قَوْلُ حَاتِمِ طَائِي :

أَمَاوِيٌّ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنْ الْفَقْرِ

إِذَا حَشَرَجْتُ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

(١) رَوَى الصَّاعِقَانِي هَذَا الْبَيْتَ مَعَ آيَاتٍ أُخْرَى هَكَذَا :

وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ مُقِيتًا

يَبِيتُ اللَّيْلَ مُرْتَفِقًا ثَقِيلًا عَلَى قَرَشِ الْفَتَاةِ وَمَا أَيْتُ

نَفْسٌ إِلَى مِنْهُ تُؤْذِيَاتُ كَمَا تُؤْذِي الْجَذَائِرُ الْبُرُوتُ

وَالْمُرْتَفِقُ : الْمُتَشَكِّي عَلَى مَرَقَبِهِ ، وَنَعْنُ : تَسْرِعُ وَتُظْهِرُ ، وَالْجَذَمَارُ : مَا بَقِيَ مِنْ أَصْلِ

السَّعْفَةِ ، وَالْبُرُوتُ : الْفَأْسُ ، لِقَةِ يَمَانِيهِ يَنْطَقُونَهَا الْبُرْتُ وَالْبُرْتُ ، وَالْبُرُوتُ فَاعِلٌ

تُؤْذِي ،

(٢) مَآوِي : مُنَادَى مَرَحِمِ مَآوِيَةٍ وَهِيَ زَوْجَةُ حَاتِمٍ ، وَحَشَرَجْتُ : أَيْ النَّفْسُ وَإِنْ

لَمْ يَتَقَدَّمْ لَهَا ذِكْرٌ ، لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ

أَمَاوِيَّ إِنَّ يُصِيحُ صَدَايَ بِقَفْرَةٍ
 مِنْ الْأَرْضِ لَأَمَاءٌ لَدَيَّ وَلَا خُمْرٌ^(١)
 تَرَى أَنَّ مَا أَبْقَيْتُ لَمْ أَكُ رَبَّهُ
 وَأَبَّ يَدِي مِمَّا بَخِلْتُ بِهِ صَفْرُ^(٢)
 أَمَاوِيَّ إِنَّ الْمَالَ غَادٍ وَرَائِحُ
 وَيَبْقَى مِنَ الْمَالِ الْآحَادِيثُ وَالذِّكْرُ
 غِنَيْنَا زَمَانًا بِالتَّصَعُّلِكَ وَالْغِنَى
 وَكُلًّا سَقَانَاهُ بِكَأْسَيْهِمَا الدَّهْرُ^(٣)
 فَمَا زَادَنَا بَأَوًّا عَلَى ذِي قَرَابَةٍ
 غِنَانَا وَلَا أَزْرَى بِأَحْسَابِنَا الْفَقْرُ^(٤)

ألست معي في أن على هذه الآيات مسحة من الجمال وأثرا بيننا من الصدق
 وأن لها لوطّة من نيم بالقباب أليس حاتم يقول : الحقّ أقول : إنه لا يلغى
 لك ياماوية أن تلوميني على إنفاق مالي في سبيل البرّ والإلطاف ، والتخريق في
 النوال وقرى الاضياف ، أما تعلمين أن مال المرء لا يُغنى عنه شيئا إذا
 ما الموت رماه بسهامه وغادر هذه الحياة ، أما تعلمين أن المرء متى نُفذ جسده
 بالعراء وأودع حُفْرَةً مُوحشة مُقفرة ليس معه شيء مما كان يحتازُهُ في هذه
 الدنيا من مال ، بدا لك أن المال الذي تركته وبخلتُ به على مُسَحِّقِهِ أصبح

(١) الصدى هنا : جسد الانسان بعد موته

(٢) ربه : صاحبه ، وصفر : خلو (٣) غنينا : عشنا ، غنى كفرح : عاش ، وغنى
 بالمكان : أقام ، والمراد بالتصعلك الفقر ، وبكأسيهما : يعني الفقر والغنى
 (٤) البأو : الكبر والفخر ، يقال : بأوت على القوم أبأى بأوا ...

مأبكا لغيري وأصبحت أنا خالي الوفاض^(١) بادي الإنفاض^(٢) لا أملك من هذا المال شروى نقير^(٣) ! أليس الأخلق بي لذلك أن أنفقهُ وأنسخي به على أهليه ، فأنفَعَ بعد موتي - إذا أنا فعلتُ - بالذكر في الناس والحديث الحسن ! وأية قيمة للبال يا ماوية ، ذلك الذي يحى وبذهب ، ويغدو ويروح ! أليس الأخلق بالماقل الثاقب النظر أن يُفِيدَ منه ما هو أبقي على الزمن الباقي من الزمن - أن يفيدَ منه الذكر من طريق إنفاقه ، والجودَ به في وجوه استحقاقه ! لقد عشنا يازوجتي حيناً من الدهر أغنياء كما عشنا حيناً فقراء ، وكللاً سقانا الدهر بكأسيهما ، فما أزرى الدهر بأحسابنا ، ولا أضغى إناء أعراضنا ، ولا أسفَّ بأخلاقنا ، كما هو شأنه مع ضعفاء النفوس ، وكذلك إذ كنّا أغنياء ، ما أبطرتنا الغنى ، وما أطعنا ، على ذوى قربانا ، لآنا نعلم علماً ليس بالظن أن المال عرض زائل ، أما الجوهر ، أما الذكر ، أما الشرف ، أما الخلق ، فكل أولئك هو الذي عليه المعول ، وإنه لذخيرة لا تنفد ، وهى حسبُ العاقل الذي راض نفسه على السكون إلى الحقائق ، ولم يُخلد إلى أم دفر^(٤) باطل الأباطيل ...

«أما بعد، فلقد أذكرتنا هذه العقريات الكريمة من القول، عبقرية رجل من رجالات السلف لقد بلغ المبالغ في الإحسان واصطناع المعروف، وإغاثة الملهوف، وإنه لحق علينا أن نعرض شيئاً لهذه العبقرية من الفعال^(٥)، إذ أن كتابنا هذا ليس بمقصود على العبقرى من القول وإنما نعرض كذلك للعبقرى من الأناسى فى أى معنى من المعانى^(٦) على شريطة أن يكون ذلك لِمأماً، فلا

(١) فارغ الجراب (٢) ظاهر الفقر (٣) النقيير : نكتة فى النواة يكون منها منبت النخلة وشروى نقير : مثل هذه النكتة (٤) أم دفر: الدنيا وأصل الدفر: التن (٥) الفعال بفتح الفاء : الفعل الحسن (٦) فى أى معنى : متعلق بالعبقرى

نَقِيلُ الإِغْفَالَ كُلَّهُ مَا يَعْنِينَا مِنْ سِيرِ الْعَبْقَرِيِّينَ ، وَيمُتُّ مِنْهَا بِسَبَبٍ وَاصِلٍ إِلَى أَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ هَذَا الْكِتَابِ ، وَلَا تَبْسُطُ التَّبَسُّطَ الَّذِي يُبَاحِقُنَا بِأَصْحَابِ السَّيْرِ وَالْمُتَرَجِّحِينَ ؛ وَشَخْصِيَّتَنَا الَّتِي حَبَّبَ اللَّهُ إِلَيْنَا أَنْ نُسَلِّمَ بِعَبَقَرِيَّتِهَا فِي بَابِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ هُوَ رَجُلٌ مِنْ رِجَالِ أَسْلَافِنَا كَمَا قُلْنَا - هُوَ قَاضِي الْقَضَاةِ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُوَادٍ

أحمد بن أبي دواد *

كَانَ هَذَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُوَادٍ تَخْصِيصَةً ضَخْمَةً ذَاتَ أَثَرٍ فَعَالٍ خَالِدٍ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ ، إِذْ أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَشْيَاعِ الْمُعْتَرِلَةِ ، وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ الْقَائِلِينَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ، الْعَامِلِينَ عَلَى تَرْوِيحِ هَذِهِ الْبَدْعَةِ ، مُسْتَظْهِرًا عَلَى ذَلِكَ بِجَاهِهِ وَنُفُوذِهِ لَدَى الْمَسَامُونِ وَالْمُعْتَصِمِ وَالْوَائِقِ . وَلَيْسَ فِيهِ مِنْ مَعْتَمِرٍ - فِي نَظَرِ رِجَالِ الْحَدِيثِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ - إِلَّا هَذِهِ ... قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى الصُّوْلِيُّ : لَوْلَا مَا وَضَعَ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ مَحَبَّةِ الْمِحْنَةِ - مِحْنَةِ الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ، وَحَمَلِ النَّاسِ عَلَيْهِ - لَاجْتَمَعَتِ الْأَلْسُنُ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يُضَفْ إِلَى كَرَمِهِ أَحَدٌ ... وَمَنْ أَحَبَّ الْوُقُوفَ عَلَى تَوْقِفِ ابْنِ أَبِي دُوَادٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فَلْيَرْجِعْ إِلَى مَقَاتِلِهَا ... وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي مَكَاتِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، وَمَنْزِلَتِهِ مِنَ الْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ ، وَرُسُوخِ قَدَمِهِ فِي الْفَضْلِ وَالنُّبْلِ وَمَكَارِمِ

(٥) قَالَ ابْنُ خُلَيْكَانَ - بَعْدَ أَنْ سَرَدَ نَسَبَهُ وَنَمَاهُ إِلَى إِيَادِ بْنِ نَزَارِ بْنِ مَعْدِ بْنِ عَدْنَانَ أَى أَنَّهُ عَرَبِيٌّ إِيَادِي - إِنَّ أَصْلَهُ مِنْ قَرْيَةٍ بِقَنْسَرِينَ ، وَاتَّجَرَ أَبُوهُ إِلَى الشَّامِ وَأَخَذَهُ مَعَهُ وَهُوَ حَدِيثٌ ، فَتَشَأَ أَحْمَدُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَخَاصَّةِ الْفِقْهِ وَالْكَلَامِ حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ ، وَصَحِبَ هِيَاجَ بْنَ عَلَاءِ السُّلَمِيِّ - وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ - فَصَارَ إِلَى الْإِعْزَالِ ، وَكَانَتْ وَلَادَتُهُ سَنَةَ ١٦٠ هـ بِالْبَصْرَةِ وَتَوَفَّى سَنَةَ ٢٤٠ هـ بَعْدَ أَنْ أَصِيبَ بِالْفَالَجِ فِي زَمَنِ الْمُتَوَكِّلِ

الأخلاق ، وأفاعيله المخلّدة في هذه المعاني - والكلام يدخل بعضه في بعض - : قال أبو العيّن^(١) ما رأيت رئيساً قط أفصح ولا أنطق من ابن أبي دؤاد ، وقال : كان ابن أبي دؤاد شاعراً مجيداً ، فصيحاً بليغاً : وقد ذكره دُعَيْلُ بْنُ عَلِيٍّ الخُزَاعِيُّ - الشاعر العبقرى - في كتابه الذي جمع فيه أسماء الشعراء وروى له أبياتاً حسناً : وقال أبو بكر الجرجاني : سمعت أبا العيّن الضربري يقول : ما رأيت في الدنيا أقوم على أدب من ابن أبي دؤاد - يريد أبو العيّن بالأدب هنا : أدب النفس - ما خرجت من عنده يوماً قط فقال : يا غلام خذ بيده ، بل قال : يا غلام أخرج معه ، فكنت أتتقد هذه الكلمة عليه ، فلا يُخِلُّ بها ولا أسمعها من غيره ... قالوا : ودو أول من افتتح الكلام مع الخلفاء ، وكانوا لا يبدؤهم أحد حتى يبدؤوه . وقال إبراهيم بن الحسن : كنا عند المأمون ، فذكروا من بايع من الأنصار ليلة العقبة ، فاختلفوا في ذلك ، ودخل ابن أبي دؤاد ، فمدّهم واحداً واحداً بأسمائهم وكُناههم وأنسابهم ، فقال المأمون : إذا استجلس الناس فاضلاً فمثل أحد ، فقال أحمد : بل إذا جالس العالم خليفة فمثل أمير المؤمنين ، الذي يفهم عنه ، ويكون أعلم بما يقوله منه . وقال أحمد بن عبد الرحمن الكلبي : ابن أبي دؤاد رُوح كل من قرّنه إلى قديمه . وقال لازون بن اسماعيل : ما رأيت أحداً قط أطوع لأحد ، من المعتصم لابن أبي دؤاد ، كان - المعتصم - يُسَلُّ الشيء اليسير فيمتنع منه ، ثم يدخل ابن أبي دؤاد فيكلمه في أهله

(١) أبو العيّن هو أبو عبد الله محمد بن القاسم الضربري ، ولد سنة ١٩١ وتوفي سنة ٢٨٢ كان من ظرفاء العالم وفيه من اللسن وسرعة الجواب ما لم يكن لأحد من نظرائه ، وترى نواتره مبعثرة في هذا الكتاب

وفي أهل الثغور وفي الحرمين وفي أقاصي أهل المشرق والمغرب ، فيجيبه إلى كل ما يريد ، ولقد كلبه يوماً في مقدار ألف ألف درهم ليحفر بها نهراً في أقاصي خراسان ، فقال له : وما عليّ من هذا النهر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى يسألك عن النظر في أمر أقصى رعيّتك ، كما يسألك عن النظر في أمر أدناها ، ولم يزل يرفقُ به حتى أطلقها . قالوا : وكان ابتداء اتصال ابن أبي دُواد بالمأمون ما حدث به ابنُ أبي دُواد نفسه ، قال : كنت أحضر مجلسَ القاضي يحيى بن أكرم ، مع الفقهاء ، فإني عنده يوماً إذ جاءه رسولُ المأمون ، فقال له : يقول لك أميرُ المؤمنين : انتقل إلينا أنت وجميعُ من معك من أصحابك ، فلم يُجبْ أن أحضرَ معه ، ولم يستطع أن يؤخّرني ، فحضرت مع القوم ، وتكلّمنا بحضرة المأمون ، فأقبل المأمون ينظر إلى إذا شرعتُ في الكلام ، ويتفهّم ما أقول ، ويستحسنه ، ثم قال لي : مَنْ تكون ؟ فانتدبتُ له ، فقال : ما أخرك عنا ؟ فكبرهت أن أجيلَ على يحيى ، فقلت : حُبسة القدر ، وبلوغ الكتاب أجله ، فقال : لا أعلمن ما كان لنا من مجلس إلا حَضَرته ، فقلت : نعم ، يا أمير المؤمنين ، ثم اتصل الأمر ، وقيل : قدِم يحيى بن أكرم قاضياً على البصرة من خراسان ، من قبل المأمون ، في آخر سنة ٢٠٢ . وهو حَدَّثُ ، سنّه ثيِّف وعشرون سنة ، فاستصحب جماعةً من أهل العلم والمروآت ، منهم ابن أبي دُرَاد ، فلما قدِم المأمون ببغداد في سنة ٢٠٤ قال ليحيى : اختر لي من أصحابك جماعةً يجالسونني ويكثرُونَ الدخولَ إليّ ، فاختر منهم عشرين ، فيهم ابن أبي دُواد ، فكثروا على المأمون ، فقال : اختر منهم ، فاختر عشرة فيهم ابن أبي دُواد ، ثم قال : اختر منهم ، فاختر خمسة ، فيهم ابن أبي دُواد ، واتصل أمره ... وكان من وصية المأمون إلى أخيه المتصم عند الموت :

وأبو عبدالله أحمد بن أبي دواد لا يُفارُكُك الشَّرْكَةَ في المَشُورَةِ في كُلِّ أمرٍ ،
فإنه موضع ذلك ، ولا تَتَخَذَنَّ وزيراً ، فلما ولي المعتصم ، جعل ابن أبي دواد
قاضى القضاة مكان يحيى بن أكرم ، وكان لا يفعل فعلاً باطناً ولا ظاهراً إلا
برأيه ... ولما مات المعتصم وتولى بعده ولده الواثق بالله حسنت حال ابن
أبي دواد ، وما زال إلى أن ولي أخوه المتوكل ، فأصيب ابن أبي دواد بالفالج
فكانت مدة عظمة ابن أبي دواد ونفوذه وجاهه نحواً من ثمان وعشرين سنة ...
قال ابن خلكان - الذى نعتد عليه في هذا الباب - : وكان ابن أبي دواد كثيراً
ما يُنشد - ولم يذكر أنهما له أو لغيره - :

مَا أَنْتَ بِالسَّبِّ الضَّعِيفِ وَإِنَّمَا تُجَيِّحُ الْأُمُورَ بِقُوَّةِ الْأَنْسَابِ
فَالْيَوْمَ حَاجَتُنَا إِلَيْكَ وَإِنَّمَا يُدْعَى الطَّيِّبُ لِشِدَّةِ الْأَوْصَابِ
ومن كلامه : ثلاثة ينبغي أن يُجَلَّوا وتُعرف أقدارهم : العلماء ، وولاة العدل ،
والإخوان ، فمن استخفَّ بالعلماء أَهْلَكَ دِينَهُ ، ومن استخفَّ بالولاة أَهْلَكَ دُنْيَاهُ ،
ومن استخفَّ بالإخوان أَهْلَكَ رُوءِيَهُ ، ومن كلامه أيضاً : ليس بكامل من لم
يَحْمِلْ وَلِيَّهُ عَلَى مَنِيرٍ وَلَوْ أَنَّهُ حَارِسٌ ، وَعَدُوَّهُ عَلَى جِذْعٍ وَلَوْ أَنَّهُ وَزِيرٌ ^(١)

(١) هذا على حد قول عبدالله بن معاوية :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَنْفَعْ فَضُرَّ فَإِنَّمَا يُرَجَّى الْفَتَى كَيْمَا يَضُرَّ وَيَنْفَعَا
وقول الآخر :

وَلَكِنْ قَتَى الْفَتِيَانِ مِنْ رَاحٍ وَاعْتَدَى لَضُرَّ عَدُوٍّ أَوْ لِنَفْعِ صَدِيقٍ
وقول المتنبي :

لَمَنْ تَطْلُبِ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تُرَدِّبْهَا سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ إِسَاءَةَ مُجْرِمٍ

وقول ابن الرومي :

وكان بين ابن أبي دواد وبين الوزير الجبار محمد بن عبد الملك الزيات ، الذي
توثر عنه هذه الكلمة : الرحمةُ خورٌ في الطبيعة - منافساتٌ وشحناءٌ ، حتى إن
شخصاً كان يصحب ابن أبي دواد ويختص بقضاء حوائجه ، منعه الوزير المذكور
من التردد إليه ، فبلغ ذلك ابن أبي دواد ، فجاء إلى الوزير وقال : والله ،
ما أجيبك ، كثر ابلك من قلة ، ولا متعززا بك من ذلة ، ولكن أمير المؤمنين
رتبك مرتبة أوجببت إلقاءك ، فإن أيقيناك الله ، وإن تأخرنا عنك ذلك ... ثم
نهض من عنده ... قال ابن خلكان : وكان فيه - في ابن أبي دواد - من
المكارم والمحامد ما يستغرق الوصف ... وكان يقال : أكرم من كان في دولة
بني العباس البرامكة ثم ابن أبي دواد ... حدث الجاحظ قال : غضب المعتصم على
رجل من أهل الجزيرة الفراتية ، وأحضر اليه والظلع^(١) فقال له المعتصم :
فقلت وصنعت ، وأمر بضرب عنقه ، فقال له ابن أبي دواد : يا أمير المؤمنين ،
سبق السيف العذل^(٢) ، فتأن في أمره فإنه مظلوم ، قال : فسكن المعتصم

= وليس يصالح لاستصلاح مملكته غير امرئ نافع بالحق ضرار
وولي : يريد صديقه وكل من يمت إليه بسبب واصل ، ويريد بحمله على المنبر
فصرته والارتفاع به ، ويريد بحمل عدوه على جذع : صلبه والقضاء عليه ، وقوله : ولو
أنه حارس ، أى خفير ، يريد ولو أنه حقير ، ولعله قال هذه الكلمة وهو يعرض بابن
الزيات الوزير .

(١) الظلع : بساط من جلد يفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس وفيه لغات :

نطع ونطع ونطع ونطع والجمع نطاوع وأنطاوع

(٢) هذا مثل ، والعذل : اللوم وأصله أن الحارث بن ظالم ضرب رجلاً فقتله فأخبر

بعضه فقال : سبق السيف العذل ، يضرب لما قد فات

قليلا ، قال ابن أبي دراد : وَغَمَرَنِي الْبَوْلُ فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى حَبْسِهِ ، وَعَلَيْتُ أَنِّي
 إِن مُتُّ قُتِلَ الرَّجُلُ ، فُجِعْتُ ثِيَابِي تَحْتِي وَبُلْتُ فِيهَا ، حَتَّى خَلَّصْتُ الرَّجُلَ
 قَالَ : فَلَمَّا قَتَلَ نَظَرَ الْمُعْتَصِمُ إِلَى ثِيَابِي رَطْبَةً فَقَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، أَكَانَ تَحْتِكَ
 مَاءٌ ؟ فَقُلْتُ : لَا ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ! فَضَحَكَ
 الْمُعْتَصِمُ ، وَدَعَا لِي وَقَالَ ، أَحْسَنْتَ ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ وَأَمَرَ لَهُ
 بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ... وَقَالَ أَبُو الْعِيَاءِ : كَانَ الْإِفْشِينُ - السَّرَكِيُّ وَكَانَ مِنْ أَجَلِّ
 قَوَادِ الْمُعْتَصِمِ ، وَأَبْلَى فِي أَمْرِ بَابِكَ الْخُرَمِيِّ بِلَاءَ حَمْدِهِ لَهُ - يَحْسُدُ أَبَا دُلْفٍ
 الْقَاسِمَ بْنَ عَيْسَى الْعِجْلِيَّ ^(١) - وَهُوَ كَذَلِكَ أَحَدُ قَوَادِ الْمَأْمُونِ ثُمَّ الْمُعْتَصِمِ
 مِنْ بَعْدِهِ . وَكَانَ تَحْتَ إِثْرَةِ الْإِفْشِينِ فِي حَرْبِ بَابِكَ - لِلْعَرَبِيَّةِ وَالشَّجَاعَةِ

(١) وهذا أبو دلف كان كذلك كريما سوريا جوادا بمدحا شجاعا مقدما فاضلا ،
 مدحه أبو تمام وعلى بن جبلة المعروف بالعكوك وبكر بن النطاح ، وفيه يقول العكوك
 قصيدته التي يقول فيها :

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلْفٍ بَيْنَ مَغْزَاهُ وَمَحْضَرِهِ
 فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلْفٍ وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ
 كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهِ
 مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرُمَةٌ يَكْتَسِبُهَا يَوْمَ مَفْتَخَرِهِ

ويقول بكر بن النطاح :

يَا طَالِبَا الْكَيْمِيَاءِ وَعَلَيْهِ مَدْحُ ابْنِ عَيْسَى الْكَيْمِيَاءِ الْأَعْظَمِ
 لَوْلَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا دِرْهَمٌ وَمَدْحَتُهُ لَأَتَاكَ ذَاكَ الدِّرْهَمِ
 وَقَدْ أَعْطَاهُ أَبُو دُلْفٍ عَلَى هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ... هَذَا وَدُلْفُ اسْمُ
 عِلْمٍ مَنُوعٍ مِنَ الصَّرْفِ لِلْعَلْمِيَّةِ وَالْعَدْلِ لِأَنَّهُ مَعْدُولٌ عَنْ دَالْفٍ ، قَالَ ابْنُ بَرِيٍّ

فاحتال عليه حتى شهد عليه بجناية قتل ، فأخذه ببعض أسبابه ، فجلس له وأحضره ، وأحضر السياف ليقتله ، وبلغ ابن أبي دؤاد الخبر ، فركب من وقته مع من حضر من عدو له ، فدخل على الأفشين ، وقد جرى بأبي ذلف ليقتل ، فوقف ، ثم قال : إني رسول أمير المؤمنين إليك ، وقد أمرك أن لا تحدث في القاسم بن عيسى حديثاً حتى تسلمه إلى ، ثم انفت إلى العدول وقال : أشهدوا أنني أدت الرسالة إليه عن أمير المؤمنين والقاسم حتى معافى ، فقالوا : قد شهدنا ، وخرج ، فلم يقدر الأفشين عليه ، وسار ابن أبي دؤاد إلى المعتصم من وقته ، وقال : يا أمير المؤمنين ، قد أدت عنك رسالة لم تقلها لي ، ما أعتد بعمل خير خيراً منها ، وإني لأرجو لك الجنة بها ، ثم أخبره الخبر ، فصوب رأيه ، ووجه من أحضر القاسم ، فأطلقه وذهب له : وعنف الأفشين فيما عزم عليه ... ومن مرواته : أن المعتصم كان قد اشتد غيظه على محمد بن الجهم اليرمكي ، فأمر بضرب عنقه ، فلما رأى ابن أبي دؤاد ذلك وأن لا حيلة له فيه وقد شد برأسه وأقيم في النّطع وهز السياف قال ابن أبي دؤاد للمعتصم : وكيف تأخذ ماله إذا قتله ؟ قال المعتصم : ومن يحول بيني وبينه ؟ قال : يا بني الله تعالى ذلك ، ويأباه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأباه عدل أمير المؤمنين ، فإن المال للوارث إذا قتله حتى تقيم البيّنة على ما فعله ، وأمره باستخراج ما اختأه أقرب عليك وهو حتى ، فقال : أحبسوه حتى ينظر ، فتأخر أمره على مال حمله أي كفسله ، وخلص محمد ... وقال أبو العيناء : غضب المعتصم على خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني ، وأنخصه من ولايته ، لتعجز لحقه في مال طلب منه ، وأسباب غير ذلك ، فجلس المعتصم لعقوبته ، وكان قد طرح نفسه على ابن أبي دؤاد ، فتكلم فيه فلم ينجبه المعتصم ،

فلما جلس لعقوبته حضر ابن أبي دواد، جلس دون مجلسه، فقال له المعتصم: يا أبا عبد الله، جلست في غير مجلسك ١ فقال له: ما ينبغي أن أجلس إلا دون مجلسي هذا... فقال له: وكيف؟ قال: لأن الناس يزعمون أنه ليس موضعي موضع من يشفع في رجل فلا يشفع، قال: فارجع إلى مجلسك، قال: مُشَفَّعاً أو غير مُشَفَّع^(١)؟ فقال: بل مُشَفَّعاً، فارتفع إلى مجلسه، ثم قال: إن الناس لا يعلون رضا أمير المؤمنين عنه إن لم يخْلَع عليه^(٢) - فأمر بالخلع عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، قد استحق هذا وأصحابه رِزْق ستة أشهر لا بد أن يقبضوها، وإن أمرت لهم بها في هذا الوقت قامت مقام الصَّلَاة، قال: قد أمرتُ لهم بها، فخرج خالد وعليه الخلع، والمال بين يديه، وإن الناس ينتظرون في الطرق الإيقاع به، وصاح رجل: الحمد لله على خلاصك ياسيد العرب، فقال خالد: أسكت، سيد العرب والله أحمد بن أبي دواد... وقال الواثق يوما لابن أبي دواد - تضجراً بكثرة حوائجه: قد اختلَّت بيوت المال بطلباتك للأئذين بك والمتوسلين إليك! فقال: يا أمير المؤمنين، هي نتائجُ شُكْرُها مُتَّصِلٌ بك، وذخائرُ أجرها مكتوب لك. ومالي من ذلك إلا أن أخلِّد المدح فيك، فقال: أحسنت.

«وبعد، فلنتجزأ بهذا المقدار من مساعي ابن أبي دواد سيد العرب وعقريتها في النجدة والمروءة والكرم والاربيحية والشجاعة الأدبية

- (١) يقال: شفع له وشفع له إلى الملك مثلاً، فشفعه فيه تشفيحاً، فالطالب شفيع وشافع، والمشفع: الذي تقبل شفاعته، أما المشفع فهو الذي يقبل الشفاعة
- (٢) قال في أساس البلاغة: خلع عليه: إذا نزع ثوبه وطرحه عليه، وكساه الخلاء والخلع

وما لَفَ لَفَ هذه المعاني السَّكرية مما انبعثت له قرائحُ خولِ شعراء الإسلام، أمثالِ
أبي تمام، فأنطقتهم بالمأثور من الشعر الفخم، وامتدحوا به هذا الرجل العظيم،
فقال أبو تمام :

لقد أنستَ مساوى كلِّ دهرٍ محاسنُ أحمدَ بنِ أبي دُوادٍ
وما سافرتُ في الآفاقِ إلَّا ومن جدِّ والكَرَّاحِ حتَّى وزادِ

قال علي الرازي: رأيت أبا تمام عند ابن أبي دواد ومعه رجل يُنشدُ عنه
قصيدة منها هذان البيتان، فلما أنشدتهما قال ابن أبي دواد لأبي تمام:
هذا المعنى تفرَّدتَ به أم أخذته؟ فقال: هولى، وقد أَلَمْتُ فيه بقول
أبي نواس:

وإن جَرَّتِ الالفاظُ مِنَّا بِمدْحَةٍ لغيرِكَ إنساناً فأنتَ الذى نَعْنِ
ومدحه أبو تمام أيضا بقصيدة التى أولها:

أَرَأَيْتَ أَىِّ سِوَالِفٍ وَخُدُودٍ عَنَّتْ لَنَا بَيْنَ اللَّوَى وَزُرُودٍ

وفى الآيات الثلاثة البديعة فى الحسد:

وإذا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فِضِيلَةٍ طَوَيْتَ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودٍ
لولا اشتعالُ النارِ فيها جاورَتْ ما كان يُعْرِفُ طِيبُ عَرَفِ العُودِ
لولا التَّخَوُّفُ لِلْعَوَاقِبِ لم تَزَلْ لِلْحَاسِدِ النُّعْمَى على المَحْسُودِ

ودخل أبو تمام عليه يوما، وقد طالت أيامه فى الوقوف ببابه ولا يصل
إليه، ولما وصل قال له ابن أبي دواد: أَحَسْبُكَ عاتبا يا أبا تمام، فقال
أبو تمام: إنما يُمْتَبُّ على واحدٍ وأنتَ النَّاسُ جميعا، فكيف يُعْتَبُّ عليه!
فقال له: مِنْ أَيْنَ لك هذا يا أبا تمام؟ فقال من قول الحاذق - يعنى
أبا نواس - فى الفضل بن الربيع:

وليس على الله بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ^(١)
ولمَّا وَلَّى ابْنُ أَبِي دُوَادٍ الْمَظَالِمَ قَالَ أَبُو تَمَامٍ قَصِيدَةً يَتَظَلَّمُ إِلَيْهِ، مِنْ جَمَلَتِهَا
قوله :

إِذَا أَنْتَ ضَيَّعْتَ الْقَرِيضَ وَأَهْلَهُ فَلَا عَجَبٌ إِنْ ضَيَّعْتَهُ الْآعَاجُ
فَمَنْ هَـزَّ عِظْفِيهِ الْقَرِيضُ تَوَقُّعًا لِعَدْلِكَ مَذْ صَارَتْ إِلَيْكَ الْمَظَالِمُ
وَلَوْ لَا خِلَالُ سَنِّهَا الشَّعْرُ مَا دَرَى بُغَاةَ الْعُلَى مِنْ أَيْنَ تَوَقَّى الْمَكَارِمُ

وَمَدَانِحُ أَبِي تَمَامٍ وَغَيْرِ أَبِي تَمَامٍ فِيهِ كَثِيرَةٌ مُتَوَافِرَةٌ ... وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ
دَرِيدٍ : كَانَ ابْنُ أَبِي دُوَادٍ مُؤَالِفًا لِأَهْلِ الْآدَبِ مِنْ أَىِّ بَلَدٍ كَانُوا ، وَكَانَ
قَدْ ضَمَّ مِنْهُمْ جَمَاعَةً يَعُولُهُمْ وَيَمُونُهُمْ ، فَلَمَّا مَاتَ حَضَرَ بِيَاهُ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ
وَقَالُوا يُدْفِنُ مِنْ كَانَ سَائِقَةَ الْكَرَمِ^(٢) وَتَارِيخَ الْآدَبِ وَلَا نَتَكَلَّمُ فِيهِ إِلَّا إِنْ
هَذَا وَهْنٌ^(٣) وَتَقْصِيرٌ ، فَلَمَّا طَلَعَ سَرِيرُهُ قَامَ إِلَيْهِ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ :
الْيَوْمَ مَاتَ نِظَامُ الْمَلِكِ وَاللَّسَنِ وَمَاتَ مَنْ كَانَ يُسْتَعْدَى عَلَى الزَّمَنِ^(٤)

(١) وَأَخَذَهُ أَبُو نُوَاسٍ مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابًا

(٢) السَّاقَةُ : جَمْعُ سَائِقٍ وَهِيَ الَّذِينَ يَسُوقُونَ جَيْشَ الْغَزَاةِ وَيَكُونُونَ مِنْ وَرَائِهِ
يَحْفَظُونَهُ ، فَلَعَلَّ هَؤُلَاءِ الْآدِبَاءِ يَرِيدُونَ يَقُولُهُمْ مَنْ كَانَ سَائِقَةَ الْكَرَمِ : أَنَّهُ كَانَ يَحْوَطُ
الْكَرَمَ وَيَحْفَظُهُ فَكَانَ الْجَيْشَ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ جِيُوشَ الْكَرَمِ ، وَالْمُرَادُ : أَنَّهُ أَمِيرُ الْكَرَمِ
إِذْ أَنَّهُ يَحْوَطُهُ وَيَحْفَظُهُ

(٣) وَهْنٌ : ضَعْفٌ

(٤) يُقَالُ : اسْتَعْدَيْتُ الْإِمِيرَ عَلَى فُلَانٍ فَأَعْدَانِي : أَى اسْتَعْنَيْتُ بِهِ عَلَيْهِ فَأَعَانَنِي
وَالْأَسْمُ مِنْهُ الْعَدُوُّ وَهِيَ الْمَعُونَةُ

وَأَظْلَمْتُ سُبُلُ الْآدَابِ إِذْ حُجِبَتْ شَمْسُ الْمَكَارِمِ فِي غَيْمٍ مِنَ الْكَفَنِ
وتقدم الثاني فقال :

تَرَكَ الْمَنَابِرَ وَالسَّرِيرَ تَوَاضَعًا وَلَهُ مَنَابِرُ لَوْ يَشَاءُ وَسَرِيرٌ
ولغيره يُجَنَّبِي الْخِرَاجَ وَإِنَّمَا تُجَنَّبِي إِلَيْهِ تَحَامِدٌ وَأُجُورٌ^(١)
وتقدم الثالث فقال :

وَلَيْسَ قَتِيقُ الْمَسْكِ رِيحٌ خُيُوطُهُ وَلَكِنَّهُ ذَاكَ الشَّاءُ الْمُخْلَفُ^(٢)
وَلَيْسَ صَرِيرُ النَّعْشِ مَا تَسْمَعُونَهُ وَلَكِنَّهُ أَصْلَابُ قَوْمٍ تَقْصَفُ^(٣)

رسالة للجاحظ ينضح فيها عن الجود

«وبعد، فلننظف على كلامهم في الجود وذم البخل : أورد الجاحظ في كتابه « البخل » رسالة جميلة جداً نسبها إلى أبي العاصي بن عبد الوهاب ابن عبد المجيد الثقفي - أرسلها إلى رجل من عشيرته، وقد سمع بأنه يجلس إلى قوم من البخلاء، أمثال سهل بن هارون والأصمعي، وقد تأثر بمذهبهم في البخل وامتداحهم إياه، فكتب إليه هذه الرسالة ينعى فيها على البخلاء مذهبهم، ويذم البخل ويتوهم بالجود - ونحن فإننا نقطف من هذه الرسالة تفتاً ونترك سائرها لمن يحب أن يراجعها في كتاب البخلاء - قال :

(١) أجور : جمع أجر وهو الثواب

(٢) قَتِيقُ الْمَسْكِ : استخراج رائحته بشيء تخلط به، ومسك قتيق : مستخرج الرائحة بجملة في غيره - كما يفعلون اليوم به وبالعنبر .

(٣) الاصلاب : جمع صلب وهو العظم من لدن الكاهل إلى العقب، وتقصف : يحذف إحدى التامين أى تقصف والتقصف : التكرس

وهل تزيد حال مَنْ أنفق جميع ماله ، ورأى المكروة في عياله ، وظهر فقره ، وشمت به عدوه ، على أكثر من انصراف المؤمنين عنه ، وعلى بغض عياله ^(١) ، وعلى خشونة اللبس ، وجشوبة المأكل ^(٢) ؟ وهذا كله ، يجتمع في مسك ^(٣) البخيل ، ومضروب على هامة ^(٤) الشحيح ، ومُعجل للثيم ^(٥) ومُلازم للنوع ؛ ألا إن المُنفق قد ربح المحمدة ، وتمتع بالنعمة ، ولم يُعطَل المقدرة ^(٦) ، ووَقَّى كُلَّ خَصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ حَقَّهَا ، ووفرَ عليها نصيبها ، والممسك معذبٌ ، يحضر نفسه ، وبالكَدِّ لغيره ؛ مع لزوم الحجة ^(٧) ، وسقوط الهمة ^(٨) ، والتعرض للذم والإهانة ، ومع تحكيم العرة السوداء في نفسه ^(٩) وتسليطها على عرضه ، وتمكينها من عيشه ، وسرور قلبه ^(١٠)

إنَّ الله جوادٌ لا يَبْخُلُ ، وصدوقٌ لا يَكْذِبُ ، وَوَقَّى لا يَغْدِرُ ، وحكيمٌ لا يَعْجَلُ ، وعدلٌ لا يَظْلِمُ . وقد أَمَرْنَا بِالْجودِ ، ونَهَانَا عَنِ الْبُخْلِ ؛ وأَمَرْنَا بِالْصدقِ ، ونَهَانَا عَنِ الْكُذْبِ ؛ وأَمَرْنَا بِالْحِلْمِ ، ونَهَانَا عَنِ الْعَجَلَةِ ؛ وأَمَرْنَا بِالْعَدْلِ ، ونَهَانَا عَنِ الظُّلْمِ ؛ وأَمَرْنَا بِالْوَفاءِ ، ونَهَانَا عَنِ الْغَدْرِ .

-
- (١) أى بغضهم له (٢) جشوبة المأكل : غلظه وخشونته أو قلة إدامه
 (٣) المسك : الجلد والمراد : النفس والشخص (٤) الهامة : الرأس
 والجمع : هام (٥) اللثيم : الشحيح النفس (٦) أى لم يعطل المقدرة على فعل الخير وكسب الثناء (٧) مع لزوم الحجة : أى مع قيام الحجة عليه في بخله وعجزه عن الزيادة عن نفسه (٨) سقوط الهمة : العجز عن جلائل الأعمال
 (٩) المرة : خلط من أخلاط البدن ، والمزاج الأسود : هو المزاج المضطرب الكثير المخاوف والوساوس
 (١٠) وتسليطها : يعنى أنه بمخاوفه ووساوسه يستهدف للذم ، وتتمكن هذه المرة من نفسه فتتنقص عليه عيشه وتعصف بسروره

فَلَمْ يَأْمُرْنَا إِلَّا بِمَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يَزُجِّرْنَا إِلَّا عَمَّا لَمْ يَرْضَهُ لِنَفْسِهِ : وَقَدْ
 قَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ : إِنَّ اللَّهَ أَجودُ الْأَجودِينَ ، وَأَجْدُ الْأَجْدِينَ ؛ كَمَا قَالُوا : أَرْحَمُ
 الرَّاحِمِينَ ، وَأَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . وَقَالُوا فِي التَّأْدِيبِ لِسَائِلِهِمْ ، وَالتَّعْلِيمِ لِأَجْوَادِهِمْ :
 لَا تَجَاوِدُوا اللَّهَ ^(١) فَإِنَّ اللَّهَ - جَلَّ ذِكْرُهُ - أَجودُ وَأَجْدُ . وَذَكَرَ نَفْسَهُ جَلَّ
 جَلَالُهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ - فَقَالَ : « ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » ، وَ « ذُو الطَّوْلِ » ^(٢)
 لِإِلَهِهِ إِلَّا هُوَ ، وَقَالَ : « ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » ،



وَذَكَرُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالُوا : لَمْ يَضَعْ دِرْهَمًا عَلَى دَرَمٍ ،
 وَلَا لَيْتَةً عَلَى لَيْتَةٍ . وَمَلَكَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ ، فَقَبَضَ الصَّدَقَاتِ ، وَجُبَيْتُ لَهُ
 الْأَمْوَالُ ، مَا بَيْنَ عُذْرَانَ الْعِرَاقِ إِلَى شَجَرِ عُثْمَانَ ^(٣) إِلَى أَقْصَى خَلِيفِ ^(٤) الْبَيْنِ
 ثُمَّ تُوفِّيَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ ، وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ . وَلَمْ يُسْأَلْ حَاجَةً قَطُّ فَقَالَ : لَا .
 وَكَانَ إِذَا سُئِلَ أَعْطَى ، وَإِذَا وَعِدَ أَرَأَطَمَعَ ، كَانَ وَعْدُهُ كَالْعِيَانِ ^(٥) ، وَإِطَاعُهُ
 كَالْإِنْجَازِ . وَمَدَحَتُهُ الشُّعْرَاءُ بِالْجُودِ . وَذَكَرَتْهُ الْخُطَبَاءُ بِالسَّمَاحِ . وَلَقَدْ كَانَ
 يَهْبُ لِلرَّجُلِ الْوَاحِدِ الضَّاحِجَةُ مِنَ الشَّاءِ ^(٦) وَالْعَرَجُ مِنَ الْإِبِلِ ^(٧) - وَكَانَ
 أَكْثَرُ مَا يَهْبُ الْمَلِكُ مِنَ الْعَرَبِ مِائَةً بَعِيرٍ ، فَيَقَالُ : وَهَبْ هُنَيْدَةً ^(٨) . وَإِنَّمَا

(١) أى لتجاوزوا أن تصلوا في الجود إلى مثل جود الله (٢) الطول :
 الإفضال والإنعام (٣) ساحل البحرين عمان وعدن (٤) الخلاف : الكورة
 وهو عند أهل اليمن واحد الخاليف وهي كورها أى المدن والأصقاع
 (٥) العيان : مصدر عاين الشيء : أبصره والمعنى : أن وعده في الوثوق بتحقيقه
 كالشيء المشاهد (٦) الضاحجة : الغنم الكثيرة (٧) العرج من الإبل : ما بين
 السبعين إلى الثمانين وقيل : ما بين الثمانين إلى التسعين ، وقيل : مائة وخمسون وفوق
 ذلك ، وقيل : من خمسمائة إلى الألف (٨) هند وهنيدة : اسم للمائة من الإبل خاصة

يقال ذلك ، إذا أريد بالقول غاية المدح ، ولقد وَهَبَ لرجل ألف بعير .
فلما رآها تزدهم في الهوادي ^(١) قال : أشهد أنك نبى . وما هذا مما تجودُ
به الأنفس .

وأجمعت الأمم كلها بحيلها وسخيتها ومزوجها ، ^(٢) على ذم البخل ، وحمد
الجود ، كما أجمعوا على ذم الكذب وحمد الصدق .

فمن أراد أن يخالف ما وصف الله - جل ذكره - به نفسه ، وما منح من
ذلك نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، وما فطر على تفضيله العرب قاطبة ،
والأمم كافة ، لم يكن عندنا فيه إلا إكفاره واستسقاطه ^(٣)

ولم نزالامة أبغضت جواداً قط ولا حقرتة ، بل أحبتة وأعظمته ، بل
أحبت عقبه وأعظمت من أجله رهطه . ولا وجدناهم أبغضوا جواداً ،
لمجاوزته حمد الجود إلى السرف ، ولا حقرتة ، بل وجدناهم يتعللون
مناقبه ، ويتدارسون محاسنه ، وحتى أضافوا إليه من نوادر الجليل ^(٤) ما لم يفعله
وتحلوه ^(٥) من غرائب الكرم ما لم يكن ليبلغه ، ولذلك زعموا أن الشاء في الدنيا
يضاعف ^(٦) كما تضاعف الحسنات في الآخرة . نعم ، وحتى أضافوا إليه

(١) الهادية والهادى : العنق ، والهادية من كل شيء : أوله وما تقدم منه فيكون
معنى تزدهم في الهوادي : تزدهم بأعناقها وهذا ما يشاهد في الإبل . أو يكون المعنى :
تزدهم في أوائها وهذا شاهد أيضاً في كل قطع
(٢) مزوجها : من امتزج فيه السخاء والبخل فكان وسطاً بين الكريم والبخل
(٣) في اللسان : وأكفرت الرجل : دعوته كافراً ، واستسقاطه : إسقاطه من
بين العقلاء

(٤) الفعل الجليل (٥) نحلوه : نسبوا إليه (٦) يضاعفه الناس أضغافاً
كثيرة بما يضيفون إليه ويزيدون عليه

كل مدح شارد ^(١)، وكل معروف مجهول الصاحب . ثم وجدنا هؤلاء بأعيانهم للبخل على ضد هذه الصفة ، وعلى خلاف هذا المذهب : وجدناهم يُغضونه مرة ، ويُحَقِّرونه مرة ، ويُغضون بفضل بغضه ولده ، ويحتقرون بفضل احتقارهم له رَهْطَه ، ويُضيفون إليه من نوادر اللوم ما لم يبلغه ، ومن غرائب البخل ما لم يفعله ، وحتى ضاعفوا عليه من سوء الثناء بقدر ماضعفوا للجواد من حسن الثناء .

وعلى أننا لا نجد الجوانح ^(٢) إلى أمثال الاسخياء ، أسرع منها إلى أموال البخلاء ، ولا رأينا عدد من افقر من البخلاء أقل .

والبخل عند الناس ليس هو الذي يَبْخُلُ على نفسه فقط ؛ فقد يستحق عندهم اسم البخل ويستوجب الذم ، من لا يدع لنفسه هوى إلا ركيه ، ولا حاجة إلا قضاها ، ولا شهوة إلا ركبها وبلغ فيها غايته . وإنما يقع عليه اسم البخل ، إذا كان زاهداً في كل ما أوجب الشكر ، ونوّه بالذكر ، وأدخر الأجر

وقد يُعَاقَبُ البخل ^(٣) على نفسه من المؤن ، ويلزمها من الكلف ، ويتخذ من الجوارى والخدم ، ومن الدواب والخشم ^(٤) ، ومن الآنية العجيبة ، ومن البزة الفاخرة ^(٥) . والشارية الحسنة ^(٦) ، ما يُرَبِّي على نفقة السخي المثرى ^(٧) ويضعف على جود الجواد الكريم ^(٨) فيذهب ماله وهو مذموم ، ويتغير

(١) شارد : نافر ، يريد المدح الغريب الذي لا يخطر عادة بالبال

(٢) الجوانح : جمع جانحة وهي الآفة

(٣) يعلق : يوجب ويكلف (٤) الخشم : الخدم وهي كلمة في معنى الجمع ولا واحد لها من لفظها (٥) البزة : الهيئة : يقال : هو حسن البزة

(٦) الشارة هنا : الزينة واللباس

(٧) يربي : يقال : أربي الشيء على كذا : زاد عليه

(٨) ضعف يضعف : من باب كرم ، زاد

حاله وهو ملوم . وربما غَابَ عليه حُبُّ الْقِيَانِ ^(١) واستُهِتِرَ بِالْخِصْيَانِ ^(٢) .
 وربما أَفْرَطَ فِي حُبِّ الصِّيدِ ، واستولى عليه حُبُّ المراكبِ ^(٣) ، وربما كانَ
 إِتْلَافَهُ فِي العُرْسِ وَالْخُرْسِ ^(٤) والوليمة ، وإِسْرَافُهُ فِي الإِعْذَارِ ^(٥) وَفِي العَقِيقَةِ ^(٦)
 والوكيرة ^(٧) ، وربما ذهبَتِ أَوَالُهُ فِي الوَضَائِعِ ^(٨) والودائع . وربما كانَ
 شَدِيدُ البُخْلِ ، شَدِيدَ الحُبِّ لِلذِّكْرِ ^(٩) وَيَكُونُ يُنْخَلُهُ أُرْشَجٌ ^(١٠) وَلَوْ مَهْ أَقْبَحُ ،
 فَيُنْفِقُ أَوَالَهُ وَيُتْلَفُ خَزَائِنُهُ ، وَلَمْ يَخْرُجْ كَفَافًا ^(١١) وَلَمْ يَنْجُ سَلِيمًا
 كَأَنَّكَ لَمْ تَرَبِّ بِخَيْلًا مَخْدُوعًا ^(١٢) ، وَبِخَيْلًا مَضْعُوفًا ، وَبِخَيْلًا مِضْيَاعًا ، وَبِخَيْلًا

-
- (١) القيان : جمع قينة . بفتح فسكون ، الأمة البيضاء مغنية أو غير مغنية
 (٢) استهتر بالشئ . وبالبناء للجهول . : أولع به : والولوع بالخصيان نوع من السرف
 والترف كان شائعا في أيامهم
 (٣) المراكب : جمع مركب والمراد ما يركب من الخيل ونحوها
 (٤) الخرس بالضم والخراس بالكسر : طعام يصنع ابتهاجا بالولادة
 (٥) الإعذار : وليمة الختان وطعام البناء ، الدخلة ،
 (٦) العقيقة : الشاة تذبح في اليوم السابع من ولادة المولود
 (٧) الوكيرة : الطعام يتخذه الرجل ويدعو إليه عند انتهاء ما كان يبنيه
 (٨) الوضائع : جمع وضيفة وهي ما يرفعه الدائن عن المدين من الدين
 (٩) شديد الحب لأن يذكر بما ينفقه من مال في هذه السبيل
 (١٠) أى أعلق بنفسه

- (١١) الأصل في معنى الكفاف : ما يكف عن سؤال الناس ويغنى ، ومعنى لم يخرج كفافا هنا : لم يخرج خاليا من الذم وهو في معنى : ولم ينج سليما
 (١٢) يتخيل كاتب الرسالة أن المخاطب ينكر ما ذهب إليه فهو يتجه إليه
 قائلا : كأنك الخ ، والمضعوف : ضعيف الرأي

نَفَاجًا ^(١) وبخيلة ذهب ماله في البناء، وبخيلة ذهب ماله في الكيمياء ^(٢) ،
وبخيلة أنفق ماله في طمع كاذب ، وعلى أمل خائب ، وفي طلب الولايات ،
والدخول في القَبَالَات ^(٣) ، وكانت فِتْنَتُهُ بما يؤمِّل من الإمرة ^(٤) ، فوق
فِتْنَتِهِ بما قد حواه من الذهب والفضة ، وقد رأينا ^(٥) يُنْفِق على مائدته وفاكهته
ألفَ دِرْهم في كل يوم ، وعنده في كل يوم عُرْسٌ ^(٦) ، وَلَآنَ يَطْعَنَ طَاعِنٌ
في الإسلام ، أهونُ عليه من أن يطعن طاعن في الرغيف الثاني ، وأشقُّ
عصا الدين ، أهونُ عليه من شقِّ رغيف ، لا يَعُدُّ الثَّأْمَةَ في عِرْضِهِ ثلثة ،
ويعدّها في ثريدته من أعظم الثَّلَمِ ^(٧)

وإنما صارت الآفاتُ إلى أموال البخلاء أسرعَ والجوائحُ عليهم أكلَبَ ^(٨) ؛

(١) النَفَاج : المدعى المتباهي بما ليس له

(٢) الكيمياء في ذعهم : تحويل المامدان الخبيسة - بالصناعة - إلى معادن نفيسة ،
أقول : وقد رأيت بعيني رأسي رجلا ثريا من ذوى قرابتنا كان يضرب به المثل في البخل
ولكنه في أواخر أيامه أضاع ثروته التي كانت تبلغ ثلثمائة فدان من أجود أطيان
مديرية الغريبة في سبيل هذا الكيمياء بعد أن تعرف على رجل مغربي قد اشتهر بهذه
الصناعة التي كم خربت من بيوت أمثال هؤلاء البخلاء المخبولين

(٣) القَبَالَة - بالفتح - الكفالة ، واسم لما يلتزمه الإنسان من عمل ودين ونحوها ،

والقييل : الكفيل والضامن

(٤) الإمرة : اسم مصدر، من أمر علينا : إذا ولى

(٥) يريد بخيلة من البخلاء

(٦) العرس من معانيه : الوليمة

(٧) الثلثة : الفرجة في الشيء المهْدوم أو المَكْسور

(٨) أكلب : أضرى وأولع وأشد

لأنهم أقلُّ توكلًا، وأسوأ بالله ظنًا. والجوادُ إما أن يكون متوكلاً، وإما أن يكون أحسنَ بالله ظنًا، وهو على كل حال المتوكل أشبه، وإلى ما أشبهه أنزع^(١)، وكيف أدار أمره، فليس من يتَّكل على خزونه، ويلجأ إلى كَيْفِيسه^(٢) ويرجع إلى جَوْدَةِ احتياطة وشدة احتراسه.

واعْتِلَالُ البَخِيلِ بالحدثان، وسوء الظن بتقلب الزمان، إنما هو كناية عن سوء الظن بخلق الحدثان^(٣)، وبالذي يُحدث الأزمان وأهل الزمان. ولا تجري الأحداث إلا على تقدير المحدث لها؟ وهل تختلف الأزمنة إلا على تصرف من دبرها؟ أولسنا وإن جهلنا أسبابها فقد أيقنَّا بأنها تجري إلى غاياتها؟^(٤) والدليل على أنه ليس بهم خوف الفقر، وأن الجمع والمنع إما أن يكون عادةً منهم، أو طبيعةً فيهم، أنك قد تجد المَلِكَ بخيلاً، وملكته أوسع، وتخرجه أدر، وعدوه أسكن^(٥) وقد علمنا أن الزنج أقصرُ الناسِ مرَّةً^(٦) ورويةً وأذهلهم عن معرفة العاقبة^(٧) : فلو كان سخاؤهم إنما هو لِكَلالِ حُدْمِهم^(٨)،

(١) الضمير في أشبهه يعود إلى المتوكل وأنزع : أميل

(٢) كيفه : عقله وفطنته

(٣) حدثان الدهر : نوابه . واعتلال البخيل بالحدثان : أى تلبسه العطل والأعذار

بالخوف من نواب الدهر الخ

(٤) الفاء من فقد : زائدة، لأن جملة فقد أيقنَّا : خبر ليس

(٥) الخرج والخراج : ما يحصل من غلة الأرض، وأدر : أكثر، وعدوه أسكن :

أى غير متحفز لقتاله وإذن فالمسال موفور لديه

(٦) المرّة : العقل والإحكام

(٧) أى وهم مع ذلك أسخياء

(٨) كلال الحدم : أصله فى السيف والسكين ونحوهما والمراد هنا النباء وقلة الذكاء والفطنة

وَتَقْعِينَ عَتَمَوْهُمْ ، وَقَلَّةٌ مَعْرِقَتُهُمْ ، لَكَانَ يَنْبَغِي لِفَارَسٍ أَنْ تَمَكُونَ أَبْخَلَ
 مِنَ الرُّومِ وَتَمَكُونَ الرُّومُ أَبْخَلَ مِنَ الصَّقَالِبَةِ ^(١) ؛ وَكَانَ يَنْبَغِي فِي الرِّجَالِ ، فِي
 الْجَمَلَةِ ، أَنْ يَكُونُوا أَبْخَلَ مِنَ النِّسَاءِ ، فِي الْجَمَلَةِ ، وَكَانَ يَنْبَغِي لِلصِّيَّانِ أَنْ يَكُونُوا
 أَسْحَنَ مِنَ النِّسَاءِ ، وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَقْلُ الْبَخْلَاءِ عَقْلًا ، أَعْقَلُ مِنْ أَشَدُّ
 الْأَجْوَادِ عَقْلًا ؛ وَكَانَ يَنْبَغِي لِلْكَلبِ - وَهُوَ الْمَضْرُوبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي اللَّوْمِ - أَنْ
 يَكُونَ أَعْرَفُ بِالْأُمُورِ مِنَ الدِّيكِ ، الْمَضْرُوبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْجُودِ ^(٢)

وَنَحْنُ لَا نَجِدُ الْجَوَادَ يَفِرُّ مِنْ اسْمِ السَّرَفِ إِلَى الْجُودِ ، كَمَا نَجِدُ الْبَخِيلَ
 يَفِرُّ مِنْ اسْمِ الْبُخْلِ إِلَى الْاِقْتِصَادِ ^(٣) . وَنَجِدُ الشَّجَاعَ يَفِرُّ مِنْ اسْمِ الْمُنْهَزَمِ ،
 وَالْمُسْتَحْيَ يَفِرُّ مِنْ اسْمِ الْحِجْلِ . وَلَوْ قِيلَ لَخَطِيبُ ثَابِتِ الْجَنَانِ : وَقَاحٌ ^(٤) لَجَزِعَ
 - فَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ فَضِيلَةِ الْجُودِ إِلَّا أَنْ جَمِيعَ الْمُتَجَاوِزِينَ لِحُدُودِ أَصْنَافِ
 الْخَيْرِ يَكْرَهُونَ اسْمَ تِلْكَ الْفَضْلَةِ ^(٥) - إِلَّا الْجَوَادُ ^(٦) ، لَقَدْ كَانَ فِي ذَلِكَ مَا يُبَيِّنُ
 قَدْرَهُ ، وَيُظْهِرُ فَضْلَهُ .

وَلَوْ كَانُوا لِأَوَّلَادِهِمْ يَجْمَعُونَ ، وَلَهُمْ يَكْدُونَ ، وَمَنْ أَجْلِهِمْ يَحْرِصُونَ ،
 لَجَعَلُوا لَهُمْ كَثِيرًا مِمَّا يَطْلُبُونَ ، وَلَتَرَكُوا مُحَاسِبَتَهُمْ فِي كَثِيرٍ مِمَّا يَشْتَهَوْنَ .

(١) الصَّقَالِبَةُ : جَيْلٌ تَتَاخَمُ بِلَادُهُمْ بِلَادَ الْخَزَرِ - فِي الرُّوسِيَا - وَبَحْرُ الْخَزَرِ هُوَ
 بَحْرُ قَزْوِينَ

(٢) وَصَفَ الدِّيكُ بِالْجُودِ لِأَنَّهُ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَدْعُو الدَّجَاجَ وَيُثِيرُ لَهَا الْحَبَّ

(٣) وَنَحْنُ الْخُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْجَوَادَ لَا يَخَافُ مِنْ اسْمِ السَّرَفِ خَوْفَ الْبَخِيلِ مِنْ

اسْمِ الْبَخْلِ لِأَنَّ السَّرَفَ فِي رَأْيِ الْجَوَادِ يَكَادُ يَلْحَقُ بِالْجُودِ

(٤) الْوَقَاحُ : الْقَلِيلُ الْحَيَاةِ .

(٥) الْفَضْلَةُ هُنَا : تَجَاوُزُ الْحَدَّ فِي الْفَضِيلَةِ

(٦) إِلَّا الْجَوَادُ ، أَيْ لِإِنَّهُ لَا يَكْرَهُ أَنْ يُلَقَّبَ بِالسَّرَفِ

وهذا بعض ما بقى بعض المورثين إلى الوارثين ، وزهد الأخلاف ^(١) في طول عمر الأسلاف ...

ولو كانوا لأولادهم يمهّدون ، ولهم يجمعون ، لمّا جمع الخِصيانُ
الأوال ، ولمّا كنز الرهبانُ الكنوز ، ولا سترّاح العاقر من ذلّ الرّغبة ^(٢)
ولسليم العقيم من كد الحرص . وكيف ؟ ونحن نجده بعد أن يموت ابنه
الذى كان يعتل به ^(٣) ، والذى من أجله كان يجمع ، على حاله ^(٤) في الطلب
والحرص ، وعلى مثل ما كان عليه من الجمع والمنع

والعامة لم تُقصر في الطلب والحسرة ^(٥) ، والبُخلاء لم يحدّوا شيئا من جهدهم ^(٦)
ولا أعفوا بعد قدرتهم ^(٧) ، ولا قصرُوا في شيء من الحرص والتحصّر ^(٨) ،
لأنهم في دار قلعة ، بعرض نقلة ^(٩) . حتى لو كانوا بالخلود موقنين ،
لأغفلوا تلك الفضول ^(١٠)

-
- (١) الأخلاف : جمع خلف وهم أبناء الانسان الذين يخلفونه بعد موته
(٢) ذل الطمع والحرص (٣) يعتل به : يتخذة علة وسببا للجمع والمنع
(٤) على حاله : متعلق الجار والمجرور مفعول ثان لتجد (٥) والعامة الخ كأنه
الحق العامة بالبخلاء ، لصفات البخل فيهم ، والحسرة هنا : الجمع والإمساك
(٦) أى لم يحدّوا جهودهم في سبيل جمع الاموال (٧) اعنى : أنفق العفو من
ماله وهو ما يفضل عن النفقة وبعد قدرتهم : أى بعد اقتدارهم وإيسارهم
(٨) الحصر : البخل

(٩) يقال : الدنيا دار قلعة : أى انقلاص وارتحال ، وقوله : وبعرض نقلة : أى أن
الدنيا دار يعرض فيها انتقال فلا تدوم على حال (١٠) حتى لو كانوا الخ هذا من
الترقي في الدليل يقول : لو كتب لهم الخلود ، لوجب أن يغفلوا طلب ما يزيد على عيشهم
وحالتهم ولجادوا به لو حصل في أيديهم ولكنهم لا يعقلون بسبب ماركب فيهم من
الحرص والجشع

فالبخلُ مجتهد ، والعاميُّ غير مقصِّر . ^(١) فمن لم يستعين على ما وصفنا بطبيعة قوية ، وبشهوة شديدة ، وبنظر شافٍ ، كان إما عامياً ، وإما بخيلاً شقيماً ^(٢) - فقيم اغذالهم بأولادهم ، واحتجاجهم بخوف التلوث من أزمئتهم ^(٣) ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أفيد كذب عنده كذبة ، وكان جواداً : لولا خصلة ومفك الله عليها ، لشردت بك من وافي قوم ^(٤) ... وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم : هل لك في بيض النساء وأدم الإبل ^(٥) ، قال : ومن هم ؟ قال : بنو مدلج ^(٦) . قال : يمنعني من ذلك قراهم الضيف ، وصيلتهم الرحم . وقال لهم أيضاً : إذا نحرُوا ثجوا ^(٧) ، وإذا لبوا عجوا ^(٨) . وقال الأنصار : من سيدكم ؟ قالوا : الحر بن قيس ، على أنه يؤن ^(٩) . فينا يبخل ، فقال : وأى داء أدوا من البخل ؟ جعله من أدوا الداء .

(١) معنى اجتهد البخل هنا أنه يفعل ما يفعل عن احتجاج واقتناع بصواب ما يفعل . أما العامي فليس له من العقل ما به يقيم الحجة على حكرته وإنما هو مسوق إلى ذلك بطبيعته فهو ملحق بالبخل .

(٢) فمن لم يستعن الخ ، على ما وصفنا : على ما بينا من تمكن البخل والجشع من النفوس . والطبيعة القوية : السليمة من العلل النفسية ، أما الشهوة الشديدة : فهو يريد بها الميل الشديد للتخلص من هذا الضعف ، وقوله وبنظر شافٍ : يقصد به التفكير الصحيح المؤسس على البرهان القويم لا السفسة .

(٣) تلوث الأزمئمة : تغلبها وتنكرها ^(٤) ومقه يمه ، كوثق يثق : أحبه . وشردت بك : أبعدتك وطردتك ، وقوله من وافي قوم : هو بيان للكاف في « بك » . (٥) الأدم : جمع آدم وأدماء ، والأدم في الإبل : لون مشرب سواداً أو بياضاً أو هو البياض الواضح والتقدير : هل لك في قوم الخ أى هل لك في غزو قوم الخ كما يفهم من المقام ^(٦) بنو مدلج قبيلة من كنانة ^(٧) وقال لهم : أى قال في حقهم ، وثجوا : أسالوا دماء الذبائح في الحج ^(٨) التلية في الحج قول : ليك اللهم ليك الخ وعج يعج : بالكسر والفتح ، صاح ورفع صوته ^(٩) يؤن : يتهنئ

وقال الأنصار : أنا والله ، ما علمتكم إلا لتكثروا عند الفزع وتقولون عند الطمع ^(١) ، وقال : كفى بالمرء حرصا رُكوبه البحر ^(٢) . - وقال : لو أن لابن آدم واديين من مال لا يتغنى ثالثا ، ولا يشبع ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب ^(٣) . وقال : السخاء من الحياء ، والحياء من الإيمان وقال : إن الله جواد يحب الجود . وقال : أنفق يا بلال ، ولا تحش من ذي العرش إقلالا ^(٤)

هذا ما رأينا اختياره من هذه الرسالة الجاحظية البارعة الجامعة . ونعود إلى سائر معقرياتهم في الجود والإحسان

كلمة علوية لسيدنا رسول الله

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقال : إني أخاف عليكم بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ... قال : فقال رجل : أو يأتي الخير بالشر يارسول الله ؟ قال : فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأينا أنه ينزل عليه ^(٥) ، فأفاق يمشح عنه الرخصاء ^(٦) وقال : أين هذا السائل - وكأنه حمده - فقال : إنه لا يأتي

(١) لتكثروا الخ : أي لتجتمعوا بجموعكم للنجدة والدود ، وقتلهم عند الطمع : لساقتهم وكرمهم وقلة حرصهم ، والمراد : الطمع في مغنم حرب أو نحوه
(٢) كفى بالمرء الخ يذم صلى الله عليه وسلم الجشع والحرص على جمع المال ولا سيما عند توقع الخطر كركوب البحر في تلك الأيام وليس المراد ذم السعي على الرزق الحلال من أي وجه كان ، كما هو ظاهر
(٣) واديين : نهدين (٤) أنفق الخ ، بلال : هو بلال بن حمزة الحبشي مؤذن سيدنا رسول الله
(٥) ينزل عليه : يوحى إليه (٦) الرخصاء : العرق الكثير وكثيرا ما يستعمل

الخير بالشر، وإن مما يُبْذَرُ الرِّبْعُ مَا يَقْتُلُ حَبْطاً أَوْ يُبْلِمُ^(١)، إلا آكلة الخَضِرِ^(٢)، فإنها أَكَلَتْ حتى إِذَا امْتَلَأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ فَتَأْكُلُ^(٣) وبالت ثم رتعت. وإن هذا المال خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، ونعم صاحب المسلم دو، إن أعطى المسكين واليتيم وابن السبيل. أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.



وقال الإمام اللغوي أبو منصور الأزهري^(٤): في هذا الحديث، ثلثان، ضرب أحدهما للمفرط في جمع الدنيا مع منع ما جمع من حقه، والآخر ضربه للمقتصد في جمع المال وبذله في حقه، فأما قوله صلى الله عليه وسلم: وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً، فهو مثل الحريص المفرط في الجمع والمنع، وذلك أن الربيع ينبت أحرار العشب^(٥) التي تتحول إليها الماشية فتستكثر منها حتى تنتفخ بطونها وتملك، كذلك الذي يجمع الدنيا ويحرص عليها ويشع على ما جمع حتى يمنع ذا الحق حقه منها، يهلك في الآخرة بدخول النار واستيجاب العذاب - أقول: ويهلك في الدنيا كذلك، وهل لا يعد هلاكاً لمن هذه حاله ما يلاقيه من إزاء الناس به وازورارهم عنه وانطوائهم له على البغض والحقد والحسد وصنوف الأذى وعدّهم إياه خنزيراً من خنازير البشر أو مجنوناً من صرعى الأثرة والأنانية وحب الذات، وبالحرى لا خير فيه لأحد ولا لنفسه وإنما هو لا يعدو

في عرق الحى والمرض (١) الحبط - كما سيمر بك - أن تأكل الماشية فتكثر حتى تنتفخ بطونها ولا يخرج عنها ما فيها فتملك، ويبلم: يقرب ويدنو من الهلاك (٢) الخضِر بفتح فكسر جمع خضرة: ضرب من الجنبه أى عروق العشب الغامضة في الأرض كما سيأتى (٣) ثلطت: تغوطت وأكثر ما يقال للإبل والبقر والغنم (٤) هو محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، الإمام المشهور في اللغة، صاحب التهذيب ولد سنة ٢٨٢ وتوفي سنة ٣٧٠ بمدينة هراة إحدى مدن خراسان، فالأزهري نسبة جده أزهري (٥) أحرار العشب: الرقيق الرطب منه

أن يكون صيرفاً أو حارس مال ليس غير :

يَجْنِي الْغَنَى لِلثَّامِ لَوْ عَقَلُوا مَا لَيْسَ يَجْنِي عَلَيْهِمُ الْعَدَمُ
هُمْ لَا مَوَالِهِمْ وَلَكِنَّ لَهُمْ وَالْعَارُ يَبْقَى وَالْجُرْحُ يَبْلُغُ

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أَمْسَكَتَهُ فَإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَاَلْمَالُ لَكَ

هذا إذا أضاف الشَّحَّ على نفسه إلى الشَّحِّ على ذوى الحقوق

أما إذا آثر نفسه بالتمتع بلذات الدنيا فأى هلاك بعد الذى يصيبه من
الاسقام والالوجاع وسائر أدواء الترف والسرف واجتواء المحرومين إياه
وحقنهم عليه وما عساه يتولد من ذلك كله من الفوائل الاجتماعية التى نرى
أفاعيلها اليوم - قال الأزهرى : وأما مثل المقتصد المحمود فقولته صلى الله
عليه وسلم : **إِلَّا آكَلَةُ الْخَضِرِ فَإِنَّمَا أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَلَأَتْ خَاصَرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ**
عَيْنَ الشَّمْسِ فَتَلَطَّتْ وَبَالَتْ ثُمَّ رَتَعَتْ ، وذلك أن الخضر ليس من أحرار
البقول التى تستكثر منها الماشية فتهلكها أكلاً ولكنه من الجنة ^(١) التى
ترعاها بعد هيج الشب ويُبْسِهِ ، والماشية ترتع منها شيئاً شيئاً ولا تستكثر
منها فلا تحبط بطونها عنه . فضرب النبي صلى الله عليه وسلم آكلة
الخضر مثلاً لمن يقتصد فى أخذ الدنيا وجمعها ولا يسرف فى الحرص عليها
وأنه ينبجو من وبأها كما نجت آكلة الخضر ، ألا تراه قال : **فَإِنَّمَا إِذَا أَصَابَتْ**
مِنَ الْخَضِرِ اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ فَتَلَطَّتْ وَبَالَتْ ، وإذا تلطت فقد ذهب

(١) أسلفنا أن الجنة هى الكلا الذى له عروق فى الأرض ، قال أبو حنيفة الدينورى :
الجنة ما كان فى نبتة بين البقل والشجر فيكون فوق البقل ودون الشجر مثل الحائط
عما يبق أصله فى الشتاء ويبيد فرعه ، وسى جنة لأنها كما قال الأزهرى صغرت عن
الشجر الكبار وارتفعت عن التى لأرومة لها فى الأرض

حبطها، وإنما تحبط الماشية إذا لم تثلط ولم تبل ، ثم حث صلوات الله عليه على إعطاء المسكين واليتيم من هذا المال ، مع حلاوته ورغبة الناس فيه ، ليقبّه الله تبارك وتعالى وبال نعمتها في دنياه وآخرته .



هيهات أن أبيت مبطانا وحولى بطون غرثى

ومن كلمة لسيدنا على رضى الله عنه في كتاب له إلى عثمان بن حنيف الأنصارى عامله على البصرة: ولو شئت لأهديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ، ولباب هذا القمح ، ونسأج هذا القز ، ولكن هيهات أن يغلبتنى هواى ، ويقودنى جشعى إلى تخير الأطعمة ، ولعلّ بالحجاز وباليمامة من لا طمع له فى القرص ، ولا عهد له بالشبع أو أبيت مبطانا وحولى بطون غرثى ،^(١) وأكبأد حرى ، أو أكون كما قال القائل :

وَحَسْبُكَ عَارًا أَنْ تَبَيْتُ بِيْطَنَةً وَحَوْلَكَ أَكْبَادُ تَحِنْ إِلَى الْقَدِّ^(٢)
أَفْتَعُ مِنْ نَفْسِي بَأْنَ يَقَالُ : هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أَشَارُكُهُمْ فِي مَكَارِهِ
الدَّهْرِ ، أَوْ أَكُونَ أَسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ^(٣) ، فَاخُلِقْتُ لِيَسْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ ،
كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هَمُّهَا عُلْفُهَا ، أَوِ الْمُرْسَلَةِ سُغْلُهَا تَقْمُمُهَا ، تَكْتَرِشُ مِنْ
أَعْلَافِهَا ، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا ...

(١) المبطان : الذى لا يزال عظيم البطن من كثرة الأكل ، وغرثى : جائعة

(٢) البيطنة : الكظة ، وذلك أن يمتلئ الإنسان من الطعام امتلاء شديداً ، والقَدِّ : سيور قد - تقطع - من جلد غير مدبوغ . وهذا البيت من أبيات لحاتم الطائي المشهور بالجود (٣) جشوبة العيش : خشونته وغلظه

وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم - وكان من قبلهم مؤدبهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - يَرَوْنَ - وَنِعَمًا رَأَوْا - أن السياسة الرشيدة ، وأن الطريق إلى الإحسان - ولا طريق غيرها - إنما تتحقق بالرغبة عن شهوات الحياة الدنيا ، وتنكّب السرف والترف ، وكانوا يريدون عُملهم على هذه السياسة التي لا سياسة غيرها .

كان الخلفاء الراشدون مُثلاً علياً في الرغبة عن شهوات الحياة الدنيا

قال الربيع بن زياد الحارثي : كنت عاملاً لأبي موسى الأشعري على البحرين ، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمره بالقدوم عليه هو وعماله ، وأن يستخلفوا جميعاً . قال : فلما قدمنا أتيت يَرْفَأَ « مولى عمر » فقلت : يا يرفأُ مُسْتَرَشِدٌ وابن سبيل ... أى الهيئات أحب إلى أمير المؤمنين أن يَرَى فيها عماله ، فأولاً إلى بالخشونة . فاتخذتُ خُفَيْنِ مُطَارِقَيْنِ ^(١) وابستُ جُبَّةً صوف ولثتُ عمامتي على رأسي ^(٢) . فدخلنا على عمر ، فصفا بين يديه ، فصعد فينا وصوب ^(٣) فلم تأخذ عينه أحداً غيري ، فدعاني فقل : مَنْ أنت ؟ قلت : الربيع ابن زياد الحارثي ، قال : وما تتولى من أعمالنا ؟ قلت : البحرين ، قال : كم ترزق ؟ ^(٤) قلت : ألفاً ، قال : كثيرٌ ... فما تصنع به ؟ قلت : أتقوت منه شيئاً وأعود به على أقارب لي ، فما فضل عنهم فعلى قراء المسلمين ، قال : فلا بأس ، ارجع إلى موضعك ، فرجعت إلى موضعي من الصف ، فصعد فينا وصوب فلم تقع

(١) طراق النعل : ما أطبقت عليه فخرزت به ، بمعنى مطارقين : خصفت إحداهما

فوق الأخرى (٢) أى أدت بعضها على بعض على غير استواء

(٣) صعد فينا : رفع رأسه فنظر الأعلى ، وصوب : خفض رأسه فنظر الأسفل

(٤) أى كم مرتبك

عينه إلا على فدعاني فقال : كم سنك ؟ قلت : خمس وأربعون سنة ، قال :
الآن - ين استحكمت .^(١) ثم دعا بالطعام وأصحابي حديث عهدهم بلبين العيش ،
وقد تجوّعت له ، فأُتيَ بخُبْزٍ وأكسار بعير^(٢) فجعل أصحابي يعافون ذلك
وجعلت أكل فأجيد ، فجعلت أنظر إليه يا حظي من بينهم ، ثم سبقت في كلمة
تمنيت أني سُخْتُ في الأرض^(٣) قلت : يا أمير المؤمنين ، إن الناس يحتاجون
إلى صلاحك ، فلو عمدت إلى طعام ألين من هذا ! فرجرتي ، ثم قال :
كيف قلت ! فقلت : أقول - يا أمير المؤمنين - : أن تنظر إلى قوتك من
الطحين فيخبز لك قبل إرادتك إياه يوم ويُطبخ لك اللحم كذلك ، فتؤتي
بالخبز لينا واللحم غريضا^(٤) . . . فسكن من غريبه^(٥) وقال : أههنا غرت ؟^(٦)
قلت : نعم ، فقال : ياربيع ، إننا لو نشاء ملأنا هذه الرحاب من صلاتق
وسباتك وصناب^(٧) ، ولكني رأيت الله عز وجل نعى على قومه شهواتهم

(١) استحكمت : تناهيت عما يضرك في دينك ودنياك

(٢) أكسار : جمع كسر ، والكسر : عظم ليس عليه كثير لحم

(٣) ساخ في الأرض : غاص فيها ودخل

(٤) غريضا : طريا (٥) يريد حديثه (٦) غرت : أي ذهبت يقال : غار

الرجل : إذا أقي الغور وناحيته مما انخفاض من الأرض ، وأنجد : إذا أقي نجدا أو ناحيته

مما ارتفع من الأرض (٧) صلاتق جمع صليقة وهي القطعة المشوية من اللحم

والسباتك : ما يسبك أي ينخل من الدقيق فيؤخذ خالصة وهو ما يسمى الحواري أي

ما يتقى من لباب البر . والصناب : صباغ يتخذ من الخردل والزبيب

(٨) نعى على قوم شهواتهم : عابها ووبخهم عليها . أما الآية التي ذكرها الفاروق

بعد فهي : وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَذَّيْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ

الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون

في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون

فقال : أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا... ثُمَّ أُمِرَ أَبُو مُوسَى يَاقِرَارِي وَأَنْ يَسْتَبْدِلَ بِأَصْحَابِي... وهذا من الفاروق هو - فضلا عن أنه الأليق بكل من وُلِّيَ أمر الناس - غاية في السداد والسياسة لرشيدة الحازمة كما قلنا

عظمة الفاروق

في زهده وتقواه

هذا والله المَلِكُ الهنيء

وما يصح إيرادُه هنا ما يأتي : لما أتى بالهَرْمُزَان صاحبُ نُسْتَر، إلى عمر ابن الخطاب - وكان هذا الهَرْمُزَان من أعظم تَوَادِ الفُرس ، وكان على مِيمَنَةِ جيشِ رُسْتَمَ وزير ملك فارس يَزْدَجَرْدَ بن شَهْرِيَار بن ابرويز في حرب القادسية سنة ١٤ من الهجرة، فلما قتل رستم وانتصر المسلمون فرَّ الهَرْمُزَان بمن بقي من جُنْدِهِ ، وما زال المسلمون يتابعونه الغارة بعد الغارة حتى لجأ إلى مدينة نُسْتَر^(١) ، وتحصَّن بها ، فحاصروه أشدَّ حِصَار ، ثم أنزلوه على حُكْمِ الفاروق ، فأسلمه قائد جيش المسلمين أَبُو سَبْرَةَ بن أَبِي رُفْهٍ إلى وفد فيهم أَنَس بن مالك والاحنف بن قيس ، فَأَتَوْاهُ إلى الفاروق - وكان الفاروق يلتف في كِسَائِهِ وينام في ناحية المسجد ، فجعلوا يسألون عنه فيقال : مَرَّ هُنَا آنفاً قَيْضَغُرُ في قلب الهَرْمُزَان ، إذ رآه كَبَعَضِ السُّوقِ^(٢) ... حتى انتهوا به إلى عمر وهو نائم في ناحية المسجد ... فقال الهَرْمُزَان : هذا والله المَلِكُ الهنيء ...^(٣) فلما جلس عمر امتلأ قلبُ العِلَاجِ^(٤) منه هيبه ، لما رأى عنده

(١) نُسْتَر : مدينة عظيمة جعلها عمر بن الخطاب من أرض البصرة لقرى بها منها
(٢) السُّوق : جمع سوقة كغرفة وغرف ، وهم الرعية (٣) إذ لا يحتاج إلى أحراس ولا عدد (٤) العِلَاج في الأصل : الحمار الوحشي : وقد أطلقه المسلمون على الرجل من كفار العجم ومن يشبه العجم

من الجِدِّ والاجتهاد، وألَيْسَ مِنْ هَيْبَةِ التَّقْوَى ... ثم نظر عمر إليه وقال :
أَلْهَرُمُزَانُ ! قال : نعم ، فقال عمر : الحمد لله الذى أذل بالإسلام هذا وأشباهه ،
وأمر بنزع ما عليه من الديباج المذهب ، والناج المكلل بالياقوت ، وأمر له
يثوب صفيق^(١) ، وهم بقتله ، فطلب الهرمزان ماء ، وقال : أخاف أن أُقتلَ
وأنا أشرب ! فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشرب ، فأراقه ، فقال عمر :
والله لا أنخدعُ حَتَّى تُسَلِّمَ ، فأسلم ، وفَرَضَ له فى العطاء ألفين ، وأقام
بالمدينة .



نعود إلى عبقرياتهم فى الجود من بابات شتى ... ولقد أسلفنا أن الأرائل
لم يَتَرَكُوا مَعْنَى الْإِطْرَاقِ : * وهل غادرَ الثُّمراءُ من مُتَرَدِّمٍ *^(٢)
وهو معلوم أن الخمر تُنَحِّثُ فى شاربها إذا انتشى هِزَّةً وطرباً وأريجاً
وقد تُحِيلُ البَخِيلَ كَرِيماً ، فإذا قالوا فى ذلك ؟ قالوا : - والقائلُ الْبُخْتَرِيُّ - :
تَكْرَمْتَ مِنْ قَبْلِ الْكُؤُسِ عَلَيْهِمْ فَمَا آسَطَعَنْ أَنْ يُحَدِّثَنَّ فَيْكَ تَكْرُماً
وقال أبو نواس :
فَى لَا تُذِيبُ الْخَمْرُ شَحْمَةَ مَالِهِ وَلَكِنْ أَيْادِ عُرْوَدٍ وَبَوَادِي^(٣)
وقال المتنبي :

(١) صفيق : جيد النسيج (٢) صدر ييت لعنرة وتماه :

* أم دل عَرَفْتَ الدار بعد توهم *

وهذا البيت مطلع معلقته ، يقول عننرة : إن الشعراء قد سبقونا إلى القول ، فلم يدعوا
مجالاً لقائل ، والمتروم فى الأصل : الموضع الذى يرفع ويستصلح
(٣) شحمة ماله : أطيئه ، وقوله : ولكن أيا دعود وبوادي ، يقول : ولكنه يعطى
عطاياه قبل الخمر وبعد الخمر ودائماً ، فعطاياه تبتدأ وتعاد

لا تَجِدُ الخمرَ في مَكَارِمِهِ إِذَا انْتَشَى - خَلَّةٌ تَلَا فَاها (١)

والأصل في هذا قول عنبرة في معلقته :

وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصَرُ عَنْ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتُ شِمَائِلِي وَتَكَرَّرِي
وَقَالَ زُهَيْر :

أَخْوِيقَةُ لَا تُهْلِكُ الخمرُ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ المَالُ نَائِلُهُ
وَقَدْ غَضُوا مِنْ قَوْلِ عَمْرِو بْنِ كُلثُومٍ :

❖ إِذَا مَا المَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا (٢) ❖

ومعنى ذلك كله أنهم لا يعدُّون جودَ السَّكرانِ جُوداً ، وإنما الجودُ
عندهم ما كان من كَرَمٍ فطَرِي لا تَبَعُهُ خَرٌّ وما يُشبه الخمرَ . وإذا هم وَصَفُوا
الخمرَ بأنها تُورِثُ شاربها شيئاً يُشبه الكرمَ ، فذاك من بابِ استِقْصائِهِم
لمعاني الخمرِ وما تحدِّثه في شاربها ، كما قد سيمر بك في بابهِ ...

ولقد سَمَت مَكَارِمُ الأخلاقِ بكثيرٍ مِنْ ذَوِي الأَرِيحِيَّةِ إِلَى أَنَّهُمْ لَا يَقْطَعُونَ
نَوَالِهِمْ عَنْ يَغْضُبُونَ عَلَيْهِمْ وَيَنْبِسُ النَّزَى بَيْنَهُمْ ، وقد رُوِيَ فِي ذَلِكَ أَنَّ

(١) الخلَّة : الخصلة والثلة ، وتلافاها — بحذف إحدى التامين : تلافاها ، أى
تداركها

(٢) عجز : بيت من معلقته وصدره :

❖ مُشْعَشَعَةٌ كَأَنَّ الحِصَّ فِيهَا ❖

يصف الخمر يقول : اسقني الخمر مشعشة ، أى مزوجة بالماء ، فإنها من شدة حررتها
كأنما أُلْقِيَ فِيهَا الحِصَّ - وهو الورس - نبات أحمر يشبه الزعفران - وإذا شربناها وسكرنا
جدنا بعقائل أموالنا وسمحنا بذخائر أعلاقنا ، فسخينا : فعل من سخى يسخى سخاء —
وهذه لغة - ولغة فيها وهى سخا يسخو سخاوة ، وثالثة وهى سخو يسخو - ويجوز أن تكون
سخينا صفة ومعناها الحار فيكون المعنى : كأنها حال امتزاجها بالماء وكون الماء حاراً
نور هذا البيت ، وإذن فلا مطعن عليه

بعض النبلاء كان يُجرى على رجلٍ شيئاً ، ثم غَضِبَ عليه ، وحدث أن كتب
أبْنُه إطلاقاتٍ ، ورفِعت إليه الإطلاقاتُ ، وترك اسمَ المَغْضُوبِ عليه ، فقال له
أبوه : فأين ذِكرُ رِزْقِ فلانٍ ؟ فقال : إنَّكَ قد كنتَ غَضِبتَ عليه ، فقال :
يا بُنَيَّ ، غَضِبِي لَا يُسْقِطُ هَبْنِي ... إِنَّ أَبَاكَ لَا يَغْضُبُ فِي النَّوَالِ ...

وحتى المحتاجين المَغْضُوبِ عليهم كانت أنفسهم كريمةً أَيْبَةً ، فقد رُوِيَ
أنَّ بعضهم كان يُجرى على رجلٍ شيئاً ، فغَضِبَ عليه ، فقطَّعه ، ثم رَضِيَ عنه
فردَّه ، فأبى الرجل أن يَقْبَلَهُ وقال : إني كنتُ أَظُنُّ أن عطاءه مَكْرُمَةٌ ؛ فأما
وقد صار غَضْبُهُ يَقْطَعُهُ ، فلا حاجة لي فيه ... وكذلك بَلَغَتْ بهم مكارمُ
الْإِخْلَاقِ أن يُعْطُوا الْمُعْتَفِينَ ، أكانوا فقراءَ أم أغنياءَ ، فلا يَخْصُونَ ،
وقد رُوِيَ في الخبر : أعطوا السائل ولو جاء على فرس ، وروى أيضاً :
كلُّ معروفٍ صدقة ، لغنيٍّ أو فقيرٍ ؛ ويُشبهون مَنْ هذا حاله بالغِيثِ ، قال
ابن المعتز :

وَيُصِيبُ بِالْجُودِ الْفَقِيرَ وَذَا الْغَنَى كَالْغَيْثِ يَسْقِي مُجْدِبًا وَمَرِيحًا
وقال المتنبي :

وَيَدُّ لَهَا كَرَمُ الْغَمَامِ لِأَنَّهُ يَسْقِي الْعِمَارَةَ وَالْمَكَانَ الْبَلَقَا
وكذلك تساموا وبلغوا من عبقرية الروح أن صاروا يُعْذُونَ الانْحِدَاعَ
عن المال والتبالة في ابتذاله كرمًا ، وقالوا : إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا مَا خَادَعْتَهُ
انْحَدَعَا ... وفي ذلك يقول البحري :

وَإِذَا خَادَعْتَهُ عَنْ مَالِهِ عَرَفَ الْمَسْلَكَ فِيهِ فَانْحَدَعَ

ويقول :

وقد يتغابى المرء عن عظم ماله ومن تحت برّديه المغيرة أو عمرو
 « المغيرة : هو المغيرة بن شعبة ، وعمرو : هو عمرو بن العاص وكانا من
 الدهاة ، ... وقيل لبعضهم : ما الشرف ؟ فقال : الانخداع عن المال ، ولا تجد
 أحداً يتغافل عن ماله إلا وجدت له في قلبه فضيلة لا تقدر على دفعها ،
 وقد أدبنا نبينا صلى الله عليه وسلم بقوله : رحم الله سهل البيع سهل الشراء ،
 وهذا خلاف قول الناس : المغبون غير محمود ولا مأجور ، وقد قال صلى
 الله عليه وسلم : ألا أدلكم على شيء يحبّه الله ورسوله ؟ قالوا : بلى يا رسول
 الله ، قال : التغابن للضعيف ... ومما يروى في هذا الباب ما أورده ابن
 خلكان في ترجمة الوزير الخطير أبي الحسن علي بن الفرات وزير المقتدر بالله
 ابن المعتض بالله العباسي - وكانت وفاته سنة ٣٢٧ هـ - وهو : أن رجلا اتصلت
 عظمتُهُ ، وانقطعت مادّته ، فزور كتابا من أبي الحسن بن الفرات إلى أبي
 زُبَور المارِ داني عامل مصر ، يتضمن الوصاة به والتأكيد في الإقبال عليه
 والإحسان إليه ، وخرج إلى مصر ، فلقّيه به ، فارتاب أبو زُبَور في أمره
 لتغير الخطاب على ما جرت به العادة ، وكون الدعاء أكثر مما يقضيه تحله
 فراعاه مراعاةً قريبةً ووصله بصلة قليلة ، واحتبسّه عنده على وعدٍ وعده به
 وكتب إلى أبي الحسن بن الفرات يذكر الكتاب الوارد عليه ، وأنفذه بعينه
 إليه ، واستثبته فيه ، فوقف ابنُ الفرات على الكتاب المزور ، فوجد فيه
 ذكرَ الرجل وأنه من ذوى الحرّمات والحقوق الواجة عليه ، وعرضه على
 كتابه وعرفهم الصورة فيه وعجب إليهم منها ومما أندم عليه الرجل ، وقال
 لهم : ما الرأي في أمر هذا الرجل عندكم ؟ فقال بعضهم : تأديبه أو حبسه ،
 وقال آخر : قطع إهابه لئلا يعاود مثل هذا ، ولئلا يقتدى به غيره فيما هو

أكثر من هذا، وقال أجمعهم محضراً : يُكشَفُ لأبي زُبَور قصته ، ويُرسَمُ له طَرْدُهُ وحرمانه ، فقال ابن الفرات : ما أبعدكم من الحرية والخيرية : وأنقرَ طباعكم عنها رجل توَّسل بنا وتحمل المشقة إلى مصر في تأميل الصلاح بجَاهِنَا ، واستمدادُ صنْعِ الله عز وجل بالانتساب إلينا ، ويكون أحسنُ أحواله عند أحسنكم محضراً تكذيب ظَنِّه وتخيب سَعْيِه ! والله لا كان هذا أبداً ، ثم إنه أخذ القلم من دواتِه ووقع على الكتاب المزور : هذا كتابي ، ولست أعلم لم أنكرت أمره واعتصمتك شبهة فيه ! وليس كلُّ مَنْ خَدَمْنَا وأوجب حقَّنا علينا نعرفه ! وهذا رجل خَدَمَنِي في أيام نَكَبَتِي ، وما أعتقده في قضاء حقِّه أكثرُ مما كَلَّفْتُكَ في أمرِه من القيام به ، فأحسن تفقُّده ووفِّرْ رِفْدَه وصرفه فيما يعود عليه نفعه ... ورَّده إلى أبي زُبَور من يومه ؛ فلما مضت على ذلك مدة طويلة دخل على أبي الحسن بن الفرات رجل ذو هيئة مقبولة وِزَّة جميلة ، وأقبل يدعو له ويُثني عليه ويُبكي ويُقبل الأرض ، فقال له ابن الفرات : من أنت بارك الله فيك ! - وكانت هذه كلمته - فقال : صاحب الكتاب المزور إلى أبي زُبَور ، الذي صحَّحه كرمُ الوزير وتفضُّله ، فعل الله به وصنع ، فضحك ابن الفرات ، وقال : كم وصل إليك منه ؟ قال : وصل إلى من ماله وِما قسَّطه على عُمَّاله وعملِ صرفتي فيه ، عشرون ألف دينار ، فقال ابن الفرات : الحمد لله ، الزَّمنُا ، فإنَّا نُعرِّضُك لما يزدادُ به صلاحُ حالكِ ، ثم اختبره فوجده كاتباً مُبِيناً ، فاستخدمه وأكسبه مالا جزيلاً ...

قِرَى الأضياف

وهناك لون من ألوان الجود، لقد أكثروا فيه القول وافتنوا، وأطالوا في التفاخر به والإشادة بمحاسنه، وجعلوه عنوان الكرم والنجدة والمروءة ووضعوا له آداباً ودساتير. ذلك هو قِرَى الأضياف، ونحن فإننا نختار ذرواً من عقرياتهم في هذا المعنى. وفيما يتأشب إليه وينشعب منه والله المستعان ...

معنى قِرَى الضيف: قال علماء اللغة: يقال: قِرَى الضيف قِرَى وقراء: أضافه وأحسن إليه، واستقراني واقراني وأقراني: طلب مني القِرَى، وإنه لَقِرَى للضيف، والآثى قِرَى، وكذلك: إنه لِمَقِرَى للضيف ومِقراء، والآثى مِقراءة ومِقراء ...

«وأما بعد، فقد قلنا في البخل إنه جِسْلَةٌ وإنه الأصل وإن الناس لقد حَلَقُوا بخلاء، إلى آخر ما قلنا صدر هذا الباب، وهذا الذي قلنا يقال في قِرَى الأضياف، وأن الأصل هو البُخل بالقِرَى؛ فلنورد عليك شيئاً مما قالوا في البخل بالقِرَى ثم نردفه بالقول على الجود بالقِرَى وحشم عليه، والكلام يدخل بعضه في بعض.

طَرَفٌ مِنْ مُلَحِّهِمْ فِي ذَلِكَ: قال بعض البخلاء لعلامة: هاتِ الطعام، وأَغْلِقِ الباب، فقال الغلام: يا مولاي، ليس هذا بحزم! وإنما أُغْلِقُ الباب، وأُقَدِّمُ الطعام، فقال له: أَنْتَ حُرٌّ لَوَجْهِ اللَّهِ... وطبخ بعض البخلاء قِدْرًا، وجلس يأكلُ مع زوجته فقال: ما أَطْيَبَ هذا الطعام لولا كَثْرَةُ الزَّحَامِ! فقالت: وأى زحام وما نَمَّ إلا أنا وأنت! قال: أَحَبُّ أَنْ

أكون أنا والقِدْر ... وَعَزَمَ بَعْضُ إِخْوَانِ أَشْعَبَ عَلَيْهِ لِيَأْكُلَ عِنْدَهُ ، فَقَالَ :
 إِنِّي أَخَافُ مِنْ ثَقِيلٍ يَأْكُلُ مَعَنَا فَيُنْقَضُ لَذَّتُنَا ، فَقَالَ : لَيْسَ عِنْدِي إِلَّا مَا تُحِبُّ ،
 فَضَمِنِي مَعَهُ ، فَبَيْنَمَا هُمَا يَأْكُلَانِ ، إِذَا بِالْبَابِ قَدْ طُرِقَ ، فَقَالَ أَشْعَبُ : مَا أَرَانَا إِلَّا
 قَدْ صِرْنَا لِمَا نَكْرَهُ ، فَقَالَ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ : إِنَّهُ صَدِيقٌ لِي : وَفِيهِ عَشْرُ خِصَالٍ
 إِنْ كَرِهْتَ مِنْهَا وَاحِدَةً لَمْ آذَنْ لَهُ ، قَالَ أَشْعَبُ : هَاتِ ، قَالَ : أَوَّلُهَا أَنَّهُ
 لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ ، فَقَالَ : التَّسْعُ لَكَ وَدَعُهُ يَدْخُلُ ، فَقَدْ أَمِنَّا مِنْهُ مَا نَخَافُهُ ...
 وَأَكَلَ رَجُلٌ مَعَ بَعْضِ الْبُخْلَاءِ ، وَكَانَ عَلَى مَائِدَتِهِ أَرْغِفَةٌ هُنَا وَهَنَّاكَ ، فَلَمَّا
 فَرَغَ مِنْ رَغِيفِهِ قَالَ : يَا غُلَامَ ، قِيَمِي ، فَقَالَ الدَّاعِي الْبَخِيلُ : وَمَا تَصْنَعُ بِهِ ؟
 قَالَ : أُرَكِّبُهُ إِلَى ذَلِكَ الرَغِيفِ ... وَحَدَّثَ أَبُو ثُوَّاسٍ قَالَ : قُلْتُ لِرَجُلٍ مِنْ
 أَهْلِ خِرَاسَانَ : لِمَ تَأْكُلُ وَحْدَكَ ؟ قَالَ : لَيْسَ عَلَيَّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ سُؤَالٌ ،
 إِنَّمَا السُّؤَالُ عَلَى مَنْ أَكَلَ مَعَ الْجَمَاعَةِ ، لِأَنَّ ذَاكَ تَكْلُفٌ ، وَأَأْكَلِي وَحْدِي هُوَ
 الْأَكْلُ الْأَصْلِيُّ ... وَأَضَافَ رَجُلٌ أَعْرَابِيًّا ، فَلَمْ يَأْتِهِ بِشَيْءٍ يَأْكُلُهُ حَتَّى غَشِيَ
 عَلَيْهِ مِنَ الْجُوعِ ، فَأَخَذَ يَقْرَأُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ ، فَقَالَ :

لِحُسْبُزٍ يَا أَخِي عَلَيْهِ لَحْمٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حَسَنِ الْقُرْآنِ

تَقْظَلُ تُدْهِدُهُ الْقُرْآنَ حَوْلِي كَأَنِّي مِنْ عَفَارِيثِ الزَّمَانِ

وَقِيلَ لِلْجِمَّازِ : مَنْ يَحْضُرُ مَائِدَةَ فُلَانٍ ؟ فَقَالَ : أَكْرَمُ خَلْقِ اللَّهِ : الْكِرَامُ
 الْكَاتِبُونَ ... وَاصْطَحَبَ رَجُلَانِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ : نَعَالَ حَتَّى نَأْكُلَ
 مَعًا ، فَقَالَ : مَعِيَ خَبِزٌ وَمَعَكَ خَبِزٌ ، فَلَوْلَا أَنَّكَ تَرِيدُ الشَّرَّ لَا كَلْتُمْ وَحْدَكَ ...
 وَقِيلَ لِآخَرِ : أَلَا تَأْكُلُ مَعَنَا ؟ فَقَالَ : الْجَمَاعَةُ بَجَاعَةٌ ... وَدَخَلَ عَلَى
 ابْنِ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَشْرَافِ دَاخِلٌ وَبَيْنَ يَدَيْهِ فَرَارِيجُ ، فَغَطَّى الطَّبَقَ بِمِنْدِيلِهِ
 وَأَدْخَلَ رَأْسَهُ فِي جَنْبِهِ وَقَالَ لِلدَّاخِلِ عَلَيْهِ : كُنْ فِي الْحَجَرَةِ الْآخَرَى حَتَّى

أَفْرَغَ مِنْ بَحُورِي ... وَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ يَوْمًا وَالْمَائِدَةُ مَوْضُوعَةٌ
وَالْقَوْمُ يَأْكُلُونَ وَقَدْ رَفَعَ بِمُضْمِهِ يَدَهُ ، فَمَدَّ يَدَهُ لِيَأْكُلَ ، فَقَالَ : أَجْهِزْ عَلَى
الْجَرَحِي ، وَلَا تَتَعَرَّضْ لِلْأَصْحَاءِ ... « يريد : كُلْ مَا كُسِرَ وَنِيلَ مِنْهُ وَلَا
تَعْرِضْ إِلَى الصَّحِيحِ ، وَرَأَى رَجُلٌ الْحَطِيبَةَ - الشَّاعِرَ الْمَخْضَرَمَ الْعَبْقَرِيَّ اللَّثِيمَ -
وَبِيْدَهُ عَصًا فَقَالَ : مَا هَذِهِ ؟ قَالَ : عَجْرَاءٌ مِنْ سَلَمٍ ^(١) ، قَالَ : إِنِّي ضَيْفٌ ، قَالَ :
لِلضَّيْفَانِ أَعْدَدْتُهَا ... وَوَصَفَ أَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : أَلْغُوا مِنَ الصَّلَاةِ الْآذَانَ ،
خَافَةَ أَنْ تَسْمَعَهُ الْآذَانُ ، فَيَهْلَ عَلَيْهِ الضَّيْفَانِ ... وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ شَاعِرٌ :
تَرَأَوْهُمْ خَشْيَةَ الْأَضْيَافِ خُرْسًا يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ بِلَا آذَانٍ

وَكَانُوا يَعُدُّونَ أَنَّ بَيْتَ الرَّجُلِ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جَوْعَانٌ ، عَارًا وَشَنَارًا
وَلَوْ مَا رَنَدَالَةٌ ، وَيَتَهَاجِرُونَ بِذَلِكَ ، وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي هَذَا قَوْلُ الْأَعَشَى -
مِيمُونِ بْنِ قَيْسٍ - فِي عُلُقَمَةَ بْنِ عُلاَثَةَ :
تَبْتَئُونَ فِي الْمَشَى مِلَاءً يُطُونُكُمْ وَجَارَاتِكُمْ غَرْنِي يَبْنِينَ خَمَائِصًا ^(٢)
وَقَوْلُ بَشَارِ بْنِ بُرْدٍ :
وَضَيْفٌ غَمِرُوا وَغَمِرُوا يَسْهَرَانِ مَعًا غَمِرُوا لِبَطْنِهِ وَالضَّيْفُ لِلْجُوعِ
وَقَالَ شَاعِرٌ :

وَجِيرَةٌ لَا تَرَى فِي النَّاسِ مِثْلَهُمْ إِذَا يَكُونُ لَهُمْ عِيدٌ وَإِفْطَارُ
إِنْ بُوْقِدُوا يُوسِعُونَ مِنْ دُخَانِهِمْ وَلَيْسَ يَبْلُغُنَا مَا تُنْضِجُ النَّارُ

وَمِنْ مُأْجِهِمْ فَمِنْ لَا يُظْفَرُ بِخُبْرِهِ . قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ :

(١) الْعَجْرَاءُ : الْعَصَا الَّتِي فِيهَا أُبْنٌ - عَقْدٌ - ، وَالسَّلَمُ : شَجَرٌ

(٢) رَوَوْا أَنَّ عُلُقَمَةَ لَمَّا سَمِعَ هَذَا الْبَيْتَ قَالَ : فَضَحْنِي وَاللَّهِ ، اللَّهُمَّ أَخْزِهِ إِنْ لَمْ

يَكُنْ صَادِقًا ، وَغَرْنِي : جَائِعَاتٌ ، وَمِثْلُهُ خَمَائِصُ

وما خُبزُهُ إِلَّا كَعَنْقَاءِ مُغْرَبٍ ^(١) نُصَوِّرُ فِي بُسْطِ الْمُلُوكِ وَفِي الْمَنَازِلِ
وقال الآخر :

قد فرّ من منزله فأرهُ وعاذَ بالجيران مرتزقا
وهذا من قول امرأة لزوجها : والله ما يقيم الفأر في دارك إلا لحب
الوطن ، وقد تقدم آنفا ... وقيل لبخيل : إنك تُكريم خبزك وتهين
لإكرامه نفسك ! فقال : كيف لأفعل ذلك والخبز هو الذي أخرج آدمَ
وحواءَ وإبليسَ والطاوسَ من الجنة ... وتعدى الجواز عند هاشمي ، فر الغلام
بصحفة فقطر منها قطرة على ثوب الجواز ، فقال الهاشمي : أنتَ بطُست يغسلها ،
فقال الجواز : دعه ، فرقتكم لا تُغيّر الثياب ... يريد : لادسمَ فيها ،

تفاخرهم بالإحسان إلى الضيف والجار : ولأنهم يعدُّون شِيعَ المرءِ
وجارهُ جائع ، عارا - كما تقدم - تراهم يتفاخرون بإكرام الضيف والجار ،
ومن أحسن ما قيل في ذلك قول عروة بن الورد :

وإني امرؤٌ عافٍ إناثي شِرْكَةً وأنت امرؤٌ عافٍ إناثك واحدٌ

(١) عنقاء مغرب وعنقاء مغربٌ . طائر مغربة : طائر معروف الاسم مجهول
الجسم ، قال ابن الكلبي : كان لأهل الرس نبي يقال له حنظلة بن صفوان ، وكان
بأرضهم جبل يقال له دح مضعده في السماء ميل ، فكان ينتابه طائفة كأعظم ما يكون
لها عنق طويل ، من أحسن الطائر ، فيها من كل لون ، وكانت تقع منقضة فكانت
تنقض على الطير فتأكلها فجاءت وانقضت على صبي فذهبت به فسميت عنقاء مغربا
لأنها تغرب - تبعد - بكل ما أخذته ، ثم انقضت على جارية ترعرعت وضمتهما إلى
جناحين لها صغيرين سوى جناحيها الكبيرين ، ثم طارت بها فشكوا ذلك إلى نبيهم ،
فدعا عليها فساط الله عليها آفة فهلكت ، فضربتها العرب مثلا في أشعارها ويقال :
ألوت به العنقاء المغرب ، وطارت به العنقاء ...

أَقْسَمُ جِسْمِي فِي جِسْمٍ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُو قَرَّاحَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدٌ
 « العافى : طالب المعروف ، يريد بالبيت الأول : أنه ليس من شرار
 الناس يأكل وحده ، وقوله : والماء بارد : كنى بذلك عن تحمله ضرر نفسه
 وعبرة بعض الشراح : يقول عروة : إن قُوَّتَهُ الذى هو قِوَامُ رَمَقِهِ ومُقيم
 جِسْمِهِ ، يطعمه ويؤثر به على نفسه ، وأنه عند الجهد وشدة الزمان يَحْسُو
 الماء وَيَسْقَى اللبن ، فإنما رَغْبَةُ الجِوَادِ فى المَالِ لِيَهَبَهُ ، وطلبه له لِيُنْهَبَهُ . »
 وفى هذا المعنى يقول مِسْكِينُ الدارِمى - وهو شاعر شجاع من أهل العراق
 كان فى زمن معاوية بن أبى سفيان - :

إِنِّ أَدْعُ مِسْكِينًا فَمَا قَصَرْتُ قَدَرِي يَبُوتُ الْحَيَّ وَالْجُدْرُ^(١)
 مَامَسَ رَحْلِي الْعَنْكَبُوتُ وَلَا جَدِيَاتُهُ مِنْ وَضْعِهِ غُبْرُ^(٢)
 لَا أَخْذُ الصَّيَّانَ أَلْتَمُهُمْ وَالْأَمْرُ قَدْ يُغْزَى بِهِ الْأَمْرُ^(٣)
 وَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ تَرَكْتُ وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَ لِقَائِهِ سِتْرُ
 لَا يَزْهَبُ الْجِيرَانُ غَدَرَتْنَا حَتَّى يُوَارِيَ ذِكْرُنَا الْقَبْرُ

(١) قوله فَمَا قَصَرْتُ قَدَرِي الخ : فَيَبُوتُ فاعل قصرت ، يقول : إن قدرى بارزة
 لاتحجبها السواتر والحيطان ، يصف نفسه بأنه مضياف جواد محسن إلى جيرانه
 (٢) قوله مَامَسَ رَحْلِي الْعَنْكَبُوتُ الخ : كناية مليحة عن مواصلته السير لأن
 العنكبوت إنما ينسج على مالا تناله الأيدي ولا يكثر استعماله ، والجديات جمع جدية
 بسكون الدال وهى باطن دقة الرجل ، يقول : إن جديات رحله ليست غبراء
 لكثرة ترحاله

(٣) يقول : لَا أَقْبِلُ الصَّبِيَّ وَأَنَا أُرِيدُ التَّعَرُّضَ لَامِهِ ، وَمَا أَحْلَى قَوْلَهُ : وَالْأَمْرُ قَدْ
 يُغْزَى بِهِ الْأَمْرُ . وَيُغْزَى : يَقْصَدُ ، وَمِثْلُ هَذَا قَوْلُ عَقِيلِ بْنِ عُلْفَةَ :

وَلَا أَلْقِي لِذِي الْوَدَاعَاتِ سَوَاطِي أَلَا عِبُهُ وَزَلَّتْهُ أُرِيدُ
 وزلته يروى وغزته ويروى وربته ، والأعبه يروى لآلهيه . وللشعراء فى هذا المعنى
 كثير ، وهو معنى يدل على أن العرب غاية فى الفطنة ودقة الملاحظة وأنهم لاتخذعهم

لَسْنَا كَأَنفُوسٍ إِذَا كَلَّخَتْ إِحْدَى السَّنِينَ جَارَهُمْ تَمَرٌ^(١)
 مَوْلَاهُمْ لَحْمٌ عَلَى وَضْمٍ^(٢) تَنْتَابُهُ الْعِقْبَانُ وَالنَّسْرُ
 نَارِي وَنَارُ الْجَارِ وَاحِدَةٌ وَإِلَيْهِ قَبْلِي تُنْزَلُ الْقِدْرُ^(٣)
 مَاضِرٌ جَارِي إِذْ أُجَاوِرُهُ أَنْ لَا يَكُونَ لَبِيَّتِهِ سِترٌ
 أَغْشَى إِذَا مَا جَارَتِي تَحَرَّجْتُ حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي الْحِذْرُ^(٤)
 وَبَصْمٌ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا سَمْعِي وَمَا بِي غَيْرُهُ وَقُرُ^(٥)

ظواهر الأمور عما تخفى وراءها . وغواة الناس إلى يومنا هذا قد استغلوا هذا المعنى استغلالا مكشوفاً فبجهم الله .

(١) جارهم تمر : أى يستحلى الغدر به كما يستحلى التمر
 (٢) الوضم : خشبة الجزار التى يقطع عليها اللحم ، وتركهم لحماً على وضم : أى أذلهم
 (٣) يروى أنه كان لمسكين هذا امرأة تماضه - تلاحيه وتنازعه - فلما قال : ناري ونار الجار واحدة قالت له : أجل ، إنما ناره ونارك واحدة لأنه أوقدولم توقد ، والقدر تنزل إليه قبلك ، لأنه طبخ ولم تطبخ وأنت تستطعمه ، ولما قال أن لا يكون لبيته ستر قالت له : أجل ، إن كان له ستر هتكته
 (٤) من دقائق هذه اللغة ما قاله صاحب الكشف فى تفسير قوله تعالى : ومن يعش عن ذكر الرحمن ، قال : بضم الشين وفتحها ، والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة فى بصره قبل عشى - أى والمضارع يعشى ، وإذا نظر نظر العشى ولا آفة به قيل عشا - والمضارع يشو - ونظيره عرج لمن به آفة وعرج لمن مشى مشية العرجان من غير عرج قال الحطيئة :

مَتَى تَأْتِيهِ تَعَشُّوْا إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدٍ
 أى تنظر إليها نظر العشى لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء ، فعنى الفتح : ومن يعم عن ذكر الرحمن وهو القرآن ، وأما القراءة بالضم فمعناها ومن يتعام عن ذكره ، أى يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتغافل . (٥) الوقر : الثقل فى الأذن

وصية بخيل لابنه

وهاك وصية بخيل لابنه أراد بها أن ينصح ابنه بالتقليل من الطعام ،
شحاً وكرازةً ، ولكنه أودعها على الرغم منه نصائح قيمةً يَجْمَلُ أن تُتَّخَذَ
دُستوراً في الطعام لمن أراد أن يصحَّ ويُعافى ، فهي حقُّ أريد بها باطل ، ومن
ثم اخترناها ، وهي وصية جاحظية أوردها الجاحظ في كتابه البخلاء ونسبها
إلى رجل يسمى أبا عبد الرحمن الثوري كان يحب الرأس - رأس الضأن وغير
الضأن - قال الثوري لابنه - :

إياك وَتَهَمَ الصَّيَّانَ ^(١) ، وَشَرَّةَ الزُّرَّاعِ ^(٢) ، وَأَخْلَاقَ النُّوَائِحِ ^(٣) وَدَعِ
عَنكَ خَبْطَ الْمَلَّاحِينَ وَالْفَعْلَةَ ^(٤) وَنَهَشَ الْأَعْرَابِ وَالْمَهْنَةَ ^(٥) . وَكُلْ مَا بَيْنَ
يَدَيْكَ ؛ فَإِنَّمَا هُوَ حَقُّكَ الَّذِي وَقَعَ لَكَ ، وَصَارَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ ؛ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ
فِي الطَّعَامِ شَيْءٌ طَرِيفٌ ، وَلُقْمَةٌ كَرِيمَةٌ ، وَنُضْغَةٌ شَهِيَّةٌ ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ لِلشَّيْخِ
الْمُعْظَمِ ، وَالصَّبِيِّ الْمُدَلَّلِ . وَاسْتَـ واحداً منهما . فَأَنْتَ قَدْ نَأَى الدَّعَوَاتِ

-
- (١) النهم : إفراط الشهوة في الطعام (٢) الشره : غلبة الحرص على الطعام .
ولما خص شره الزراع لأنهم أهل كد ونصب وحركة فيشربون إلى الطعام لفرط
ما يذلون من قواهم البدنية (٣) النوائح جمع نائحة : اسم يقع على النساء يجتمعن
في مناحة ، ولعله يريد أن النوائح ينحن ما ينحن فإذا حضر الطعام أقبلن عليه شرهات
ونسين ما كن فيه من بكاء وعويل (٤) الملاح : نوق السفينة ، والخبط : السير
على غير هدى ، والفعله : عملة الطين ونحوه . يقول : لا تذهب في الطعام على غير هدى .
كالملاحين ، ولا تكن غنياً في أكلك كما تفعل الفعلة
(٥) يقول : لا تنهش اللحم كما ينهش الأعراب الجفاة وكما ينهش المهنة : جمع ماهن ،
وهو العبد الخادم

والولائم، وتدخل منازل الإخوان، وعهدك باللحم قريب. وإخوانك أشد قَرَمًا إليه منك، وإنما هو رأس واحد، فلا عليك أن تتجافى عن بعض وتُصيب بعضا. وأنا - بعد - أكره لك الموالاة بين اللحم، فإن الله يُبغض أهل البيت اللّحمين^(١) وكان يقول: إياكم وهذه المجازر فإن لها ضراوة كضراوة الخمر^(٢) وكان يقول: مُدْمِنُ اللحم كُدْمِنِ الخمر. وقال الشيخ - ورأى رجلا يأكل اللحم، فقال: لحمٌ يأكلُ لحماً... أف لهذا عملا!

وقال الأول: أهلك الرجال الأحران: اللحم والخمر، وأهلك النساء الأحران الذهب والزعفران^(٣)... أى بُنى، عَوْدَ نَفْسِكَ الأثرية^(٤)، ومجاهدة الهوى والشهوة.^(٥) ولا تنهش نهش الأفاعى، ولا تخضم خضم البراذين^(٦)، ولا تدبم الأكل لإدامة النعاج، ولا تَلَقَمَ لَقَمَ الجمال، إن

(١) هذا حديث أورده ابن الأثير في النهاية هكذا: إن الله يبغض أهل البيت اللّحمين، قيل هم الذين يكثرون أكل لحوم الناس بالغيبة: وقيل: هم الذين يكثرون أكل اللحم ويدمنونه، وهو أشبه...

(٢) في اللسان: وفي حديث عمر: اتقوا هذه المجازر فإن لها ضراوة كضراوة الخمر، أراد مواضع الجزارين التي تنجر فيها الإبل وتذبح البقر والشاة ويبيع لحانها وإنما نهام عنها لأنه كره لهم إدمان أكل اللحوم، وجعل لها ضراوة كضراوة الخمر، أى عادة كماداتها، لأن من اعتاد أكل اللحوم أسرف في النفقة فجعل العادة في أكل اللحوم كالعادة في شرب الخمر، لما في الدوام عليها من السرف في النفقة والفساد

(٣) فالذهب للحلية والزعفران للتطيب

(٤) الأثرية: اسم مصدر من أثر بؤثر إثثاراً، أى عَوْدَ نَفْسِكَ أن تؤثر غيرك على نفسك (٥) ومجاهدة الخ: لما أنه يريد المعنى العام وإما يريد: لا تطلق لنفسك العنان فيما تشتهيه وتمواه من ألوان الطعام (٦) الخضم: الأكل بجميع الفم والبراذين: جمع برذون كفرعون وهو من الخيل العظيم الخلقة الجافيا الغليظ الأعضاء

الله قد فضلك ، فجعلك إنساناً ؛ فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبعا ، واحذر
سرعة الكظة ^(١) ، وسرف البطن ، وقد قال بعض الحكماء : إذا كنت بطينا
فعد نفسك في الزمى ^(٢) . وقال الأعشى :

• والبطن بما تسفه الأحلاما ^(٣) •

واعلم أن الشبع داعية البشم ^(٤) ، وأن البشم داعية السقم ، وأن السقم
داعية الموت . ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لئيمة . وهو قاتل نفسه ،
وقاتل نفسه ألوم من قاتل غيره ^(٥) أى بُنى ، إن القاتل والمقتول في النار ^(٦)
ولو سألت حذاق الأطباء لأخبروك أن عامة أهل القبور إنما ماتوا بالشحم
وآعرف خطأ من قال : أكلة وموتة ! وأخذ بقول من قال : رب أكلة تمنع
أكلات ^(٧) . وقد قال الحسن - البصري - : يا ابن آدم كل في ثلك بطنك ، واشرب في
ثلك بطنك ، ودع الثلك للتفكر والتفلس . وقال بكر بن عبدالله المزني ^(٨) :
ما وجدت طعم العيش حتى استبدلت الخمص بالكظة ^(٩) ، وحتى لم ألبس من

(١) الكظة : الامتلاء من الطعام ، وسرعة الكظة أن يسرع إليه الامتلاء وهو لا يزال
يتناول الطعام فيتفاقم عليه الأمر

(٢) البطن : عظيم البطن من كثرة ما يأكل . والزمى : ذور العاهات الذين يدوم
مرضهم زمنا طويلا (٣) الأحلام : العقول وتسفه الأحلام : تطيشها والبيت :

يأبى المنذر بن عبدان والبطن سنة مما تسفه الأحلاما

(٤) البشم : التخممة من كثرة الأكل (٥) ألوم من قاتل غيره : أحق منه

بأن يلام (٦) يقول : إن من مات بالتخممة فقد قتل نفسه فهو قاتل ومقتول في
وقت معا فهو في النار على رأيه

(٧) أى لما ينشأ عنها من الأمراض (٨) كان من أفاضل التابعين صالحا

عتيا قال الجاحظ : وكانوا إذا ذكروا البصرة قالوا : شيخها الحسن وقتاها بكر ...

مات سنة ١٠٨ هـ (٩) الخمص : الجوع أى حتى اتخذت الجوع بدل الكظة

ثيَابِي مَا يَسْتَعِدُّنِي^(١)، وحتى لم آكل إلا ما لا أغسل يدي منه ! يَا بُنَيَّ، والله ما أدّى حقَّ الرُّكُوعِ، ولا وظيفة السجود، ذرِ كِظَّة، ولا خَشَعَ لله ذو بطنه^(٢)، والصوم مَصَحَّةُ^(٣)، والوَجَبَاتُ عِيشُ الصالحين^(٤)، ثم قال: لا مَرِيَّةً^(٥)، طالت أعمارُ الهند^(٦)، وَتَحَّتْ أبدانُ الأعرابِ. لله دَرُّ الحارث بن كَلْدَةَ^(٧)، حين زعم أن الدواء هو الأَزمُ^(٨)، وأن الداء هو إدخال الطعام في أثر الطعام ! أَى بُنَيَّ لِمَ صَفَّتْ أذهان العرب؟ ولم صدَقَتْ أَحْسَاسُ الأعرابِ^(٩) ولم صَحَّتْ أبدانُ الرُّهبانِ، مع طول الإقامة في الصوامع؟ وحتى لم تَعْرِفَ النَّقَرِسُ، ولا وِجَعَ المفاصل، ولا الأورام؛ إلا لِقَلَّةِ الرُّزْءِ^(١٠) من الطعام، وَخِفَّةِ الرِّادِ، والتبَلُّغِ باليسير^(١١)

أَى بُنَيَّ، إن نسيمَ الدنيا وروحَ الحياة^(١٢) أفضل من أن تبيتَ كظيظا،

(١) يستعِدُّنِي: أى يجعَلُنِي خادما له أى بالمحافظة عليه، لانه ثمين
(٢) يقول: إن الممتلئ طعاما لا يمكن أن يركع في الصلاة تمام الركوع ولا أن يسجد تمام السجود، والخشوع وتفرغ القلب لله تعالى لا يكون مع التخمّة والعناء منها
(٣) مصحّة: يصح عليه (٤) الوجبات جمع وجبة وهى الأكلة الواحدة في اليوم واليلة

(٥) لا مَرِيَّةً: أى لا مَرَّةً عَظِيمَةً (٦) أى أعمار أهلها (٧) طيب العرب سافر إلى فارس وتعلم هناك الطب واشتهر فيه ونال به مالا وأدرك الإسلام
(٨) أزم، من باب ضرب: أمسك عن المطعم والمشرب روى أن عمر بن الخطاب سأل الحرث بن كعدة عن الطب، فقال: هو الأزم، يعنى: الحمية

(٩) الاحساس جمع حس وهو الشعور بالشئ (١٠) الرزء هنا: ما يصيبه الإنسان من طعام (١١) التبلىغ باليسير: الاكتفاء به (١٢) روح الحياة: راحتها وما يستروح إليه

وَأَنْ تَكُونَ لِقِصْرِ الْعُمْرِ حَافِئًا . وَكَيْفَ لَا تَرْغَبُ فِي تَدْيِيرِ بِجَمْعٍ لَكَ صِحَّةَ
الْبَدَنِ ، وَذِكَاةَ الذَّمَنِ ، وَصَلَاحِ الْمَعْنَى ، وَكَثْرَةَ الْمَالِ ، وَالْقُرْبَ مِنْ عَيْشِ
الْمَلَائِكَةِ^(١) ؟ أَى بَنَى ، لَمْ صَارَ الضُّبُّ أَطْوَلَ شَيْءٍ عُمرًا ؛ إِلَّا لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَعِيشُ
بِالنَّسِيمِ^(٢) ؟ وَلَمْ قَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الصَّوْمَ وَجَاءَ^(٣) ، إِلَّا لِیَجْعَلَ
الْجُوعَ حِجَازًا دُونَ الشَّهَوَاتِ . أَى بَنَى . قَدْ بَلَغَتْ تِسْعِينَ عَامًا مَا نَعَضَ لِي^(٤)
سِنٌّ ، وَلَا تَحْرَكَ لِي عَظْمٌ^(٥) ، وَلَا انْتَشَرَ بِي عَصَبٌ^(٦) ، وَلَا عَرَفْتُ ذَنْبِينَ
أَنْفٍ^(٧) ، وَلَا سَيَّلَانَ عَيْنٍ^(٨) ، وَلَا سَلَسَ بَوْلٍ^(٩) ، مَا ذَلِكَ عِدَّةٌ إِلَّا التَّخْفِيفُ
مِنَ الزَّادِ . فَإِنْ كُنْتَ تُحِبُّ الْحَيَاةَ فَهَذِهِ سَبِيلُ الْحَيَاةِ ، وَإِنْ كُنْتَ تُحِبُّ
الْمَوْتَ ، فَلَا يُبْعِدُ اللَّهُ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ .



بخیل بیع القرى

ونزل جريرٌ - الشاعر الإسلامي الأشهر - بقوم من بنى العنبر بن عمرو
ابن تميم فلم يقرؤهُ ، حتى اشترى منهم القرى ، فأنصرف وهو يقول :

(١) إذم : لا يأكرون ولا يشربون (٢) كون الضب لا يعيش إلا بالنسيم ولا
يأكل ألبسة غير صحيح ولكن الثوري نقل خرافة قديمة (٣) وجاء : مانع
من الشهوات

(٤) نفص : اضطرب وتحرك ويروى نقص (٥) لعله يريد بالتحرك
الانواء كاحديد اب الظهر (٦) الانتشار : الانتفاخ في العصب للإلتعاب

(٧) الذنين : الخط الرقيق الذى يسيل من الأنف ويروى ذنين أذن والذنين صوت
الذباب ونحوه من هينة الكلام الذى لا يفهم والمراد ما يشبه هذا الصوت فى الأذن
من الكبر (٨) هو ما يحدث فى الكبر من ضعف العينين فتسيل منها دموع وسوائل
أخرى (٩) سلس البول : استرساله وعدم استمساكه لحدوث مرض بصاحبه

يَا مَالِكُ ابْنَ طَرِيفٍ إِنَّ بَيْعَكُمْ رَفَدَ الْقَرَى مُفْسِدٌ لِلدِّينِ وَالْحَسْبِ
 قَالُوا نَبِيعُكُمْ نَبِيعًا فَقُلْتُ لَهُمْ يَبِعُوا الْمَوَالِي وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْعَرَبِ
 لَوْلَا كِرَامُ طَرِيفٍ مَا غَفَرْتُ لَكُمْ بَيْعِي قِرَائِي وَلَا أَنْسَأْتُكُمْ غَضَبِي
 هَلْ أَنْتُمْ غَيْرُ أَوْشَابٍ زَعَانِفَةٍ رِيَشُ الذَّنَابِيِّ وَلَيْسَ الرَّأْسُ كَالذَّنَبِ
 وقوله : يبيعوا الموالى واستحيوا من العرب ، قال المبرد : تزعم الرواة : أن
 جِلَّةَ الْمَوَالِي - عُظَمَاءَهُمْ - أَتَوْا مِنْ هَذَا الْبَيْتِ ، لِأَنَّهُ حَطَّهُمْ وَوَضَعَهُمْ وَرَأَى
 أَنَّ الْإِسَاءَةَ إِلَيْهِمْ غَيْرُ مُحْسَبَةٍ عَيْنًا ... وقوله : وَلَا أَنْسَأْتُكُمْ غَضَبِي ، يَقُولُ :
 لَمْ أُؤَخِّرْهُ عَنْكُمْ ، وَقَوْلُهُ : هَلْ أَنْتُمْ غَيْرُ أَوْشَابٍ زَعَانِفَةٍ ، فَالْأَشَابَةُ الْجَمَاعَةُ تَدْخُلُ
 فِي قَوْمٍ وَلَيْسَتْ مِنْهُمْ وَقَدْ تَطْلُقُ الْأَوْشَابُ عَلَى أَخْلَاطِ النَّاسِ تَجْتَمِعُ مِنْ كُلِّ
 أَوْبٍ ، مَا خُوِذَ مِنْ أَشْبِ الشَّيْءِ كَضَرْبٍ . خَلَطَهُ ، وَأَمَّا الزَّعَانِفُ فَأَصْلُهَا
 أَجْنَحَةُ السَّمَكِ ، سُمِّيَ بِذَلِكَ الْأَدْعِيَاءُ لِأَنَّهُمْ انْصَقُوا بِالصَّمِيمِ كَمَا انْصَقَتْ تِلْكَ
 الْأَجْنَحَةُ بِعِظَامِ السَّمَكِ ،

عقرياتهم في قرى الأضياف

قال الله جلَّ شأنه في مدح قوم : وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا
 وَيَتِيمًا وَأُسِيرًا ... وقال سيدنا رسول الله : أَيُّمَا رَجُلٍ ضَافَ قَوْمًا فَأَصْبَحَ
 الضَّيْفُ مُحَرُّومًا ، فَإِنْ نَصَرَهُ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ حَتَّى يَأْخُذَ بِقَرَى لَيْلَتِهِ مِنْ
 زُرْعِهِ وَمَالِهِ ^(١) ...

(١) قال الإمام العلقمي : قال شيخنا : هذا الحديث وما هو بسبيل منه كان في أول
 الأمر حين كانت الضيافة واجبة ، وقد نسخ وجوبها . أقول : وعلى أنه نسخ وجوبها
 فلا تزال معدودة في باب الفضائل الإنسانية المرغوب فيها والمثاب عليها والدالة على
 النجيزة البازة الكريمة

وفي الحديث أيضا : الخَيْرُ أَسْرَعُ إِلَى مُطْعِمِ الطَّعَامِ مِنَ الشَّفَرَةِ فِي سَنَامِ
 البعير « الشَّفَرَةُ : السكين العظيمة العريضة » وقال صلوات الله عليه : ليس
 منا من بات شعبانَ وَضَيْفَهُ بَطْنُهُ طَاوٍ . وقال تعالى في مدح القائم بخدمة
 ضيفه : هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرممين ؟ قيل وصفهم بذلك لأنه
 قام بخدمتهم بنفسه ... ونزل ضيف على جعفر بن أبي طالب ، فتخفف هو
 وغلبلانه عند نزوله وعاونوه في حلولة ، فلما أراد الارتحال عنهم لم يُعِضْهُ
 غلبانُهُ ، فشكاهم فقال : إن غلباتنا لا يعينون على الارتحال ... وقالوا : أمدح
 بيت قاله العرب قولُ حسان بن ثابت :

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهْرُ كَلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
 « يقول : قد أنست كلابهم بالزوار فهي لا تتبجهم ، وهم من شجاعتهم
 لا يسألون عن جيش يقبل نحوهم لقلّة اكترائهم ولثقتهم ببسالة أنفسهم
 وشدتهم على أعدائهم ، ومثل هذا قول أبي تمام :

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم لآية حرب أو لآية مكان
 أو تقول : لا يسألون عن السواد المقبل ، أى أنهم في سعة لا يهولهم الجمع
 الكثير ، لستهم وسخائهم »

وقال إبراهيم بن هرمة من أبيات في ابتهاج الكلب بالضيف :
 يكاد إذا ما أبصرَ الضيفَ مُقْبِلًا يُكَلِّمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهُوَ أَعْجَمُ
 وقال حاتم الطائي وهو سيد الأجراد بالطعام :
 أضحكُ ضيفي قبل إنزالِ رَحْلِهِ وَيُخِصُّ عِنْدِي وَالْمَحَلُّ جَدِيدُ
 وما الخِصُّ إلا ضيافُ أن يكثرَ القرى
 ولكنما وَجْهُ الكريمِ خِصيبُ

ومن قولهم في الحث على ترك التكلف وتعجيل الحاضر: سُئِلَ أَقْرَى
أهل اليمامة للضيف: كيف صَبَطْتُمُ الْقَرَى؟ قال: بأن لا تتكَلَّفَ مَا لَيْسَ
عِنْدَنَا... وقال بعضهم: الضيفُ إلى القليل العاجل أحوَجُ منه إلى الكثير
الآجل، أما سمعت قول الله تعالى: فَمَا كَيْثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَنِيذٍ^(١) وقال
تعالى: إلى طعامٍ غيرِ ناظرينِ إِيَّاهُ... «أى غير منتظرين نُضِجِهِ وإدراكه
وبلوغه، يقال: أُنِيَ يَأْنِي: إِذَا نُضِجَ»

ومن قولهم فيمن أثر على نفسه: قولُ صوفيٍّ لآخر: كيف يعمل
فقراؤكم؟ قال: إِذَا وَجَدُوا أَكَلُوا، وَإِذَا عَدِمُوا صَبَرُوا، فقال: هَذَا فِعْلُ
الْكَلَابِ، إِنْ الْفَقِيرُ مِمَّا إِذَا عَدِمَ صَبَرَ، وَإِذَا وَجَدَ طَعَامًا أَثَرَهُ بِهِ غَيْرُهُ...
وقالوا في وصف الرجل الكريم يَسُوءُ خَلْقَهُ مَعَ أَهْلِهِ خَوْفَ التَّقْصِيرِ:
وَالْقَائِلُ زَيْنَبُ بِنْتُ الظَّهْرِيَّةِ تَرَى أَخَاهَا يَزِيدُ:

إِذَا نَزَلَ الْأَضْيَافُ كَانَ عَذَوْرًا عَلَى الْأَهْلِ حَتَّى تَسْتَقِلَّ مَرَاجِلُهُ
يُعِينُكَ مَظْلُومًا وَيُنْجِيكَ ظَالِمًا وَكُلُّ الَّذِي حُمِّلَتْهُ فَهُوَ حَامِلُهُ
«العَذْوَرُ: السَّيِّئُ الْخَلْقُ الْقَلِيلُ الصَّبْرِ فِيمَا يَرِيدُهُ وَيَهْتَمُّ بِهِ، وَإِنَّمَا جَعَلْتَهُ
عَذَوْرًا لِشِدَّةِ تَهْمِهِ بِأَمْرِ الْأَضْيَافِ وَحَرِيصِهِ عَلَى تَعْجِيلِ قِرَامِهِ حَتَّى تَسْتَقِلَّ
الْمَرَاجِلُ عَلَى الْإِثْنَانِ^(٢)»، وَالْمَرَاجِلُ: الْقَدُورُ وَاحِدُهَا مِرْجَلٌ. وَقَوْلُهُ:
وَيُنْجِيكَ ظَالِمًا، أَيْ إِنْ ظَلَمْتَ فَطَوْلَبْتَ بِظُلْمِكَ حَمَاكَ وَمَنْعَكَ مِنْكَ،

(١) حَذَّ الشَاةَ: شَوَاهَا وَجَعَلَ فَوْقَهَا حِجَارَةً مَحْمَاةً لِتَنْضِجَهَا فَهِيَ حَنِيذٌ

(٢) الْإِثْنَانِ: جَمْعُ اثْنَيْنِ: وَهِيَ الْحِجْرُ تَوْضَعُ عَلَيْهِ الْقَدَرُ وَثَلَاثَةُ الْإِثْنَانِ: الْقِطْعَةُ
مِنْ الْجَبَلِ يَجْعَلُ الْقَدَرُ عَلَيْهَا وَعَلَى حَجَرَيْنِ أَمَامَهَا وَيُقَالُ: رَمَاهُ بِثَلَاثَةِ الْإِثْنَانِ: أَيْ
بِالشَّرَكَةِ

هذا؛ ومن السنة - كما ورد في الحديث - أن يَمْشِيَ الرجل مع ضيفه إلى باب الدار .

وقد كان الأضياف يُعطون النُدْلَ وَيَرْضَخُونَ لهم بالمال ^(١) فقد رَوَى بعضهم قال : رأيت ابن عباس في وَلِيمة فأكل وألقى للخباز درهما .

محادثة الضيف

وكانوا يُجَاهِ محادثة الضيف على الطعام فربقن ، فبرقن يَسْتَجِبُهُ ويستحسنه ، ومن صاحب الدعوة أَحْسَنُ ، وقالوا في ذلك : محادثة الإخوان - تزيد في لذة الطعام . وقال شاعرهم :

وأكثر ما أَلَذُّ به وأَلْهُو محادثة الضيف على الطعام

وأما الفريق الآخر فيكره الحديث على المائدة وقالوا في ذلك : مَنْ أَكثَرَ الكلام على طعامه غَشَّ بطنه وَثَقُلَ على إخوانه . وقال الجاحظ في كتابه « التاج » : وَلِشَيْءٍ مَا كَانَتْ ملوك آل ساسان - إذا قُدِّمَتْ مَوَائِدُهُمْ - زَمَرُوا عليها ^(٢) ، فلم يَنْطِقْ نَارِطٌ بِحَرْفٍ حَتَّى تَرْفَعَ ، فإن اضْطُرُّوا إلى كلام ، كان مكانه إشارة أو إيماء يدلُّ على الغرض الذي أرادوا والمعنى الذي قصدوا . . . وكانوا يقولون إنَّ هذه الأَطعمة بها حياة هذا العالم ، فينبغي للإنسان أَنْ يَجْعَلَ ذِهنَه في مَطْعَمِهِ وَيَشْغَلَ رُوحَه وَجَوَارِحَه فِيهِ ، حتى تَأْخُذَ كُلُّ جَارِحَةٍ بِقِسْطِهَا من الطعام ، فيَتَغَذَّى بها البدنُ وَالرُّوحُ الحيوانية التي في القلب والطبيعة التي في الكبد ، اغتذاءً تاماً ، وتقبُّله الطبيعة قبولاً جامعاً . قال الجاحظ : وفي تركِ الكلام على الطعام فضائل كثيرة هي في آيئهم ^(٣) . . .

(١) النُدْل : خدم الضيافة : ويقال : رَضَخَ له من ماله رَضْخَةً : أعطاه قليلاً من كثير

(٢) الزمزمة : تراطن الملوِّج على أكلهم وهم صموت (٣) آيئهم : قانُونهم ودستورهم

وقال المسعودى فى مروج الذهب : ذكروا أن كيرمرث هو أول من أمر بالسكوت عند الطعام ، لتأخذ الطبيعة بقسطها ، فيصلح البدن بما يرد إليه من الغذاء ، وتسكن النفس عند ذلك ، فتدبر لكل عضو من الأعضاء تدبيرا يؤدى إلى ما فيه صلاح الجسم من أخذ صفو الطعام ، فيكون الذى يرد إلى الكبد وغيره من الأعضاء القابلة للغذاء ما يناسبها وما فيه صلاحها ، وإن الإنسان متى شغل عن طعامه بضرب من الضروب ، انصرف قسطن من التدبير وجزء من التغذى إلى حيث انصباب الهمة ووقوع الاشتراك ، فأضر ذلك بالنفس الحيوانية والقوى الإنسانية ، وإذا كان ذلك دائما أدى ذلك إلى مفارقة النفس الناطقة المميّزة الفكرية لهذا الجسد المرنى ، وفى ذلك ترك للحكمة وخروج عن الصواب ... أقول : وقد أبدت التجارب الحديثة هذا المذهب ، إذ تحققت أن الكلام على الطعام مدرّجته لسوء الهضم ... ولأنى بحمد الله أعلم هذا المذهب مذ نشأت ، أى أنى بفطرتى لا أتحدث على الطعام ، حتى عدّ ذلك أهلى ومن يخاطونى مغمّرا فى يشف عما وراءه ، مما يشبه النّهم وليس به يعلم الله وإنماهى الفطرة التى فطرنى الله عليها ، ومن خلّقى أنى أعدّ الكلام على الطعام ضربا من التكلف الذى لا أستسيغه ... على أن الأكل مهمة حيوانية سخيّة يجمّل أن لا يحتفل بها هذا الاحتفال الكسروى الذى نراه هذه الأيام ، ورحم الله جمال الدين الأفغانى إذ يقول : ودئت لو أنى خلقت مضمّتا^(١) وقبله قال الخليل بن أحمد : أثقل ساعاتى الساعة التى آكل فيها ، أو كما قال :

أما محادثة الأضياف على غير الطعام : فمن المجمع على استحسانه ، وفى

(١) المصمت : الذى لا جوف له

ذلك يقول مسكين الدارمي أو عتبة بن بحير :

لِحَافِي لِحَافِ الضَّيْفِ وَالْبَيْتُ بَيْتُهُ وَلَمْ يُلْهِني عَنْهُ الْغَزَالُ الْمُنْعَعُ
أُحَدِّثُهُ إِنَّ الْحَدِيثَ مِنَ الْقُرَى وَتَعَلَّمُ نَفْسِي أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ
« الغزال المنفع : زوجته ، ويهجع : ينام ، يريد أنه يحديثه ويقرّيه بهذا
الحديث حتى ينام »

وكانوا لكرمهم يُفضلون الاجتماع على الأكل ويستقبحون التفرد :
شكا رجل إلى سيدنا رسول الله قلة البركة في طعامهم ، فقال : لعلمكم تنفرون
على طعامكم ! قال : نعم ، قال : اجتمعوا عليه واذكروا اسم الله لديه ...
وفي الحديث أيضا : أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ ؟ : من أكل وحده ، وضرب
عَبْدَهُ ، ومنع رِفْدَهُ ، « الرّفْد : العطاء » ... وقال قيس بن عاصم المِنقرى :
إِذَا مَا ضَنَعْتُ الزَّادَ فَالْتِمِسِي لَهُ أَكِيلًا فَإِنِّي لَسْتُ أَكِلُهُ وَحْدِي ^(١)

(١) بعده :

قَصِيًّا كَرِيمًا أَوْ قَرِيبًا فَإِنِّي أَخَافُ، ذَمَّاتِ الْأَحَادِيثِ مِنْ بَعْدِي
وَكَيْفَ يُسْبِغُ الْمَرْءُ زَادًا وَجَارَهُ خَفِيفُ الْمَتَى بَادِيَ الْخَصَاصَةِ وَالْجَهْدِ
وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ زِيَارَةِ بَاخِلٍ يُبْلِغُ أَطْرَافَ الْأَكِيلِ عَلَى عَمْدِ
وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلًا وَمَا فِي إِلَّا تِلْكَ مِنْ شِبَعَةِ الْعَبْدِ
وقوله قصيا كريما أو قريبا فإني : هذا من طريق المعاني وذلك أنه لم يحتج
إلى أن يشترط في نسبته الكرم لأنه ضمن ذلك واشترط في القصي أن يكون كريما
لأنه كره أن يكون مؤاكلة غير كريم . ورواية الأغانى :

« أَخَا طَارِقًا أَوْ جَارِ بَيْتِ فَإِنِّي »

وروا أن قيسا لما قال فالتسي له أكيلاً : أرسلت زوجته جارية فأتته بأكيل وقالت :
أبي المرء قيس أن يذوق طعامه بغير أكيل لأنه لكريم

وقال عبد الله بن المعتز في اجتماع الأيدي على الطعام:
 كَانَ أَكْفَ الْقَوْمِ فِي جَفَنَاتِهِ قَطَا لَمْ يُنْفَرُهُ عَنِ الْمَاءِ صَارُخٌ ^(١)
 وكانت العرب تعدّ التفرد بالأكل احتقَابَ وَزِرٍ ^(٢) حتى أنزل الله عز
 و تقدّس : ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ^(٣)...

السؤال

وعبقرياتهم فيه ، من جميع نواحيه

ذمّ السؤال : لما احتضر قيس بن عاصم المنقري ^(٤) سيد أدل الوبّر ، قال

(١) الجفّنات : جمع جفنة : القصعة الكبيرة

(٢) يقال : احتقَب فلان الإثم والوزر : احتمله ، كأنه جمعه واحتمبه من خلفه ،
 أى جمعه في حتمية ، والحتمية الوعاء الذي يجعل الرجل فيه زاده وكانوا يجعلونها خلفهم
 على الراحلة (٣) قال البيضاوي : نزلت هذه الآية في بني ليث بن عمرو من كنانة ،
 كانوا يتحزجون أن يأكل الرجل وحده ؛ أو في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف
 لا يأكلون إلا معه ؛ أو في قوم تخرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الطبائع في
 الفذارة والنهم

(٤) تقدم له ذكر فيما أسلفنا وهذا قيس هو الذي يقول فيه عبدة بن الطيب يرثيه
 - وعبدة شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم وكان في جيش النعمان بن مقرن الذين
 حاربوا معه الفرس بالمداين - :

وما كَانَ قَيْسٌ هُلُكُهُ هَلْكَ وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهْدِمًا
 وعبدة هذا هو صاحب الآيات التي روى أن عبد الملك بن مروان قال يوماً لجلسائه : أى
 المناديل أفضل ؟ فقال قائل منهم : مناديل مصر كأنها غرقى البيض ، وقال آخرون
 مناديل اليمن ، كأنها نور الربيع ، فقال عبد الملك : بل مناديل أخى بنى تميم : عبدة بن
 الطيب حيث يقول :

لبنيه : يَا بَنِيَّ ، احفظوا عَنِّي ثَلَاثًا ، فَلَا أَحَدٌ أَتَصَحُّ لَكُمْ مِنِّي ، إِذَا أَنَا مِتُّ
 فَسَوِّدُوا كِبَارَكُمْ وَلَا تُسَوِّدُوا صِغَارَكُمْ ، فَيَحَقَّرَ النَّاسُ كِبَارَكُمْ وَتَهُونُوا
 عَلَيْهِمْ ، وَعَلَيْكُمْ بِحِفْظِ الْمَالِ ، فَإِنَّهُ مَنبَهَةٌ لِلكَرِيمِ وَيُسْتَفْنَى بِهِ عَنِ اللَّئِيمِ ،
 وَإِيَّاكُمْ وَالْمَسْأَلَةَ فَإِنَّهَا آخِرُ كَسْبِ الرَّجُلِ ... سَوِّدُوا كِبَارَكُمْ : فَالسَّيِّدُ هُنَا
 الرَّئِيسُ أَيْ أَسَدُوا رِيَاسَتَكُمْ إِلَى كِبَارَكُمْ ، وَمَنبَهَةٌ لِلكَرِيمِ : أَيْ مُشْعِرٌ بِقُدْرِهِ
 وَمُغْلٍ لَهُ ، وَقَوْلُهُ : فَإِنَّهَا آخِرُ كَسْبِ الرَّجُلِ فَأَحْرُ بِقَصْرِ الْمَهْذَةِ : أَيْ أَذْنِ
 وَأَرْذَلِ ، وَإِذَا مُدَّ فَمَعْنَاهُ : أَنَّ السُّؤَالَ آخِرُ مَا يَكْتَسِبُ بِهِ الْمَرْءُ عِنْدَ الْعِجْزِ عَنِ
 الْكَسْبِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ إِيَّاكُمْ وَالْمَسْأَلَةَ فَإِنَّهَا آخِرُ كَسْبِ الرَّجُلِ ،
 فَلَعَلَّ قَيْسًا أَخَذَهَا مِنْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ، لِأَنَّهُ قَيْسًا مَنِ اسْلَمَ وَنَزَلَ الْبَصْرَةَ
 وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا : مَنْ سَأَلَ وَهُوَ غَنِيٌّ جَاءَتْ مَسْأَلَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَدُوشًا
 أَوْ نُخُوشًا أَوْ كُدُوحًا فِي وَجْهِهِ «الْكُدُوحُ : الْخَدُوشُ ، وَكُلُّ أَثَرٍ مِنْ خَدَشٍ
 أَوْ عَضٍّ فَهُوَ كَدَحٌ ، وَقَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : إِنْ أَحَدُكُمْ يَخْرُجُ بِمَسْأَلَتِهِ مِنْ
 عِنْدِي مُتَأَبِّطًا ، وَمَا هِيَ إِلَّا النَّارُ ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وَلِمَ تُعْطِيهِ
 وَهِيَ نَارٌ ؟ فَقَالَ : يَأْتُونَ إِلَّا أَنْ يَسْأَلُوا وَيَأْتِي اللَّهَ لِي الْبُخْلُ ... وَقَالُوا :
 إِيَّاكَ وَطَلَبَ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ فَإِنَّهُ فَقَرٌّ حَاضِرٌ ، وَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ : السَّخَاءُ
 سَخَاءَانِ : سَخَاؤُكَ بِمَا فِي يَدِكَ ، وَسَخَاؤُكَ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ ، وَهُوَ أَمَحْضٌ فِي

لَمَّا نَزَلْنَا ضَرَبْنَا ظِلًّا أَخْبِيَةً وَفَارَ لِلْقَوْمِ بِاللَّحْمِ الْمَرَاجِيلُ
 وَرَدَّ وَأَشَقَرُ مَا يُؤْنِيهِ طَابَخُهُ مَاغِيرَ الْغَلَى مِنْهُ فَهُوَ مَا كَوُلُ
 نُمَتَّ قُنَا إِلَى جُرْدٍ مُسَوْنَةٍ أَعْرَافُهُنَّ لَا يَدِينَا مَنَادِيلُ

«يعني بالمراجيل : المراحل فزاد فيها الياء ضرورة ، وما يؤنيه : ما ينضجه ، والجرد

المسومة : الخيل

الكرم، وأبعدُ من الدّنس، ومن جمعهما فقد استكمل الفضل... وقال شاعرٌ :
 لَا تَحْسَبَنَّ الْمَوْتَ مَوْتَ الْبَلَى وإنما الموتُ سُؤالُ الرِّجَالِ
 كِلَاهُمَا مَوْتُ وَلَكِنَّ ذَا أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ
 وقد كانوا يتحملون المكارةَ تفادياً من السؤال : روى الأصمعي قال : مررت
 بكنّاس بالبصرة يَكْنُسُ كنيفاً وَيُغْنَى :

أضاعوني وأَيَّ قَتَى أضاعوا لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسِدَادٍ تُغِيرُ ^(١)
 فقلت له : أما سِدَادُ الكَنِيفِ فَأَنْتَ مَلِيٌّ بِهِ ^(٢) ، فَلَا عِلْمَ لِي بِكَ كَيْفَ
 أَنْتَ فِيهِ ، وَكُنْتُ حَدِيثَ السَّنِّ فَأَرَدْتُ الْعَبَثَ بِهِ - فَأَعْرَضَ عَنِّي مَلِيّاً ثُمَّ أَقْبَلَ
 عَلَيَّ وَأَنْشَدَ مُتَمَثِّلاً :

وَأُكْرِمُ نَفْسِي إِنِّي إِنْ أَهَنْتُهَا وَحَقَّقَ لَمْ تَكْرُمْ عَلَيَّ أَحَدٌ بَعْدِي
 قال الأصمعي : فقلت له : والله ، ما يكون من الهوانِ شيءٌ أَكْثَرَ مِمَّا بَذَلْتُمُ الْهَـ ،
 فَبَأَى شَيْءٌ أَكْرَمَتَهَا؟ فقال: بَلَى ، والله ، إن من الهوانِ لَشَرّاً أَمَا أَنَا فِيهِ ، فقلت : وما هو؟
 فقال : الحاجةُ إِلَيْكَ وَإِلَى أَمْثَالِكَ مِنَ النَّاسِ ، فَانْصَرَفْتُ عَنْهُ أَخْزَى النَّاسِ... ومثله
 ما روى أن أبا عمرو بن العلاء قال : اجتزت بكنّاس يُنْشِدُ :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْرِفْ لِنَفْسِكَ قَدْرَهَا هَوَاناً لَهَا كَانَتْ عَلَيَّ النَّاسُ أَهْوَاناً
 فقلت : سبحان الله ، أَتَنْشِدُ مِثْلَ هَذَا وَتَتَعَاطَى مِثْلَ هَذَا الْفِعْلِ؟ فقال :
 إِنْ إِنْشَادِي لِمِثْلِهِ أَصَارَنِي إِلَى هَذَا ، فَرَاراً مِنْ ذَلِكَ السُّؤَالِ ...



(١) سيمر بك حديث طريف عن هذا البيت في موضع آخر من هذا الكتاب

(٢) ملى به : مضطلع به

ذم الإلحاح والحث على الإجمال في الطلب :

في الحديث : إن الله يُبْغِضُ من عباده السائل المُلْحِفَ ، وقال حكيم :
لَا يُكْثِرَنَّ الرَّجُلُ عَلَى أَخِيهِ الْمَسْأَلَةَ ، فَإِنَّ الْعِجْلَ إِذَا أَفْرَطَ فِي مَصِّ أُمِّهِ
نَطَخَتْهُ وَنَحَّتْهُ ، وقال بشار بن برد : * وَلَيْسَ لِلْمُلْحِفِ مِثْلُ الرَّدِّ *
ووقع بعض الكبار في قصة مُلِحِّحٍ مُكْثِرٍ للسؤال : دَغَ هَذَا الضَّرْعُ
يَدِرَّ لغيرك كما دَرَاكَ . وقالوا : اطلبوا الحاجات بعِزَّةِ النفس فإن يَسُدَّ الله
قضاءها ... وقال ابن الرومي في الإحسان يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِهِوَان :

إِذَا أَنَا نَالْتَنِي فَوَاضِلُ مُفْضِلٍ فَأَهْلًا بِهَا مَا لَمْ تَكُنْ بِهِوَانِ
فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْهُوَانُ قَرِينَهَا فَبُعْدًا لَهَا مَا يَنْقُضِي لِأَوَانِ
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَلْتَذُّ شَهْدًا بِعَلَقَمِ أَبَتْ لَهَوَاتِي ذَاكَ وَالشَّفَتَانِ
يَدُ مَكَانًا مِنْ كَرِيمٍ يَصُونُنِي وَإِلَّا فِلي رِزْقٍ بِكُلِّ مَكَانِ

دقة موقف السائل : ومن عبقرياتهم في صعوبة موقف من يسأل لنفسه
شيئا ولا سيما إذا كان ممن يُكْرَمُونَ أَنْفُسَهُمْ :

قال سعيد بن العاص : موطنان لا أَعْتَدِرُ مِنَ الْعِيِّ فِيهِمَا : إِذَا سَأَلْتُ
حَاجَةً لِنَفْسِي ، وَإِذَا كَلَّمْتُ جَاهِلًا ... وسار الفضل بن الربيع - الوزير كان - إلى
أبي عباد في نكبتته يسأله حاجة ، فَأَرْتَجَّ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو عِبَادَ : هَذَا
اللِّسَانُ خَدَمَتْ خَلِيفَتَيْنِ ! فَقَالَ الْفَضْلُ : إِنَّا تَوَدُّنَا أَنْ نُسْأَلَ لَا أَنْ
نُسْأَلَ ... وَكَلَّمَ أَعْرَابِيٌّ خَالِدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ، وَتَلَجَّجَ فِي كَلَامِهِ ، فَقَالَ :
لَا تَلْنِي عَلَى الْإِخْتِلَاطِ ، فَإِنَّ مَعِيَ ذُلَّ الْحَاجَةِ وَمَعَكَ عِزُّ الْاسْتِغْنَاءِ ...

عبرياتهم في آداب السؤال واستنجاح الحوائج

ولهم في السؤال وآدابه واستنجاح الحوائج ودستوره، تحاسنُ رأينا أن نُسلِّمَ بها، إتماماً لهذا الباب، فمن ذلك حَثُّهم على سؤال الشبان دون الشيوخ، والصباح دون القِباح، والكرِيم الفقير دون الغنى اللثيم. وهذا لَعَمْرِي من حِذْقِ الأوائل وتَفْطَنهم إلى طبائع النفوس...

قال حكيم: طَلَبُ الحوائج عند الشَّبَّانِ أَسْهَلُ منها عند الشيوخ، ألا ترى أن يعقوبَ عليه السلام لما سأله بنوه أن يستغفر لهم قال: سوف أستغفر لكم ربِّي، وقال يوسف عليه السلام: لا تُرِيبَ عليكم اليوم... وفي الأثر: اطلبوا الحوائج إلى حَسَّانِ الوجوه^(١)... وسُئِلَ ابنُ عائشة عن هذا الحديث فقال: معناه: اطلبوها من الوجوه التي يَحْسُنُ بالمرءِ أن يَطْلُبَهَا منها... وقال البَحرِيُّ:

مَنْ حَسَّنَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَسَجَا بِنَاهُ وَأَعْطَاهُ كُلَّ الْكُلْفَا

وقال السَّريُّ الرَّقَاءُ:

صَرَفْتُ عَنِ الْكَثِيرِ الْوَفْرِ طَرْفِي وَهَا أَنَا لِلْقَلِيلِ الْوَفْرِ رَاجٍ^(٢)

وَكَمْ مِنْ نُظْفَةٍ عَذَبَتْ وَكَانَتْ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ بَحْرِ أَجَاجٍ^(٣)

وقالت امرأة من ولد حسان بن ثابت:

(١) في الجامع الصغير: اطلبوا الخير إلى حسان الوجوه

(٢) الوفّر: المال الكثير (٣) النطفة: الماء القليل الصافي يبقى في الدلو

أو القربة ونحوهما، وأجاج: ملح مُر

سَلِ الْخَيْرَ أَهْلَ الْخَيْرِ قَدَمًا وَلَا تَسَلْ

فَتَى ذَاقَ طَنَمَ الْعَيْشِ مُنْذُ قَرِيبٍ

وقال مسلم بن قتيبة : لَا تَطْلُبَنَّ حَاجَتَكَ إِلَى كَذَابٍ ، فَإِنَّهُ يُقَرِّبُهَا وَهِيَ بَعِيدٌ ، وَيُبَعِّدُهَا وَهِيَ قَرِيبٌ ^(١) ، وَلَا إِلَى أَحَقِّ فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيُضِرُّكَ . وَلَا إِلَى رَجُلٍ لَهُ عِنْدَ مَنْ تَسْأَلُهُ الْحَاجَّةَ حَاجَّةٌ ، فَإِنَّهُ لَا يُؤَثِّرُكَ عَلَى نَفْسِهِ . وقال شاعر :

لَا تَطْلُبَنَّ إِلَى لَيْثِمٍ حَاجَةً وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ قَائِمًا كَالْقَاعِدِ

يَا خَادِعَ الْبُخْلَاءِ عَنْ أَمْوَالِهِمْ هَيْهَاتَ تَضْرِبُ فِي حَدِيدٍ بَارِدٍ

وقال بعض الأدباء : عَلَيْكَ بِذِي الْحَصْرِ الْبَيْكِيِّ ^(٢) ، وَبَذِي الْحَيْمِ الرِّضِيِّ ^(٣)

فَإِنَّ مَثَالًا مِنْ شِدَّةِ الْحَيَاءِ وَالْعِيَّ ، أَنْفَعُ فِي الْحَاجَةِ مِنْ قِطَارٍ مِنْ لِسَانِ سَلِيلٍ وَعَقْلٍ ذَكِيٍّ ، وَعَلَيْكَ بِالشَّهْمِ النَّذْبِ ^(٤) الَّذِي إِنْ عَجَزَ أَيَّاسُكَ ، وَإِنْ أَطْمَعَكَ ... وقال الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لَا تَسْتَعِنْ عَلَى حَاجَتِكَ إِلَّا بِشَيْءٍ يُحِبُّ نَجَاحَهَا لَكَ ... وقال ابن عباس : لَا تَسْأَلَنَّ حَاجَةً بِاللَّيْلِ ، وَلَا تَسْأَلَنَّ أَنْعَمِي ، فَإِنَّ الْحَيَاءَ فِي الْعَيْنَيْنِ .

ومن آداب السؤال عندهم أَنْ لَا يُتَجَاوَزَ الْحَدُّ فِيهِ : قالوا : مَنْ سَأَلَ

(١) بعيد وقريب : يوصف بهما المذكر والمؤنث والمفرد والجمع ومنه قوله تعالى : وَإِنْ رَحِمَ اللَّهُ قَرِيبَ الْمُحْسِنِينَ ،

(٢) الحصر : ضرب من العي ، والبكي : القليل الكلام

(٣) الحيم : الخلق والطبيعة والسجية والأصل ، قال :

وَمَنْ يَتَّبِعْ مَا لَيْسَ مِنْ خَيْمِ نَفْسِهِ يَدْعُهُ وَيَغْلِبُهُ عَلَى نَفْسِ خَيْمِهَا

(٤) الشهم : الذكي الفؤاد ، المتوقد النجد النافذ في الأمور ، والنذب : الخفيف

في الحاجة

فوق قدره ، فقد استوجب الرد ، ومن لم يرج إلا ما هو مستحق له ، فإلى الرد ... وقال الشاعر :

إِنَّكَ إِنْ كَلَفْتَنِي مَالِمَ أُطِيقَ سَاءَكَ مَا سَرَّكَ مِنِّي مِنْ خُلُقٍ
وكانوا لا يرون بأسا بسؤال الملوك وسؤال الابن أباه : فقالوا : مسألة
الرجل السلطان ، ومسألة الابن أباه ، لا تنقصه ولا تشينه :

وَإِذَا ابْتُلِيتَ بِبَذَلٍ وَجْهَكَ سَائِلًا فَأَبْذُلْهُ لِلْمُتَكَرِّمِ الْفِضَالِ
وقال أبو جعفر المنصور لرجل أخدمته أمرا : سل حاجتك فقال :
يُبيِّتُكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قال : سل ، فليس يمكنك ذلك في كل وقت ؛
فقال : ولم يا أمير المؤمنين ؟ فوالله ، لا أستقصر عمرك ولا أرهبُ بخلك
ولا أغتني مالك ، وإن سؤالك لزين وإن عطائك لأشرف ، وما على أحد
بذل وجهه إليك نقص ولا شين ، فأمر حتى ملئ فوه دُرًّا ... وقال العتّابي :
إن طلبت حاجة إلى ذي سلطان ، فأجمل في الطلب إليه ، وإياك والإلحاح
عليه ، فإن إلحاحك يكلم عِرضك ، ويريق ماء وجهك ، فلا تأخذ منه
عِوضًا لما يأخذ منك ، ولعل الإلحاح يجمع عليك إخلاق ماء الوجه وحرمان
النجاح فإنه ربما ملّ المطلوب إليه حتى يستخفّ الطالب .

ومن قولهم في الحث على الحِذْق واللاطافة في المسألة : قال رجل لآخر :
لَوْ أَنَا مِتُّ مَا كُنْتَ تَفْعَلُ ؟ قال : كُنْتُ أَكْفُّنُكَ وَأَدْرِفُنُكَ ، قال : فاكسني
الساعة بما تكفّنتني به ، وإذا مِتُّ فأذِفني عُريانا ... وقال شاعر :

أَحْلُبُ لَبُونَكَ إِبْسَاسًا وَتَمْرِيةً لَا يَقْطَعُ الدَّرُّ إِلَّا عُفْ مُحْتَلِبِهِ
« اللبون : الناقة أو الشاة ذات اللبن ، والإبسّاس : أن يسمح بضرع الناقة
يسكنها لتدرّ ، ومثله التمرية ، والدّر : اللبن ، ... وسأل أعرابي عبد الملك بن مروان -

وكان بخيلا وكانوا يطلقون عليه : رَشَحَ الحجر - فقال له : سل الله ، فقال :
سألته فأحالي عليك ، فضحك منه وأعطاه .. وأتى رجل بعض الولاة ، وكان
صديقه ، فتشاعل عنه ، فترأى له يوما ، فقال : أعذرني فإني مشغول ، فقال لولا
الشغل ما أتيتك ، لا بلغتني الله يوم فراغك . وفي هذا المعنى يقول أبو علي البصير :

لَا تُصَيِّرْ شُغْلَكَ الْيَوْمَ مَاعِذَارًا لِمَطَالِكَ

إِنَّمَا يُحَمَّدُ أَنْ تَقْرَعَ فِي وَقْتِ اشْتَغَالِكَ

لَوْ تَقَرَّغْتَ مِنَ الشُّغْلِ آتَوْنَا فِي الْمَسَالِكِ

وقال بعض الأدباء للصاحب بن عباد : إن جرذاً ن داري ^(١) يمشين بالعصا
هزاً ، فقال : بشرهن بمجيء الحنطة ... وقسم بعضهم مالا بين بنيه فقال له
عبد صغير : فأعطني أولاً ، فقال له : ولمه ؟ قال : لأن الله تعالى يقول : المال
والبنون زينة الحياة الدنيا ، فبدأ بالمال ، وأناماك ، فأعطاه وقدمه ... ودخل
محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم ، فقال له : إني أتيتك في حاجة ، فإن شئت
قضيتها وكنا جميعا كريمين ، وإن شئت منعتها وكنا جميعا لثيمين . وقال ابن
عبد ربه صاحب العقد : أراد : إن قضيتها كنت أنت كريما بقضائها ، وكنت
أنا كريما بسؤالك إياها لأنني وضعت طليقتي في موضعها ، فإن لم تقضها
كنت أنت لثيما بمنحك ، وكنت أنا لثيما بسوء اختياري لك ، وسرق حبيب
- أبو تمام - هذا المعنى فقال :

عِيَّاشُ إِنَّكَ لِلْثِّيمِ وَإِنِّي مُذْ صِرْتَ مَوْضِعَ مَطْلَبِي لِلثِّيمِ

ومن ملاح المكدنين ووصاياهم : قيل لرجل مكدي : متى تعلت الكدية
والسؤال ؟ قال : يوم ولدت ، مُنِعْتُ الثَّدْيَ فصحت ، وبكيت فأعطيت

(١) الجرذان جمع جرذ : الفأر

الثدى، فسكت... وقال رجل لآخر: قد وَّضَع مِنْكَ سَوَآلُكَ؟ فقال: لقد سأل موسى والخضرُ عليهما السلام أهلَ قرية، فأَبَوْا أن يُضيفوهما، فوالله ما وُضِعَ هذا من نبيِّ الله وعالمِهِ، فكيف يضع مني؟ وقال بعض المُكِدِّينَ: مكتوبٌ على باب الجنة: مَنْ صَبَرَ عِبرَ... وقال آخر: كَلَبٌ طَائِفٌ، خَيْرٌ مِنْ أَسَدٍ رَابِضٍ، وقالوا: الهية خيبة، وقال سَلْمُ الحَاسِرِ:

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ غَمًّا وَفَازَ بِاللَّذَّةِ الْجَسُورُ

وقال أَشْجَعُ السَّلَوى:

ليس للحاجات إلا مَنْ لَهُ وَجْهٌ وَقَاحٌ

وقال أبو تمام:

وَحُذِفُمْ بِالرُّقَى إِنَّ الْمَهَارَى يُهَيِّجُهَا عَلَى السَّيْرِ الْخَدَاءِ

وقال ابن الرومى:

وإنَّ الأئِمَّ لم تُرَضَّعْ صَبِيًّا مَعَ الْإِشْفَاقِ لَوْ سَكَتَ الْغُلَامُ

ومن قولهم فى الحث على معاودة السؤال: قولُ عمر رضى الله عنه: إذا سَأَلْتُمُونَا حَاجَةً فَمَا وَدُونَا فِيهَا، فَإِنَّمَا سَمِيتِ الْقُلُوبَ قُلُوبًا لِتَقْلِبُهَا... وقال عبد الملك بن مروان فى خطبة له: لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا سَأَلَ الْيَوْمَ شَيْئًا فَمَنَعْتُهُ، أَنْ يَسْأَلَ غَدًا؛ فَإِنَّ الْأُمُورَ بِيَدِ اللَّهِ لَا بِيَدِي. وقال شاعرٌ:

لَا يُؤْيِسُنَكَ مِنْ كَرِيمِ نَبْوَةٍ يَنْبُو الْفَتَى وَهَوَ الْجَوَادُ الْخَضِرُ^(١)

فَإِذَا تَبَا فَاسْتَبْقِهِ وَتَأَنَّهُ حَتَّى يَجِيَّاهُمَا الطَّبَاعُ الْكَرُمُ^(٢)

(١) النبوة: الجنة والتباعد ويقال: نباعنه بصره ينبو: تجافى ولم ينظر إليه كأنه حقره. والخضر بالسكر: الجواد الكثير العطاء أو السيد الحرل

(٢) يقال: تأنيبك حتى لا أناة بي، أى تنظرتك حتى لا انتظر بي، والطباع كالغرار واحد طباع الإنسان أى الخليفة والسجدة التى طبع عليها قال الزجاجى الطباع واحد

وقالوا : إذا سألتَ كريماً حاجة فدعه وسؤمَ نفسه ^(١) فإنه لا يُفكرُ
إلا في خير ، وإذا سألتَ لثيماً حاجةً فعاقصه ^(٢) ولا تدعه يتفكر
فيمتّع ، وقال بعضهم في ضد ذلك : إذا سألتَ لثيماً حاجةً فأجّله حتى يروض
نفسه ... « أى يعالج نفسه الكزة اللثيمة »

ولهم في الاعتذار عن سؤال اللثيم وأخذهم منه : قال أبو تمام :
حُذِّمَ ما أتاك من اللثا ثم إذا نأى أهلُ الكرمِ
فلا تُسَدِّ تَفْتَرِسُ الكِلابِ بَ إذا تَعَذَّرَتِ الغنمُ
وقال المتنبي :

غيرَ اختيارٍ قَبِلْتُ بِرِّكَ بى والجوعُ يُرِضِي الأُسودَ بالجيفِ
وقال المهلبى الوزير :

ما كُنْتُ إِلا كَلْجَمٍ مَيِّتٍ دعا إلى أَكْلِهِ اضْطِرَّارُ
ولأبى على البصير :

لَعَمْرُ أَيْكَ ما نُسِبَ المُعَلَّى إلى كَرَمٍ وفى الدنيا كَرِيمُ
ولكنَّ البلادَ إذا ائْتَشَعَرَتْ وَصَوَّحَ نَبْتُها رُعيَ المَشِيمِ

« ائتشعرت : قال الأزهرى : يقال : ائتشعرت الأرض من المَحَل - الجذب -
وفي الحديث : إن الأرض إذا لم ينزل عليها المطر اربدتْ وائتشعرت : أى
تقبضت وتجمعت ، وصَوَّحَ نَبْتُها : يبس »

ومن قولهم في التعريض بالسؤال : قال أمية بن أبى الصلت :
أأذكر حاجتى أم قد كفانى حَيَاؤُكَ إنَّ شَيْمَتَكَ الحياءُ

مذكر كالنجار - الأصل - (١) أى وما يريد ويتجه إليه

(٢) فعاقصه : فاسلك معه مسلكاً ملتوياً بعزّة

إذا أثنى عليك المرأة يوماً كَفَّاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ
وقال ابن الرومي :

يَأْمَنُ إِذَا التَّعْرِيزُ صَافَحَ نَفْسَهُ أَغْنَى الْفُفَاءَ بِهِ عَنِ التَّصْرِيحِ
وقال المتنبي :

أَقْلُ سَلَامِي حُبِّ مَا خَفَّ عَنْكُمْ وَأَسْكُتُ كَمَا لَا يَكُونُ جَوَابُ
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ قَطَانَةٌ سُكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ
وقال أبو بكر الخوارزمي :

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَى كَرِيمٍ حَاجَةً فَلِقَاؤُهُ يَكْفِيكَ وَالتَّسْلِيمُ
فَإِذَا رَأَاكَ مُسْلِمًا عَرَفَ الَّذِي حَمَلَتْهُ فَكَأَنَّهُ مَلْزُومُ

المسئول تُجَاهَ السَّائِلِ

قال شُريح^(١) : مَنْ سَأَلَ حَاجَةً فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ عَلَى الرَّقِّ ، فَإِنْ قَضَاهَا

(١) هو القاضي شريح بن الحارث ، استقضاه عمر بن الخطاب على الكوفة فأقام قاضياً خمساً وسبعين سنة ، وكان أعلم الناس بالفضاء ، ذا فطنة وذكا. ومعرفة وعقل وإصابة ، وكان شاعراً محسناً وكان مزاحاً ، دخل عليه عدي بن أرطاة فقال له : أين أنت أصلحك الله فقال : بينك وبين الحائط ، قال : استمع مني ، قال : قل أسمع ، قال : إني رجل من الشام ، قال : من مكان صحيح ، قال : تزوجت عندكم ، قال : بالرقاء والبنين قال : وأردت أن أرحلها ، قال : الرجل أحق بأهله ، قال : وشرطت لها دارها قال : الشرط أملك قال : فاحكم الآن بيننا ، قال : قد فلتت ، قال : فعلى من حكمت ؟ قال : على ابن أملك ، قال : بشهادة من ؟ قال : بشهادة ابن أخت خالتك ... ويُروى أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه دخل مع خصم له ذى إلى القاضي شريح هذا فقام له ، فقال علي : هذا أول جورك ، ثم أسند ظهره إلى الجدار وقال : أما لو أن خصمي كان مسلماً لجلست بجانبه ... وتزوج شريح امرأة من بني تميم تسمى زنبب فلقم عليها شيئاً فضر بها ثم ندم وقال :

المسؤلُ استعبده بها ، وإن رَدَّه ، رجع حُرّاً ، وهما ذليلان ، هذا بِذِلِّ التَّوَمِ
وهذا بِذِلِّ السَّوَالِ . وقال أبو تمام :

ماماءُ كَفَّكَ - إن جادت وإن بَحَلَّتْ من ماءٍ وَجَّهِي إذا أَفْنَيْتُهُ - عَوْضُ

وقالوا : العَجَبُ لمن يشتري العبيدَ بالآموال ولا يشتري الأحرارَ بالآوال ...
وسئل خالدُ بن يزيدَ : ما الجود ؟ قال : أن تُعْطِيَ مَنْ سَأَلَكَ ، فقال ابنه :
يا أَبَتِ ، هذا هو الكَدُّ ، إنما الجودُ أن تُعْطِيَ مَنْ سَأَلَكَ ومن لم يَسْأَلْكَ ...
وقالوا : أهنأُ المعروفِ أَعْجَلُهُ . وقال بعضُ الناس : إذا أوليتني نعمةً فَعَجَّلْها ،
فإن النفسَ مَوَلَةٌ بحَبِّ العاجِلِ ، وإن الله تعالى قد أخبر عما في نفوسنا فقال :
كلا ، بل تُحْبِثُونَ العاجِلَةَ ... ولزم بعضُ الحكماء بابَ بعضِ ملوك العجم دَهْرًا
فلم يَصِلْ إليه ، فتَطَلَّفَ للحاجِبِ في إيصالِ رُقعةٍ ، ففعل ، وكان فيها أربعة أسطر
السطر الأول : « الأمل والضرورة أُنْذِمَا نِي عَيْكَ »

والسطر الثاني : « والعُدْمُ لا يكون معه صَبْرٌ على المَطالِبَةِ »

والسطر الثالث : « الانصرافُ بلا فائدة شِئَانَةٌ للأعداءِ »

والسطر الرابع : « فإِذَا تَعَمَّ مُشْمِرَةٌ ، وإِذَا لا مُرِيحَةٌ ،

فلما قرأها وَقَعَ في كل سطرٍ زِهَةٌ ؛ فَأَعْطِيَ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفَ مِثْقَالٍ فِضَّةً -

« زِهَةٌ في لغة الفرس معناها : أحسنت ، ... ووقفتُ عِجُوزٌ على قيس بن سعد فقالت :

رَأَيْتُ رِجَالًا يَضْرِبُونَ نِسَاءَهُمْ فَشَلَّتْ يَمِينِي يَوْمَ أَضْرِبُ زَيْنَبًا

أَأَضْرِبُهَا مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ أَتَعُ بِهِ فَمَا الْعَدْلُ مِنِّي ضَرْبُ مَنْ لَيْسَ مُذْنِبًا

فَزَيْنَبُ شَمْسٌ وَالنِّسَاءُ كَوَاكِبٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ تُبْقِ مِنْهُنَّ كَوَكِبًا

توفي شريح سنة ٨٧ هـ وهو ابن مائة سنة .

أشكو إليك فلة الجرذان : قال : ما أحسن هذه الكناية ؟ أملتوا بيتها خبزاً ولحماً
وسمتنا وتمراً . وقد تقدم مثلها .

الاعتذار عن المسئول إن لم يعط

قال أبو نواس :

فإن توريتني منك الجميل فأهله وإلا فإنني عاذر وشكور

وقال ابن الرومي :

وإن عاق القضاء نذاك عني فليست أراك في منعى ملياً^(١)

وما غيث إذا يجتاز أرضاً إلى أخرى بمعد كئيباً

وكتب أبو العيناء إلى ابن أبي دؤاد : سنا وأهلنا اضرب ، وبضاعتنا المودة
والشكر ، فإن تمطينا أنت أهل لذلك ، وإن لم تمطينا فلسنا بمن يلزك في
الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون^(٢) وهناك
من لا يعذر ، رَوَوْا أن الحجاج لما دخل مكة قال لأهلها : أتيناكم وقد غاض
الماء لكثرة الزواجب ، فاعذرونا ، فقال رجل : لا عذر الله من عذرك ، وأنت
أمير المصيرين وابن عظيم القرينين^(٣) فقال : صدقت ، واستقرض ما لا من
التجار فقرق فيهم ، وقال أبو تمام :

فلو حاردت شول عذرت لِقاحها

ولكن حُرمت اندر والضرع حافل^(٤)

(١) ملياً : فاعلاً ما يلام عليه (٢) اللز : العيب والوقوع في الناس . يشير إلى

آية الكريمة (٣) القرينان : مكة والطائف

(٤) حاردت الافة : قل لبها ، والشول جمع شائلة والنائلة من الإبل التي أتى عليها
من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبها ، واللقاح : جمع لفحة : الحامل والمراد : عذرتها

طلب الكثير والرضا بالقليل

قال أعرابي لخالد بن عبد الله من أبيات :

أخالدُ بين الحمد والاجر حاجتي فأُثِمَا تأتي فأنت عمادُ

فقال له خالد : سَلْ ما بَدَأَكَ ، فقال : مائة ألف درهم ، قال : أسرفت ، قال : ألف درهم ، قال خالد : ما أدري أَمِنْ إِسْرَافِكَ أُنْعَجَبُ أَمْ مِنْ حَظِّكَ ، فقال : إني سألتُك على قدرك ، فلما أبيتَ سألتُ على قدرى ، فقال : إذن والله لا تغلبني على معروفى ...

من يسأل حاجة يزعمها صغيرة

قال رجل لعمارة بن حمزة : أتيتك فى حَويجة ، فقال : اطلب لها رُجِيلاً ... وقال آخر مثل هذا فقال : دَعِها حتى تكبُرَ ... وقال رجل لعبد الله بن عباس رضى الله عنه : أتيتك فى حاجة صغيرة ، فقال : هايتها ، فالحرُّ لا يَصْغُرُ عن كبير أخيه ولا يكبُرُ عن صغيره ...

الحث على الصبر والآناة فى طلب الحاجات

قال الشاعر :

إن الأمورَ إذا اتسَدَتْ مَسارِكُها فالصبرُ يَفْتَحُ منها كلَّ مَآرِئِجِها^(١)
أَخْلَقَ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظِيَ بِحَاجَتِهِ وَمُدْمِنِ الْقَرَعِ الْأَبْوَابِ أَنْ يَلْجَا
لَا تَأْتِيسُنْ وَإِنْ طَالَتْ مُطَالِبَةُ إِذَا اسْتَعْنَتْ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَى فَرَجَا
وقال أبو نواس :

هذه الشول والدر : اللبن ، وحافل : ملآن (١) كل مآرئج : كل ما أغلق

ولا يُدْرِك الحاجاتِ مِنْ حَيْثُ تُبْتَغَى
 مِنَ النَّاسِ إِلَّا الْمَصْبُحُونَ عَلَى رِجْلِ^(١)
 تَأَنَّ مَوَاعِيدَ الْكِرَامِ فُرُبَمَا
 أَصْدَتْ مِنَ الْإِلْحَاحِ سَمَحًا عَلَى مُبْخَلٍ
 وَقَالَ الْقَطَامِيُّ :

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْدَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ
 وَالْعَرَبُ تَقُولُ : رَبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثًا ؛ يَرِيدُونَ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَخْرُقُ
 وَيَحْمُقُ فَيَعَجَلُ فِي حَاجَتِهِ فَتَأَخَّرُ أَوْ تَبْطُلُ بِذَلِكَ .

العطية لا تجدى في غير وقتها

قال البحتري :

وَأَعْلَمَ أَنَّ الْغَيْثَ لَيْسَ بِنَافِعٍ لِلْمَرْءِ مَا لَمْ يَأْتِ فِي إِبَانِهِ
 وَقَالَ : * يُرْجَى الطَّيِّبُ لِسَاعَةِ الْأَوْصَابِ * .

المسئول أهل لأن يسأل

قَالَ عَلْقَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْقَعْلِ مِنَ قَصِيدَةٍ يَخَاطِبُ الْحَارِثَ بْنَ أَبِي شَمْرٍ
 الْغَسَّانِي - وَكَانَ أَسْرَ أَخَاهُ شَأْسًا فَرَحَلَ إِلَيْهِ يَطْلُبُهُ مِنْهُ - :
 وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبِطَتْ بِنِعْمَةٍ فُحِّقَ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنْوبُ^(٢)
 وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي طَاهِرٍ - :

أَتَيْتُكَ لَمْ أَطْمَعِ إِلَى غَيْرِ طَمَعٍ كَرِيمٍ وَلَمْ أَفْزَعْ إِلَى غَيْرِ مَفْزَعٍ^(٣)

(١) يقول : إنما يقضيها المشمرون القيام لا المتزملون النيام

(٢) خطبه بخير : أعطاه من غير معرفة بينهما ، شبه بخابط الليل . والذنوب :

الحظ والنصيب (٣) فزع إليه : لجأ إليه

التأسف على الحرمان

قال البحرى من أبيات يمدح بها الفتح بن خاقان ويعاتبه :
 سحابٌ حَطَّائِي جَوْدُهُ وَهُوَ مُسْبِلٌ^(١) وَبَحْرٌ عَدَائِي قَيْضُهُ وَهُوَ مُفْعَمٌ^(٢)
 وَبَدْرٌ أَضَاءَ الْأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
 وَمَوْضِعُ رَحْلِي مِنْهُ أَسْوَدُ مُظْلِمٌ^(٣)
 أَأَشْكُو نَدَاهُ بَعْدَ أَنْ وَسِعَ الْوَرَى
 وَمَا إِنْ يَذُمُ الْغَيْثَ إِلَّا مُدَمَّمٌ

تعريضهم بمن خيبهم

وَقَفَّ أَعْرَابِيٌّ عَلَى دَارٍ سَائِلًا : فَقَالَ لَهُ صَبِيٌّ مِنَ الدَّارِ : بورك فيك ، فقال
 له : قَبِّحَ اللَّهُ هَذَا النِّفَمَ ، فَقَدْ تَعَلَّمَ الشَّرَّ صَغِيرًا ... وَوَقَفَّ سَائِلٌ عَلَى قَوْمٍ
 فَقَالَ أَحَدُهُمْ : صَنَاعَتُنَا وَاحِدَةٌ ، فَقَالَ السَّائِلُ : فَأَنَا قَوَادُّ فَهَلْ أَنْتُمْ قَوَادُونَ ؟

يَرُونَ الْهَدَايَا وَالرِّشَى مَدْرَجَةً لِلنَّجَاحِ

كانت العرب تقول : مَنْ صَانَعَ لَمْ يَحْتَشِمْ مِنْ طَلَبِ الْحَاجَةِ «صانع : هادى»...
 وقال على بن أبي طالب رضى الله عنه : نِعَمَ الشَّيْءُ : الْهَدِيَّةُ أَمَامَ الْحَاجَةِ ... وَكَانَ
 سَفِيَانُ الثَّوْرِي يَقُولُ : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَتَزَوَّجَ فَاهْدِ إِلَى الْأُمِّ ... وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ :
 مَنْ يَحْتَطِبُ الْحَسَنَاءَ يُعْطِي مَهْرًا ... «يريدون من طلب حاجة مُهِمَّةً بِذَلِكَ
 فيها» وقال شاعرهم :

(١) الجود : المطر الغزير ، ومسبل : هائل (٢) الرحل : المنزل ، ومفعم : مالىء

ما من صديق وإن تمت صدائته

يؤمًا بأجح في الحاجات من طبعي

إذا تقنّع بالمندبيل منطلقًا لم يخش نبوة بواب ولا غلق

لا تكذبن فإن الناس مذخلقوا لرغبة يكرمون الناس أو فرق

« نبوة : جفوة ، و فرق : خوف » وقال رؤبة بن العجاج :

لما رأيت الشفعاء بلدوا وسألوا أميرهم فأنكدوا

نامستهم برشوة فأفردوا وسهل الله بها ما شددوا

« بلدوا : يقال : بلد الرجل : إذا لم يتجه لشيء ، وبلد : إذا تكس في

العمل وضعف حتى في الجرى . وقوله : فأنكدوا : أى وجدوه غيراً

مقللاً إذ لم يجدوا عنده إلا نزرأ قليلاً ، وقوله : نامستهم برشوة : يقول :

أفهمتهم أن يلجأوا إلى رشوة الأمير ويختالوا بذلك ، قال في اللسان : نامس

الرجل صاحبه : ساره ، ومنه الناموس ، وهو صاحب سر الرجل - ويقال له

اليوم السكرتير الخاص - وقوله : فأفردوا : أى خضعوا ، وفي الحديث : وإياكم

والإفراد ، قالوا : يارسول الله ، وما الإفراد ؟ قال : الرجل يكون منكم أميراً

أو عاملاً فيأتيه المسكين والأرملة فيقول لهم : مكانكم ، ويأتيه الشريف

والغني فيؤذنيه ويقول : عجلوا قضاء حاجته ويترك الآخرون مقتردين

« أى ساكنين ذلاً »

قطع العادة

ومن أحسن ما قيل في قطع العادة قول أعرابي - وقد سأل قوما ، فرق له

برجل منهم فضمة إليه وأجرى له رزقاً أياماً ثم قطع عنه - فقال الأعرابي :

تَسَرَّى فَلَمَّا حَاسِبَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ رَأَى أَنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ لَهُ السَّرُّ
« تَسَرَّى : أى تكلف السُّرُوء ، والمَرْءُ : السخاء » وقال شاعر - قيل هو
أبو الأسود الدؤلى ، وقيل أنس بن أبى أنس الليثى - :

لَيْتَ شِعْرَى عَنْ أَمِيرِى مَا الَّذِى غَالَهُ فِي الْوَدِّ حَتَّى وَدَّعَهُ
لَا يُنْهَى بَعْدَ إِذْ أَكْرَمْتَنِ وَشَدِيدُ عَادَةٍ مُنْتَزَعَةٍ
لَا يَكُنْ بَرُّكَ بَرًّا خُلْبًا إِنَّ خَيْرَ الْبَرِّ مَا الْغَيْثُ مَعَهُ

« البرق الخلب : الذى لا مطر معه » ، وفى الحديث : الخير عادة والشرُّ لجاجة . يقال :
لَجَّ فى الأمرِ يَلْجُ ويلج لجاجة ولجاجة ولججًا : إذا تبادى عليه وأبى أن ينصرف
عنه وهو يعلم أنه شر وأن غيره خير منه ، وتقول العرب فيمن اصطنع معروفًا ثم
أفسده بالئن أو قطعه حين كاد يئتم : شوى أخوك حتى إذا أنضج رمدَ
« رمدَ : ألقى الشيء فى الرماد »

شكوى العافين

من تفضيل بعضهم على بعض فى العطاء

قَدِمَ عَلَى سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفُتُّ مِنَ الْعَرَبِ ، فَأَعْطَاهُمْ
وَفَضَّلَ رَجُلًا مِنْهُمْ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : كُلُّ الْقَوْمِ عِيَالٌ عَلَيْهِ .
وَأَعْطَى سَيِّدِنَا رَسُولُ اللَّهِ يَوْمَ حُتَيْنِ الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ ، وَكَانُوا أَشْرَافًا ،
بِالْفَهْمِ وَيَتَأَلَّفُ بِهِمْ تَوْمُهُمْ ، فَأَعْطَى فِيمَنْ أَعْطَى ، عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ الْفَزَارِيِّ ،
وَالْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسِ التَّمِيمِ ، أَعْطَى كُلًّا مِنْهُمَا مِائَةَ بَعِيرٍ ، وَأَعْطَى عَبَّاسَ بْنَ
مِرْدَاسٍ أَبَا عَرَّ ، وَكَانَ كَذَلِكَ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَكَانَ شَاعِرًا ، فَسَخِطَهَا وَقَالَ
يَعَاتِبُ سَيِّدِنَا رَسُولُ اللَّهِ :

أَتَجْعَلُ لُتَيْي وَنَهَبَ الْعُبَيْدُ بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعِ ^(١)
وما كان حصنٌ ولا حابسٌ يفوقان مرداس في بجمع ^(٢)
وما كنتُ دون امرئٍ منهما ومن تَضَعُ اليوم لا يُرْفَعُ
وقد كنتُ في الحربِ ذا تُدْرَأُ فلم أعطَ شيئاً ولم أَمْنَعُ ^(٣)
إلا أفاثلَ أعطيتها عديدَ قوائمه الأربع ^(٤)
فلما أنشدهما بين يدي رسول الله قال لعلي بن أبي طالب : يا علي ، اقطع
عني لسانه ، فقبض على يده وخرج به فقال : أقطع أنت لساني يا أبا الحسن ؟
فقال : إني لمُضِ فيك ما أمرت ، ثم مضى به إلى إبل الصدقة فقال خذ
ما أحببت ...

بلاغة المكدين

سأل أعرابي فقال في مسأله : لقد جُفْتُ حتى أكلتُ الذوى المُحَرَّق ،
ولقد مَشَيْتُ حتى ائْتَعَلْتُ الدَّم ، وحتى سقط من رجلي بَخْصُ لَحْمٍ ، وحتى تَمَنَّيْتُ
أن وجهي حذاءٌ لِقَدَمي ، فهل من أخ يرَحُّنا ؟ « البنخص : اللحم يخالطه بياض
من فساد يحل به » ... ووقف أعرابي على حلقة الحسن البصري فقال : رحم
الله امرءاً أعطى من سعة وواسى من كفاف وآثر من قوت . فقال الحسن :

- (١) النهب : الغنيمة ، والعبيد بالتصغير اسم فرس العباس ، وكان يدعى فارس العبيد .
(٢) مرداس مصروف ولكنه هنا ممنوع من الصرف للضرورة ، وانظر كتب النحاة .
(٣) تدراً : من الدرء وهو الدفع قال في الصحاح : وقولهم : السلطان ذو تدراً ،
أي ذو عدة وقوة على دفع أعدائه عن نفسه ، وهذا اسم موضع للدفع ، وقوله : فلم
أعط شيئاً الخ أي لم أعط شيئاً طائلاً أو لم أعط شيئاً أستحقه وهو المائة : ولم أمنع
من الإعطاء لأنني أعطيت بعضاً

(٤) الأفاثل : جمع أفيل بالغناء كالفصيل وزنا ومعنى

ما ترك أحداً منكم حتى سأله... وقال المازني : وقف علينا أعرابي فقال :
 رحم الله امرأاً لم تمجج أذناه كلامي ، وقدم لنفسه معاذاً من سوء مقامى ،
 فإن البلاد مجذبة والحال مضربة ^(١) والحياء زاجر يمنع من كلامكم ، والعذم
 عاذر يدعو إلى إخباركم ، والدعاء أحد الصديقتين ، فرحم الله امرأاً أمر بمخير
 ودعا بخير . فقال له رجل من القوم : بمن الرجل ؟ فقال : اللهم غفراً بمن
 لا تضرك جهالته ، ولا تفعلك معرفته ، ذل الاكتساب ، يمنع من
 عز الانتساب .

حسن الخلق

وعقرياتهم فيه وفيما يتأشب إليه

وهذا هو أحد لوني الإحسان إلى الناس ، وإن شئت قلت هو اللون
 الثالث من ألوان البر ، أعني حسن الخلق

تحضيضهم على حسن الخلق

قال الله عز وجل : واخفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .
 وقال : خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . « خذ العفو :
 فالعفو : السهل الميسر ، يقول سبحانه : احْتَمِلْ أَخْلَاقَ النَّاسِ وَاقْبَلْ مَا سَهَّلَ
 مِنْهَا وَتَيْسَّرَ ، وَلَا تَسْتَقْصِ عَلَيْهِمْ فَيَسْتَقْصِ اللَّهُ عَلَيْكَ ، مع ما فيه من العداوة
 والبغضاء قال شريح :

خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوَرَتِي حِينَ أَغْضَبُ

(١) يقال صعب الامر وأصعب : صار صعباً

فإني رأيتُ الحُبَّ في الصَّدرِ والأذى

إذا اجتمعَا لم يَلْبَثِ الحُبُّ يَنْهَبُ

وقوله سبحانه وتعالى : وأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ : فالجاهل هنا ما قابل العقل والجاهلون : الختمى الأشرار السيئوا الأخلاق ، أمر الله نبيه بأن لا يمارى الجاهلين ولا يُكَافَهُمْ بمثل أفعالهم .

وقال سيدنا رسول الله : إنكم لن تَسْعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَتَسْعُوهُمْ بِأَخْلَاقِكُمْ . وَمِنْ ذَا قَوْلِ حَكِيمٍ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : هَلْ مِنْ جُودٍ يُتَنَاوَلُ بِهِ الْخَلْقُ ؟ فَمَالَ : نَعَمْ ، أَنْ تَحَسَّنَ الْخُلُقَ وَتَتَوَى الْخَيْرَ لِكُلِّ أَحَدٍ ... وَقَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجَالِسَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ! : أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا الْمُؤَطَّوْنَ أَكْنَافًا ، الَّذِينَ يَأْلِفُونَ وَيُؤَلَّفُونَ ، أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِأَبْغَضِكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدِكُمْ مِنِّي مَجَالِسَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ! الثَّرَثَارُونَ الْمُتَفَيِّهُونَ ... « قوله : أحاسنكم أخلاقا يريد : الأحاسن منكم على إرادة التفضيل لا الوصف ، وذلك أن العرب تقول في الوصف : رَجُلٌ حَسَنٌ وَلَمْ تَقُلْ رَجُلٌ أَحْسَنُ ، مع قولهم امرأة حسناء . ونظيره في عكسه : غَلَامٌ أَمْرَدٌ وَلَمْ يَقُولُوا جَارِيَةٌ مَرْدَاءُ . وقوله : الْمُؤَطَّوْنَ أَكْنَافًا : يريد دُمَانَةَ الْخَلْقِ وَلِئِنْ الْجَانِبَ وَأَنْ نَاحِيَتَهُ يَتِمَكَّنُ فِيهَا صَاحِبُهُ غَيْرَ مُؤَذًى وَلَا نَابٍ بِهِ مَوْضِعُهُ . وَأَصْلُ التَّوَطُّةِ : التَّذْلِيلُ وَالتَّهْدِيدُ يُقَالُ : فَرَأَشُ وَطِئَ إِذَا كَانَ وَثِيرًا - أَيْ لِينًا - وَالثَّرَثَارُونَ : الَّذِينَ يُكْثِرُونَ الْكَلَامَ تَكَلُّفًا وَتَجَاوُزًا وَخُرُوجًا عَنِ الْحَقِّ ، وَأَصْلُ هَذِهِ اللَّفْظَةِ مِنَ الْعَيْنِ الْوَاسِعَةِ مِنْ عَيُونِ الْمَاءِ يُقَالُ : عَيْنٌ ثَرَثَارَةٌ وَثَرَارَةٌ : إِذَا كَانَتْ كَثِيرَةَ الْمَاءِ ... وَالتَّفَيِّهُونَ : بِسَبِيلِ « الثَّرَثَارُونَ » ، وَهُوَ تَأْسِيسٌ لَهُ ، وَاشْتِقَاقٌ مِنْ قَوْلِهِمْ : فَوْقَ الْغَدِيرِ يَفْهَقُ : إِذَا امْتَلَأَ مَاءً فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ مَوْضِعٌ مَزِيدٌ : يَصْنَعُهُم

بأنهم يوسعون أشداقهم ويملاونها بالكلام . قال أبو العباس المبرد بعد ما أورد ما أوردناه من تفسير هذا الحديث : وتصديق ما فسرناه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يريد الصدق في المنطق والقصد وترك ما لا يحتاج إليه : قوله لجريز بن عبد الله البجلي : يا جريز : إذا قلت فأوجز وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف ، وقال الله جل شأنه في الحث على لين الكلام : وقولوا للناس حسناً . وقال : فقولا له قولاً ليناً ، وقال : وقُلْ لَهَا قولاً كريماً . وقال : فقلْ لهن قولاً ميسوراً ... وقالوا : من لانت كلمته وجبت محبته . وقالت جدة سفيان بن عيينة له :

بُنَى ابْنِ الْبَرِّ شَيْءٌ هَيْنٌ الْمَفْرُشُ اللَّيْنُ وَالطُّعْمُ

وَمَنْطِقٌ إِذَا نَطَقْتَ لَيْنٌ ٥

« قولها هَيْنٌ : فالعرب تقول : رَجُلٌ هَيْنٌ لَيْنٌ وَهَيْنٌ لَيْنٌ ، وفي الحديث : الْمُؤْمِنُونَ هَيْنُونَ لَيِّنُونَ كَالْجِلِّ الْأَنْفِ إِنْ قُدَّتْهُ انْقَادَ وَإِنْ أَنْخَتَتْهُ عَلَى صَخْرَةٍ اسْتَنَاحَ » جل أنف : أى مأنوف ، أى يشتكى أنفه من خشاش أوبرة^(١) أو خزامة فى أنفه فلا يمتنع على قائده فى شىء للوجع ، فهو ذلول مُنْقَادٌ ، ومعنى المؤمنون كالجل الأنف : أنهم لا يريمون التشكى ، أى يديمون التشكى بما بهم إلى الله وحده لا إلى سواه . أقول : وأحسن من هذا التفسير قول بعضهم : الجلل الأنف : الدليل المُواقِى الذى يَأْتِى من الزجر ومن الضرب ويُعطى ما عنده من السير عَفْوَاً سهلاً ، كذلك المؤمن ، لا يحتاج إلى زجر ولا

(١) الخشاش : عويد من خشب يُدْخَلُ فى عَظْمِ أَنْفِ البعير يشد به الزمام ليكون أسرع لانتقياده . والبرة : ما يوضع فى لحم أنف البعير ويكون من صفر - نحاس أبيض - أما الخزامة فهى من شعر

عتاب ، وما لَزِمَهُ من حَقٍّ صَبَرَ عَلَيْهِ وقَامَ بِهِ ، وهذا تفسير جميل ، وهو أليق
 بكلام سيدنا رسول الله ، . وَسُئِلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ خُتَابِ النَّبِيِّ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ : أَوْ مَا تَقْرَوْنَ الْقُرْآنَ : وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ... وَقَالُوا :
 صَفَاءُ الْإِخْلَاقِ مِنْ نَقَاءِ الْأَعْرَاقِ . «الْأَعْرَاقُ جَمْعُ عِرْقٍ وَهُوَ الْأَصْلُ يُقَالُ رَجُلٌ
 مُعْرِقٌ فِي الْحِسْبِ وَالْكَرَمِ قَالَتْ قُتَيْلَةُ بِنْتُ النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ أَوْ أُخْتُهُ :

أُمِّمُحَمَّدٌ وَلَآنَتْ ضَنْءٌ نَجِيَّةٌ فِي قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فُحِلَ مُعْرِقٌ

أى عريق النسب أصيل ، ويستعمل فى اللوم أيضا تقول : إِنْ فَلَانًا لُمِعْرِقٌ فِي
 الْكَرَمِ ، وَمِعْرِقٌ فِي اللَّوْمِ . وَالضَنْءُ : الْوَلَدُ وَالْأَصْلُ وَالْمَعْدَنُ ، وَقَالَ الْبَحْتَرِيُّ :

سَلَامٌ عَلَى تِلْكَ الْخَلَائِقِ إِنَّمَا مُسَلَّةٌ مِنْ كُلِّ عَارٍ وَمَأْتَمٌ

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : ثَلَاثَةٌ مِنْ قَرِيشٍ أَحْسَنُهَا أَخْلَاقًا وَأَصْبَحُهَا
 وَجُوهًا وَأَشَدُّهَا حَيَاءً ، إِنْ حَدَّثْتُكَ لَمْ يَكْذِبْكَ ، وَإِنْ حَدَّثْتَهُمْ بِحَقٍّ أَوْ بَاطِلٍ
 لَمْ يُكْذِبْكَ : أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ، وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ...

وفى الآثار أيضا : أَنْ حُسْنَ الْخُلُقِ وَحُسْنَ الْجَوَارِ يُعَمِّرَانِ الدِّيارَ وَيَزِيدَانِ
 فِي الْأَعْمَارِ . وفى كتاب للهند : مَنْ تَزَوَّدَ خَمْسًا بَلَّغَتْهُ وَآتَتْهُ : كَفُّ الْأَذَى ،
 وَحُسْنَ الْخُلُقِ ، وَجُنَابَةُ الرَّيْبِ ، وَالنَّبِيلُ فِي الْعَمَلِ ، وَحُسْنَ الْأَدَبِ

نهيهم عن سوء الخلق

وقالوا : سَوْءُ الْخُلُقِ يَنْسُدُ الْعَمَلَ كَمَا يُنْسَدُ الصَّبْرُ الْعَسَلُ « الصبر هو هذا
 الدواء المر ولا يسكن إلا فى ضرورة الشعر » وفى الحديث : مَنْ سَاءَ
 خُلُقُهُ عَذَّبَ نَفْسَهُ ، وَقَالَ الْعَتَّابِيُّ :

وَكُنْتُ امْرَأً لَوْ شِئْتُ أَنْ تَبْلُغَ الْمَتَى بَلَغْتَ بِأَذْنِي غَايَةَ تَسْتَدِيمِهَا
 وَلَكِنْ فِطَامُ النَّفْسِ أَثْقَلُ تَحْمِيلاً مِنْ الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ حِينَ تَرُومُهَا
 وَقَالَ عِقَالُ بْنُ شَبَّةَ : كُنْتُ رَدِيفَ أَبِي ، فَلَقِيَهُ جَرِيرٌ عَلَى بَغْلٍ ، خِيَامَ
 أَبِي وَالْطَّفَةِ ، فَلَمَّا مَضَى قُلْتُ : أَبْعَدَ مَا نَالَ لَنَا مَا قَالَ ! قَالَ : يَا بُنَيَّ ، أَنَا وَسَّعُ
 مُجْرَحِي ١ . وقال ابن الحنفية : قد يُدْفَعُ بِاحْتِمَالِ مَكْرُوهِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ ...
 وقال أبو الدرداء : إِنْ لَمْ نَكْشِرْ فِي وَجْهِهِ قَوْمٌ وَإِنْ قُلُوبُنَا لَتَقْلِيهِمْ (١)
 وقالوا : لَا مُدَارَاةَ لِلْخَلْقِ السَّيِّئِ الْقَبِيحِ ، كَالشَّجَرَةِ الْمُرَّةِ لَوْ طَلَيْتَ بِالْعَسَلِ
 لَمْ تُشْعِرْ إِلَّا مُرًّا ، وَكَذَنَّبَ الْكَلْبُ لَوْ أَدْخَلْتَهُ الْقَالَبَ سَنِينَ لَعَادَ إِلَى أَعْوِجَاجِهِ .
 وَمِنْ طُرْفِهِمْ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ بَعْضِهِمْ لِأَحْمَدَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ : لَقَدْ أُعْطِيتَ مَا لَمْ
 يُعْطَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : إِنْ لَمْ تَخْرُجْ مِنْ ذَلِكَ لِأَضْرِبَكَ ،
 فَقَالَ الرَّجُلُ : إِنْ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ : وَلَوْ كُنْتُ فُظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفْضُوا
 مِنْ حَوْلِكَ وَأَنْتَ فُظٌّ وَنَحْنُ لَا نَنْفُضُ مِنْ حَوْلِكَ . وقال بعضهم : خَطَبْتُ
 امْرَأَةً ، فَأَجَابَتْنِي فَقَالَتْ : إِنْ بَيَّ الْخُفَّاقُ ؛ فَقَالَتْ : أَسْوَأُ خُلُقًا مِنْكَ مِنْ يُلْحِثُكَ
 إِلَى سُوءِ الْخُفَّاقِ ... وقال بعضهم لِرَجُلٍ بَيَّ الْخُفَّاقُ : إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَغْيِرَ
 خُلُقَكَ وَإِلَّا فَلْيَسْعُكَ مِنْ أَخْلَاقِنَا مَا ضَاقَ بِهِ ذَرْعُكَ ...

صعوبة تغيير الطباع والمتخاق يرجع إلى شيمته

قالوا في ذلك : تَأْبَى الطَّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ ؛ وَ : الْعَادَةُ طَبِيعَةٌ ثَانِيَةٌ ، وَ :
 ظَلَمْتُ امْرَأَةً كَلَّفْتُهُ غَيْرَ خُلُقِهِ . وَهَلْ كَانَتْ الْأَخْلَاقُ إِلَّا غَرَارِزًا
 وَ : كُلُّ إِنَاءٍ بِمَا فِيهِ يَرْتَشِحُ

(١) نكشر في وجوه قوم : أى نبسم فى وجوههم وأصل الكشر : بدو الانسان
 يكون ذلك فى الضحك وغيره ؛ ونقلهم : نبغضهم

و : ﴿ إِنَّ الْخَلْقَ يَأْتِي دُونَهُ الْخُلُقُ ﴾

وقال ذو الإصبع العذواني :

وَمَنْ يَبْتَدِعْ مَا لَيْسَ مِنْ خَيْرِ نَفْسِهِ يَدْعُهُ وَيَغْلِبُهُ عَلَى النَّفْسِ خَيْرُهَا

« الخيم : الدجية والطبيعة والأصل » وقال زهير بن أبي سُلي :

وَهُمَا يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخَفَى دَلَى النَّاسِ تُعَلِّمُ

وقال أبو تمام :

وَالسِّيفُ مَا لَمْ يُلَفَّ فِيهِ صَقِيلٌ مِنْ سِنِّهِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِصِقَالِ

« السنخ : الأصل ، والصقال : الجلاء » وقال المتنبي :

وَكُلُّ يَرَى طُرُقَ الشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى وَلَكِنْ طَبَعَ النَّفْسِ لِلنَّفْسِ قَائِدُ

وقال :

وَلِلنَّفْسِ أَخْلَاقٌ تَدُلُّ عَلَى الْفَقَى أَكَانَ سَخَاءً مَا أُنِيَ أَمْ تَسَاخِيَا

مداراة الناس

قال النّظام^(١) : ما يسرني تركُ المُداراةِ وَلِي حُرُّ النّعم ، فقيل له : ولم ؟

قال : لأنّ الأمرَ إذا غَشِيكَ فَشَخَصَتْ لَهُ أُرْدَاكَ ، وإذا طَاطَأَتْ لَهُ

تَخَطَّأَكَ ... وقال شاعر :

وَأَنْزَلَنِي طُولُ النُّوَى دَارَ غُرْبَةٍ إِذَا شِئْتَ لَا قَيْتُ امْرَأَةً لَا أَشَاكِلُهُ

خَافَتُهُ حَتَّى يَقَالَ سَجِيَّةٌ وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلٍ لَكُنْتُ أَعَاقِلُهُ

وقال بشار بن برد :

وَمَا أَنَا إِلَّا كَالزَّمَانِ إِذَا صَحَّأَ صَحَوْتُ وَإِنْ مَاقَ الزَّمَانُ أَمُوقُ

« ماق يموق موقا وموقا وُوقا واستمق ، كل أولئك : حَقَّقَ فِي

(١) هو إبراهيم بن سيار شيخ الجاحظ وأحد كبار المعتزلة .

غباوة، ويقال : فلان أحمق مائق : والعرب تقول : أنت تمق وأنا متق، أى أنت تمتلئ غضبا وأنا سيئ الخلق، فلا تنفق، وقال معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه : لو كان بينى وبين الناس شجرة ما انقطعت، لأنهم إذا جذبوها أرسلتها، وإذا أرسلوها جذبتها، وهكذا كان معاوية نبي الحِلْم والأناة والكياسة والرياسة والسياسة .

من حسن خلقه وخلقه ومن اختلف خلقه وخلقه

قال ابن الرومي :

كل الحلال التي فيكم محاسنكم تشابهت فيكم الأخلاق والخلق
 كأنكم شجر الأترج طاب معاً حملاً ونوراً وطاب العود والورق
 « الأترج والشرج : ثمر من فصيلة الليمون ويسميه أهل الشام الكبداء،
 والحل بفتح الحاء - والكسر لغة - ثمر الشجرة ؛ ومن دق ثقب هذه اللغة الكريمة
 أنها تفرق بين الحمل الذى يحمل على ظهر أو رأس، وبين الحمل الذى يحمل
 فى البطن من الأولاد فى جميع الحيوانات، فالأول يكسرون حاءه، والآخر
 يفتحون حاءه، قائلين : ما كان لازماً للشئ فهو حمل وما كان بائناً فهو حمل
 وأما حمل الشجرة فلما كان شديداً يحمل المرأة لاتصاله فتحوا حاءه ولم كان
 يشبه حمل الشئ على الرأس لبروزه من جهة ولأنه ليس مستبطناً كحمل المرأة
 من جهة أخرى كسروا حاءه ؛ والنور بفتح النون : الزهر، وفى الأثر :
 ما أحسن الله حاق أحد وخلق فأطعمه النار... ووصف بعضهم رجلاً فقال :
 يقرى العين جمالا والأذن بياناً^(١)... وقال قتادة :^(٢) ما بعث الله نبياً إلا حسن

(١) يقرى يريد : يطعم، ولك أن تضع مكان يقرى : يفترق، من قولهم فى الحسناء إنما تغترق العين أى لاتدعها تنظر إلى غيرها جمالا (٢) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة

الْخُلُقِ حَسَنَ الْوَجْهِ ... وقال الفلاسفة: قَلَّ صُورَةُ حَسَنَةٍ تَتَّبِعُهَا نَفْسٌ رَدِيقَةً.
وقال جالينوس: ينبغي الرجل أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَجْهِهِ فِي الْمِرْآةِ، فَإِنْ كَانَ
حَسَنَ الْوَجْهِ جَعَلَ عَنَآيَتَهُ أَنْ يُضَمَّ إِلَى جَمَالِ وَجْهِهِ كَمَا لَخُلُقِهِ وَكَمَا لِنَفْسِهِ،
وَأِنْ رَأَى صُورَةَ سَمِيحَةٍ تَحَرَّزَ مِنْ أَنْ يَكُونَ دَمِيمَ الْخُلُقِ ذَمِيمَ الْخُلُقِ ...
ونظر فيلسوف إلى غلام حَسَنَ الْوَجْهِ يتعلم العلم فقال: أَحْسَنْتَ، إِذْ قَرَنْتَ
بِحُسْنِ خُلُقِكَ حُسْنَ خُلُقِكَ ... ونظر فيلسوف إلى رجل حسن الوجه خبيث
النفس فقال: بَيْتٌ حَسَنٌ وَفِيهِ سَاكِنٌ نَذْلٌ ... ورأى آخرُ شاباً جميلاً فقال:
سَلَبْتَ بِحَاسِنِ وَجْهِكَ فَمَنَائِلَ نَفْسِكَ ... وقالوا:

فَلَا تَجْمَلِ الْحُسْنَ الدَّلِيلَ عَلَى الْفَتَى فَمَا كُلُّ مُشْقُولٍ الْحَدِيدَ يَمَانِ
و: أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَاءَ يَخْلُفُ طَعْمَهُ

وإن كان لَوْنُ الْمَاءِ فِي الْعَيْنِ صَافِياً^(١)

واستعرض المأمون الجُندَ فَرَّ بِهِ رَجُلٌ ذَمِيمٌ، فَاسْتَنْطَقَهُ، فَرَأَاهُ الْكَنَّ،
فَأَمَرَ بِإِسْقَاطِهِ وَقَالَ: إِنَّ الرُّوحَ إِذَا كَانَتْ ظَاهِرَةً كَانَتْ وَسَامَةً، وَإِذَا كَانَتْ بَاطِنَةً
كَانَتْ فَصَاحَةً، وَأَرَاهُ لَا ظَاهَرَ لَهُ وَلَا بَاطِنَ ...

«وبعد» فسيمرُّ بك كثير من عبقرياتهم فيما يتصل بهذه المعاني ويمتُّ إليها بسبب
واصل، في باب الطبائع ... وباب الصداقة والصديق ... وباب عبقرياتهم
في معاني شتى ...

التقوى

وَهَاكَ اللَّوْنُ الْأَخِيرَ مِنَ أَلْوَانِ الْبِرِّ، وَلَقَدْ أَسْمَعْنَاكَ فِيمَا أَسْلَفْنَا أَنْ التَّقْوَى

الأكبر كان من كبار علماء التابعين ولد سنة ٦٠ وتوفي سنة ١١٨ هـ

(١) خلف الماء واللبن والطعام من باب دخل: إذا تغير طعمه أو ريحه

هي عماد البر وقوامه، على جميع ألوانه، أى أنه مادام هناك تقوى بمعناها الصحيح كان هناك صلة الرحيم، وكان هناك الإحسان، وكان هناك مكارم الأخلاق، وكان هناك الخير كله والبر في جميع ما يشتمل عليه وينتظمه، ولنورد عليك بادئ ذي بدء قولهم في التقوى والمراد بها، ثم نردف ذلك بعقرياتهم في التقوى وما يتأشب إليها... ويجرى منها على عرق...

معنى التقوى

التقوى في اللغة من الاتقاء، بمعنى اتخاذ الوقاية، وفي اصطلاحهم: صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك، وقال أبو البقاء في كلياته: التقوى - على ما قاله على رضى الله عنه - ترك المعصية وترك الاعتراض بالطاعة، وهي التي تحصل بها الوقاية من النار والفوز بدار القرار، وغاية النقي البراءة من كل شيء سوى الله، ومبدؤها اتقاء الشرك، وأوسطها انقاء الحرام، وغايتها منتهى الطاعات، قال: وقد تسمى التقوى خوفاً وخشية... أقول:

فإن لا يَكُنْها أو تَكُنْها فإنه أخوها غَدَتْهُ أُمُّهُ بِلَبَانِهَا^(١)

وقد عقد الإمام أبو حامد الغزالي للخوف كتاباً في كتابه الإحياء جاء فيه: إن التقوى والورع أسام اشتقت من معانٍ شرطها الخوف، فإن خات من الخوف لم تُسمَ بهذه الاسامى... أقول: ومن أروع ما قيل في الخوف قوله تعالى: إنما يخشى الله من عباده العلماء... أقول: وإذن يكون: كلما ازداد المرء علماً بالله سبحانه ازداد منه خوفاً، كما جاء في الأثر: أعلمكم بالله أشدكم له.

(١) لابي الاسود الدؤلى في نبيذ التمر، واللبن بكسر اللام، يقال: هو أخوم. بلبان أمه ولا يقال بلبن أمه، إنما اللبن: الذي يشرب من ناقة أو شاة أو غيرهما من البهائم.

خشية... ومن كان من العلماء لا يخشى الله ولا يرأفُهُ في سائر أحواله ، فليس من العلم بالله في كثير ولا قليل... وما أجل ما يقول عبد الله بن ممام السلولي^(١) في وصف هذا الصنف من العلماء :

إذا نقبوا للقول قالوا فأحسنوا ولكن حُسن القول خالفه الفعل
وَذُئِبُوا لَنَا الدُّنْيَا وَهُمْ يَرْضَعُونَهَا أَطْوَيْقَ حَتَّى مَا يَدِرُّ لَهَا تُعَلُّ
« قوله : إذا نقبوا الخ يريد : إذا نقبوا أنفسهم للقول وأعدوها له ،
والأصل في التَّصَبُّبِ : أن يقوم رافعاً رأسه ؛ ورضع برضع كضرب يضرب
في لغة قيس ، وكسميع يسمع في لغة أهل الحجاز ، وقوله : يرضعونها : قرأ

(١) من التابعين ، وعداده في أهل الكوفة ، ويثناه المذكوران من آيات له قالها
للنعمان بن بشير الأنصاري عامل معاوية على الكوفة ، وكان معاوية أمر لاهل
الكوفة بزيادة عشرة دنانير في أعطياتهم فأبى النعمان أن ينفذها لهم فقال عبادة :

زِيَادَتُنَا نِعْمَانُ لَا تَحْزِنُنَا خَفِ اللَّهُ فِينَا وَالْكِتَابَ الَّذِي تَتْلُو
فَانْكَ قَدْ حُلْتَ مِنَّا أَمَانَةً بِمَا عَجَزْتَ عَنْ الصَّلَاحَةِ الْبُزْلُ
وَأَنْ يَكُ بَابُ الشَّرِّ يُحْسِنُ فَتَحَهُ فَلَا يَكُ بَابُ الْخَيْرِ مِنْكَ لَهُ قُفْلُ
فَقَدْ زِلْتَ سُلْطَانًا عَظِيمًا فَلَا يَكُنْ لِنَعِيرِكَ جَمَاتُ النَّدَى وَلَكَ الْبُخْلُ
وَأَنْتَ امْرُؤٌ حُلُوُ الْإِسَانِ بَلِيغُهُ فَمَا بَالُهُ عِنْدَ الزِّيَادَةِ لَا يَحْلُو
وَقَبْلَكَ قَدْ كَانُوا عَلَيْنَا أَيْمَةً بِهِمُ تَقْوِينَا وَهُمْ عُصْلُ

«الصلاحه : الصلاب المسانعة وفي الحديث : عرضت الأمانة على الجبال الصم الصلاخيم
وأصل الصلخيم : البعير الجسم الشديد الماضي ، والبزل : جمع بازل ، ويقال رجل بازل
على التشبيه بالبعير ، يعنون بذلك كمال عقله وتجربته واستكمال قوته . وجات : كثيرات ،
وقوله : كانوا علينا أئمة فائمة فاعل كانوا وهذا على لغة أكلوني البراغيث وإذا أُرجمت
الضمير في كانوا إلى المذكورين في البيت الثاني فتكون أئمة خبر كانوا ، وعصل : فالعصل
الاعوجاج وكل معوج فيه صلابه : أعصل .

بكسر الضاد وفتحها؛ وأفارق جمع أفراق جمع فيقه بكسر الفاء ، وهو اسم
للبن الذي يجتمع بين الحلبتين ، يريد : أنهم يرضعونها ثم يتركونها مقدار
ما يجتمع اللبن فيرضعونها ، وهكذا ، والشعل بضم الشاء وفتحها : خلف زائد
صغير من أخلاف الناقة وضرع الشاة لا يدرك من اللبن شيئاً ، يصفهم بأنهم
أحرص الناس على طلب المال يستنزفونه من خزائنه حتى لم يبق منه شيء ،
وإنما ذكر الشعل للبالغة في الارتضاع ، والشعل لا يدرك ، وهي مبالغة حسنة في
معنى الاستفصال والنفاذ ،



ومما جاء في الخوف أيضاً قوله سبحانه : وأما من خاف مقام ربه ونهى
النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ، وقوله جل شأنه : وخافون إن
كنتم مؤمنين ، وقوله : وهدي ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ، وقوله تعالى :
إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته
زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون
أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ؛
وقال عز وتقدس : واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه... قال سفيان بن
عيينة : لولم ينزل الله تعالى علينا إلا هذه الآية لكان قد أعذر ، أعذر :
بلغ أقصى الغاية في العذر ، أي صار معذوراً عندك إذ حذرك أن لا تحذره
وهو يعلم ما في أنفسنا ؛ ومن هذا المثل : من أنذر فقد أعذر ،
ومما يؤثر في باب الخوف قوله صلى الله عليه وسلم : رأس الحكمة مخافة الله .

الحكمة

وهذا الحديث الشريف - على وضوحه وجماله وإشراقه وإنارته، وعلى أنه مما كنا نستظهره إبانَ الحداثة، إذ يلقنونا إياه أوائل التعليم في المكاتيب لابدّ من التبسط في القول عليه . قال صاحب القاموس : الحكمة تأتي بمعنى العدل ^(١) والعلم ^(٢) والحلم ^(٣) والنُبوة ^(٤) والقرآن والإنجيل ^(٥) ووضع الشيء في موضعه وصواب الأمر وسداده ، وقال أبو البقاء في كلياته - بعد أن أورد ما قال صاحب القاموس - : والحكمة في عرف العلماء : استكمال النفس الإنسانية ، باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة النامية على الأفعال الفاضلة قدرَ طاقتها ، قال : وقال بعضهم : الحكمة هي : معرفة الحقائق على ما هي عليه بقدر الاستطاعة ، وهي العلم النافع المُعَبَّرُ عنه بمعرفة مالها وما عليها ، المُشار إليه بقوله تعالى : ومن يُؤتِ الحكمة فقد أُوتِيَ خيراً كثيراً . وإفراطها التجرّبة ^(٦) وهي استعمال الفكر فيما لا ينبغي كالتشابهات ^(٧) ، وعلى وجه لا ينبغي كمخالفة

(١) ضد الجور ، فلا يميل بصاحبه الهوى حتى يجور في الحكم

(٢) أى العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاها

(٣) هو ضبط النفس عندهيجان الغضب (٤) فالحكمة في قوله تعالى : ويعلمه الكتاب والحكمة وقوله : وآتاه الله الملك والحكمة وقوله : وآتيناها الحكمة : بمعنى النبوة والرسالة ، كما أنها تأتي بمعنى القرآن والإنجيل ، لتضمن كل منهما الحكمة في لونها - العملية والعملية .

(٥) يقال في اللغة : رجل مُجربز : خب خداع خيث منكر والظاهر أن الجرّبة

والجرّز والقربز معربات (٦) قال صاحب اللسان - بعد أن أورد كلاماً كثيراً في معنى المتشابه من القرآن وفي الحديث - في صفة القرآن : آمنوا بمتشابهه واعملوا بحكمه :

الشرائع؛ وتغريطها : الغباوة التي هي : تعطيل القوة الفكرية والوقوف عن اكتساب العلم... انتهى .

« وبعد » إن المُسْتَقْصَى لكل ما أوردوه من معاني هذه الكلمة - الحكمة - يرجع إلى إحكام الشيء ، أى إتقانه ، كيلا يتسرب إليه خلل أو فساد ، وكى يبلغ ذروة الكمال جهد الاستطاعة ، حتى قيل لكل من يُحسن دقائق الصناعات وَيَتَّقِنُهَا : حكيم ، ومن ثم يقال للعالم العامل بعلمه : حكيم ، والرجل العاقل الْمُهْتَذِبُ الْمُؤَفَّقُ : حكيم ، وللقاضى العادل فى أحكامه : حكيم ، وللرجل المجرب الذى حنكته التجارب ووثقته حتى لا يصدر عنه إلا كل ما هو سداد : حكيم ، ويقال للمواعظ والأمثال التى يفتنع الناس بها : حكمة ، ولكل كلام نافع يمنع من الجهل والسفه : حكمة ، ومن ذا تسمية القرآن والإنجيل وسائر الكتب المنزلة ، وكل ما يحذرو على حذوها ، مما يتضمن مراعاة وآداباً وأخلاقاً فاضلة : حكمة ، إذ كل أولئك يرتد إلى معنى الإتيقان والتوثيق والإصابة والسداد ... وإذن يكون معنى قوله صلى الله عليه وسلم : رأس الحكمة مخافة الله : أس الحكمة وقواها : الخرف منه سبحانه ، لأن الحكمة من شأنها أن تمتنع النفس عن كل ما نهينا عنه ، ولا يحدو المرة على العمل بها إلا الخوف منه ، عز وتقدس ، ومتى كان هذا الخوف شعاره حاسب نفسه على كل خطرة ونظرة ولذة ؛ وبذلك تكون مخافة الله أكد أسباب النجاة ولا تيم الحكمة إلا بها ...



المشابه : ما لم يتلق معناه من لفظه ، وهو على ضربين : أحدهما إذا ردت إلى الحكم عرف معناه الآخر ، مالا سبيل إلى معرفة حقيقته ، فالمتبع له متبع للامته لأنه لا يكاد ينتهى إلى شيء تسكن نفسه إليه . راجع اللسان مادة شبه .

هذا، ويُعجِنِي من الشعر في باب الخوف من الله قول محمود الورَّاق^(١) :
 يَا نَاطِرًا يَرْنُو بَعِيْنِي رَافِدٍ وَمُشَاهِدًا لِأَمْرٍ غَيْرِ مُشَاهِدٍ^(٢)
 مَنِّيْتَ نَفْسَكَ ضَلَّةً وَأَبْجَتْهَا طُرُقَ الرَّجَاءِ وَهَنَ غَيْرُ قَوَاصِدٍ^(٣)
 تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي دَرَكَ الْجِنَانِ بِهَا وَفُوزَ الْعَابِدِ^(٤)
 وَنَسِيتَ أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ آدَمَ مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدٍ

وقال الحسن البصري : إن خوفك حتى تَلْقَى الْأَمْنَ ، خير من أَمْنِكَ حتى تَلْقَى الخوف ... وقال : ينبغي أن يكون الخوفُ أَغْلَبَ على الرجاء ، فإن الرجاء إذا غلب الخوف فَسَدَ القلب ... وقال بعضهم : قلت لِسُفْيَان : بلغني في قول الله تعالى : (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) أنه الذي يَلْقَى رَبَّهُ وليس فيه أحد غيره ، فبكى وقال : مسمعت منذ ثلاثين سنة أحسنَ من هذا التفسير ... وقالوا : من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ، ومن لم يخَفِ الله أخافه الله من كل شيء ... وقال الفضيل بن عياض : إني لَا أَسْتَحِي من الله أن أقول تَوَكَّلْتُ على الله ، ولو تَوَكَّلْتُ عليه حقَّ التوكل ، مَا خِفْتُ وَلَا رَجَوْتُ غَيْرَهُ .

« وأما بعد » فهو معلوم من الدين بالضرورة أن الله سبحانه خلق الإنسان وهو يعلم مَا تَوَسَّوْسُ بِهِ نَفْسَهُ ، وهو أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ^(٥) مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ^(٦) ، وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَانَتِ

(١) هو محمود بن الحسن الوزاق البغدادي مولى بني زهرة يكنى أبا حسن ، شاعر كثير الشعر جيده ، وواقته في الحكم والمواعظ والزهد : ترجم له صاحب فوات الوفيات .

(٢) يرنو : ينظر (٣) غير قواصد ، يريد : وهي حائرة غير مستقيمة

(٤) درك : اسم من الإدراك

(٥) حبل الوريد : عرق في العنق (٦) عتيد : حاضر

يعلمون ما تفعلون^(١) :

إِنْ مَنْ يَرْكَبُ الْفَوَاحِشَ سِرًّا حِينَ يَخْلُو بِسِرِّهِ غَيْرُ خَالٍ
كَيْفَ يَخْلُو وَعِنْدَهُ كَاتِبَاهُ شَاهِدَاهُ، وَرَبُّهُ ذُو الْجَلَالِ^(٢)

وكذلك هو معلوم ، أن الناس قَوَارِي الله في أرضه^(٣) ، أى أن الناس ولا سيما الصالحون منهم - شهودُ الله في أرضه - لأنهم يتَّبَعُ بعضهم أحوالَ بعض ، فإذا شَهِدُوا لإنسان بخير أو بِشِرٍّ فَقَدْ أَوْجَبَ^(٤) ... وبعبارة أخرى : إن على كلِّ إنسانٍ رُقْبَاءَ هُمْ لَهُ بِالْمِرْصَادِ ، يُزْتَوْنُ عَلَيْهِ^(٥) ، وَيَجْعَلُونَ بِالْهَمِّ إِلَيْهِ ، وَلَا تَكَادُ تَخْفَى عَلَيْهِمْ خَلِيقَةٌ لَدَيْهِ :

وَهُمَا يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ ، تَعْلَمُ أَلَيْسَ فِي نَفْسِ كُلِّ إِنْسَانٍ قَبَسٌ مِنْ نَوْرِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ نَوْرُ السَّمَرَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ وَالنَّاسُ بِهَذَا النُّورِ - وَلَا سِوَا الصَّالِحِينَ مِنْهُمْ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يَبْدُو فِيهِمْ هَذَا النُّورُ خَالِصًا غَيْرَ شَوْبِ بَرَيْنٍ وَطَبَعِ غَيْمٍ - يَرَوْنَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ مَا قَدْ يَتَوَقَّعُ الْجَاهِلُونَ أَنَّهُ لَا يُرَى ، فَكَأَنَّ النَّاسَ لَذَلِكَ شُهُودُ اللَّهِ فِي

(١) كل هذه آيات كريمة مقتبسة من القرآن الكريم (٢) هذان اليتان لنا بعة بنى شيان واسمه عبد الله بن الخارق بن سليمان ، شاعر بدوى كان يفد إلى ملوك بنى أمية بالشام وأكثر من مدح منهم الوليد بن يزيد (٣) حديث شريف ، وقوارى : أخذ من أن الناس يقررون الناس ، أى يتبعونهم فيظفرون إلى أعمالهم ، وقال الزخشرى : المسلمون قوارى الله فى الأرض ، أى أمناؤه وشهداؤه الميامين ، شهبوا بالقوارى من الطائر وهى الخضر التى يتيمينون بها

(٤) يقال : أوجب الرجل : إذا عمل عملا يوجب له الجنة أو النار ، والموجبة : الكلمة أو الفعلة توجب لقائلها الجنة أو النار

(٥) زناً عليه : إذا ضيق عليه ، وعامة المصريين يستعملون اليوم هذا الحرف بمعناه الصحيح

الأرض ، فإذا شهدوا لإنسان بخير أو بشر ، فلكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، وكلٌّ يجزى بعمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وهذا كله حقٌّ لاسبيل إلى الإلحاد فيه ... وشيء آخر ، وهو أن من كان شعاره خوف الله في السرِّ والعلَن وحسنت سيرته ، رشَد وحسنت سيرته ، ومن عراه الله من هذا الشعار وساءت سيرته ، غيَّ وساءت سيرته . وجلة القول : أن خوف الله وما يستتبعه من قلة الاكتراث لما سواه من الخلق في سبيل الحق ، مما يورث صاحبه ما يطلو قرن عليه اليوم « الشجاعة الأدبية » فضلاً عن الجرأة والإقدام وسائر الخلال الكريمة النبيلة . تخوف الله كما ترى أس من أسس الأخلاق ، وهذا مصداق الحديث الشريف ، رأس الحكمة مخافة الله ، ...

هذا ، وقد يظنُّ ظان أن مخافة الله مغزاها الخوف من عقابه والطمع في ثوابه ، فمن عمل صالحاً فلكي يُثاب ويَجْزَى الجزاء الآوْفى ، ومن أُنْعِم فلكي ينجو من عذاب النار ، وهذا لَمَرى ، وإن عُدَّ خوفاً ، بيد أنه أدنى درجات الخوف ، وهو خوف العامة وأشبه العامة . قال بعض الحكماء : إني لأستحي من ربي أن أعيبه رجاء الجنة فأكون كالاجير ، أو خوف النار فأكون كعبد السوء ، إن خاف عَمِلَ وإن لم يخف لم يعمل ، لكن يستخرج من حب ربي ما لا يستخرجه غيره .. وقال بعضهم : من عبد الله بعوض فهو لثيم . وقال بعض الصوفيَّة : لو لم يكن لله ثواب يُرجى ولا عقاب يُخشى لكان أهلاً أن لا يُعصى ، ويُذكر فلا يُنسى ، بلا رَغَب في ثواب ولا رَهَب من عقاب ، لكن لِحُبِّه ، وهو أعلى الدرجات ، أما تسمع قول موسى عليه السلام : وَجَعَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لَتَرْضَى ، أقول : : إذن فأفضل الأعمال . ما كان

للحقِّ والخير والجمال والمثل الأعلى في ذات الله العليّ الأقدس الذي له
الاسماء الحسنى (١).

وَلْتَفْعِلِ النَّفْسُ الْجَمِيلَ لِأَنَّهُ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ لِلْأَجْلِ ثَوَابِهَا (٢)
أما الثواب والعقاب فالله سبحانه وما يُعَدُّ لعبده من ذلك، وتحقيق بالعباد أن
يُحَسِّنَ ظَنَّهُ بربه ويرجو لديه رحمته التي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وليكن كما قال محمد بن
وهيب :

وإني لأرجو الله حتى كأنني أرى بجميل الظَّنِّ ما الله صانع
وسيمرُّ عليك تر يا طَرْف من قولهم في الرجاء.
عقربياتهم في التقوى

ولناخذ الآن في عقربياتهم في التقوى : قال الله سبحانه : « إن أكرمكم عند
الله اتقاكم » قال الإمام البيضاوي في تفسيره : فإن التقوى بها تكمل النفوس
وتفاضل الأشخاص ، فمن أراد شرفاً فليلتزمه فيها ، كما قال عليه الصلاة والسلام :
« مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَامٌ فَلْيَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْهُ
بِمَا فِي يَدَيْهِ ... » أقول : هذا كلامٌ عُلُوٌّ مُعَرِّقٌ له في الصدق والحق والكمال
والمثل الأعلى .

(١) الحسنى : تأنيث الاحسن يقال : الاسم الاحسن والاسماء الحسنى . والاسماء
الحسنى معروفة وهي ٩٩ اسماً ، انظر نهاية الأرب ج ٥ ص ٢٢٦ ، ومرادنا بقولنا
« والله الاسماء الحسنى : الصفات ، وهي الوحدانية والقدرة الى آخر مسميات هذه الاسماء
الحسنى ... » وقد جاء في القرآن الكريم : « والله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين
يلحدون في أسمائهم سيجزون ما كانوا يعملون » سورة الاعراف ،
(٢) للعمرى ، وقد تقدم هذا البيت صدر باب البر والتقوى .

كَلِمَةٌ فِي التَّوَكُّلِ

«وبعد» فللمناسبة ذكر التوكل وإقترانه بالتقوى فيما أوردنا عليك من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وإشادة الإسلام به، والحث على أن يكون شعار المؤمن في كل أسبابه، رأينا أن نُعَلِّمَ به وبحقيقته إمامنا . فنقول : التوكل : كلمة يراد بها أمران ، لا يُعَدُّ التوكل توكلاً على الحقيقة إلا إذا تحقَّقا معاً . فأما أول الأمرين فهو : الاعتقاد بأن الله عزَّ وتقدَّس هو وحده الذي بيده كلُّ شيء ، وأنه لا سواه الذي له مقاليد السموات والأرض ، وأن جميع الخلق فقراء كلُّ الفقير إلى عونه سبحانه ، وأنه :

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنُ اللَّهِ لَلْفَتَى فَأُولَ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ
وكل هذا مما لا خفاء بأنه مما تقتضيه عقيدة التوحيد التي قام عليها الإسلام ؛ وأما الأمر الآخر فهو : أن لا يكون المرء وُكْلَةً ، فلا يعتمد بعد الله إلا على نفسه ، وهذا الأمر الثاني يكاد يكون ضَرْبَ قولهم اليوم « الاعتماد على النفس » ، أو قول الطغرائي :

وَإِنَّمَا رَجُلٌ الدُّنْيَا وَوَاحِدُهَا مَنْ لَا يُعَوِّلُ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَجُلٍ
والشرط الأول ، يقتضى الاعتقاد بالقدر خير وشر ، والشرط الآخر يقتضى السعى والاحتياط لأمره ، ولاننا فرَّ بينهما أَلْبَتَّةً ، وإنما هما ، لدى إنعام النظر ، شيء واحد يُعَبَّرُ عنه بالتوكل ...

جاء رجل إلى سيدنا رسول الله فقال له : إني أُرْسِلُ نَاقِيًّ وَأَتُوَكِّلُ ؛ فقال صلوات الله عليه : بَلْ أَعْقِلْهَا رَتَوَكِّلْ ... ومَرَّ الشَّعْبِيُّ بِإِبِلٍ قَدْ فُشَا فِيهَا الْجَرَبُ ، فقال لصاحبها : أَمَا تَدَاوِي إِبِلَكَ ؟ فقال : إِنْ لَنَا مَجْزُؤٌ نَتَكَلَّى عَلَى دَعَائِهَا فَقَالَ : اجْعَلْ مَعَ دَعَائِهَا

شيئا من القَطْران ... وقال أبو عبيدة بن الجراح لعمر رضى الله عنه حين كره طواعين الشام ورجع إلى المدينة : أَتَفِرُّ من قَدَرِ الله ؟ قال : نعم ، إلى قَدَرِ الله ... فقال له أينفع الحذرُ من القَدَر ؟ فقال : لَسْنَا بِمَا هُنَاكَ فِي شَيْءٍ « نَأْمَل » ، إِنَّ الله لَا يَأْمُرُ بِمَا لَا يَنْفَعُ وَلَا يَنْهَى عَمَّا لَا يَضُرُّ ، أَلَيْسَ بِكَ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، وَقَالَ تَعَالَى : خذُوا حِذْرَكُمْ ... وَفِي كِتَابِ كَلِيلَةِ : لَا يَمْنَعُ الْعَاقِلَ يَقِينُهُ بِالْقَدَرِ مَنْ تَوَقَّى الْخَوْفَ ، بَلْ لِيَجْمَعَ تَصَدِيقًا بِالْقَدَرِ وَأُخْذًا بِالْحَزَمِ ، وَقَالَ شَاعِرٌ :

والمَرْءُ تَلْقَاهُ مِضْيَاعًا لِفُرْصَتِهِ حَتَّى إِذَا فَاتَ أَمْرٌ دَانَبَ الْقَدَرَا
وقال آخر :

إِذَا عُبِرُوا قَالُوا مَقَادِيرُ قُدِّرَتْ وَمَا الْعَارُ إِلَّا مَا تَجَسَّرُ الْمَقَادِرُ
وقال آخر :

وَأَوَّلُ عَجْزِ النُّفُوسِ عَمَّا يَنْوِبُهُمْ تَدَاوُعُهُمْ عَنْهُ وَطُولُ التَّوَاكُلِ
وقالوا في المثل : مِنَ الْعَجْزِ الْإِحَالَةُ عَلَى الْمَقَادِيرِ ...

وإليك ما قاله الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرحه على صحيح البخاري المسمى فتح الباري ^(١) تأييداً لهذا الذي قلنا في التوكل : والمراد بالتوكل : اعتقاد ما دلت عليه الآية : وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، وليس المراد به ترك التَّسَبُّبِ ، والاعتماد على ما يأتي من المخلوقين ، لأن ذلك قد يجرُّ إلى ضدِّ ما يُرَادُ مِنَ التَّوَكُّلِ ، وقد سُئِلَ أَحْمَدُ - بن حنبل - عن رجلٍ جلس في بيته أو في المسجد وقال : لَا أَعْمَلُ شَيْئًا حَتَّى يَأْتِيَنِي رِزْقِي ، فقال : هَذَا رَجُلٌ جَهْلُ الْعِلْمِ . « نَأْمَل » ، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُجْحِي .

وقال: لو توكلتم على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يُرزق الطير تَغْدُو خِصَاصًا وَتَرْوُحُ بِطَانًا^(١)، فذكر أنها تغدو وتروح في طلب الرزق؛ قال: وكان الصحابة يتَجَرَّون ويعملون في نَحْلِهِمْ، والقُدْوَةُ بهم... انتهى. (وبعد، فإن التوكل كما ترى وعلى ضوء هذا الذي قلنا: أُسُّ من أُسِّس الأخلاق، إذ أنه يَكْسِبُ صاحبه الجُرْأَةَ والإقدام والشجاعة الأدبية، وأن لا يَخْشَى في الحقِّ لومة لائم، وَيَنْفِي عنه الجُبْنَ والتخاذل والخوف من الموت والجزع لدى نزول المصائب وما يجري هذا المجرى؛ وَيَكْسِبُ صاحبه كذلك خُلُقَ الاعتماد على النفس وأن لا يَتَسَكَّلَ بعد الله إلا على نفسه. ومصدق هذا كله قوله صلى الله عليه وسلم: من سرَّه أن يكون أعزَّ الناس فليكن بما في يَدِ الله أوثق منه بما في يده، ومن سرَّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله.

عود إلى عبقرياتهم في التقوى

وقال سبحانه: ومن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ، إن الله بالغُ أمره قد جعل الله لكل شيء قَدْرًا مَخْرَجًا: مَخْلَصًا من مضايق الدهر، وقوله سبحانه: من حيث لا يحسب، أى من وجه لا يخطر بباله ولا يقع في حسابه، وبالغ أمره: يبلغ ما يريد ولا يفوته مراد ولا يُعْجِزُه مطلوب، وجعل لكل شيء قَدْرًا: أى تقديرًا وتوقيتًا، وهذا بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه، لأنه إذا عَلِمَ أن كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوقيته لم يَبْقَ إلا التسليمُ للقدر والتوكل، ولا معنى للسخط وعدم الرضا، وعنه صلى الله عليه وسلم: إني لأعلم

(١) أى تغدو بكرة وهي جياح وتروح عشاء وهي غملة الاجواف.

آيَةً لِّوَأَخِذَ النَّاسَ بِهَا لِكُفَّتِهِمْ : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ ... الْآيَةُ . وَقَالَ سُبْحَانَهُ : يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . « حَقُّ تَقَاتِهِ
أَيُّ حَقِّ تَقْوَاهُ ، وَدَوَّ اسْتِفْرَاغِ الْوُسْعِ فِي الْقِيَامِ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَاجْتِنَابِ مَا نَهَى
اللَّهُ عَنْهُ ، وَمِثْلُهُ : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، يَرِيدُ : بِالْإِقْوَا فِي التَّقْوَى حَتَّى لَا تَهْرَكُوا
مِنَ الْمُسْتَطَاعِ شَيْئًا ، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ : هُوَ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى وَيُشْكَرَ
فَلَا يُكْفَرُ وَيُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى ، وَقِيلَ : هُوَ أَنْ تُنَزَّهَ الطَّاعَاتُ عَنِ الْإِلْتِفَاتِ
لِأَيَّاهَا ، وَعَنْ تَوَقُّعِ الْمَجَازَاةِ عَلَيْهَا ، وَقِيلَ : هُوَ أَنْ لَا نَأْخُذَهُ فِي اللَّهِ لَوْنُهُ لِأَنَّهُ
وَأَنْ يَقُومَ بِالْقِسْطِ - الْعَدْلِ - وَلَوْ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ ابْنِهِ أَوْ أَبِيهِ ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ :
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ « مُحْسِنُونَ : أَيُّ فِي أَعْمَالِهِمْ ، مِنْ أَحْسَنِ
الشَّيْءِ : أَنْفَقَهُ ، ... وَقَالَ بَزْرُجْمِهْر : مَنْ قَوِيَ فَلْيَقْوِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَمَنْ
ضَعُفَ فَلْيَضْعَفْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ ... قَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ : لِيُحْرِصَ الْبَلَاءُ أَنْ يَزِيدُوا
عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ - كَلِمَةِ بَزْرُجْمِهْرٍ - حَرْفًا ، « يَرِيدُ : أَنَّهَا كَلِمَةُ جَامِعَةٍ ، وَقَالَ
عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ لِبْنِهِ فِي مَرَضِهِ : أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، فَإِنَّهَا أَزِينُ حُلَّةٍ
وَأَحْصَنُ كَهْفٍ ، فَقَالَ مُسْلِمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ - وَكَانَ حَاضِرًا - وَأَثَرُ إِلَى
الصَّوَابِ ، وَأَنْفَعُ فِي الْمَذَاقِ : فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : هَاتَانِ لَا إِلَّا وَلِيَانِ ... « الْحُلَّةُ :
كُلُّ ثَوْبٍ جَدِيدٍ ، وَلَا يُقَالُ لَهُ حُلَّةٌ إِلَّا إِذَا اجْتَمَعَ مَعَهُ ثَوْبٌ آخَرُ وَعِمَامَةٌ ،
وَالْكَهْفُ : الْمَلْجَأُ ، وَأَصْلُهُ كَالْيَتِ الْمُنْقَوِرِ فِي الْجَبَلِ ، وَقَالَ الْخَطِيبِيُّ :

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمَعَ مَالٍ وَلَكِنْ التَّقَى هُوَ السَّعِيدُ

وَتَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الزَّادِ ذُخْرًا وَعِنْدَ اللَّهِ لِلْآنَفَى مَزِيدٌ

وَمَا لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ : قَرِيبٌ وَلَكِنْ الَّذِي يَمْنَى بَعِيدٌ

وقال الأعشى في أبياته التي مدح بها سيدنا رسول الله :

أَجِدُّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ نَبِيَّ الْإِلَهِ حَيْثُ أَوْصَى وَأَشْهَدَا
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْتَحِلْ بَزَادٍ مِنَ الثُّنَى وَلَا قَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونُ مَكَانَهُ فَتُرْصِدَ لِلْمَوْتِ الَّذِي كَانَ أَرْصَدَا
« قوله : أجدك قال سيديوه : هو مصدر كأنه قل . أجدا منك ، ولكنه
لا يستعمل إلا مضافا ، وقال الأصمعي : أجدك ، معناه : أجعد هذا منك ونصبا
بطرح الباء ، وقال الليث : من : أجدك بكسر الجيم فإنه يستحلفه
بجده وحقيقته ، وإذا فتح الجيم استحلفه بجده ، وهو بجته تقول : أجدك
لا تفعل كرا ، وأجدك لا تفعل كذا . وأرصد : أعد ، وقال كبيد :

إِنَّ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرُ نَفْلٍ وَيَا ذَنْ اللَّهَ رَبِّي وَعَجَلُ
أَحْمَدُ اللَّهَ فَلَا رَدَّ لَهُ بِيَدَيْهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلُ
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلُ

« الذفل : الغنيمة والجمع أنمال ، ثم قل ليده : ويأذن الله وتسميله ربِّي ، أى
بطئى ، وعجل : أى سرعتى ، فحذف ياء الإضافة للوزن : يقول ، إن الحركة
والسكون بيد الله ، ولا ند له : لا مثل له ، ويديه الخير : أى بقدرته التى هى
كآلة فى أفعاله تعالى ، كاليدى فى أفعالنا ، وثنية اليد للبالغة فى التشبيه ، وما
شاء فعل : أى ما أَرَادَهُ فعله وبين ذلك بالبيت الثالث ، ... وقال أبو نواس :

أَخِي مَا بَالُ قَلْبِكَ لَيْسَ يَنْتَقِي كَأَنَّكَ لَا تَنْظُرُ الْمَوْتَ حَقًّا
أَلَا يَا ابْنَ الَّذِينَ فُتُّوا وَبَادُوا أَمَّا وَاللَّهِ مَا ذَهَبُوا لَتَبَقِي
وَمَا أَحَدٌ بَزَادِكَ مِنْكَ أَحْظَى وَمَا أَحَدٌ بَزَادِكَ مِنْكَ أَشَقِي
وَلَا لَكَ غَيْرَ تَقْوَى اللَّهِ زَادٌ إِذَا جَعَلْتَ إِلَى اللَّهِ هَوَاتٍ تَرَقِي

« جعلت : يريد النفس أو الروح وإن لم يتقدم لذلك ذكر ، واللهوات
جمع لهاة وهي : لحمه حمراء في الحنك معانة على عكدة اللسان ، وقال أبو المتاهية :

أَطِيعِ اللَّهَ بِجُهِدِكَ عَامِداً أَوْ دُونَ جُهِدِكَ
أَعْطِ مَوْلَاكَ كَمَا تَطْلُبُ مِنْ طَاعَةِ عَبْدِكَ

وقال بعض المتصوفة : من كان مع الله فقد هلك ، وإنما نجاح من كان الله معه ، وقال
رجل للشبلي : متى يقربُ العبد من ربه ؟ فزعم ثم أنشد :

مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْوَصَالِ أَهْلًا فَكُلُّ إِحْسَانِهِ ذُنُوبٌ

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى ابنه عبد الله في غيبة غابها :
أما بعد ، فإنه من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكره زاده ،
ومن أقرضه جزاه ، فاجعل التقوى جلاء بصرك ، وعماد ظهرك ، فإنه
لا عمل لمن لا نيّة له ، ولا أجر لمن لا حسنة له ، ولا جديد لمن لا خلق له ...
« قوله : ومن شكره زاده : فسيمر عليك قريباً معنى الشكر ، وقوله : ومن
أقرضه جزاه ، فالقرض في الأصل : ما يُعطيه الرجل أو يفعله ليجازى عليه ،
ولما كان الله سبحانه لا يستقرض من عوز فقد قالوا في مثل قوله تعالى :
وأقرضوا الله قرضاً حسناً ، و : من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له :
إن القرض معناه الفعل الحسن من اتباع أمر الله وطاعته ، والعرب تقول لكل
من فعل إليه خيراً : قد أحسنت قرضي وقد أقرضتني قرضاً حسناً ، وفي
الحديث : أقرض من عريضك ليوم فقرك ... يقول صلوات الله عليه : إذا
نال عريضك رجل فلا تجازه ، ولكن استبق أجره مؤمراً لك قرضاً في ذمته
لتأخذه منه يوم حاجتك إليه ، ... وقال عمر بن عبد العزيز : ليست التقوى
قيام الليل ولا صيام النهار والتخليط فيما بين ذلك ، ولكن التقوى ترك

ما حَرَّمَ الله وأداء ما افترض الله ، فمن رُزق خيراً بعد ذلك فهو خيرٌ ... وقال رجل لحكيم : أوصني : فقال : إن استطعت أن لا تُسيءَ إلى من تُحِبُّ فافعل ، فقال : وهل يُسيءُ المرءُ إلى من يُحِبُّ ؟ قال : نعم : نفيسُك إن عصيت الله .

التقوى مع الجهل

قال الحسن البصري : أدركتُ قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : مَنْ عَمِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُهُ أَكْثَرَ مما يُصْلِحُهُ ... وقال أيضاً : قَصَمَ ظَهْرِي عَالِمٌ لَزُحْدِهِ مَعَهُ ، وَزَاهَدٌ لِعِلْمِهِ مَعَهُ ، هَذَا يَدْعُو إِلَى جَهْلِهِ بِزُحْدِهِ ، وَهَذَا يُنْقَرُ عَنْ عِلْمِهِ بِحِرْصِهِ . وقيل لأنوشروان : أى الناس أولاهم بالسعادة ؟ فقال : أقلهم ذنباً ، قيل : ومن أقلهم ذنباً ؟ قال : أكملهم عقلاً ... وسيد الكلام في هذا المعنى قوله تعالى : إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ أَكْمَلُهُمْ عَقْلاً ... وقد تقدم آنفاً . وفي الأثر : يكون في آخر الزمان قُرَاءَةُ فُسْقَةٍ وَعِبَادَةٌ جَهْلَةٍ ، وَرُكْعَةٌ مِنْ عَالِمٍ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ رُكْعَةً مِنْ عَابِدٍ لَّا عِلْمَ مَعَهُ .

التماوت والإفراط في الخشوع

والأصل في هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم لرجلٍ جَدَّ في العبادة حتى غارت عيناه : إن هذا الدينَ متينٌ ، فأَوْغِلْ فيه برفقٍ ، وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ رَبِّكَ ، فَإِنَّ الْمُتَنَبِّتَ لَا أَرْضًا تَقْطَعُ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى ، وَلَنْ يُشَادَّ هَذَا الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ ... «متينٌ» أى شديدٌ ، من متن متانة : أَشَدُّ وَقْوَى ، قال تعالى : وَأُمْلِ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ، وقوله : فَأَوْغِلْ فيه برفقٍ : أى ادخل ، وأصل الإيغال : الإمعانُ في السَّيرِ والإبعاد فيه يقول : يَسِرُّ في الدين برفقٍ وَلَا تَحْمِلْ

على نفسك فتكفها ما لا تطيق فتعجز وتترك العمل ، والمنبت : الذي أتعب
 دَابَّتُهُ حَتَّى عَطِبَ ظَهْرُهُ فَبَقِيَ مُنْقَطِعاً بِهِ ، من الانبتات وهو الانقطاع ...
 ورأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلاً مُطْأِطاً رأسه ، فقال له : ارفعْ
 رأسك ، فإن الإسلام ليس بمريض ... ونظر يوماً إلى رجلٍ مُظْهِرِ النَّسْكِ
 مُتَمَامٍ ^(١) خَفَقَهُ بِالِدَّرَّةِ وقال : لَا تُمِثْ عَلَيْنَا دِينَنَا أَمَاتَكَ اللَّهُ ... ونظرت
 السيدة عائشة رضى الله عنها إلى رجلٍ كَادَ يَمُوتُ تَخَافُنَا ^(٢) فقالت : ما لهذا ؟
 فقالوا : أَحَدُ الْقُرَاءِ ، فقالت : قد كان عمر بن الخطاب سَيِّدَ الْقُرَاءِ ، فكان إذا
 قال أسمع ، وإذا شئى أَسْرَعَ ، وإذا ضرب أَوْجَعَ ... وقال صلى الله عليه وسلم :-
 إِنْ اللَّهُ بَعَثَنِي بِالْخَيْفَةِ السَّمْحَةِ وَلَمْ يَبْعَثْنِي بِالرَّهْبَانِيَةِ ، فَمِنْ رَغْبٍ عَنِ سُتْنِي
 فَلَيْسَ مِنِّي ...

قوله اليقين فى الناس

قال الشعبي : لم يَقْسِمِ اللَّهُ بَيْنَ النَّاسِ أَقْلًا مِنَ الْيَقِينِ ... وقال ابن الرومى من
 همزيته البارة التى يعاتب فيها أبا القاسم الشطرنجى - ونذكر من أياتها المختارة
 ما يصح أن يذكر هنا ، كما يصح أن يذكر فى باب القناعة قال :

مَرْحَبًا بِالْكَفَافِ يَأْتِي هَنِئًا وَعَلَى الْمُتَعَبَاتِ ذَيْلُ الْعَفَاءِ ^(٣)

ضَلَّةَ لَامِرِي يُشْمَرُ فِي الْجَمْعِ لِعَيْشٍ مُشْمَرٍ لِلْفَنَاءِ ^(٤)

(١) المتماوت : الذى يظهر من نفسه الضعف من العبادة والزهد والصوم

(٢) التخافت : تكلف الخفوت ، وهو : الضعف والسكون

(٣) الكفاف من الرزق : القوت وما كف عن الناس أى أغنى عنهم ، والمتعبات :-

الامور التى تتعب صاحبها فى تحصيلها ، والعفاء : الدروس واهاء الاثر

(٤) ضل من يكبد فى جمع المال لعيش يسرع فى الزوال

دَائِباً يَكْمِزُ الْقَنَاظِيرَ لِلَّوَا رِثِ وَالْعُمُرَ دَائِبٌ فِي انْقِضَاءِ (١)
حَبْذَا كَثْرَةُ الْقَنَاظِيرِ لَوْكَا نَتِ لِرَبِّ السَّكَوَرِ كَمَنْزَ بَقَاءِ
إِلَى أَنْ قَالَ :

حَسْبُ ذِي إِرْبَةٍ وَرَأْيٍ جَلِيٍّ نَظَرَتْ عَيْنُهُ بِلَا غُلُوءٍ (٢)
صِحَّةُ الدِّينِ وَالْجَوَارِحِ وَالْعُرِّ ضِ وَإِحْرَارُ مُسْكِهِ الْحَوْبَاءِ (٣)
تِلْكَ خَيْرُ مُعَارَفِ الْخَيْرِ مِمَّا يَجْمَعُ النَّاسُ مِنْ فُضُولِ الثَّرَاءِ
وَلَهَا مِنْ ذَوِي الْأَصَالَةِ عُشَا قُ وَلَيْسُوا بِتَابِعِي الْأَدْوَاءِ
لَيْسَ لِلْمُكْثِرِ الْمُنْعَصِ عَيْشُ إِنَّمَا عَيْشُ عَائِشٍ بِالْهَنَاءِ
إِلَى أَنْ قَالَ :

ظَلِمْتُ حَاجَتِي فَلَاذَتْ بِحَقْوٍ يَكُ فَاسَلَتْهَا لَكَفِّ الْقَهْظِ (٤)
وَقَضَاءُ الْإِلَهِ أَحْوِطُ لِلنَّاسِ مِنْ الْأَمَّهَاتِ وَالْآبَاءِ (٥)
غَيْرَ أَنْ الْيَقِينَ أَضْحَى مَرِيضاً مَرَضاً بَاطِئاً شَدِيدَ الْخَفَاءِ
مَا بَجَدْتُ أَمْرًا يُرَى أَنَّهُ يُوْ قِنْ إِلَّا وَفِيهِ شَوْبُ أَمْتَرَاءِ (٦)
لَوْ يَصِحُّ الْيَقِينُ مَا رَغِبَ الرَّأْ غِبُ إِلَّا إِلَى مَلِيكَ السَّمَاءِ
وَعَسِيرُ بُلُوغِ هَاتِيكَ جَدَا تِلْكَ عَلَيَا مَرَاتِبِ الْأَنْبِيَاءِ

(١) دَائِباً من دَاب في عمله : مضى فيه بجد وتعب ، ويكثر من باب ضرب ونصر :
يحرز الأموال ، والقَنَاظِيرُ : يعني من الذهب والفضة وما إليهما

(٢) الْإِرْبَةُ : الدهاء ، والغُلُوءُ : الغلو (٣) أَى وَالْحَصُولُ عَلَى مَا يَمْسُكُ الْإِبْدَانِ
مِنَ الْغَذَاءِ وَالشَّرَابِ ، وَالْحَوْبَاءِ : النفس (٤) لَازَتْ : اجتمعت ، واحتضنت ، والحقو
بفتح الحاء وكسرهما : الإزار أو معقده يقول : فتعلقت بأهدابك أَى التَّجَاتُ إِلَيْكَ
فَسَلَمْتُهَا وَتَرَكْتُهَا لِلْقَضَاءِ (٥) أَحْوِطُ : أعظم حفظاً وصيانة (٦) يقول : لم أجد
أحداً يظن أن عنده بقيتنا بالله إلا وفي نفسه شوب من الشك

وقال حكيم : من الدلالة على قلة اليقين ، أنك تخير يوماً عن خير الدنيا بالنسيئة : طمعاً في الربح ، طفيف ربح مع ما فيه من الخطر ، وتأبى أن تُقرض الله درهماً بثمانمائة ، مع زعيمك وقولك إن مُستقرضه ملىء وفى هكذا وردت هذه الكلمة في محاضرات الأدباء ، ويظهر أنها إما محرفة وإما أنها معاظلة^(١) وهي على الرغم من ذلك تكاد تكون مفهومة ، فالظاهر أن قائلها يريد أن يقول : إن ما يدل على قلة اليقين أنك لو خيرت بين ربح كثير آجل نسيئة عند الله ، بأن تُقرضه مثلاً درهماً بثمانمائة ، وبين ربح طفيف عاجل في الدنيا قد حُفّ بالخطر ، لاخترت الثاني على الأول ، مع زعيمك بأن من تقرضه - وهو الله عز وجل - مضطلع بمضاعفة القرض وتوفيتك حقك وإعطائك إياه وإفياً ...

إصلاح الضمير

دخل حميد الطويل على سليمان بن علي وإلى البصرة فقال له : عظمي ، قل حميد : لئن كنت حين عصيت ربك ظننت أنه يراك فقد اجترأت على الله ، ولئن كنت ظننت أنه لا يراك فقد كفرت ... وقالوا : إذا فسمدت التية وقعت البلية ، وقال رجل لسيدنا رسول الله : لقد سمعناك يا رسول الله تقول : شيبتي هود^(٢) ، فما الذي شيبك منها ؟ قال : قوله تعالى : فاستقم كما أمرت ... ورووا أن السيد المسيح صلوات الله عليه قال : يارب ، مَنْ أشرفُ الناس ؟ قال : من إذا خلا علم أني ثانيه فأجل قدرى عن أن يظهرني على معاصيه ... ومراً

(١) معاظلة : أى عاظها قائلها : أى عقدها عجزاً عن الإفصاح أو قصداً

(٢) هود : أى سورة هود وفيها يقول الله جل شأنه لسيدنا رسول الله : فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ، ولما كان العمل بمضمون هذه الآية الكريمة في غاية العسر قال سيدنا رسول الله : شيبني هود

عمر رضى الله عنه بمملوك يرعى غنما، فقال : أَتَدْبِعُنِي مِنْهَا شاةً ؟ قال : ليست لى ، قال : فأين العِلْلُ ؟ قال : فأين الله : فاشتراه عمر وأعتقه ، فقال المملوك : اللهم قد رزقتنى العِتَقَ الأصغر فارزقنى العِتَقَ الأكبر ، أعوذ بك من قلب غائب عنك ... وقال السرى السقطى ^(١) : بتصحیح الضمائر تُغْفَرُ الكبائر ؛ وفى الأثر : تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة « أى تعرّف إليه فى الرخاء بالشكر وذكّر الآلاء يعرفك فى الشدة بالعصمة ... » وقال بعض المتصوفة : إن الله لا يشغله عنك شيء فإن استطعت أن لا يشغلك عنه شيء فافعل ...

احتمال المكارة فى العاجل رجاء المسارّ فى الآجل

ورمن جوامع الكلم فى ذلك قول سيدنا رسول الله : حُفَّتِ الجنة بالمكارة وحُفَّتِ النارُ بالشهوات وحُفَّتْ : أحيطت ، والمكارة جمع مكردة وهى : ما يكرهه المرء ويشق عليه ، والشهوات : كل ما يوافق النفس وتصبو إليه . قال الإمام القرطبي : أصل الحَفّ : الدائر بالشئ المحيط به الذى لا يتوصّل إليه إلا بعد أن يُتَخَطَّى ، فمثل المصطفى المكارة والشهواتِ بذاك ، فالجنة لا تنال إلا بقطع مفاوز المكارة والصبر عليها ، والنار لا يُنَجَّى منها إلا بقطم النفس عن مطلوباتها ، وقال ابن حجر : هذا من جوامع كلم المصطفى وبديع بلاغته فى ذم الشهوات وإن مالت إليها النفوس ، والحث على الطاعات وإن كرهتها وشقت عليها « ولما تاب بعض الصوفية كان لا يتَهَنَأُ بطعام ولا شراب فقالت له أمه : أرفق بنفسك ، فقال : الرِّفق أَطْلُبُ لها ... وهذا كقول الربيع بن خثيم وقد صلى طول ليلته حتى أصبح وقال له رجل : أتعبت نفسك فقال : راحتها أَطْلُبُ ...

(١) أحذر رجال الطريقة وخال أبى القاسم الجنيد ، ترجم له ابن خلكان

ومثل هذا - وإن كان من بابة أخرى - قول العباس بن الأحنف :

سَأَطْلُبُ بَعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا وَتَسْكُبَ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا^(١)

وقول الآخر :

تَقُولُ سَلِمَتِي لَوْ أَقَمْتَ بِأَرْضِنَا وَلَمْ تَدْرِ أَنِّي لِلْمَقَامِ أَطْوَفُ

مرعاة الدين والدنيا معاً

قال تعالى : وَلَا تَذَسْ نَفْسِيكَ مِنَ الدُّنْيَا ... وقال سيدنا رسول الله : ليس بخيركم من ترك دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ ، وَلَا آخِرَتَهُ لِدُنْيَاهُ ، حَتَّى يُصِيبَ مِنْهُمَا جَمِيعًا ، فَإِنَّ الدُّنْيَا بَلَاغٌ إِلَى الْآخِرَةِ ، وَلَا تَكُونُوا كَلَاءً عَلَى النَّاسِ ... « كَلَاءٌ : عِيَالًا وَثِقَلًا ، وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى الدُّنْيَا بِالْغِنَى ، وَعَلَى الْآخِرَةِ بِالتَّقْوَى . وقال مروان بن أبي حفصة لِعِمَارَةَ بْنِ حَمْزَةَ^(٢) : أَنْشَدْتُ الْمَأْمُونَ قَوْلِي :

أَضْحَى إِمَامُ الْهُدَى الْمَأْمُونُ مُشْتَغِلًا بِالْدِّينِ وَالنَّاسِ بِالدُّنْيَا مَشَاغِلُ
فَلَمْ يَهْتَمَّ لِذَلِكَ إِقْدَالِ عِمَارَةٍ : مَا زِدْتُ عَلَى أَنْ صَيَّرْتَهُ عَجُوزًا مُعْتَكِفَةً فِي مَحَارِبِهَا ،

(١) كنى بالجود عن السرور ... وللقداد في هذه الكناية كلام حسن انظره إذا شئت في شرحنا على التلخيص

(٢) شخصية ضخمة ، كان أدبياً وكان كاتباً وكان جواداً كريماً وكان من سروات الناس وكان تياماً معجباً معتدلاً بنفسه وكان في زمن السفاح والمنصور وبقى إلى زمن المأمون وتولى الولايات العظيمة في أيامهم وكان من شدة اعتداده بنفسه إذا أخطأ يعضى على خطائه ويأنف من الرجوع ويقول : نقض وإبرام في ساعة واحدة ! الخطأ أهون من ذلك ! انظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت وهى زاخرة بكل ما يطرب ويعجب من سيرة هذا عمارة بن حمزة ،

ثُمَّ لَأَمُورَ الْمُسْلِمِينَ أَهْلًا قُلْتَ كَمَا قَالَ جَرِيرٌ :

فَلَا هُوَ فِي الدُّنْيَا مُضِيعٌ نَصِيْبُهُ

وَلَا عَرَضُ الدُّنْيَا عَنِ الدِّينِ شَاغِلُهُ !

والمشهور في هذا المعنى قول الفاروق رضي الله عنه : اَعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ
تَأْبِداً وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غداً... وقال الشاعر :

وَلِلَّهِ مِنِّي جَانِبٌ لَا أُضِيعُهُ وَلِلَّهِ وَمِنِّي وَالْخَلَاةُ جَانِبٌ

وسيمر بك كثير من عبقرياتهم في هذا المعنى، في مواضع أخرى من
هذا الكتاب .

الرجاء والجمع بينه وبين الخوف من الله

قال تعالى : فِي صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ : يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، وقال حكيم :
أَرْجُ إِذَا خِفْتُ وَخَفْتُ إِذَا رَجَوْتُ ، وكن كالمرأة الحامل ليس رجاؤها أن تلد
ولداً ذكراً بأكثر من خوفها أن تلد أنثى . وقريب من هذا قول رجل لابنه :
خَفِ اللَّهَ خَوْفًا لَا يَمْنَعُكَ مِنَ الرَّجَاءِ ، وَارْجُهُ رَجَاءً لَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْخَوْفِ ، فالمؤمن
له قلبان : يرجوه أحدهما ويخافه الآخر وقال :

أَنَا بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ مِنْهُ وَاقِفٌ بَيْنَ وَعْدِهِ وَالْوَعِيدِ
وقال أبو نؤاس :

لَا تَحْطُرِ الْعَفْوَ إِنْ كُنْتَ امْرَأَةً أَحْرَجَا فَإِنْ حَظَرَكَ كُفَّ بِالذِّينِ إِذْرَاءُ
وقال أيضاً :

يَا كَثِيرَ الذَّنْبِ عَفْوِ اللَّهِ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْثَرُ

وقال :

تَبَسَّطْنَا عَلَى الْآثَامِ لَمَّا رَأَيْنَا الْعَفْوَ مِنْ ثَمَرِ الذَّنُوبِ

وقال :

تَكْثُرُ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْخَطَايَا فَإِنَّكَ بِالْإِسْخِ رَبًّا غَفُورًا

سَتُبْصِرُ إِنْ وَرَدَتْ عَلَيْهِ عَفْوًا وَتَلْقَى سَيِّدًا مَلِكًا كَبِيرًا

تَعُصُّ نَدَامَةً كَفَيْكَ مِمَّا تَرَكْتَ مَخَافَةَ النَّارِ السُّرُورًا

وفي الأثر : مَا أَحْبَبُّ أَنْ لِيَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا بِهَذِهِ الْآيَةِ : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ... وقال ابن عباس لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما : أَى آيَةٍ أَرْجَى ؟ قال : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، فقال : إِنَّ هَذِهِ لِمَرْجُوءَةٌ ، وَأَرْجَى مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : إِنَّ اللَّهَ لَذُوْ مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ... وقال أعرابي لابن عباس : مَنْ يَحَاسِبُ الْخَلْقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قال : يَحَاسِبُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى قُلْ : نَجُوتُنَا وَرَبُّ الْكَعْبَةِ ، فقال : كَيْفَ ؟ قال : إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا قَدَرَ غَفَرَ ... وسمع أعرابي عبد الله بن عباس يقرأ قول الله تعالى : وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا أَنْقَذَنَا مِنْهَا وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يُبْلِقَنَا فِيهَا ! فقال ابن عباس : خذوه من غير قَبِيحِهِ ...

العبادة لاطلبا للثواب ولا خوفا من العقاب

وقد تقدم لنا آثافا قول في ذلك وَتَزِيدُ فُؤُورِدُ طَرَفًا مِنْ عِبَقَرِيَّاتِهِمْ فِي هَذَا الْمَعْنَى : قَالَ الشَّيْبَلِيُّ : مَنْ عَبَدَهُ رَجَاءَ الْجَنَّةِ فَهُوَ عَبْدُهَا ، أَوْ خَوْفَ النَّارِ ، فَهُوَ عَبْدُهَا ، لِأَنَّهُ مِنْ خَافَ شَيْئًا أَوْ رَجَاهُ فَهُوَ مَعْبُودُهُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَنْ عَبَدَ

الله يعرض فهو لثيم، وقال آخر : اللهم إن كنت تعلم أني أعبدك خوفاً من نارك فأحرقتني ، أو طمعا في جنتك فأحرقتنيها ، وإن كنت تعلم أني أعبدك حباً لك وشوقاً إلى لقائك فأبجنيبه ... وقيل لراية العدوية : مالك لاتسألين الله الجنة في دعائك ؟ فقالت : الجار ثم الدار ... » تعنى بالجار : ذا الجلال والإكرام » وقد أوردنا بيت المعري :

ولتفعل النفسُ الجليلَ لأنه خيرٌ وأحسنُ للأجلِ ثوابها

غير مرة فيما أسلفنا، وقال بعضهم في قوله صلى الله عليه وسلم : أكثرُ أهلِ الجنة البُلهُ ، قال : لأنهم في سُغُلٍ فأكهون ، شغلهم النعيم عن المنعم ، وعن رضى بالجنة عن الله فهو أبله . أقول : حديث : أكثرُ أهل الجنة البُله : حديث ضعيف » انظر شرح الجامع الصغير للناوى » وعلى أنه ضعيف فقد أولوه تأريلاً حسناً : فقال الأزهري : الأبله : الذى طبع على الخير ، فهو غافلٌ عن الشرِّ لا يعرفه - أقول : أرى يعرفه ولكن يتجنبه - وقال النضر بن شميل : الأبله : الميتُ الداء ، أى أن شره ميت لا ينبته له . والمرأة باهاء ، قال الشاعر :

ولقد هَوَتْ بِطِفْلَةٍ بَيَّالَةٍ بِلَهَاءٍ تُطْلَعُنِي عَلَى أَسْرَارِهَا

أراد : أنها غر لا دهاء لها فهى تخبرنى بأسرارها ولا تفتننى لما فى ذلك عليها . وقال الزبير قان بن بدر : خيرُ أولادنا الأبلهُ المقول ، يعنى : أنه لشدّة حياته كالأبله وهو عقول مُبالغ من العقل ، وقال الزمخشري في صفة الصلحاء : هم يُنُون كينون ، غير أن لا هراوة فى الحق ولا دهانة ، بُلّه ، غَوْضهم على الحقائق يُعْمُر الألباب والأذهان ، وذلك لأنهم أغفلوا أمرَ دُنيائهم فجهلوا حِذْق التصرف فيها فأقبلوا على آخرتهم فُشغلوا بها فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهلها ،

الرياء

الرياء : ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه ؛ ومن عقوباتهم فيه : قال سيدنا رسول الله : **إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافَ عَلَى أُمَّتِي الرِّيَاءُ الظَّاهِرُ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ** . وقالوا : **أَعْظَمُ الرِّيَاءِ حُبُّ الْمُحَمَّدَةِ** . وقالوا إذا عمل الرجل العمل وكتّمه وأحبّ إعلام الناس أنه كتّمه ، فذلك أقبح الرياء ، وقال أبو نواس :

وإذا نزعْتَ عن الغَوايةِ فليَكُنْ اللهُ ذاكَ السَّزْعَ لِلنَّاسِ
وقال لقمان لابنه : **اتَّقِ اللهَ وَلَا تُرَيِّ النَّاسَ** أنك تخشاه ليُكرِموك...
وقال بعضهم : **كَانَ النَّاسُ يَرَاؤُنَ بِمَا يَفْعَلُونَ فَمَسَارُوا يَرَاؤُنَ بِمَا لَا يَفْعَلُونَ** .
وقالوا : **مَا الدِّخَانُ بَادِلٌ عَلَى النَّارِ مِنْ ظَاهِرٍ أَمْرُ الرَّجُلِ عَلَى بَاطِنِهِ ...** وقالوا
في وصف المرائي : **لَهُ سَمْتُ أَبِي ذَرٍّ عَلَى قَلْبِ أَبِي جَهْلٍ** ^(٢) وقال صلى الله
عليه وسلم **فِي مَنْ تَذَسَّكَ طَمَعًا فِي عَرَضِ الدُّنْيَا : أَكْثَرُ مُنَافِقِي هَذِهِ الْأُمَّةِ**
قَرَأُوهَا ، قال ابن الأثير : **أَيُّ أَنَّهُمْ يَحْفَظُونَ الْقُرْآنَ نَفْيًا لِلتَّهْمَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ**
وَهُمْ مُعْتَقِدُونَ تَضْيِيقَهُ ^(٣) ، وكان المنافقون في عصر النبي بهذه الصفة . وقال

(١) إذا أردت التوسع في القول على الرياء وحقيقته وأنواعه وعلاجه فمليك يا حياء
علوم الدين للغزالي

(٢) أبو ذر الغفاري هو الصحابي الجليل الزاهد الورع الصادق للهجة الذي قال
فيه سيدنا رسول الله : **مَا أَقَلَّتْ الْغِبْرَاءُ وَلَا أَظَلَّتْ الْخِضْرَاءُ أَصْدَقَ لُحْجَةٍ مِنْ أَبِي ذَرٍّ** وقال فيه
سيدنا علي : **أَبُو ذَرٍّ عَوَاءٌ مَلِيٌّ عِلْمًا ثُمَّ أَوْكِي عَلَيْهِ ، أَوْكِي عَلَيْهِ أَيُّ شَدِّ بِالْوُكَا** . وهو الخيط
يشد به قم القربة ، توفي سنة ٣١ هـ أما أبو جهل فهو عمرو بن هشام أعدى أعداء سيدنا
رسول الله قتل في غزوة بدر (٣) أي مضربون عدم العمل به

الزخشرى : أراد بالنفاق الرياء ، لأن كلا منهما إرادة مافى الظاهر خلاف مافى الباطن . وقال الغزالي : أحذر من خصال القراء الأربعة : الأمل والعجلة والكبر والحسد ، قال : وهى عللٌ تعترى سائر الناس عموماً والقراء خصوصاً ، ترى القارئ يطول الأمل فيوقعه في الكسل ، وراه يستعجل الخير فيقطع عنه ، وراه يحسد نظراءه على ما آتاهم الله من فضله فربما يباغ به مبالغاً يحمله على فضائح وقبايح لا يقدم عليها فاسق ولا فاجر . وقال الفضيل بن عياض لابنه : اشترُوا داراً بعيدة عن القراء ، مالى والقوم إن ظهرت منى زلة فتلوني ، وإن ظهرت على حسنة حسدوني ، ولذلك ترى الواحد منهم يتكبر على الناس ويستخف بهم متعسباً وجهه كأنما يمن على الناس بما يصلى زيادة ركعتين ، أو كأنما جاءه من الله منشوراً بالجنة والبراءة من النار ، أو كأنه استيقن السعادة لنفسه والشقاوة لسائر الناس ، ثم دو مع ذلك يلبس لباس المتواضعين ويتماوت ، وهذا لا يليق بالتكبر والترفع ولا يلائمه لكن الأعمى لا يبصر ... أقول : كل ما قالوه فى القراء مما يصح أن يقال فى علماء الدين وفى المتتسكين ، لأنه يقال تقرأ فلان أى تنمقه ، ويقال : تقرأ : أى تنسك ، قال زيد بن تركي الزبيدي ، وقال القراء : أنشدني أبو صدقة الديري :

ولقد عَجِبْتُ لكَاعِبٍ مَوْدُونَةٍ أطرافها بالحنى والحناء
بيضاء تضطاد القوى وتنتبى بالحسن قلب المسلم القراء

« مودونة : مُلَيَّنَةٌ وأطرافها نائب فاعل مودونة ، ورووا أن بلال بن أبي بردة وفد على عمر بن عبد العزيز فجعل يديم الصلاة فقال عمر : ذلك التضع ، فقال له العلاء : أنا آتيك بخبره ، فجاءه وهو يصلى فقال له : مالى عندك إن بعثت أمير المؤمنين على توليتك العراق ؟ قال عمالتي سنة أى وظيفتي ومُرَّتِي . وكان مبلغه عشرين

ألف درهم ، فقال : اكتبْ به خَطَّكَ ، فكتب إليه ، لجاء الملاء إلى عمر فأخبره ، فقال : أراد أن يُغرَّنا بالله ... ودخل على أبي جعفر المنصور رجلٌ بين عيديه كركبة البعير - وذلك يكون من أثر السجود - يريد القضاء ، فقال المنصور : إن كنت أبررت الله بهذا فما ينبغي أن تشغلك عنه ، وإن كنت أردت خداعنا فما ينبغي أن نتخذ لك . وقال شاعر :

لا تَصْـمَـهـ بَنِّ صَحَابَةَ حَلَقُوا الشَّوَارِبَ لِلطَّمَعِ
يَكِي وَجُلُّ بُكَائِهِ مَا لِلْفَرِيصَةِ لَا تَقَعِ

وقال آخر :

عَمَّرُوا وَضَعُ التَّقْصِيرِ مِنْهُمْ وَمَكَانُ الصَّلَاحِ مِنْهُمْ خَرَابٌ
وَيُرَوَّى هَذَا الْبَيْتُ عَلَى وَجْهِ آخِرٍ ...

وَرَوَوْا أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ كَانَ يَدْعُ زَكَاتَهُ مِنَ الْفَقِيرِ وَيَسْتَرْجِعُهَا مِنْهُ بِدَرَاهِمٍ أَوْ دَرَاهِمِينَ . وَيُرَوَّى أَغْرَبُ مِنْ ذَلِكَ وَأَقْعَدُ فِي بَابِ الْحَيْلِ الشَّرْعِيَةِ الْحَرَمَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدَ مَشِيخَتِنَا الَّذِينَ تَوَلَّوْا مَشِيخَةَ الْإِسْلَامِ وَالْإِفْتَاءِ فِي الْجِيلِ الْغَابِرِ بِمِصْرٍ - وَكَانَ غَنِيًّا مَثْرِيًّا - كَانَ يَحْتَالُ فِي زَكَاةِ الْمَالِ بِأَنْ يَضَعَ قِيَمَةً مَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُزَكِّيَهُ - عَنْ مَالِهِ فِي الْعِيَابِ وَالزَّكَاةِ ، الْمَمْلُوءَةِ قِحَاثٍ يُفْهِمُ الْفُقَرَاءَ أَنَّ هَذِهِ زَكَاتُهُمْ ثُمَّ يَشْتَرِيهَا مِنْهُمْ بِشَمْنٍ مُغَرٍّ ، وَبِذَلِكَ يَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ قَامَ بِفَرِيضَةِ الزَّكَاةِ بِخَادِعُونَ ، اللَّهُ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ،

التوبة

التَّوْبَةُ : الرَّجُوعُ عَنِ الذَّنْبِ ، يُقَالُ : تَابَ إِلَى اللَّهِ يَتُوبُ تَوْبَةً وَتَوَّابًا وَتَابًا : أَنَابَ وَرَجَعَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ ، وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ : وَفَّقَهُ إِلَى التَّوْبَةِ أَوْ

عاد عليه بالمغفرة ، وقال عليُّ بن أبي طالب رضى الله عنه : التوبة على أربعة دعائم : استغفار باللسان ونية بالقلب وترك بالجوارح وإضمار أن لا يعود .
 وفى الحديث : من تاب قبل موته بفواق ناقة حرم الله وجهه على النار .
 « الفواق : أن تُحاب الناقة ثم تُترك لحظة يرصعها الفصيل لتدبر ثم تحلب »
 وقال عز وجل : يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا . التوبة النصوح : الخالصة التي لا يُعاود بعدها الذنب ، وقال تعالى : إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ، يقول سبحانه : إنما قبول التوبة كالمحتوم على الله لمن أذنب بجهالة وسفه . فإن ارتكاب الذنب سَفَهٌ وتجاهل ، ومن ثم قيل : من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالة . ثم يتوبون قبل الموت قال عليه السلام : إن الله يقبل توبة عبده ما لم يُغرغر ، قال المفسرون : وسماه قريبا لأن أمد الحياة قريب ، أو قبل أن يُشرب في قلوبهم حُبُه فيتعذر عليهم الرجوع ،

المبادرة إلى التوبة

وقد حثوا مع ذلك على المبادرة بالتوبة والإقلاع عن المعاصي فرووا أنه قيل لرجل : أوص ، فقال : أحذركم سوف ، وقال شاعر :
 والمرءُ مُرْتَهَنٌ بِسَوْفٍ وَلَيْمَتِي وهلاكه في سَوْفِهِ وَاللَّيْمِ
 وقال آخر :

أَسَوْفُ تَوْبَتِي خَمْسِينَ عَامًا وَظَنِّي أَنِّ مِثْلِي لَا يَتُوبُ

وقال بعضهم : نحن لانزيد أن نموتَ حتى نتوبَ ولا نتوبُ حتى نموتَ ...
وقال بعضهم لرجل : عِظْنِي ، فقال : قد قطعتَ عامَّةَ سَفَرِكَ ، فإن استطعتَ
ألا تَصِلَ في آخره فافعل ... وقال مُصْعَبُ بْنُ الزَّيْرِ : ادفع سَطْوَةَ اللَّهِ
بسرعة التَّزَوُّعِ ، وحسن الرجوع ، فَيُوشِكُ أَنْ الْمَنَابِيا تَسْبِقُ الوصايا ، وقالوا في
قوله تعالى : بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ : يُكْثِرُ الذُّنُوبَ وَيُوَخِّرُ التَّوْبَةَ
أَوْ يُسَوِّفُ بِالتَّوْبَةِ وَيَقْدِمُ الْأَعْمَالَ السَّيِّئَةَ ، وقال مُورِّجُ السَّدُوسِي ^(١) : فَجَرَ :
إِذَا رَكِبَ رَأْسَهُ ، فَضَى غَيْرَ مُكْتَثَرٍ ، وقوله : لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ : لِيَبْضُ أَمَامَهُ رَاكِبًا
رَأْسَهُ ... وقال سيدنا رسولُ اللَّهِ لرجل وهو يَعِظُهُ : اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ :
حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَشَبَابَكَ
قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ . « اغتنم حياتك قبل موتك : اغتنم ماتاقك
نَفْعَهُ ، وَثَوَابَهُ بَعْدَ مَوْتِكَ . وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ : اغتنم العمل حال الصحة
فَقَدْ يَمْنَعُ مَانِعٌ كَالْمَرَضِ فَتُقَدِّمُ بِهِ زَادَ . وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ : اغتنم فَرَاغَكَ
فِي هَذِهِ الدَّارِ قَبْلَ شُغْلِكَ بِأَهْوَالِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، أَيْ اغتنم فُرْصَةَ الْإِمْكَانِ
لِعَالِكَ تَسْلَمَ مِنَ الْهَوَانِ . وَشَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ : اغتنم الطَّاعَةَ وَفَعَلَ الْخَيْرِ حَالِ
قُدْرَتِكَ قَبْلَ هَجُومِ عَجْزِ الْكِبَرِ عَلَيْكَ فَتَتَدَمَّرَ عَلَى مَا فَرَّطْتَ فِي جَنْبِ اللَّهِ .
وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ : اغتنم الْإِحْسَانَ وَالتَّصَدَّقْ بِفَضُولِ مَالِكَ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ
جَائِحَةٌ تُفْقِرُكَ . وَلَكَ أَنْ تَقُولَ : إِنَّ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ الْكَرِيمَةَ مَنَازِلُهَا عَامٌّ شَامِلٌ
يُرَادُ بِهَا الْمُبَادَرَةُ إِلَى الْعَمَلِ وَاتِّهَازِ الْفُرْصِ قَبْلَ فَوَاتِهَا ، وَقَالَ الشَّاعِرُ .
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَزْرَعْ وَأَبْصَرْتَ حَاصِدًا نَدَيْتَ عَلَى التَّفْرِيطِ فِي زَمَنِ الْبَذْرِ
وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ :

فَوَاعِبًا كَيْفَ يُفْصَى الْمَلِيكَ أَمْ كَيْفَ يَجْعَدُهُ الْجَاهِدُ

(١) نحوى بصرى ، أخذ عن الخليل ؛ توفي هو وأبو نواس في يوم واحد سنة ١٩٥

وَاللَّهُ فِي كُلِّ تَحْرِيكِكَ وَتَسْكِينَةٍ فِي الْوَرَى شَاهِدٌ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

وقال الآخر:

تَرْجُو النَّاجَةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَاسِ
وجاء حبيب بن الحارث إلى سيدنا رسول الله فقال: إني مُقَارِفٌ للذنوب،
فقال: ثُبِّ، فقال: إني أتوب ثم أعود، فقال: كلما أذنبت ذنباً ثُبِّ، فمَعْفُو
الله أكبر من ذنوبك. وفي الحديث: إن الرجل لِيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ،
فَقِيلَ: وَكَيْفَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: يَكُونُ نُصَبٌ عَيْنِهِ خَائِفًا مِنْهُ حَتَّى يَدْخُلَ
الْجَنَّةَ... واجتمع ثلاثة من الحكماء عند كِسْرَى فَنَذَاكَرُوا فِي شَرِّ الْأَشْيَاءِ فَقَالَ
أَحَدُهُمُ: الْهَمُّ يَقْتَرِنُ بِالْعُذْمِ - الْفَقْرُ - وَقَالَ الثَّانِي: سُقْمُ الْبَدَنِ وَدَوَامُ الْحُزَنِ،
وَقَالَ الثَّلَاثُ: دُنُوُّ أَجَلٍ وَسُوءُ عَمَلٍ... فَخُتِمَ لَهُذَا... وَدَعَا بَعْضُ الصَّالِحِينَ
فَقَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ وَقُوعِ الْعَنِيَّةِ وَلِمَا آتَاكَ الْإِثْمِيَّةِ... وَقَالَ حَكِيمٌ:
الْأَيَّامُ صَحَائِفُ أَجَالِكُمْ فَأَوْدِعُوهَا أَجَلَ أَفْعَالِكُمْ... وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا: عَجِبْتُ لِمَنْ يَحْتَمِي عَنِ الطَّعَامِ لِمَ ضَرَّتْهُ وَلَا يَحْتَمِي عَنِ الذَّنْبِ لِمَ مَرَّتْهُ!
وَقَالَ بَعْضُهُمْ حَضَرْتُ مَجْلِسَ الشُّبْلِيِّ^(١) فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَقَالَ لَهُ:
أَوْصِنِي، فَقَالَ لَهُ: لَقَدْ أَوْصَاكَ الشَّاعِرُ بِقَوْلِهِ:

قَالُوا تَوَقَّ دِيَارَ الْحَيِّ إِنْ لَمْ يَمُتْ
عَيْنَا عَلَيْكَ إِذَا مَا نِمْتَ لَمْ تَمُتْ

(١) الشبلي - وقد تكرر ذكره في هذا الكتاب - هو أبو بكر دلف بن جحدر، والشبلي:
نسبة إلى شبله، بلدة من بلاد ما وراء النهر - سمرقند وبخارى وما إليها - كان في مبدأ
أمره واليا لإحدى الولايات ثم تاب وتصفى وبلغ المباح في ذلك، كان جليل القدر
مالكي المذهب وصحب الشيخ أبا القاسم الجنيد ومن في عصره من الصالحين توفي سنة
٣٣٤ هـ ببغداد وعمره سبع وثمانون سنة

وقال يحيى بن معاذ : اجتنب السيئات أشد من اكتساب الحسنات ...
وسمع الحسن البصري رجلا يقول : اللهم اجعلنا منك على حذر ، فقال : إنه فعَل
ذلك ، أليس قد سترَ عنك أجلك ، فليستَ من حياة ساعةٍ على يقين !

الاستغفار

قال علي بن أبي طالب : العَجَبُ لمن يَقْطَعُ ومعه النجاة : الاستغفار ... وقالوا
لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار . وقال حكيم : أيها السلاطين ،
لا بُدَّ لكم من المعاصي الكبار فافعلوا بإزائها طاعات عظيمة ، أيها الأوساط ،
يُمْسِكُكم الطاعات العظيمة ، كالمصالح التي لا يَقْدِرُ عليها إلا الساطان ، فلا تركبوا
المعاصي الكبيرة ... وقال بعضهم : سَمِعَني رَاهِبٌ أقول : أستغفر الله ، فقال :
يا قَتِي ، سُرْعَةُ اللسان بالاستغفار تَوْبَةُ الكَذَّابِينَ ... ويدُلُّ على ما قاله قوله صلى
الله عليه وسلم : المستغفر باللسان المُصِرُّ على الذنب كالمُسْتَهْزِئِ بربه . وقال
الربيع بن خثيم : لا يَقُولَنَّ أَحَدُكم : أستغفر الله وأتوبُ إليه فيكون ذنباً
جديداً إذا لم يفعل ، ولكن لِيَقُلْ : اللهم ، تُبْ عَلَيَّ وَاغْفِرْ لِي ، فقليل : ولم ؟
فقال : أنتَ عَمَّا يَنْهَاك عنه فإنه يغفر لك ... وقال عمر رضى الله عنه : لم أَرَ
أشدَّ طلباً وأسرعَ دَرَكاً من حسنةٍ حديثةٍ لذنْبٍ قديم . « دركا بسكون الراء
وتحها : الحافوا وإدراكا » ... وسُئِلَ بعضُ المُجَّان : كيف أنت في دينك ؟ قال : أُخْرِقُهُ
بالمعاصي وأَرْقَعُهُ بالاستغفار ...

« وأما بعد ، فلو يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَاتَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا
مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ^(١) .

(١) آية كريمة والآية : ولو يؤاخذ الله الناس... الآية

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبُعُوضِ جَنَاحَهَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الْأَلِيلِ
وَيَرَى عُروْقَ نِيَاطِهَا فِي نَحْرِهَا وَالْمُخَّ فِي تِلْكَ الْعِظَامِ النَّحْلِ
أَغْفِرْ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ قَرَطَاتِهِ مَا كَانَ مِنْهُ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ (١)

عقريات شتى

في الخوف والتقوى

ورددني الحديث الصحيح : لو تعدّون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبسكنتم كثيرا ، ولما ساء لكم الطعام ولا الشراب ، لضحكتم قليلا : أى لم تضحكوا ألبتة إذ القلبيل ههنا بمعنى العدم ، ... وجاء في خطبة لسيدنا رسول الله : أبها الناس ، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ، فإن العبد بين مخافتين : أجل قد مضى لا يدري ما الله فاعل فيه ، وأجل باق لا يدري ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دُنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الممات ، فوالذى نفس محمد بيده ، ما بعد الموت من مُستعْتَبٍ ، وما بعد الدنيا من دارٍ إلا الجنة والنار ... معالم جمع مَعْلَم ، وهو ما جعل علامة للطرق والحدود ، ضربه مثلا لأحكام الله وحدوده

(١) هذه الآيات لجار الله الزمخشري أنشدها في الكشف عند تفسير قوله تعالى : إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، ونسبها إلى بعضهم ، وكان قد أوصى أن تكتب على لوح قبره ، يقول : يا الله ، يابصر الخفيات حتى مد البعوض جناحها في ظلمة الليل ، اغفر لي الخ والبهيم : المظلم ، لانهم الأشياء فيه ، والليل أفضّل من الليل وإن كان جامدا ، للبالغة في الظلمة ، والنياط : عرق غليظ منوط بالقلب تتصل به عروق دقيقة ، والنحر : أسفل العنق ، والمخ : ما في وسط العظام ، والنحل : جمع ناحل أى دقيق ، والقرطات : ذنوبه التى قرطت منه ، وما كان : مفعول اغفر ، الزمان الأول : زمن الشباب ، وقد تمثل المؤلف بهذه الآيات كما تمثل الزمخشري

« ومن يتعدَّ حدودَ الله فقد ظلم نفسه »، ومستعتب : مصدره يمي معناه طلبه الرضا ، تقول : استعبت فلانا : إذا طلبت منه العتي ، وهي الرضا ، يريد : ليس بعدالموت من استرضاه ، لأن الأعمال بطلت وانقضت زمانها ، وما بعدالموت دار جزاء لا دار عمل ،

وقال أبو العتاهية :

يا عجباً للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا إلى غيرها فإنما الدنيا لهم مغبر
الخير مما ليس يخفى هو المعروف والشر هو المنكر
والوعد الموت وما بعده الحشر فذاك الموعد الأكبر
لا تنخر إلا غر أهل الثقي غدا إذا ضمهم المحشر
ليعلن الناس أن الثقي والبر كانا خيراً ما يذخر
عجبت الإنسان في خفيه وهو غدا في قبره يقبر
مابال من أوله نظفة وجيفة آخره يفتخر
أصبح لا يملك تقديم ما يرجو ولا تأخير ما يحذر
وأصبح الأمر إلى غيره في كل ما يقضى وما يقدر

أما قوله : يا عجباً للناس لو فكروا... ألبيت ، فأخوذ من قولهم : الفكرة مرآة تريك حسنك من قبيحك ؛ ومن قول لقمان لابنه : يا بني ، لا ينبغي لعاقل أن يخجل نفسه من أربعة أوقات ، فرقت منها يناجي فيه ربه ، ووقت يحاسب فيه نفسه ، ووقت يكسب فيه لمعاشه ، ووقت يخجل فيه بين نفسه وبين لذتها ليستعين بذلك على سائر الأوقات . وقوله : وعبروا الدنيا إلى غيرها... ألبيت ، مأخوذ من قول الحسن البصري : اجعل الدنيا كالقنطرة تجوز عليها ولا تعمرها .

وقوله: الخير مما ليس يخفى ... ألبيت ، مأخوذ من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عبد الله ، كيف بك إذا بقيت في حثالة من الناس ^(١) مَرَجْتَ عُهُودَهُمْ وَأَمَانَتَهُمْ ^(٢) وصارَ الناسُ هكذا ، وشَبَّكَ بين أَصَابِعِهِ ؟ فقلتُ : مُرَّنِي ، يا رسول الله ، فقال : خُذْ مَا عَرَفْتَ وَدَعْ مَا أَنْكَرْتَ وَعَلَيْكَ بِخُوصِصَةِ نَفْسِكَ وَإِيَّاكَ وَعَوَامَّهَا ^(٣) ... وقوله : لِيَعْلَمَنَّ النَّاسُ ... ألبيت ، مأخوذ من حديث أبي هريرة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا حُشِرَ الناسُ في صعيد واحد نادى مُنَادٍ من رِجْلِ الْعَرْشِ : لِيَعْلَمَنَّ أَهْلُ الْمَوْقِفِ مَنْ أَهْلُ الْكَرَمِ الْيَوْمَ ؟ رَلَيْقُمُ الْمُتَّقُونَ ، ثم تلا رسول الله : إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقَامُ ، وقد تقدم صدرَ باب البر أن الأَخلَ سَبَقَ أبا العتاهية في هذا بقوله :

وإذا انْفَتَقَرْتَ إِلَى الذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ ذُخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ الْأَعْمَالِ
وقوله : ما بال من أوله نطفة ... ألبيت ، مأخوذ من قول علي رضي الله عنه : وما ابنُ آدمَ والفخر وإنما أولُه نطفة وآخره جيفة ، لا يَرْزُقُ نَفْسَهُ ، ولا يَدْفَعُ حَتْفَهُ ، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه يقول : أيها الناس إنما خُلِقْتُمُ الْأَبَدَ ، وَلَسْكُمْ تُنْفَقُونَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ ... وقال مالك بن دينار ^(٤) :

- (١) أصل الحثالة : ما يبقى في الإيمان من ردى الطعام ، وحثالة الثمر : أردؤه وما لا خير فيه ، ضربه رسول الله لرجال الناس وشرارهم
(٢) مَرَجْتَ عُهُودَهُمْ : اختلطت وذهبت بهم كل مذهب ، ومرج : كطرب ، أما مرج الماء بمعنى سال فلم يكن له مانع ، فبابه نصر .
(٣) خُوصِصَةُ : تصغير خاصة ، يأمره صلى الله عليه وسلم بمجاهدة نفسه ويحذر مشاركة العامة في أعمالها (٤) كان عالما زاهدا لا يأكل إلا من عمل يده مات سنة إحدى وثلاثين بالبصرة .

جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم... وقال على رضى الله عنه : مَنْ سَرَهُ
الْغِنَى بِأَمْوَالٍ ، وَالْعِزُّ بِأَسْطَانٍ ، وَالكَثْرَةُ بِأَعْشِيرَةٍ ، فَلْيَخْرُجْ مِنْ ذَلِكَ
مَعْصِيَةَ اللَّهِ إِلَى عِزِّ طَاعَتِهِ ، فَإِنَّهُ وَاجِدُ ذَلِكَ كُلِّهِ ... وقال يزيد بن الصَّقِيلِ الْعَقِيلِيُّ -
وكان يسرق الإبل في عهد بني أمية ثم تاب وقُتِلَ في سبيل الله - :

أَلَا قُلْ لِأَرْبَابِ الْخَائِضِ أَهْمِلُوا فَقَدْ تَابَ يَمَّا تَعْلَمُونَ يَزِيدُ
وَلِنْ أَمْرًا يَنْجُو مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا تَزُودَ مِنْ أَعْمَالِهَا لَسَعِيدُ

« الخائض جمع مخاض - ومخاض واحد خِلْفَةٌ - الناقة استبان حملها - فخائض
جمع الجمع ، ومخاض ! جمع على غير واحد ، كما تقول : امرأة ونساء ، وقوله : أهملوا :
أى أسرحوا إبلكم - ، وفي هذا الشعر :

إِذَا مَا الْمَنَائِيَا أَخْطَأَتْكَ وَصَادَفَتْ حَمِيمَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهَا سَتَعُودُ

وفي معنى هذا البيت ما يروى عن محمد بن الحنفية - ابن الإمام علي - أنه
كان يقول - إذا مات له جار أو حميم - : أَوْلَى لِي ، كِدْتُ وَاللَّهِ أَكُونُ
السَّوَادَ الْمُخْتَرَمَ ... « أولى لي ، مثله : أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى ، وهى
كلمة تهديد ووعد ، معناها : قاربك ماتكراه ، أو الشر أقرب إليك ، والسواد :
شخص الإنسان وكل شيء من متاع وغيره ، وفي الحديث : إذا رأى أحدكم سواداً
بليس فلا يكن أجبن السوادين ، فإنه يخافك كما تخافه ، والمحترم - من اخترمته
المنية : أخذته من بين أصحابه ... »

وقال أبو نواس :

وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ الْغَوَاةِ بَدْلَهُمْ وَأَسْمَتُ سُرْحَ اللَّهِ وَحَيْثُ أَسَامُوا
وَبَلَغْتُ مَا بَلَغَ أَمْرُؤُ بِشَبَابِهِ فَإِذَا عُصَاةٌ كُلُّ ذَلِكَ أَقَامُ

« أُنَام كَسَلَام : عقاب الإثم وجزاؤه ، ونهزت بدلهم يقال : نهزت بالدلو في البئر : إذا حركتها لتتلى ... وهو هنا على المثل ... يقول أبو نواس : لقد غَوَيْتُ زماناً مع الغَوَاةِ وَلَهَوْتُ كَمَا لَهَوُوا وَخَلَعْتُ عِذَارِي كَمَا خَلَعُوا عِذَارَهُمْ وَبَلَغْتُ شَبَابِي الْمُبَايَعِ ، مِنَ اللّهُوِّ وَالبَغْيِ وَالفَسَادِ ، وَأَنْلَيْتُهُ أَقْصَى مَا يَشْتَهِي مِنْ شَهَوَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَوَجَدْتُ كُلَّ ذَلِكَ ضَلَالاً فِي ضَلَالٍ وَعَبَثاً فِي عَبَثٍ وَظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، وَمَا جَنَيْتُ مِنْ وِرَائِهِ إِلَّا الْمُرَّ وَالْحَنْظَلَ ، مِنَ الْأَدْوَاءِ وَالْأَسْقَامِ وَالبُعْدِ عَنْ مَلَكُوتِ اللَّهِ وَقُدْسِيَّتِهِ ، وَكُلَّ مَا تُورِثُهُ الْمُعَاصِي مِنَ الدَّنَسِ وَالتَّطَبُّعِ وَالرَّيْنِ ، وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنْ ائْتَبَرَ »

وقال هشام بن عبد الملك - وهو من الآيات المنفردة القائمة بنفسها - :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَغِصِ الْهُوَى قَادَكَ الْهُوَى

إلى بعض ما فيه عليك مقال

وهذا بكلام الملوك أشبه ، ومن كلمة للسيدة عائشة رضي الله عنها : مَنْ أَرْضَى اللَّهَ يَسْخِطِ النَّاسَ ، كَفَاهُ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ يَسْخِطِ اللَّهَ ، وَكَفَاهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ ، وَمَنْ أَصْلَحَ سِرِّيَّتَهُ ، أَصْلَحَ اللَّهُ عِلَانِيَتَهُ . وفي حديث الدعاء : لَا تَسْكُنْنِي إِلَى نَفْسِي طَرَفَةَ عَيْنٍ فَأَهْلِكَ ... تَوَلَّانا اللَّهُ بِرِعَايَتِهِ الصَّمَدَانِيَّةُ إِنَّهُ سَمِيعُ الدَّعَاءِ ...

الباب الثاني

في الشكر والحمد والثناء

وهذا بابُ الشكر بابٌ له مكانته فيما خلفوه لنا من آدابٍ وذخائرٍ، وإنَّ بينه وبين البر على جميع ألوانه لرحماً ماسةً وقرابةً قريبةً، ومن ثم جعلناه ردِّقاً له، وأفردنا له هذا الباب.

معنى الشكر

والشكر: مُقَابَلَةُ النعمة بالقول والفعل والنَّيَّةُ، فَيُثْنِي المُنْعَمُ عَلَيْهِ على المُنْعِمِ بِلِسَانِهِ، وَيَذِيبُ نَفْسَهُ فِي طَاعَتِهِ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ مُوَالِيهَا؛ وَهُوَ مِنْ شَكَرَتِ الْإِبِلُ تَشْكُرُ: إِذَا أَصَابَتْ مَرَعَى فَسَمِنَتْ عَلَيْهِ. وَإِذَنْ يَكُونُ مَعْنَى شُكْرِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ: أَنْ يَحْهَدَّ الْعَبْدُ جُهْدَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَيُودِّي مَا وَظَّفَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ وَلِيُّ نِعْمَتِهِ، وَأَنْ يُكْثِرَ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ عَزَّ وَتَقَدَّسَ... وَقَدْ جَاءَ الشُّكُورُ وَصُفَاً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَزْكُو عِنْدَهُ الْقَلِيلُ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ فَيُضَاعِفُ لَهُمُ الْجَزَاءَ، وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَاهُ: الْمَغْفِرَةُ... هَذَا؛ وَإِنْ فُرْقاً بَيْنَ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ، فَالشُّكْرُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ يَدٍ، وَالْحَمْدُ عَنْ يَدٍ وَعَنْ غَيْرِ يَدٍ وَأَنْشَدُوا لِأَبِي نُحَيْلَةَ (١):

(١) شاعر إسلامي، وكان أسود، والرجز أغلب عليه من الشعر، وسمى أبا نُحَيْلَةَ لَانَّ أُمَّهُ وَلَدَتْهُ تَحْتَ نُحْلَةٍ فَهِيَ اسْمُهُ، وَيَمْدَحُ بِهَذَا الشَّعْرَ مُسْلِمَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمَلِكِ يَقُولُ فِي أَوَّلِهَا:
أَمْسَلَمَ إِنِّي يَا ابْنَ كُلِّ خَلِيفَةٍ وَيَا فَارِسَ الْهَيْجَا وَيَا قَمَرَ الْأَرْضِ
وقوله: فَنَبِهَتْ مِنْ ذِكْرِي وَمَا كَانَ خَامِلاً: أَخَذَهُ أَبُو تَمَامٍ فَكَشَفَ مَعْنَاهُ وَحُسْنَهُ بِالصَّنَاعَةِ

شَكَرْتُكَ إِنَّ الشُّكْرَ حَبْلٌ مِنَ الثَّقَى وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً يَقْضَى
فَنَبَّهْتَ مِنْ ذِكْرِي وَمَا كَانَ خَامِلًا وَلَكِنْ بَعْضُ الذِّكْرِ أَنْبَاءُ مِنْ بَعْضٍ
قَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشُّكْرَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ يَدٍ ، أَلَا
تَرَاهُ يَقُولُ : وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً يَقْضَى ؟ أَيْ لَيْسَ كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً
يَشْكُرُكَ عَلَيْهَا وَيُقَالُ : شَكَرَهُ وَشَكَرَ لَهُ ، وَبِاللَّامِ أَفْصَحُ ، وَتَقُولُ : شَكَرْتُ
نِعْمَةَ اللَّهِ ، وَلِنِعْمَتِهِ ، وَتَشْكُرُ لَهُ بِلَاءَهُ ، كَشَكَرَهُ ، وَتَشْكُرُ لَهُ مِثْلَ شُكْرٍ لَهُ ،
هَذَا خِلَاصَةُ مَا قَالَهُ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ . وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ فِيهَا قَالَ ، إِذَا طَالَ : الشُّكْرُ :
عِرْفَانُ الْإِحْسَانِ ، وَمِنْ اللَّهِ الْمَجَازَاةُ ، وَأَصْلُ الشُّكْرِ : تَهَوُّرُ النِّعْمَةِ وَإِظْهَارُهَا
وَحَقِيقَتُهُ : الْعَجْزُ عَنِ الشُّكْرِ ، إِلَى أَنْ قَالَ : وَالشُّكْرُ الْعُرْفُ : صَرَفُ الْعَبْدِ
جَمِيعَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَغَيْرِهَا ، إِلَى مَا خَلَقَ لَهُ
وَأَعْطَاهُ لِأَجْلِهِ ، كَصَرَفِ النَّظَرِ إِلَى مَصْنُوعَاتِهِ ، وَالسَّمْعِ إِلَى تَلْقَى إِنْذَارَاتِهِ ،
وَالذَّهْنِ إِلَى فَهْمِ مَعَانِيهَا ، وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ، إِلَى أَنْ قَالَ :
وَتَوْفِيَّةُ شُكْرِ اللَّهِ صَعْبٌ ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُبَيِّنْ بِالشُّكْرِ مِنْ أَوْلِيَانِهِ إِلَّا عَلَى إِبْرَاهِيمَ
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، إِذْ قَالَ سُبْحَانَهُ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ
يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؛ وَعَلَى

فَقَالَ مِنْ آيَاتِ يَمْدَحِهَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الزُّبَاي :

لَقَدْ زِدْتُ أَوْضَاحِي امْتِدَادًا وَلَمْ أَكُنْ

بِهِمَا وَلَا أَرْضِي مِنَ الْأَرْضِ بِجَهْلًا

وَلَكِنْ أَبَادٍ صَادَفْتَنِي جِسَامُهَا أَغْرَّ فَأَوْفَتْ بِي أَغْرَّ مُحْجَلًا

وَالْأَوْضَاحُ جَمْعُ وَضَحٍ وَهُوَ الْبَيَاضُ ، وَالْبَهِيمُ : الْأَسْوَدُ ، وَالْمُجْهَلُ : أَرْضُ بِلَا أَعْلَامٍ
وَهَذَا عَلَى الْمَثَلِ ،

نُوح عليه السلام إذ قال : إنه كان عبداً شكوراً ... ونَزِيد هذا توكيداً وتبييناً
 ليراد كلمة الراغب في الذريعة ، قال الراغب - مع شيء من التصرف - :
 الشكر تصوُّرُ الْمُنْعَمِ عليه النعمة ، وإظهارُها ، ويضادُّه الكُفْرُ ، وهو - أى الكفر -
 من كَفَرَ الشيء : غَطَّاه ، ودَابَّه شكور : أى مُظْهِرٌ بِسْمِهَا إِسْدَاءَ صاحبها
 إليها ؛ وقيل : أصله من عينٌ شَكَرَى : أى مُتَمَلِّئَةٌ ، فالشكر هو : الامتلاء من
 ذكر المنعم عليه الْمُنْعَمِ ، ومن هذا الوجه قيل : هو أبلغُ من الحمد ، لأن الحمد
 ذِكْرُ الشيء بصفاته ، والشكر : ذكر الشيء بصفاته وبنعمه ، فالشكر على ثلاثة
 أَضْرِبٍ : شكرٌ بالقلب ، وهو تصوُّرُ النعمة ، وشكرٌ باللسان ، وهو الثناء على المنعم ،
 وشكرٌ بسائر الجوارح ، وهو مكافأته بقدر استحقاقه ؛ وهو أيضاً باعتبار الشاكر
 والمشكور : ثلاثة أَضْرِبٍ : شكر الإنسان لِمَنْ هو فوقه ، وذلك يكونُ بالخدمةِ
 والثناء والدُّعاء ، وشكرٌ لنظيره ، وهو بالمكافأة ، وشكر لمن هو دُونَهُ ، وهو
 بالثواب والإفضال . وشكرُ العبد لله سبحانه هو : معرفتهُ نعمته وحِفْظُ جوارحه
 بمنعِها من استعمال ما لا ينبغي . ثم قال : وشكرُ المنعم في الجملة واجبٌ بالعقل ،
 كما هو بالشرع ، - وهذه مسألة كلامية انظرها في كليات أبي البقاء ، - وأوجبها
 شكرُ البارئ تعالى ، ثم شكرُ مَنْ جعله سبيلاً لوصول خيرٍ إليك على يده ، ولهذا
 قال عليه الصلاة والسلام : لا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لم يَشْكُرِ الناسَ ؛ قال : وقال
 بعضهم : كلُّ نعمةٍ يُمكنُ شكرُها إلا نعمةَ الله ، فإنَّ شُكْرَ نعمته نعمةٌ منه ،
 فيحتاج العبد أن يَشْكُرَ نعمةَ الشكر ، كما شكر أصلَ النعمة ، وهكذا حتى يُؤدَّى
 ذلك إلى ما لا يتناهى ، ومن هذا أخذ الشاعر الذي يقول :

إذا كان شُكْرِي نعمةَ الله نعمةً علىَّ له في مثْلِها يجبُ الشُّكْرُ
 فكيفْ بلوغُ الشكرِ إلا بفضله وإن طالتِ الأيامُ واتَّصلَ العمرُ

ولهذا قيل: غايةُ شكر الله تعالى الاعترافُ بالتعجزِ عنه، بل قد قال الله تعالى: **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، وأيضاً فكل ما يفعل الله بعبده فهو نعمة منه، وإن كان بعض ذلك يُعَدُّ بليّةً، ولهذا قال بعض الصالحين: ياتن منعه عطاءً وبلاؤه نعمة** (١) ... ولأجل صعوبة شكر الله قال عز وجل: **وقليل من عبادي الشكور ...**

عقوباتهم في الشكر

حُثُّهم على الشكر

قال حكيم: **إذا قُصِرَتْ يدُك عن المكافأة فليُطْلَ لِسَانُكَ بالشكر؛ وقالوا: النِّعم إذا شُكِرَتْ قَرَّتْ وإذا كُفِرَتْ قَرَتْ. والأصل في هذا قوله تعالى: وإذا تَأَذَّنْ رَبُّكُمْ لئن شكرْتُمْ لأزيدنكم ولئن كفرْتُمْ إنَّ عَذَابِي لشديد ... وقالوا: النِّعمُ وحشيّة فاشْكُلوها بالشكر** يقال: شكَل الدابة يشكُلها: شدَّ قوائمها بجبل، واسم ذلك الجبل: الشِّكال، وقال ابن المقفع: **استوثقوا عرَى النعم بالشكر**. «العرى جمع عروة، والعروة في الأصل تقال لعروذ الدلو والكوز ونحوه، أى مقبضه. والعروة المازدة أى أذنها. والعروة القميص: مدَّخَل زره»، ولعروة النَّبات: ما بقى له خضرة في الشتاء ترعاها الإبل إذا أجذب الناس، ومن

(١) هذا كلام بعيد الغور غاية في النفاسة، وقد بما قرأت كلاماً لا أذكر لفظه بيدان معناه لا يزال عالقا بذهنى، وهو أن الإنسان قد يظن أن حرمانه الجاه أو المال أو ما لهما، شرونة، ولكنه في الحقيقة نعمة، إذ لو أعطى ما يشتهيه من المال أو الجاه لسات حاله وكان هذا المال أو الجاه بما يفسده لئما يصلحه ومن ثم حثوا على أن يرضى الإنسان بما أعطى ويعتد ذلك مدرجة إلى صلاحه وحسن حاله وأن ما أعطاه الله إياه مهما كان قليلاً هو الخير كل الخير في الواقع ولا خير في غيره ولا صلاح ...

هذا استعاروا العروة لكل ما يلجأ إليه ويُعَوَّل عليه ويوثق به ويُتَمَسَّك؛ فيقال لقادة الجيش: العُرى، والصحابة رضوان الله عليهم: عُرى الإسلام، وقوله تعالى: فقد آتَمَسَكَ بالعروة الوثقى لا انفصام لها؛ شَبَّه ما يُعْتَصِم به من الدين بالعروة التي يُتَمَسَّك بها ويلجأ إليها، والوُثْقَى: المُحْكَمَة، فقول ابن المقفع: استوثقوا: أى أحكموها، وقال البحتري:

يزيد تفضلاً وأزيد سُكراً وذلك دأبه أبداً ودأبي
وقال عمرو بن مسعدة: لا تَصْحَب من يكون استمتاعه بمالكٍ وجاهك
أكثرَ من إمتاعه لك بشكر لسانه وفرائد عمليه. وقال يحيى بن أكرم: كنت
عند المأمون فأنى برجل تُرْعِد فرائضه، فلما مثَّل بين يديه قال المأمون:
كفرتَ نعمتى ولم تشكر معروفى! فقال: يا أمير المؤمنين، وأين يقعُ سُكْرِى
فى جنب ما أنعم الله بك علىَّ! قال يحيى: فنظر إلى المأمون وقال مُتَمَثِّلاً:
ولو كان يَسْتَفْتى عن الشكر ماجدٌ لرفقه نذرٌ أو عُلُوٌّ مـكانِ
لَمَّا أَمَرَ اللهُ العبادَ بِشُكْرِهِ فقال: اشكروا لى أيها الثقلانِ
ثم التفتَ إلى الرجل وقال: هَلَّا قلت كما قال أضرَمُ بنُ حُمَيد:
مُلِكْتُ حَمِيدى حَتَّى إِنِّى رَجُلٌ كُلِّى بِكُلِّ ثَناءٍ فَيْكَ مُسْتَعِيلُ
خَوَّلْتُ سُكْرِى لِمَا خَوَّلْتَنى نِعَمٍ فُحِرْتُ سُكْرِى لِمَا خَوَّلْتَنى خَدَمِ
وقرب من هذا قول أبى الفتح البُستى:

لئن عَجَزْتُ عن شُكْرِ بَرِّكَ فُوتِى وأقوى الورى عن شُكْرِ بَرِّكَ عاجزُ
بأنَّ ثَنائى واعتقادى وطائِقى لأفلاكِ ما أوايتَها مراكزُ
ومن أروع ما قيل فى الشكر قول البُحتري:

فلو كان للشُكْرِ شَخْصٌ يَبِينُ إذا ما تَأَمَّلَهُ الناظرُ

لَبِئْسَ لَكَ حَتَّى تَرَاهُ فَتَسْلَمَ أَنِّي أَمْرُو شَاكِرٍ
ولكنه ساكنٌ في الضمير يُحَرِّكُهُ السَّائِرُ

وقال عبد الله بن الزبير الأَسَدِيُّ في عمرو بن عثمان بن عفان - لما زاره فَنَظَرَ
عمرو فَرَأَى تحت ثيابه ثوباً رَثْباً ، فدعا وكيله وقال : اقترض لنا مالاً ، فقال : هيهات
ما يُعْطِينَا التُّجَّارُ شَيْئاً ، قال : فَأَرْبَحُهُمْ مَا شَاءُوا : فاقترض له عشرة آلاف فَرَجَّه
بها إليه مع تَحْتِ ثِيَابٍ « التخت : وعاء تصان فيه الثياب » - :

سَأَشْكُرُ عَمْرًا مَا تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي أَبَادِي لَمْ تُمْنَنَّ وَإِنْ هِيَ جَلَّتِ
فَتَى غَيْرُ مُحْجُوبٍ الْغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ وَلَا مُظْهِرٍ الشُّكُوفِ إِذَا النُّعْلُ زَلَّتِ
رَأَى خَلَّتْ مِنْ حَيْثُ يُخْفَى مَكَانُهَا فَكَانَتْ قَذَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتِ

« قوله : سأشكر : فالعرب تستعمل السين إذا أرادت تكرار الفعل
وتأكيده ولا تريد التنفيس فيه . ولم تمنن : لم يتبعها من ، وإذا النعل زلت :
يريد : إذا زلت قدمه في مزالق الدهر فلا يجد مركباً يقيه مصرع السوء
ولا متكأ يعتمد عليه في نهضته ، والخلة : الحاجة ، وقوله من حيث يخفى
مكانها : أى من حيث لا يدركها لحاظ غيره ، وفكانت قذى عينيه : أبرع كلمة
في معنى الاهتمام بالحاجة » ...

وقال ابن عَنَقَاءُ الْفَزَارِيُّ فِي عُمَيْلَةِ الْفَزَارِيِّ - وَكَانَ قَدْ وَصَلَهُ بِنِصْفِ مَا !

لَمَّا رَأَى مِنْ رِثَاثَةِ حَالِهِ ، وَكَانَ عُمَيْلَةً غَلَامًا جَمِيلًا - :

رَأَى عَلَى مَانِي عُمَيْلَةٍ فَاشْتَكَى إِلَى مَالِهِ حَالِي أَسْرًا كَمَا جَهَرَ
دَعَايَ فَأَسَانِي وَلَوْ ضَنَّ لَمْ أَلَمْ عَلَى حِينٍ لَا بَدْوُ يُرْجَى وَلَا حَضَرُ
غُلَامٌ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْخَيْرِ يَا فَعَا لَهُ سَيِّمِيَاءُ لَا تَشْقُ عَلَى الْبَصَرِ
كَأَنَّ الثَّرِيَاءَ عُلِقَتْ فِي جَبِينِهِ وَفِي خَدِّهِ الشُّعْرَى وَفِي وَجْهِهِ الْقَمَرُ

إِذَا قِيلَتِ الْعُورَاءُ أَغْضَىٰ كَأَنَّهُ ذَلِيلٌ بِإِلَازِلٍ وَلَوْ شَاءَ لَا تَنْتَصِرُ
وَلَمَّا رَأَى الْمَجْدُ اسْتُعِيرَتْ ثِيَابُهُ تَرَدَّى رِدَاءُ وَاسِعِ الذَّلِيلِ وَأُتْرِرَ
فَقُلْتَ لَهُ خَيْرًا وَأَنْتَيْتُ فِعْلَهُ وَأَوْفَاكَ مَا أَسَدَيْتَ مَنْ ذَمَّ أَوْ شَكَرَ

« السِّمَا والسِّمِيَا والسِّمَاء والسِّمِيَاء : العلامة يُعرف بها الخير والشر ،
وقوله : لَا تَشْقُ عَلَى الْبَصْرِ يَرِيدُ : لَا تَوْذِيهِ بِلِ يُسْرِئُهَا ، وَالْثُرَيَّا : مِنَ الْكُوكَبِ
كَثِيرَةِ الْأَنْجَمِ مَعَ صَغُرِ مَرَاتِنِهَا ، وَالشَّعْرَى يَرِيدُ بِهَا الشَّعْرَى الْعَبُورُ ، وَهُوَ كُوكَبُ
نَيْرٍ خَلْفَ الْجُوزَاءِ يُطْلَعُ فِي صَمِيمِ الْحَرِّ . وَالْعُورَاءُ : الْكَلِمَةُ الْقَبِيحَةُ ،
وَأَغْضَى : أَطْبَقَ أَجْفَانَهُ حَيَاءً وَنَبَلًا ؛ وَاسْتُعِيرَتْ ثِيَابُهُ : كُنِيَ بِذَلِكَ عَنْ
قَلَّةِ الْأَجَادِ »

العجز عن الشكر

قال بعضهم :

أَيَادِي لَا أَسْطِيعُ كُنَّةَ صِفَاتِهَا وَلَوْ أَنَّ أَعْضَائِي جَمِيعًا تَكَلَّمُ
وقال آخر :

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ نَمِيَّةٍ شَعْرَةٌ لِسَانًا يَبُثُّ الشُّكْرَ فِيكَ لَقَصَّرَا
وقال بعضهم : شُكْرِي لَا يَقَعُ مِنْ نِعْمَةِ الظَّاهِرَةِ : مَوْقِعِ النُّقْطَةِ مِنَ الدَّائِرَةِ .
وقال أبو نُوَاس :

قَدْ قُلْتُ لِلْعَبَاسِ مُعْتَذِرًا عَنْ ضَعْفِ شُكْرِيهِ وَمُعْتَرِفًا
أَنْتَ أَمْرٌؤُ جَلَلْتَنِي نِعْمًا أَوْهَتْ قُوَى شُكْرِي فَقَدْ ضَعُفَا
فَالْيُوكَ مِنْ يَوْمٍ تَقْدِمَةً تَلَقَّاكَ بِالتَّضَرُّجِ مُنْكَشِفَا
لَا تُسَدِّدِينَ إِلَيَّ عَارِيَةً حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

«شكريه : شكرى إياه» وقال المتنبي :

ولم تَمَلَّ تَقْدُكَ المَوَالِي ولم نَذْمُ أَيَادِيكَ الجِسامَا

ولكن الغُيُوثَ إذا تَوَالَتْ بأَرْضِ مُسَافِرٍ كِرَةِ المَقَامَا

«الموالى جمع، ولى : العبد، وتروى الموالى : أى الذى يلى بعضه بعضاً، والآيدى النعم، والجسام : العظام، وقوله ولكن الغيوث ... البيت، فالغيوث جمع غيث : المطر، وتوالت : تابعت، والمقام : الإقامة؛ يقول : إن المسافر إذا كثر عليه المطر ملّ إقامته واحتباسه، لأجل المطر، كذلك نحن، عطايك تتوالى علينا وأنت قيدتنا يا حسنك وأنا مسافر أريد الارتحال ولولا هذا لم أملّ نعمتك، والمطر يسأله كل أحد إلا المسافر...» وقال البُحْتَرى وأبدع :

أَحْجَلَّتْنِي بِنْدَى يَدَيْكَ فَسَوَّدَتْ مَا بَيْنَنَا تِلْكَ اليَدُ البَيْضَاءُ

وَقَطَعْتَنِي بِالْجُودِ حَتَّى لَأَنَّى مُتَخَوِّفٌ أَنْ لَا يَكُونَ لِقَاءُ

صِلَّةٍ عَدَدَتْ فِي النَّاسِ وَهِيَ طَبِيعَةٌ عَجَبٌ، وَبِرٌّ رَاحَ وَهُوَ جَفَاءُ

وقال أيضاً :

إِسْهَأْ بِالْفَضْلِ شُكْرِي مِنْكَ فِي نَصَبٍ أَقْصَرَ فَالِي فِي جَدِّوَاكَ مَنْ أَرَبِ

لَا أَقْبَلُ الدَّهْرَ نَيْلًا لَا يَقُومُ بِهِ شُكْرِي وَلَوْ كَانَ مُسْئِدِيهِ إِلَى أَبِي

ومن أفاضلهم فى ذلك : شُكْرُهُ شَاوٍ بَعِيدٍ لَا تَبْلُغُهُ أَشْوَاطِي ، وَلَا أَتْلَفِي

التفريط فيه يافراطى « الأشواط جمع شوط : الجرى مرة إلى غاية تقول : عدا

- جَرَى - شوطاً ، أى طَلَقاً » وعندى له مَبَارٌ أعجزنى شكرها ، كما أعوزنى حَضْرُهَا

« مبار جمع مبرة » وقال بعض الشعراء فى الصاحب بن عباد :

وَقَدْنَا لِلشُّكْرِ كَافِي الكُفَاةِ وَنَسَأَلُهُ السَّكْفَ عَنْ بَرِّنَا

فقال بعض الحاضرين : قد كُفِّيت ، فإن الصاحب صار لَا يُعْطَى شيئاً...

من لا تخفى أياديه

قال نصيب^(١) :

فَعَا جُوا فَأَتَوْا بِالذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنْتُ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ
وقال بعضهم :

وَكَيْفَ بَكَفَرَانِي صَنَائِدُهُ الَّتِي إِذَا جُحِدَتْ يَوْمًا أَقْرَبَهَا جِلْدِي
ومثله :

وَإِذَا سَكَتُ فَإِنَّ أَنْطَقَ مِنِّي فِي عَنِّي يَدُ الْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ
وقالوا في أمثالهم : لسان الحال أفصح من لسان الشكر ... ومن كلمة
للجاءظ : نحن نُزَخِرُفُ بِاللِّسَانِ ، وَالنَّاسُ يَقْضُونَ بِالْعِيَانِ ، وَفِي أَمْرِنَا أَثَرُ
يَنْطِقُ عَنَّا ، وَيَتَكَلَّمُ إِذَا سَكَتْنَا ...

الشكر بقدر الاستحقاق

وَعَتِبُهُمْ مَن شَكَرُوهُ وَلَمَّا يَسْتَوْجِبْ

قال علي بن أبي طالب : انشاء من غير الاستحقاق مَلَقٌ ، والتقصير عن

(١) هو نصيب بن رباح من أهل ودان وكان عبداً لرجل من كنانة هو وأهل بيته ، وكان أهل البادية يدعونه « النصيب » تفخيماً له وكانت أمه أمة سوداء وكان شاعراً فخلاً نصيحاً مقدماً في النسيب والمدح وكان أثيراً عند الملوك ، وهذا البيت من أبيات له في سليمان بن عبد الملك وأول الأبيات :

أَقُولُ لِرَكْبٍ صَادِرِينَ لَقِيَتْهُمْ تَقَاذَاتِ أَوْشَالٍ وَمِرْلَاكَ قَارِبُ
قَفُّوا خَبْرُوتِي عَنْ سُلَيْمَانَ إِنِّي لِمَعْرُوفِهِ مِنْ أَهْلِ وَدَّانَ طَالِبُ
فَعَا جُوا البيت

« قفا : أي خلف والعرب تقول : لقيت فلاناً قفا العمة أو الثانية : أي خلفها ، وميرلاك يخاطب سليمان ويريد بالمولى نفسه ولعله يريد بذات أوشال : موضعاً بعينه ، والقارب في الأصل : طالب الماء ليلاً ،

الاستحقاق عني وحسده، وقال رجل لابن الأعرابي: إن نُضَيِّباً — الشاعر الذي تقدم ذكره — يقول: إنما تُمدح الرجال على قدر ثوابها، فقال: إن العرب تقول: على قدر رِيحِكُمُ تَمَطُّرون... وقال الصاحب بن عباد:

وَإِذَا الصَّدِيقُ أَدَامَ شُكْرِي لِلَّتِي لَمْ آتِهَا إِلَّا عَلَى التَّقْدِيرِ
أَيَقِنْتُ أَنَّ الْعَتَبَ بَاطِنُ أَمْرِهِ فَسَكَتُ مُحْتَشِمًا عَلَى التَّقْصِيرِ

من لم يَرَدِّعْهُ خَوْفُهُ عَنِ الشُّكْرِ

بَعَثَ أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ إِلَى شَيْخٍ مِنْ بَطَانَةِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَاسْتَحْضَرَهُ وَسَأَلَهُ عَنْ تَدْبِيرِ هِشَامِ وَأَحْوَالِهِ، فَأَقْبَلَ الشَّيْخُ يَقُولُ: قَتَلَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَقَالَ يَوْمَ كَذَا رَحِمَهُ اللَّهُ، فَقَالَ الْمَنْصُورُ: قُمْ لِعَنْتِكَ اللَّهُ، أَتَطَّأُ بِسَاطِي وَتَتَرَحَّمُ عَلَيَّ عَدُوِّي! فَقَالَ الشَّيْخُ: إِنْ نِعْمَةً عَدُوِّكَ لِقِلَادَةٍ فِي عُنُقِي لَا يَبْزِعُهَا إِلَّا غَاسِلِي، فَقَالَ الْمَنْصُورُ: أَرْجِعْ إِلَى حَدِيثِكَ، فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ غَرَسَ شَرِيفَ وَابْنُ حُرَّةٍ... وَلَمَّا قَتَلَ مَسْلُةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَاجِرِ الْمُهَاجِرَ، يَحْضُرُ الشُّعْرَاءُ لِيَقُولُوا فِي ذَلِكَ، فَلَمْ يَأْلُوا أَنْ ذَكَرُوهُ بِأَقْبَحِ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ، مَا خَلَا رَجُلًا مِنْ بَنِي دَارِمٍ فَإِنَّهُ قَالَ: لَا أَذُمَّ رَجُلًا لَا أَلَمَّكَ رِيْعًا وَلَا مَالًا وَلَا أَثَمًا إِلَّا مِنْهُ وَلَوْ قُطِّعَتْ إِرْبَابُ إِرْبَابًا^(١)، وَاقْدَرْتُ نَيْتَهُ بِأَحْسَنِ مَا يُرْتَى بِهِ رَجُلٌ. وَأَنْشَدَ أَيْبَاتًا رَائِعَةً - فَجَزَاهُ مَسْلَةُ خَيْرًا وَقَالَ: إِذَا اضْطَرَّعَ فَلْيُضْطَنِّعْ مِثْلُ هَذَا... أَقُولُ: لَا أَدْرِي: أَمْ يَقِفُ هَؤُلَاءِ الْبِرَّةَ الْإِوفَاءَ الشَّجْعَانَ الصَّرْحَاءَ يُعْجِبُ الْمَرْءَ، أَمْ بِأَوْلَئِكَ الْمُلُوكِ الَّذِي يَقْدَرُونَ هَذَا الْوَفَاءَ وَيَطْرَبُونَ لَهُ وَلَوْ كَانَ فِي جَانِبِ أَعْدَائِهِمْ أَفَلَهُ دَرُّ أَوْلَئِكَ النَّاسِ الَّذِينَ شَرَفُوا الْإِنْسَانِيَّةَ بِهَذِهِ الْخُلَاقِ الْكَرِيمَةِ النَّبِيلَةِ، يَنْبَغِي غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالْجَبَنِ وَالزَّلَالَةِ قَدْ كَلَّمُوا^(٢) الْإِنْسَانِيَّةَ

(٢) كَلَّمُوا: جَرَحُوا

(١) إِرْبَابُ إِرْبَابًا: عَضُوا عَضُوا

وهو رآ بها إلى الحضيض الأوهـد ...

شكر من همَّ بإحسان ولم يفعل
وقالوا : من لم يشكرك على حُسن النية ، لم يشكرك على إسداء العطية .
وقال شاعر :

لأشكرنَّكَ معروفًا همَّتَ به إنَّ اهْتِمَانَكَ بالمعروفِ معروفُ
ولا أذُنكَ إن لم يُضهِرْ قدرُ فالشيءُ بالقدرِ المحترَمِ مصروفُ

ثَقُلُ الشكر والحمد

وقال أبو تمام في ثقل الشكر والحمد من آيات له في الحسن بن وهب :
والحمدُ شَهِدٌ لا ترى مُشَارَه يَحْنِيهِ إِلَّا مِنْ نَقِيعِ الْحَنْظَلِ ^(١)
عُلٌّ لِحَامِلِهِ وَيَحْسِبُهُ الذِي لم يُوهِ عَاتِقُهُ خَفِيفَ الْحَمَلِ ^(٢)
وقيل لبعض الصالحين : مالك لا تطلب الدنيا ؟ فقال : من خاف السؤالَ
عن الشكر طابت نفسه عن المال ...
وقال أبو العتاهية :

ما فاتني خيرُ امرئٍ وَضَعْتُ عَنِّي يَدَاهُ مَوْوِنَةَ الشُّكْرِ

ترغيبهم في الثناء ووصفهم إياه بالبقاء

وتفضيلهم إياه على المال والعطاء

قال عمر بن الخطاب لابنة هَرَمِ بن سنانٍ ممدوح زهير بن أبي سلمى :

(١) المشتار : مستخرج العسل ، والشهد : بفتح الشين وضمها : العسل في شمعها

(٢) الغل : القيد ، والمحمل : الحمل

ما وَهَبَ أبوكَ لُزْهَيْرَ؟ فَنَالَتْ: أَمْوَالاً فَنِدَتْ وَأَتَوَا بِأَبَايَلَيْتِ وَأَشْيَاءَ انْتَسَبَتْ،
فَقَالَ الْفَارُوقُ: لَكِنْ مَا أَعْطَاكَوْهُ زُهَيْرٌ لَا يُفْنَى وَلَا يُنْسَى ... وَكُتِبَ
أَرْسَطُو إِلَى الْإِسْكَانْدَرِ الْمُقْدُونِيِّ: إِنَّ كُلَّ عَقِيلَةٍ ^(١) يَأْتِي عَلَيْهَا الدَّهْرُ، فَيُخْلِقُ
أَثَرَهَا وَيُمِيتُ ذِكْرَهَا، إِلَّا مَا رَسَخَ فِي الْقُلُوبِ، مِنَ الذِّكْرِ الْحَسَنِ يَتَوَارَثُهُ
الْأَعْقَابُ. وَقَالُوا: فِي الثَّنَاءِ الْبَاقِي عَلَى الدَّهْرِ، خَلَفٌ مِنْ نَفَادِ الْعَمْرِ.
قَالَ الشَّاعِرُ:

وَإِنِّي أَحِبُّ الْخُلْدَ لَوْ اسْتَطَعْتُهُ وَكَالْخُلْدِ عِنْدِي أَنْ أَبِيتَ وَلَمْ أَلَمْ
وَقِيلَ لِبُزْرِ جَهْرٍ حِينَ كَانَ يُقْتَلُ: تَكَلَّمْ بِكَلَامٍ تَذْكُرُهُ، فَقَالَ: الْكَلَامُ
كَثِيرٌ، وَلَكِنْ إِنْ أَمَكَّنَكَ أَنْ تَكُونَ حَدِيثًا حَسَنًا فَافْعَلْ.
وَلَمَّا رَضِعَ الْوَزِيرُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ فِي التَّثْوَرِ قَالَ لَهُ خَادِمُهُ:
يَاسِنْدِي، قَدْ صِرْتَ إِلَى مَا صِرْتَ وَلَيْسَ لَكَ حَامِدٌ أَقَالَ: وَمَا تَنْفَعُ الْبَرَامِكَةَ
مِنْ صَنِيعِهِمْ، قَالَ: ذِكْرُكَ لِهَمِّ السَّاعَةِ، فَقَالَ: صَدَقْتَ ... وَقَالَ شَاعِرٌ:
لَمَنْ طَبَّتْ نَفْسًا عَنْ ثَنَائِي فَإِنِّي لَا طَيْبُ نَفْسًا عَنْ تَذَاكَ عَلَى عُسْرِي
فَاسْتُ إِلَى جَدِّوَاكَ أَعْظَمَ حَاجَةً عَلَى شِدَّةِ الْإِعْسَارِ مِنْكَ إِلَى سُكْرِي
وَقَالَ أَبُو تَمَامٍ:

وَمُحْجَبٌ حَارَلَتْهُ فَوَجَدَتْهُ نَجْمًا عَنِ الرَّكْبِ الْعُقَاةِ شَسُوعَا
أَعْدَمَتْهُ - لَمَّا عَدِمَتْ نَوَالَهُ - سُكْرِي فَرُخَا مُعْدِمِينَ جَمِيعَا
وَقَالَ عَرُوفُ بْنُ مَحْمَدٍ الشَّيْبَانِي:
فَتَى يَبْقَى أَنْ يَخْدِشَ الذَّمُّ عِرْضَهُ وَلَا يَبْقَى حَدَّ الشُّبُوفِ الْبَوَاثِرِ

(١) العقيلة في الأصل: المرأة الكريمة النفيسة ثم استعمل في الكريم من كل شيء.
في الذوات والمعاني. وعقائل الإنسان: كرائم أمواله، وهو المراد هنا

وقال حكيم : من أحبَّ الثناء ، فليصبر على بذل العطاء ، وليؤطّن نفسه
على الحقوق المُرّة ، وعلى احتمال المؤنة ... وقال الشاعر في هذا المعنى :
ما أعلم الناس أن الجود مَكْسَبَةٌ للحمْدِ اكْتَنَه يَأْتِي عَلَى النَّشَبِ

تسهيل القول على الشاكرين

بتوافر ما يشكر عليه وعكس ذلك

قيل للفرزدق : أحسن الكَيْتُ في الهاشميات ، فقال : وَجَدَ آجُرًا وَجِصًّا
فَبَنَى ... وقال شاعر :

مَا لَقِينَا مِنْ جُودِ فَضْلِ بْنِ يَحْيَى تَرَكَ النَّاسَ كُلَّهُمْ سُعْرَاءَ
وقال ابن الرومي :

كُرِّمْتُ بِجَاشِ الْمُفْتَحَمُونَ لِمَدْحِكُمْ إِذَا رَجَزُوا فِيكُمْ أَيْنُتُمْ فَقَصَدُوا
كَأَزْهَرَتْ جَنَاتُ عَدْنٍ وَأَثْمَرَتْ فَأَضْحَتْ وَعُجِمَ الطَّيْرِ فِيهَا تُغَرَّدُ
ومما كتبه بعضهم : فَتَحَتْ شَيْئُهُ عَلَى الْمُدَّاحِ مُسْتَغْلَقَاتِ الْكَلَامِ ...
وقال أبو تمام :

مَلِكٌ إِذَا مَا الشُّعْرُ حَارَ بَيْلَدَةٍ كَانَ الطَّرِيقَ لَطَرَفِهِ الْمُتَحِيرِ
وقال المتنبي :

يَا أَيُّهَا الْمَحْسِنُ الْمَشْكُورُ مِنْ جِهَتِي وَالشُّكْرُ مِنْ قِبَلِ الْإِحْسَانِ لَا قِبَلِي
وقال ابن طباطبا ^(١) فيمن يُستفاد منه ما يُمدح به :

(١) ابن طباطبا : هو أبو القاسم أحمد الشريف الحسيني المصري نقيب الطالبين
بمصر، ترجم له ابن خلكان، وطباطبا : لقب جده إبراهيم، وذكره الثعالبي في النونية توفي
سنة ٣٤٥ هـ

لَا تُنْكِرُنْ إِهْدَاءَنَا لَكَ مِنْطَقًا مِنْكَ اسْتَفَدْنَا حُسْنَهُ وَنِظَامَهُ
فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَشْكُرُ فِعْلَ مَنْ يَتَلَوُ عَلَيْهِ وَحْيَهُ وَكَلَامَهُ
وقال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ^(١) فيمن يليق به مدحه :
وَأَرَى الْمَدِيحَ إِذَا عَدَاكَ نَقِيصَةً فَأَعَافَاهُ وَلَوْ أَنَّهُ فِي حَاتِمِ
فَإِذَا امْتَدَحْتَ سِوَاكَ قَالَ الشَّعْرَى لَمْ تَرْنَحْ حَقِّي إِذْ أَبْجَتَ بَحَارِي
ووصف أعرابي رجلاً مجمعاً على مدحه : كَأَنَّ الْأَلْسَنَ وَالْقُلُوبَ رِيضَتْ
لَهُ ، فَمَا تُعَقِّدُ إِلَّا عَلَى وَدِّهِ ، وَلَا تَنْطِقُ إِلَّا بِحَمْدِهِ . وقال البحرى :
وَأَرَى الْخَلْقَ مُجْمِعِينَ عَلَى فَضْلِهِ مِنْ بَيْنِ سَيِّدٍ وَمَسُودٍ
عَرَفَ الْجَاهِلُونَ فَضْلَكَ بِالْعِ لَمْ وَقَالَ الْجُهَّالُ بِالتَّقْلِيدِ
وقال ابن الرومي :

يَأْمَنُ إِذَا قَالَتْ فِيهِ صَالِحَةٌ عِنْدَ عَدُوٍّ أَقْرَ وَاعْتَرَفَا
وقال البحرى في المُسْتَعْنَى عن المدح لكثرة فضله :

جَلَّ عَنْ مَذْهَبِ الْمَدِيحِ فَقَدْ كَادَ يَكُونُ الْمَدِيحُ فِيهِ هِجَاءُ
وقال المتنبي :

تَجَاوَزَ قَدْرَ الْمَدْحِ حَتَّى كَانَهُ بِأَكْثَرِ مَا يُنْتَقَى عَلَيْهِ يُعَابُ

حَبُّ الْمُنْعِمِ أَنْ يُرَى أَثَرُ إِعْجَامِهِ

قال سيدنا رسول الله صلوات الله عليه : إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ

(١) هو القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني الفقيه الأديب الشاعر صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه وصاحب الأبيات المشهورة التي أولها : يقولون لي فيك أنقباض وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجماً
توفي سنة ٤٣٦٦ هـ

نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ ... قَالَ الْإِمَامُ الْمَنَازِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى الْجَامِعِ الصَّغِيرِ :
 قِيلَ مَعْنَى يُرَى : مُزِيدُ الشُّكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى ، بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالنَّشَاءِ وَالذِّكْرِ لَهُ بِمَا
 هُوَ أَهْلُهُ ، وَالْعَطْفُ وَالتَّرَحُّمُ ، وَالْإِنْفَاقُ مِنْ فَضْلِ مَا عِنْدَهُ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ
 اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَالْحَاقُّ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ ، وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ ، فَيُرَى أَثَرُ
 الْجِدَّةِ عَلَيْهِ زِيًّا وَإِنْفَاقًا وَشُكْرًا ، إِلَى آخِرِ مَا قَال ، وَهَكَذَا يُحِبُّ النَّاسُ أَنْ
 يُرَى أَثَرُ إِنْعَائِهِمْ عَلَى مَنْ يُنْعِمُونَ عَلَيْهِمْ ، رَوَى أَبُو هِلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ عَنْ
 الْعُتْبِيِّ مَا يَلِ : أَرَادَ جَعْفَرُ بْنُ يُحْيَى حَاجَةً كَانَ طَرِيقُهُ إِلَيْهَا عَلَى بَابِ الْأَصْمَعِيِّ
 فَوَدَّعَ إِلَى خَادِمٍ لَهُ كَيْدًا فِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ وَقَالَ : إِنِّي سَأَعْرِجُ فِي رَجْعَتِي عَلَى
 الْأَصْمَعِيِّ ، ثُمَّ سَيَحْدِثُنِي وَيُضِحِّكُنِي ، فَإِذَا ضَحِكْتُ فَضَعِرَ الْكَيْسُ بَيْنَ يَدَيْهِ ،
 فَلَمَّا رَجَعَ وَدَخَلَ إِلَيْهِ رَأَى جُبًّا مَكْسُورًا^(١) الرُّأْسَ وَجَرَّةً مَكْسُورَةً الْعُنُقُ ،
 وَقِصْعَةً مُشْعَبَةً ، وَجَفْنَةً أَعْشَارًا ، وَرَأَى عَلَى مُصْلَى بَالٍ وَعَلَيْهِ بَرْنُكَانٌ^(٢)
 أَجْرَدٌ ، فَمَمَزَ عَلَامَتَهُ أَنْ لَا يَضَعُ الْكَيْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَلَمْ يَدْعِ الْأَصْمَعِي شَيْئًا
 مِمَّا يُضْحِكُ النَّكْلَانَ وَالنُّضْبَانَ إِلَّا أَوْرَدَهُ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَتَبَسَّمْ ، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ
 لِرَجُلٍ يُسَازِرُهُ : مَنْ اسْتَرْعَى الذُّنْبَ ظَلَمَ ، وَمَزَزَعَ السِّمِيخَةَ^(٣) حَصَدَ الْفَقْرَ ،
 إِنِّي وَاللَّهِ لَمَّا عَلِمْتُ أَنَّ هَذَا يَكْتُمُ الْمَعْرُوفَ بِالْفِعْلِ مَا حَفِلْتُ بِشَرْهِ
 لَهُ بِاللِّسَانِ ، وَأَيْنَ يَقَعُ مَدِيحُ اللِّسَانِ مِنْ آثَارِ الْعِيَانِ ! إِنْ اللِّسَانُ قَدْ
 يَكْذِبُ ، وَالْحَالُ لَا تَكْذِبُ ، وَلِلَّهِ دَرُّ نُصَيْبٍ حَيْثُ يَقُولُ :

فَعَاوُجُوا فَأَنْتَوُا بِالذِّى أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَنُوا أَثْنْتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ

ثُمَّ قَالَ : أَعْلِمْتُ أَنَّ نَاوُوسَ أَبْرِيزَ أَمْدَحُ لَأَبْرُويزَ مِنْ زَهِيرِ لَّالِ سِنَانٍ !

(١) الحب : الخاتية ، فارسي معرب (٢) برنكان على وزن زعفران :

ضرب من الأكسبة . (٣) أرض سبخة : ذات ملح ووزن

وقالت الحكماء : لسان الحال أصدق من لسان الشكر : وقد أجاد ابن الرومي في هذا المعنى فقال :

حَالِي تَبُوحٌ بِمَا أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنٍ فَكُلُّ مَا تَدْعِيهِ غَيْرُ مَرْدُودٍ
كُلِّي هِجَاءٌ وَقَتْلِي لَا يَحِلُّ لَكُمْ فَمَا يُدَاوِيكُمْ مَنِّي سِوَى الْجُودِ
وقالوا : شهادات الأحوال أعدل من شهادات الرجال

لَا يَمْدَحُونَ إِلَّا إِذَا أُعْطُوا

واعتذارهم عن ذلك

قالت بنو تميم لسلامة بن جندل : مجذنا بشعرك ، فقال : افعلوا حتى أثنى ، ونحوه قول عمر بن معة بئرك :

فَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقَتْنِي رِمَاحُهُمْ نَطَقْتُ وَلَكِنِ الرَّمَاحُ أَجَرَّتْ
وَأَجَرَّتْ : قطعت ، يقول : لو قاتل قومي أو أبوا لذكركت ذلك وغفرت به ، ولكن رماحهم أجزتني : أي قطعت لسانى عن الكلام بفرارهم ، أراد أنهم لم يقاتلوا .

وقال بعض الأكابر لأبي هفان ^(١) : مالك لا تمدحنى ؟ فقال :

لِسَانُ الشُّكْرِ تُنْطِقُهُ الْعَطَايَا وَيَخْرُسُ عِنْدَ مُنْقَطِعِ النِّوَالِ
وعاتب يوماً محمد بن عبد الملك الزيات الوزير أبا تمام على مدحه سواء فاعتذر إليه بأبيات يقول فيها :

أَمَّا الْقَوَافِي فَقَدْ حَصَلَتْ عُذْرَتُهَا فَمَا يُصَابُ دَمٌ مِنْهَا وَلَا سَلَبُ

(١) أبو هفان : هو عبد الله بن أحمد بن حرب المهزى العبدى ، راوية عالم بالشعر والغريب ، وشعره جيد إلا أنه مقل وهو من شعراء الدولة الهاشمية .

مَنَعَتْ إِلَّا مِنْ الْأَكْفَاءِ نَاكِحَهَا وَكَانَ مِنْكَ عَلَيْهَا الْعَطْفُ وَالْحَدَبُ
 وَلَوْ عَصَلَتْ عَنِ الْأَكْفَاءِ أَيْمَهَا وَلَمْ يَكُنْ لَكَ فِي أَظْهَارِهَا أَرْبُ
 كَانَتْ بَنَاتٍ نُصِيبَ حِينَ ضَنَّ بِهَا عَلَى الْمَوَالِي وَلَمْ تَحْفَلِ بِهَا الْعَرَبُ

« العذرة : البكارة ، والحذب : الإشفاق ، وعضل الأيتم : فالأيم : التي
 لأزواج لها بكرا كانت أو ثيبا والجمع : أيايم وأيايم ، وعضل الرجل أيمه
 يعضلها ويعضلها عضلا : منعهما الزواج طُلُمَا قال تعالى : فلا تعضلوهنَّ أن
 ينسكحن أزواجهنَّ ، نزلت في معقل بن يسار المزني - وكان زوج أخته
 رجلا فطلّقها ، فلما انقضت عدتها خطبها ، فآلى أن لا يزوجه إياها ورغبت
 فيه أخته فنزلت الآية ... وكان نصيب الشاعر الأسود له بنات وكان يرغب
 عن أن يزوجهن من الموالى ، والعرب لا ترغب فيهن ، فبقين بلا زواج ،
 قيل له يوما : ما حال بناتك ؟ فقال : صبت عليهن من جلدى فكسدن على ... ،
 وكتب هذا الوزير الزيات إلى أبي تمام يوما يحتج عليه بأنه يمدح غيره وأنه
 لو اقتصر عليه لأغناه وأن كثرة مدحه الناس زهدة فيه :

رَأَيْتُكَ تَسْمَحُ الْبَيْعَ سَهْلًا وَإِنَّمَا يُغَالِي إِذَا مَاضٍ بِالشَّيْءِ بَائِعُهُ
 هُوَ الْمَاءُ إِنْ أَجْمَعْتَهُ طَابَ وَرُدُّهُ وَيَفْسُدُ مِنْهُ مَا تَبَاحَ شَرَائِعُهُ
 فكتب إليه أبو تمام :

أَبَا جَعْفَرٍ إِنْ كُنْتَ أَصْبَحْتَ شَاعِرًا أَسْأَلُ فِي بَيْعِي لَهُ عَنْ أَبَائِهِ
 فَتَدَّ كُنْتَ قَبْلِي شَاعِرًا ذَارِوِيَّةً نَسْأَلُ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ بَضَائِعُهُ
 وَصِرْتَ وَزِيرًا وَالْوِزَارَةُ مَشْرَبٌ يَغْصُ بِهِ بَعْدَ الْأَذَاذَةِ كَارِعُهُ
 وَكَمْ مِنْ وَزِيرٍ قَدْ رَأَيْنَا مُسَلِّطًا رَأَيْنَاهُ قَدْ سُدَّتْ عَلَيْهِ مَطَالِعُهُ
 وَلِلَّهِ قَوْسٌ لَا تَطِيشُ سِهَامُهَا وَلِلَّهِ سَيْفٌ لَا تُقْلُ مَقَامِلُهُ

« يقول : إن سِهامَ الله مُصِيبَةٌ لَا تُخْطِئُ وَسِيفُهُ لَا يَئِثُّهُ ، فَهُوَ الَّذِي جَعَلَكَ
مُوزِيْرًا وَلَوْ شَاءَ لَأَنْزَلَكَ عَنْ دَسَنِكَ »

حُثِّمُوا عَلَى الشُّكْرِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ دِينُهُمْ

قال رجلٌ لسعيد بن جُبَيْر : المَجُورُ سَيُّئٌ يُؤَلِّينِي خَيْرًا فَأَشْكُرُهُ ، وَيُسَلِّمُ عَلَيَّ
فَأُرْدُّ عَلَيْهِ ؟ فقال سعيد : سألتُ ابنَ عَبَّاسٍ عَنْ نَحْوِ هَذَا ، فَقَالَ لِي : لَوْ قَالَ لِي
فِرْعَوْنُ خَيْرًا لَرَدَدْتُ عَلَيْهِ ... وَسَلَّمَ نَصْرَانِي عَلَى الشَّعْبِيِّ ، فَقَالَ الشَّعْبِيُّ :
وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، تَقُولُ لِهَذَا النَّصْرَانِي
وَرَحْمَةُ اللَّهِ ! فَقَالَ الشَّعْبِيُّ : أَلَيْسَ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ يَعْيشُ ؟ قَالَ : بَلَى ، قَالَ : فَا
وَجْهَ الْإِنْكَارِ عَلَى عَافَاكَ اللَّهُ وَرَحِمَنَا وَإِيَّاكَ بِرَحْمَتِهِ ؟

اِسْتَحْيَاؤُهُمْ مِنَ الْمَدِيحِ

وَلَا سِيًّا إِذَا كَانَ مُتَكَلِّفًا أَوْ مُبَالَغًا فِيهِ

سمع سيدنا رسول الله رجلاً يُثْنِي عَلَى آخَرٍ ، فَقَالَ : قَطَعْتَ مَطَاهُ ، لَوْ سَمِعَ
مَاءً فَالَحَ « الْمَطَا : الظُّهْر » وَقَالُوا : اِسْتَحْيَاؤُ الْكَرِيمِ مِنَ الْمَدْحِ أَكْثَرُ مِنْ اِسْتَحْيَاؤِ
اللَّيْمِ مِنَ الذَّمِّ ... وَأَثْنَى رَجُلٌ عَلَى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَقَالَ : إِنَّا نَكْرَهُ الْمَدْحَ ،
فَقَالَ : لَسْتُ أَمْدُحُكَ وَلَكِنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ فِيكَ ... وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِّيقُ
رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقُولُ إِذَا مُدِّحٌ : اللَّهُمَّ ، أَنْتَ أَعْلَمُ مِنِّي بِنَفْسِي مِنْهُمْ ،
اللَّهُمَّ ، اجْعَلْنِي خَيْرًا مِمَّا يَحْسِبُونَ ، وَاعْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ ، وَلَا تَوَاخِذْنِي
بِمَا يَقُولُونَ ... وَكَانَ رَجُلٌ يُكْثِرُ الثَّنَاءَ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ ، وَعَلِمَ مِنْ قَلْبِهِ خِلَافَ قَوْلِهِ ، فَقَالَ لَهُ : أَنَا دُونَ مَا تَقُولُ ، وَفَوْقَ
مَا فِي نَفْسِكَ ؛ وَقَالَ الْجَاهِظُ : شَرُّ الشُّكْرِ ، ثَنَاءُ الْمُوَاجِهَةِ لِكَ الْمُسْرِفِ فِي مَدْحِكَ ،

وخَيْرُهُ، ثناء الغائب عنك ، المقتصد في وَصْفِكَ . وقالوا : كنْ من أفرط في
تزكيتك أَحَدَر من أفرط في الزراية بك . وقالوا : مَنْ مَدَحَ الرجل بما ليس
فيه فقد بالغ في ذمِّه . وقال أبو فراس الحمداني :

ولا تَقْبَلَنَّ القولَ من كلِّ قائلٍ سأَرْضِيكَ مَرَأًى لست أَرْضِيكَ مَسْمَعاً
وقال الفضيل بن عياض : لو شِئْتُمْ راحمة الذنوب مني ما قَرِبتُموني ...
وأثني على زاهدٍ ، فقال : لو عَرَفْتَ مِنِّي ما عَرَفْتَ مِنْ نَفْسِي لَا بَغَضْتَنِي .
وقال المتنبي :

يُحَدِّثُ عَنْ فَضْلِهِ مُكْرَهاً كَأَنَّهُ لَهْ مِنْهُ قَلْباً حَسُوداً

من يمدح نفسه

خطب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه خُطبةً حسنةً ، فقال : هل من
خليل ؟ فقال رجل من عُرض الناس : خَلَّيْ لِحَلَلِي المُنْخَلِ ، فاستدعاه وقال :
ماذا لك الخلل ؟ قال : إعجابك به ومدحك له ... وقيل للحكيم : ما الذي لا يحسنُ
وإن كان حقاً ؟ قال : مدحُ الرجل نفسه ... وقال معاوية لرجلٍ : مَنْ سَيِّدُ
قومك ؟ فقال : أنا ، فقال له : لو كنتَ كذلكَ لم تَقُلْهُ ... ومن طُرفهم
في ذلك ما رَوَى عن بعض الشعراء أنه سُئِلَ : كيف أصبحتَ ؟ فقال : أصبحتُ
والله أظرفَ الناس وأشعرَ الناس وأدبَ الناس ، فقال السائل : آسكتَ حتى
يقول الناس ذلك ، فقال : أنا مُنْذُ ثلاثين سنةً أُنْتَظَرُ أن يقولَ الناسَ وليُسوا
يقولون ... ومدحَ أعرابي نفسه فعُوتِبَ في ذلك ، فقال : أأَكِلُهُ إِلَيْكُمْ إِذْنُ وَاللهِ
لا تقولوا أبداً ...

عذر من يُضطرّ إلى مدح نفسه

قال ابن الرومي في ذلك :

وَعَزِيزٌ عَلَى مَدْحِي لِنَفْسِي غَيْرَ أَنِّي جُشِّمْتُهُ الدَّلَالَةَ
وَهُوَ عَيْبٌ يَكَادُ يَسْقُطُ فِيهِ كُلُّ حُرٍّ يُرِيدُ يُظْهِرُ حَالَهُ

ووصف لابي جعفر المنصور بعض الأفاضل ، فأمر بإشخاصه إليه ؛ فلما دخل
قال له : أعالم أنت ؟ فقال : أكره أن أقول : نعم ، وفيه مافيه ، أو أقول : لا ،
فأكون جاهلا . فأعجب المنصور بحوايه وألزمه المهدي

نهيهم عن المدح قبل الاختبار

قالوا : لا تعرف قبل أن تعرف ، أى لا تمدح قبل التجربة ، وأصل الهرف :
الهديان قال الازهرى : الهرف : شبه الهديان من الإعجاب بالشئ . يقال : هو
يهرف بفلان نهاره كله هرفا ، وقالوا : لا تحمدن أمة عام شرايها ، ولا حرة
قبل بنائها ، قبل الدخول بها ، ... وقال رجل لعمر رضى الله عنه : إن فلانا
رجل صدق ، فقال : هل سافرت معه ، أو ائتمنته ؟ قال : لا ، فقال :
إذن لا تمدحه ، فلا علم لك به ، لعلك رأيته يرفع رأسه ويخفضه في المسجد

ختام الباب

عقريات شتى في الشكر

قال أبو ذر : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : الرجل يعمل العمل ويحبه
الناس ؟ قال : تلك عاجل بشرى المؤمن ... وقال صلوات الله عليه :
إذا أردتم أن تعملوا مالا لعبد عند الله فانظروا ماذا يتبعه من الشاء ...

وقال شاعر :

عُثْمَانُ يَعْلَمُ أَنَّ الْحَمْدَ ذُو ثَمَنِ لكنه يَشْتَهِي حَمْدًا بِمَجَانٍ
وَالنَّاسُ أَكْثَرُ مَنْ أَنْ يُحَمَّدُوا رَجُلًا

حتى يَرَوْا قَبْلَهُ آثَارَ إِحْسَانٍ

وقال معاوية بن أبي سفيان يُعَارِبُ قُرَيْشًا :

إِذَا أَنَا أُعْطِيتُ الْقَلِيلَ شَكَوْتُمْ وَإِن أَنَا أُعْطِيتُ الْكَثِيرَ فَلَا شُكْرُ
وَمَا لُمْتُ نَفْسِي فِي قَضَاءِ حُقُوقِكُمْ وَقَدْ كَانَ لِي فِيهَا اعْتَذَرْتُ بِهِ عُذْرُ
وَأَمْنَحُكُمْ مَالِي وَتُكَنَّرُ نِعْمَتِي وَتَشْتِمُ عَرِضِي فِي مَجَالِهَا فَهَرُ^(١)
إِذَا الْعُذْرُ لَمْ يُقْبَلْ وَلَمْ يَنْفَعِ إِلَّا سَيِّئُ وَضَاقَتْ قُلُوبُ مَنْهُمْ حَشُوهَا الْغَمْرُ^(٢)
فَكَيْفَ أَدَاوِي دَاءَكُمْ وَدَوَاؤُكُمْ يَزِيدُكُمْ غَيًّا ! فَقَدْ عَظُمَ الْأَمْرُ^(٣)
سَاحِرُكُمْ حَتَّى يَذِلَّ صِعَابُكُمْ وَأَبَاحُ شَيْءٍ فِي صَلَاحِكُمُ الْفَقْرُ^(٤)
وقال ابن الرومي :

كَمْ مِنْ يَدٍ بَيْضَاءَ قَدْ أَسَدَيْتَهَا تَنَنِي إِلَيْكَ عِنَانٌ كُلُّ وَدَادٍ
شَكَرَ إِلَهَهُ صَنَائِعًا أَوْلَيْتَهَا سَلَكَتْ مَعَ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَادِ
وقال الشريف الرضي :

أَلْبَسْتَنِي نِعْمًا عَلَى نِعَمٍ وَرَفَعْتَ لِي عِلْمًا عَلَى عِلْمٍ
وَعَلَوْتَ بِي حَتَّى مَشَيْتُ عَلَى بُسْطٍ مِنَ الْأَعْنَاقِ وَالْقِمَمِ
فَلَا شُكْرَ نِيْدِيكَ مَا شَكَرْتَ خُضِرَ الرِّيَاضُ مَصَانِعَ الدِّيمِ

(١) فهر : هو فهر بن غالب بن النضر بن كنانة ثم سمي به القبيلة وقريش كلهم ينسبون إليه (٢) الاسي : العلاج والدواء والإصلاح والعدل ، والغمر : الحقد (٣) الغي : الضلال (٤) يذل : ينقاد

فَالْحَمْدُ يُبْقِي ذِكْرَ كُلِّ قَتِيٍّ وَبَيْنُ قَدَرٍ وَوَاقِعِ الْكَرَمِ
وَالشُّكْرُ مَهْرٌ لِلصَّنِيعَةِ إِنْ طَلَبْتَ مُهُورَ عَقَائِلِ النَّعَمِ.

« القم جمع قمة : أعلى الرأس وأعلى كل شيء ، والديم جمع ديمة : المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق يدوم ثلث نهار أو ثلث ليل فأكثر ، والصنعة : ما أسديت من معروف ، والعقائل : كرائم الأموال ، وقال رجل لبعض ذوى السلطان : المواجهة بالشكر ضرب من الملق ، منسوب من عُرف به إلى التَّخَلُّقِ ، وأنت تمنعني من ذلك ، وترفع الحال بيننا عنه ، ولذلك تَرَكْتُ إِقَاءَكَ بِهِ ، غيرَ أني من الاعتراف بمعرفك ، ونشرِ مانتطوي منه ، والإشادة بذكره عند إخوانك ، والانتساب إلى التقصير مع الإطنا ب في وصفه ، على ما أرجو أن أكون قد بلغتُ به حالَ المُحْتَمَلِ للصَّنِيعَةِ النَّاهِضِ بحقِ النِّعْمَةِ . وقال أبو يعقوب الخَرَمِيُّ :

زَادَ مَعْرُوفَكَ عِنْدِي عِظَمًا أَنَّهُ عِنْدَكَ مَخْفُورٌ صَغِيرُ
تَنَاسَاهُ كَانَ لَمْ تَأْتِهِ وَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورٌ كَبِيرُ
وقال بعضهم : لا تنقِ بِشُكْرٍ مِنْ تُعْطِيهِ حَتَّى تَمْنَعَهُ ، فإن الصابر هو الشاكر ، والجازع هو الكافر ... وقال الشاعر :

إِذَا أَنَا لَمْ أَشْكُرْ عَلَى الْخَيْرِ أَهْلُهُ وَلَمْ أَذْمَعْ الْجَبَسَ اللَّيْمَ الْمَذْمُومًا^(١)
فَقِيمَ عَرَفْتُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ بِاسْمِهِ وَشَقَّ لِي اللَّهُ الْمَسَاسِعَ وَالْقَمَا
وقال ابنُ التَّوَعَمِ^(٢) : كُلُّ مَنْ كَانَ ، جُودُهُ يَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَلَوْلَا رُجُوعُهُ
إِلَيْهِ لَمَا جَادَ عِيَالُكَ ، وَلَوْ تَيَّمَا لَهُ ذَلِكَ الْمَغْنَى فِي مَوَاكٍ لَمَا قَصَدَ إِلَيْكَ ،
فَلَيْسَ يَجِبُ لَهُ عَلَيْكَ شُكْرٌ ، وَإِنَّمَا يوصف بالجود في الحقيقة ويُشكر على

(١) الجبس : النذل الذم . (٢) هو عقبة بن التوعم من رجال الحديث

النَّفْعَ فِي حُجَّةِ الْعَقْلِ ، الَّذِي إِنْ جَادَ عَلَيْكَ فَلَكَ جَادٌ ، وَنَفْعَكَ أَرَادَ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ جُودُهُ بِشَيْءٍ مِنَ النَّفْعِ عَلَى جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ ، وَهُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَإِنْ شَكَرْنَا النَّاسَ عَلَى بَعْضِ مَا جَرَى لَنَا عَلَى أَيْدِيهِمْ ، فَلَا مَرَيْنَ : أَحَدُهُمَا التَّعَبُّدُ ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَعْظِيمِ الْوَالِدِينَ وَإِنْ كَانَا شَيْطَانَيْنِ ، وَتَعْظِيمِ مَنْ هُوَ أَسْنُّ مِنَّا وَإِنْ كُنَّا أَفْضَلَ مِنْهُ . وَالْآخَرُ : لِأَنَّ النَّفْسَ مَا لَا تُحْصِلُ الْأُمُورَ وَتُمَيِّزُ الْمَعَانِيَ ، فَالسَّابِقُ إِلَيْهَا حُبٌّ ، مَنْ جَرَى لَهَا عَلَى يَدَيْهِ الْخَيْرُ وَإِنْ كَانَ لَمْ يُرِذْهَا وَلَمْ يَقْصِدْ إِلَيْهَا . أَلَا تَرَى أَنَّ عَطِيَّةَ الرَّجُلِ صَاحِبَهُ لَا تَخْلُو أَنْ تَكُونَ لِلَّهِ أَوْ لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ كَانَتْ لِلَّهِ فَثَوَابُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَكَيْفَ يَجِبُ فِي حُجَّةِ الْعَقْلِ شُكْرُهُ وَهُوَ لَوْ صَادَفَ ابْنَ سَبِيلٍ غَيْرِي لَمَا أَعْطَانِي ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ إِيَّايَ لِلذِّكْرِ ، فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّمَا جَعَلَنِي سُلْبًا إِلَى حَاجَتِهِ وَسَبِيلًا إِلَى بُغْيَتِهِ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ إِيَّايَ طَلِبًا لِلْمُكَافَأَةِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ تِجَارَةٌ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ لِحَرْفِ يَدِي أَوْ لِسَانِي أَوْ اجْتِرَارِ مَعُونَتِي وَنُصْرَتِي ، وَسَبِيلٌ هَذَا مَعْرُوفٌ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ لِلرَّحْمَةِ وَالرَّفَقَةِ وَلِمَا يَجِدُ فِي فَوَادِهِ مِنَ انْتِصَارِ الْإِلْمِ ، فَإِنَّمَا ذَاوِي بَيْتِكَ الْعَطِيَّةُ مِنْ دَانِهِ ، وَرَفَقَةٌ مِنْ خِنَاقِهِ ... وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

أُنْثِيَ عَلَيْكَ وَلِيَّ حَالٍ تُكَذِّبُنِي فَمَا أَقُولُ فَاسْتَجِبِي مِنَ النَّاسِ

قَدْ قُلْتَ إِنَّ أَبَا حَفِصٍ لَا كَرَمَ مِنْ بَمَشْيِ خِفَاصِنِي فِي ذَاكَ الْفَلَاسِ

وَكَانَتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَثِيرًا مَا تَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

يَجْزِيكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ وَإِنْ مِنْ أَثْنِي عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى

وَقَالُوا : خَمْسَةُ أَشْيَاءَ ضَائِعَةٌ : سِرَاجٌ يُوقَدُ فِي شَمْسٍ ، وَمَطَرٌ جَوْدٌ فِي

سَبْخَةٍ ، وَحَسَنَاءُ تُزْفُ إِلَى عَيْنَيْنِ ، وَطَعَامٌ اسْتُجِيدَ وَفُتِّمَ إِلَى سُكْرَانٍ ،

وَمَعْرُوفٌ صُنِعَ إِلَى مَنْ لَا شُكْرَ لَهُ ...

الباب الثالث

في الصبر وعقوباتهم فيه ، وفي الدنيا وأكدارها ، وفي هادم اللذات
ماذا يراد بالصبر في هذا الباب ؟

قال علماء اللغة : الصبرُ : نقيضُ الجزع ، أو حبسُ النفس عند الجزع ،
يقال : صبرَ فلانٌ عند المصيبة يصبرُ صبراً ، وصبرتهُ أنا : حبستهُ ، والتصبرُ :
تكلفُ الصبر ، قال عمر رضي الله عنه : أفضلُ الصبر : التصبرُ ... وقال الراغب
الأصفهاني في الذريعة : الصبرُ ضربان : جَسَمِيٌّ ونَفْسِيٌّ ، فالجَسَمِيٌّ : هو تحملُ
المشاقِّ بقدرِ القوة البدنية ، وأكثرُها لذوى الجسوم الحسنة ، وليس ذلك
لفضيلة تامة ، وذلك في الفعل كالمشي ورفع الحجر ، وفي الانفعال كالصبر
على المرض ، والنفسِيَّ - وبه تُسلَّقُ الفضيلة - ضربان : صبرٌ عن تناول
مُشْتَهَى ، ويقال له : العِفَّةُ ؛ وصبر على تحمل مكرهه أو تحبُّوب ، وهذا
تختلف أسماؤه بحسب اختلاف مواقفه ، فإذا كان في نزول مُصِيبَةٍ فإنه مما
استبدَّ به اسم الصبر ، وضده الجزع والهلع والحزن ، وإن كان في احتمال
عَنَى فقد سُمِّيَ ضبط النفس ويضادُّه الدَّقَعُ والبطَرُ ، ^(١) وإن كان في محاربة
سُمِّيَ شجاعة ويضادُّه : الجبن ، وإن كان في إمساك النفس عن قضاء وطر
الغضب سُمِّيَ حِلْماً ، ويضادُّه : التذمُّرُ ^(٢) ، وإن كان في نائية مُضْجِرَةٍ سُمِّيَ
سعة الصدر ؛ ويضادُّه ضيق الصدر والضجر والتبرُّم ، وإن كان في إمساك كلام

(١) الدقع : الرضا بالدون من المعيشة وسوء احتمال الفقر ، والبطر : الطغيان في النعمة

(٢) التذمر : الغضب ومنه : فلان حامى الذمار وهو كل ما يلزمك حفظه وحياطة .
وحمايته وما يجب على أهله التذمر له والغضب من أن ينال منه

في الضمير سُمِّيَ كتمان سرٍّ ، ويضادُّه : الإفشاء ، وإن كان في الإمساك عن فضولات العيش سمي قناعة وزهداً ، وهذا يضادُّه : الحرص والشره ...
« وبعد ، فها أنت ذا ترى بما أوردنا عليك من كلام الراغب : أن الصبر ألوانٌ ، ومن أخص ألوانه : الصبر على المصائب ، ذلك الذي يضادُّه الجزع وهذا اللون هو الذي سوف تتصدى له في هذا الباب ، أمّا سائر الألوان فإن لكل منها باباً لقد عقدناه فيما يلي هذا الباب من الأبواب .

عقرياتهم في الصبر

قال الراغب في فصل عنوانه « مداواة الغم وإزالة الخوف » مع شيء من التصرف : خُلِقَ بالإنسان أن يعلم أن الدنيا جَمَّةُ المصائب رَنَقَةُ المشارب تُثْمِرُ لِلْبَرِيَّةِ أضعافَ البلية^(١) ، فيها مع كلِّ لُقْمَةٍ عُصَّةٌ^(٢) ، ومع كلِّ جُرْعَةٍ شَرَقَةٌ^(٣) ، فهي عَدُوَّةٌ ومُحِبُّوبَةٌ كما قال أبو نواس :
إذا اَمْتَحَنَ الدُّنْيَا لَيْبَ تَكْشَفَتْ لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقٍ
وكما رَوَى عن الحسن البصري أنه قال : ما مثلنا مع الدنيا إلا كما قال كثير :

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَامِلُومَةٍ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتْ^(٤)

(١) البرية : الخلق ، وأضعاف البلية يريد البلية مضاعفة والبلية : المحنة

(٢) العصاة : الشجى - ما ينشب في الخلق من عظم وغيره

(٣) الجرعة من الماء : حسوة منه ، والشرقة : الغصة ولكنه بالماء والريق ونحوهما

قال عدي بن زيد :

لَوْ بَغَيْرِ الْمَاءِ حَلَقِي شَرِقُ كُنْتُ كَالْغَصَانِ بِالْمَاءِ اعْتَصَارِي

(٤) مقليّة : مكروهة ، وهتات بحذف إحدى التامين وتقلب الشيء : تبغض ، خاطب

كثيرهم غائب

فما أحَدٌ فيها إلا وهو في كلِّ حالاته غَرَضٌ لِسَماهاها :

تُناضِلُهُ الآفاتُ مِنْ كُلِّ جانبٍ فَتُخَطِّئُهُ يَوْماً وَيَوْماً تَصِيْبُهُ ^(١)

وقال بعض الحكماء : أسباب الحزن فَقْدُ محبوبٍ أو فوتُ مطلوبٍ ، ولا يَسْلَمُ منهما إنسان ، لأن الثبات والدوام معدومان في عالم الكون والفساد فمن أَحَبَّ أن يعيش هو وأهله وأحبائه سالمين فهوَ غيرُ عاقل ، لأنه يريدُ أن يَمْلِكَ ما لا يَمْلِكُ ، ويوجد له ما لا يوجد ، فحقيقٌ بالمرء أن لا يُخْلِى قلبه من الاعتبار بما يَرى ، من ارتجاع لودائعها من أربابها ، وحلول لنوائبها بأصحابها .

ثم من حَقَّه أن يقلل من اقتناء ما يورثه الحزن ، فقد قيل للحكيم : لم لا نغتم ؟ فقال : لأنى لم آتِنِ ما يُغْنِي فَقْدَهُ ، أخذه الشاعر فقال :

فَنَ سَرُّهُ أن لا يَرى ما يسوؤُهُ فلا يَتَّخِذُ شيئاً يخاف له فَقْداً

وقيل للحكيم : هل الإنسان أن يعيش آمناً ؟ قال : نعم ، إذا احتسب من الخطيئة ، وتنبع بحلاله ، ولم يحزن لما هو واقع به لاحالة . واعلم أنَّ الجزع على ما فات لا يُلْمُ ما شَعَثَ ولا يُبْرِمُ ما انتكثَ ، فأما غمُّه على المستقبل فلا يخلو من ثلاثة أوجه : إمَّا في شيء ممتنع كونه ، أو واجب كونه ، أو ممكن ، فإن كان على ما هو ممتنع كونه فليس ذلك من شأن العقلاء ، وكذلك إذا كان من قبيل الواجب كونه ، كالموت الذى هو حتمٌ في رقاب العباد ، وإن كان ممكناً كونه فإن كان من الممكن الذى لا سبيل إلى دفعه كما كان الموت قبل الهرم فالحزن له جهل ، واستجلابٌ غمٍّ ، وإن كان من الممكن الذى يصح دفعه فالوجه أن يحتال إلى دفعه بفعلٍ غير مشوبٍ بحزن ، فإن دفعه وإلا

(١) ناضله مناضلة فتضله : باراه في الرى نغلبه

تلقاه بصبرٍ، وليتحقق قوله عز وجل: ما أصاب من مُصيبةٍ في الأرض ولا في أنفسكم، فمن عَلِمَ أنَّ ما جرى في حكمه، وسَبَقَ في عِلْمِهِ لاسيلا إلى أن لا يكون، هانت عليه الذُّوبُ، واعلم أن الذي يُغَرُّ النَّاسُ هو حسنُ ظَنِّهم باغترارِ الآفات، واغترارُهم حالة بعد حالة بصفاء الأوقات، ولو تأملوها لتحقوا أنها كما قال عليُّ رضي الله تعالى عنه: ما قال الناس لقرمِ طوبى لكم إلا وقد خبأَ الدهرُ لهم يومَ سوءٍ:

إِنَّ اللَّيَالِيَّ لَمْ تُحْسِنْ إِلَى أَحَدٍ إِلَّا أَسَاءَتْ إِلَيْهِ بِمَدِّ إِحْسَانٍ

انتهى كلام الراغب، ومن أبدع ما قيل في الصبر والجزع قول ابن الرومي:

أَرَى الصَّبْرَ مَحْمُودًا وَعَنهُ مَذَاهِبٌ فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنْهُ مَذْهَبُ^(١)
هُنَاكَ يَحِقُّ الصَّبْرُ وَالصَّبْرُ وَاجِبٌ وَمَا كَانَ مِنْهُ كَالضَّرُورَةِ أَوْجِبُ^(٢)
فَقَدْ أَمَرُوا بِالصَّبْرِ كَمَا فَإِنَّهُ لَهُ عِصْمَةٌ أَسَابُهَا لَا تَقْضُبُ^(٣)
هُوَ الْمَهْرَبُ الْمُتَنَجِّي لِمَنْ أَحْدَقَتْ بِهِ مَكَارِهِ دَهْرِ لَيْسَ مِنْهُمْ مَهْرَبُ^(٤)
أَعْدُو خِلَالًا فِيهِ لَيْسَ لِعَاقِلٍ

من الناس - إن أنصفن - عنهن مرغب^(٥)

لبؤس جمال، جُنَّةٌ من شماتةٍ شفاء أسي يُثْقَى به ويُشَوَّبُ^(٦)

(٢٠١) يقول: إن صبر الإنسان على ما يناله من مكروه أو عما يريد نيله من محبوب: محمود، ولو أنه يجد طرقا كثيرة يتخلص بها من المكروه أو يحصل بها على الرغائب، فكيف إذا لم يجد وسيلة إلى إزالة المكروه أو إدراك المرغوب؟ لا شك أن الصبر إذن واجب وما كان منه أشبه بالضرورة أعظم وجوبا

(٤٠٣) فشد أمرؤ بالصبر كفا يقول: خُلق بالمرء أن يستظهر بالصبر على تحمل المكروه، إذ أن الصبر عصمة وثيقة لا تنقطع حبالها فتعم الملاجأ هو لمن أحاطت به نوائب الدهر التي لا محيص عنها

(٦٠٥) يقول: إن في الصبر خلا لا يلبق بعاقل أن يتركها إذا كان هناك إنصاف

فَيَا عَجَبًا لِلشَّيْءِ هَذَا خِلَالَهُ وَتَارَكَ مَا فِيهِ مِنَ الْحِظِّ أَعْجَبُ
 وَقَدْ يَتَظَنَّى النَّاسُ أَنَّ أَسَافَهُمْ وَصَبْرَهُمْ فِيهِمْ طِبَاعٌ مُرَكَّبٌ ^(١)
 وَأَنَّهُمَا لَيْسَا كَشَيْءٍ مُصَرَّفٍ يُصَرِّفُهُ ذُو نَكْبَةٍ حِينَ يُنْكَبُ
 فَإِنْ شَاءَ أَنْ يَأْسَى أَطَاعَ لَهُ الْآسَى وَإِنْ شَاءَ صَبَرَ اجْتَاهَدَ الصَّبْرُ يُجْلَبُ
 وَلَكِنْ ضَرُورِيَانِ كَالشَّيْءِ يُبْتَلَى بِهِ الْمَرْءُ مَغْلُوبًا وَكَالشَّيْءِ يَذْهَبُ
 وَأَيْسَا كَمَا ظَنُّوهُمَا ، بَلْ كِلَاهُمَا لِكُلِّ لَيْبٍ مُسْتَطَاعٌ مُسَبَّبٌ ^(٢)
 يُصَرِّفُهُ الْمُخْتَارُ مِنَّا ، فَتَارَةً يُرَادُ فَيَأْتِي أَوْ يُذَادُ فَيَذْهَبُ ^(٣)

ومعدلة، وهذه الخلال هي : أن الصبر لبوس جمال ، أى أنه زينة وحلية جميلة ، وأنه جنة من شتامة ، أى وقاية من فرح الإعدام بما يصاب به المرء :

وَتَجَلَّدِي لِلشَّامِتِينَ أَرْبَهُمْ أَنْ لَرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ
 وأنه شفاء أسى ، أى مذهب للحزن ، وأنه يثنى به ، أى أنه مدرجة للحصول على الثناء ، وأنه يشوب ، أى يجازى عليه

(١) يتظنى أصلها : يتظن ، أى يعملون الظن ، أى يذهبون مع ظنهم ، والآسى : الحزن ، وطباع : أى طبع ، يقول : وقد يظن الناس أن الحزن والصبر طبع ، لا حيلة لمن طبعه الحزن في أن يصبر ، ولا لمن طبعه الصبر أن يحزن ، ثم قال في البيت التالى : وأن كلا الحزن والصبر ليسا من الأشياء التى يمكن تحويلها من حال إلى حال حتى يحولها المنكوب المصاب فإذا أراد الحزن أطاعه الحزن وإن أراد الصبر والتجلد جلبا إليه - وهذا معنى قوله فإن شاء ... البيت ، ثم قال : ولكن يظن الناس أن كلا من الآسى والصبر ضروريان كأن الحزن شئ يملك على الإنسان أمره لا حيلة له فى التخلص عنه وكذلك الصبر ترى الإنسان يصبر كما لو ضاع منه شئ لا بد أن يتحمل فقدسه أى يصبر على ضياعه ثم فند هذا بقوله : وليسا كما ظنوهما ... الايات

(٢) يقول : وليس الحزن والصبر كما يظنهما الناس وإنماهما بما يقدر عليه ومن المستطاع التصرف فيهما والتسبب لتحويل كل منهما وتركه إلى الآخر

(٣) المختار : ذو الإرادة ، ويذاد : يدفع ويبعد

إذا احتجَّ مُخْجَجٌ عَلَى النَّفْسِ لَمْ تَكُنْ عَلَى قَدَرٍ يُمْنِي لَهَا تَتَعَبُّ (١)

وساعدها الصبرُ الجميلُ فأقبلتُ إليها طوعاً جُنَائِبُ يُجْنَبُ (٢)

وإن هو مَنَّاها الأباطيلَ لم تزلْ تُقَارِلُ بِالْعَتَبِ الْقَضَاءُ وَتُغْلِبُ (٣)

فَتُضْحِي جَزوعاً إنْ أَصَابَتْ مُصِيبَةٌ وَتُتَمْنِي هَلُوعاً إنْ تَعَذَّرَ مَطْلَبُ (٤)

فلا يَعْدِرَنَّ التَّارِكُ الصَّبْرَ نَفْسَهُ بِأَنْ قِيلَ: إِنَّ الصَّبْرَ لَا يُتَكَسَّبُ (٥)

وقال الأصمعيُّ: أحسنُ ما قيلَ في الصبرِ مع الشرحِ قولُ أبي ذؤيبِ الهذلي:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمْ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ

حَتَّى كَأَنِّي لِلْحَوَادِثِ مَرْوَةٌ بِصَفَا الْمُشَقَّرِ كُلِّ يَوْمٍ تُقْرَعُ

ولا أتضعع: لا أذلُّ ولا أخضع، وريب الدهر: صرْفُهُ، والمرْوَةُ واحدة

المرْوَة وهي: حجارة بيض براقه يقدح منها النار: ومرْوَة المَسْعَى التي تذكر مع

الصفا في الحج- وهي أحد رأسيه اللذين ينتهي السعي إليهما- سميت بذلك، وبصفا

(١) يعني: يقدر يقول: إذا أقمت للنفس الدليل على أن الصبر اختياري مكتسب

ثم أمت بها المصائب فإنها تقنع ولا تعتب على القضاء والقدر

(٢) الجنائب جمع جنيب وهو الفرس يجنب إلى الفرس حتى إذا فتر المركوب ركب

المجنوب، وله متعاقب بجنائب أي جنائب للصبر، يقول: متى اطمأنت النفس إلى الدليل

على أن الصبر مكتسب وتركت عتاب القدر ساعدها على تحمل مصائبها صبر جميل

يواتها مسعفاً

(٣) يقول: أما إذا تركت النفس تذهب مع الأوهام والأباطيل فإنها لا تزال في

عتب على القضاء والقدر مما أصابها ولا تزال أعتب عبتاً وبلا فائدة حتى تقهر وتغلب

(٤) الهلوع: الجزوع شديداً يقول: فيشتد جزعها إذا أصابها مصيبة ويشتد

أكثر إذا فاتها مطلب من مطالبها

(٥) يقول: لا عذر لمن يترك الصبر اغتراراً بقول القائل: إن الصبر طبع غير

مكتسب إذ ظهر أن هذا القول باطل وأن الحق أن الصبر اكتسابي

المَشْقَرُ يروى : بَصْفَا المَشْرِق ، أما المَشْقَرُ فهو : موضع أو حصن بالبحرين قديم بناه كسرى ، والمَشْرَقُ فهو : جبل يسوق الطائف ، والصفاء : جمع صفاة : صخرة ملساء وبه سمي أحد جبلي المسعى ؛ وهذان البتان من قصيدة أبي ذؤيب ^(١) التي يرثي بها بنيہ الخمسة وقدماتوا في عام واحد ، وأولها :

أَمِنَ المَنُونِ وَرَبِيهِ تَوَجَّعُ والدَّهْرِ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مَن يَجْزَعُ ^(٢)
قالت أُمَامَةُ : مَا لِي جِسْمِكَ شَارِحًا مُنْذُ ابْتُلَيْتَ وَمِثْلُ مَا لِكَ يَنْفَعُ ^(٣)
أَمْ مَا لِي جِسْمِكَ لَا يَلَانُ مَضْجَعًا إِلَّا أَقْضَ عَلَيْكَ ذَاكَ المَضْجَعُ ^(٤)

يروى أن عبد الله بن عباس رضى الله عنه استأذن على معاوية في مرض موته ليعودته ، فأدھن واكنحل - أى معاوية - وأمر أن يُقعدَ ويسند وقال : إنذّنوا له ، وأُيسلم قائما ولينصرف ، فلما سلم عليه وولى ، أنشد معاوية قول أبي ذؤيب : وتجلدى للشامتين ... أليت : فاجابه ابن عباس على الفور :

وَإِذَا المَنِيَّةُ أَتَشَبَّتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ
ثم ما خرج من داره حتى سمع نعيه ... وقال ضابط بن الحارث البرجعي من أبيات قالها في سجن عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضى الله عنه :

وَرُبَّ أُمُورٍ لَا تَضِيرُكَ ضَيْرَةٌ وللقلب من نَحْشَائِهِنَّ وَجِيبُ
وَلَا خَيْرَ فِي مَنْ لَا يُوْطِنُ نَفْسَهُ على نَائِبَاتِ الدَّهْرِ حِينَ تَنْوُبُ

-
- (١) أبو ذؤيب الهذلي : شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم
(٢) المنون هنا : الدهر فلذلك ذكره ، ومن أراد به المنية آتته ، معتب : مزيل عتبة ، أى مُرِضُ
(٣) ومثل مالك ينفع ، يقول : ما لجسمك شاحبا ومثل مالك لا يكون معه هزال ولا شحوب لأنه واسع مبذول
(٤) إلا أقض عليك ذاك المضجع : أى تجده كأن فيه قضة وهي : الحصى الصغار

« قوله : لا تضيرك ضيرة ، فالعرب تقول : ضارُهُ يضيرُهُ ضيراً وضيرةً -
 المرة من الضير - ولا ضيرٌ عليك ، وضرةٌ يضُرُّه ولا ضررٌ عليه ، والمحشاة :
 مصدر خشية يحشاه خشية ومحشاة ومحشية : خافه ، وفي معنى هذا البيت يقول
 أبو العتاهية :

وقد يهلك الإنسان من بابٍ أتته وينجو بإذن الله من حيث يحذرُ
 والأصل في هذا قوله عز وجل : وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله
 فيه خيراً كثيراً ، وقوله : ولا خير فيمن لا يوطن نفسه ... البيت : نظيره
 قول كثير عزة :

أقول لها : يا عَزْزُ ، كلُّ مُصِيبَةٍ إذا وطَّنت يوماً لها النفس ذاتُ

قال عبد الملك : لو قال كثير هذا البيت في صفة الحرب لكان أشعر الناس ،
 وفي الأثر : للمحن أوقاتٌ ولها غايات ، واجتهاد العبد في محنته قبل إزالة الله لها ،
 زيادة فيها قال تعالى : إن أرادني الله بضرٍ هل هُنَّ كاشفاتُ ضرِّه أو أرادني
 برحمةٍ هل هُنَّ مُنسيكاتُ رحمته ، قلُ حَسْبِيَ اللهُ عليه يتوكلُ المتوكلون ...
 وقولوا : المُمْتَحَنُ كالمُحْتَنَقِ كلما ازدادَ اضطراباً ازدادَ اختناقاً ... وحكى عن
 بعض الصالحين : أذا بنا له مات فلم يرَ به جزئٌ ، فقيل له في ذلك فقال : هذا أمرٌ
 كنا نتوقعه ، فلما وقع لم نُنكره ... وقالوا : من أراد طولَ البقاء فليوطن نفسه
 على المصائب ؛ وقالوا : المصيبة للصابر واحدة وللجاذع اثنتان ، وقال أكرمُ بن
 صَيْفِي : حيلةٌ من لا حيلةَ له : الصبر . وسيد الكلام في الصبر قول المصطفى
 صلوات الله عليه : لو كان الصبرُ رجلاً لكان رجلاً كريماً الكريم ضد اللئيم ،

عود إلى أسباب الحزن

وقال الفيلسوف أبو يعقوب الكِنْدِيُّ : أسباب الحزن : فَقَدْ محبوب ، أُرِ
 بُوتُ مطلوب ، ولا يَسْلُمُ منهما إنسانٌ ، لأنَّ الثَّباتَ والدوامَ معدومان في
 عالمِ الـكَوْنِ والفساد ؛ وقال الحسن البصري : الدنيا دارُ غُمرٍ ، فمن عُوِجَلَ
 فُجِعَ بنفسه ، ومن أَجَلَ فُجِعَ بأجابه ؛ وقال بعض الفلاسفة : مَنْ أراد أن
 لا يُصابَ بِمُصِيبَةٍ ، فقد أرادَ ما لا يكون ، لأن المصائب في عالم الـكَوْنِ والفساد
 طبع بالطبع ؛ فيدبغى أن يكون منا على بال : أن جميع الأشياء التي تَصِلُ إلينا
 كانت قَبْلَنا لغيرنا ، فانتقلت إلينا على شريطة ما كان لمن قَبْلَنا ... وقيل لِسُقْرَاطَ :
 مالك لا تَجْرُعُ ؟ قال : لأنني لا أَفْتِنِي ما يَحْزِنُنِي فَقَدُهُ ... وقال ابن الرومي في
 هذا المعنى :

وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ لَا يَرَى ما يَسُوؤُهُ فَلَا يَتَّخِذْ شَيْئًا يَخَافُ لَهُ فَقْدًا
 أَقول : يريدون بذلك : أنه لا بُدَّ في هذه الدنياء من المصائب مادام ، هناك
 قُتْبِيَّةٌ من مال وولد وما إليهما من كل ما هو مُسْتَهْدَفٌ لِسَهَامِ الأَيام ، ومن
 أراد أن لا يصابَ فَلَا يَقْتَنِي ما يَسُوؤُهُ فَقَدُهُ - وَالْقَنِيَّةُ لا بُدَّ منها في هذه الحياة
 الدنيا ، وإذن لا بد من توطين النفس وإعدادها لتَلْقَى المصائب ... وإذا كان
 هناك مَنْ يترامى بمثل هذا الكلام إلى الحثِّ على الزهد ، فهذا مَرْمَى آخر ،
 منهم مَنْ يَفْرَعُ إليه لمثل هذا الغرض - تَوَقَّى المصائب ما أمكن - ولا غراض
 أخرى تراها بعد ... وقالوا : الجزعُ مَنْقَصَةٌ للحياة ، ومن أعان على نُقْصَانِ
 حياته ، فقد عَظُمَتِ خطيئته ... وقالوا : التأسف على الفائت تضييع وقتٍ
 ثانٍ ، إن كنتَ جازِعًا لما أَفَلَتْ منك فاجزَعْ على ما لم يَصِلْ إليك ؛ وقال

على كَرَمِ اللَّهِ وجهه : الصبر مَطِيَّةٌ لَا تَكْبُو ، والقناعةُ سَيْفٌ لَا يَنْبُو . وقال
 عمر رضى الله عنه : لو كان الصبرُ والشكرُ بَعِيرَيْنِ مَابَايْتُ أَيُّهُمَا رَكِبْتُ ؛
 وقيل : الصبرُ يُنَاضِلُ الحَدَثَانِ ، والجَزَعُ من أَعْوَانِ الزَّمَانِ ، وما فى الشكوى
 إِلَّا أَنْ تُحْزِنَ صَدِيقَكَ وَتُشْمِتَ عَدُوَّكَ ؛ وقيل : اجْعَلْ صَبْرَكَ عَلَى النَوَائِبِ
 كِفَاءً شُكْرَكَ عَلَى الْمَوَاهِبِ ، الصبرُ عِنْدَ النِّقَمِ ، والشكرُ عِنْدَ النِّعَمِ ، وقال
 حكيم : جَمِيعُ مَكَارِهِ الدُّنْيَا تَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ ، ضَرْبٌ فِيهِ حِيلَةٌ ، فَالْاضْطِرَابُ ^(١)
 دِرَاوَةٌ ، وَضَرْبٌ لَا حِيلَةَ فِيهِ ، فَالصَّبْرُ شِفَاؤُهُ ، وَقَالَتِ الْفُرْسُ : كَلِمَتَانِ
 يَقُولُهُمَا الْعَاقِلُ عِنْدَ نَائِبَتِهِ : إِحْدَاهُمَا : هَذِهِ الْحَالُ خَيْرٌ مِمَّا هُوَ شَرٌّ مِنْهَا ،
 وَالْآخَرَى : اءَلَّ اللَّهُ أَنْ يَحْمَلَ فِي هَذَا الْمَكْرُوهِ خَيْرًا وَكَلِمَتَانِ يَقُولُهُمَا الْجَاهِلُ :
 لَعَلَّ مَا أَصَابَنِي يَدْعُو إِلَى شَرٍّ مِنْهُ ! وَالْآخَرَى : لَوْ كَانَ بَدَلُ كَذَا كَذَا مِنْ
 الْمَصِيبَةِ ! وَقَالُوا : الصبر على مرارة العاجل ، يُفِضُ إِلَى حَلَاوَةِ الْآجِلِ ،
 إِنَّكَ لَا تَنَالُ قَلِيلَ مَا تُحِبُّ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَى كَثِيرِ مَا تَكْرَهُ ، وَقَالُوا : لِكُلِّ شَيْءٍ
 ثَمَرَةٌ ، وَثَمَرَةُ الصَّبْرِ الظَّفَرُ ، وَالصَّبْرُ كَاسِيهِ ، وَعَاقِبَتُهُ الْعَسَلُ ، . وَالصَّبْرُ عَلَى
 الْمَصِيبَةِ مُصِيبَةٌ عَلَى الشَّامِتِ . وَقَالَ عَلِيٌّ : إِنْ صَبَرْتَ فَأَنْتَ مُأْجِرٌ ، وَإِنْ جَزِعْتَ
 جَرَى عَلَيْكَ الْمَقْدُورُ .

حُثُّهُمْ عَلَى تَصَوُّرِ الْمَصَائِبِ

وَالِاسْتِعْدَادَ لَهَا كَيْ تَخِفَّ وَطَأُهَا

وَقَالُوا فِي ذَلِكَ : مَنْ كَانَ مُتَوَقِّعًا ، لَمْ يُلَفَّ مُتَوَجِّعًا ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ

(١) الاضطراب : يريد : الحركة والاحتياال في دفعه

- قيل لابن الرومي، ولم أرها في ديوانه، وإن كانت أشبه بمذهب ابن الرومي - :

أَلَمْ تَرَ رُزْءَ الدَّهْرِ مِنْ قَبْلِ كَوْنِهِ كِفَاحًا إِذَا فَكَّرْتَ فِي الْخَلَوَاتِ
فَمَا لَكَ كَالرَّمِيِّ فِي مَأْمَنِ لَهُ يَبْتَلِ أُنْتَهُ غَيْرَ مُرْتَقَاتِ
فَإِنْ قُلْتَ مَكْرُوهٌ أَنَا فِي فُجَاءَةٍ فَمَا فُوجِئْتُ نَفْسٌ مَعَ الْخَطَرَاتِ
وَلَا عُوقِبْتُ نَفْسٌ يَبْلُوَى وَقَدْرَاتِ عِظَاتٍ مِنَ الْإِيَّامِ بَعْدَ عِظَاتِ
إِذَا بُعِثَتْ أَشْيَاءٌ قَدْ كَانَ مِثْلُهَا قَدِيمًا فَلَا تَعْتَدُهَا بَغَاتِ
وهذه الآيات من الوضوح والإنارة بحيث لا يعوزها شرح ، وقالوا :
ما أمتع الدهرُ إلا ليمع ، ولا أعطى إلا ليسترِد ، ولولا اغترارُ الجاهل
بعوائده ، لحلَّتِ النفوسُ من الحسرة على نواته ، وقالوا : لا تُخِلْ فِكْرَكَ
من عوارض الفكر وخواطر الذكر فيما تعروك به الأيام ، من ارتجاع
ودائرها ، وحلول وقائدها ، - وهذا ما قاله ابن الرومي آنفا ،

الغمّ يورث السقم والهَرَمَ

قال المتنبي :

وَالْهَمُّ يَخْتَرِمُ الْجِسْمَ نَحَافَةً وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيُهْرِمُ
« يخترم : يستأصل ويقطع ، والجسيم : العظيم الجسم ، والنحافة : الهزال ،
والناصية : شعر مقدم الرأس ، يقول : إن الحزن إذا استولى على
المرء أذهب جسمَ العظيم الجسد وهزله حتى يأتي عليه من الهزال ، ويشيب
الصبي قبل الأوان حتى يصير كالهرم من الضعف والعجز » ... وسئل عبد الله
ابن عباس عن الحزن والغضب فقال : أصلاهما واحد ، وذلك وقوع الأمر

على خلاف المحبة ، فأما فرعاها فمَحَبَّةٌ لِمَن ، فالمكروهُ مَنْ فوقك ينتج حزنا
ومَنْ دونك يُنتِجُ غضبا

هـ فحزنُ كلِّ أخٍ حُزنٌ أخو الغضب ^(١) *

الحزن يبلى بتقادم العهد

وقالوا في الحزن يبلى بعد انقضاء مُدة : الحُزنُ يَنْضُو عن ابن آدم كما
يَنْضُو الصَّبْغُ عن الثوب ^(٢) ولو بَقِيَ لَقَتَلَهُ .

وقال المتنبي :

إذا اسْتَقْبَلَتْ نَفْسُ الْكَرِيمِ مُصَابَهَا يَحْبُثُ ثَلَتْ فَاسْتَدْبَرَتْهُ إِطْيَبِ
وَالْوَاجِدِ الْمَكْرُوبِ مِنْ زَفَرَاتِهِ سُكُونٌ عَزَاءٍ أَوْ سُكُونٌ لُغُوبِ

هـ قوله : إذا استقبلت ... ألبت ، فالمصاب مصدر بمعنى الإصابة ، والحبث
هنا : الجزع ، والطيب هنا : الصبر وترك الجزع ، وثنت : صرقه - أى الجزع-
النفس ، يقول : إذا جزع الكريم - ضد اللثيم - فى أول نزول المصيبة ،
وراجع أمره ، عاد إلى الصبر والتسليم ، ومَنْ لم يُوطِّنْ نفسه على المصيبة فى
أول الأمر صُعِبَ عليه عند وقوعها . وقوله : وللواجد المكروب ... ألبت

(١) للمتنبي فى مراثيه التى يرنى بها أخت سيف الدولة وأوله :

جَزَاكَ رَبُّكَ بِالْأَحْزَانِ مَغْفِرَةً حُزْنُ كُلِّ أَخٍ حُزْنُ أَخُو الْغَضَبِ
يقول : غفر الله لك أحزانك إذا حزنت مما يستغفر منه ، لأن الحزن كالغضب من هو دونك إذا
أصابك بما تذكره والحزن من هو فوقك ، والإنسان إذا حزن على مصيبة تصديه فكأنه يغضب
على القدر حيث لم يجر بمراده ، والغضب على المقدور مما يستغفر منه

(٢) يقال : نضاً الخضاب ونضوا : ذهب لونه ونصل

يقول : لا بُدَّ للمحزون من سكون ، إما أن يَسْكُنَ عَزَاءً ، أو يَسْكُنَ إعياءً ،
وإذن تحقيق بالعافل أن يَسْكُنَ تَعَزُّياً ، كما قال محمود الوراق :
إذا أنت لم تَسَلْ اضطِباراً وحِسْبَةً سلوت على الأيام مثل البهائم
وكما قال أبو تمام :

أَتَصْبِرُ لِلْبَسَلَوَى عَزَاءً وَحِسْبَةً فتُوجِرَ أم تَسْلُوا سُلُوَ الْبَهَائِمِ
« الحسبة : طلب الأجر والثواب ،

ومن أحسن ما قيل من الشعر القديم ، في أن الحزن يبلى إذا تقادم عهده
قول أبي خراش الهذلي - شاعر مخضرم أسلم وهو شيخ كبير ، يوم حنين - :
على أنها تَعْفُو السُّكُومُ ، وإنما تُوكَلُّ بِالْأَذَى وإنْ جَلَّ مَا يَمْضِي
وقبل هذا البيت :

حَدَّثَ إِلَهِي بَعْدَ عُرْوَةٍ إِذْ نَجَا خِرَاشٌ ، وَبَعْضُ الشَّرَّاهُونَ مِنْ بَعْضِ
فَوَاللهُ : مَا أَنتَسَى قَبِيلاً رُزْنَتَهُ بِجَانِبِ قَوْسَى مَا مَشَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ
على أنها تغفو الكلام ... البيت

ولم أَذِرْ مَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ على أنه قد سُلَّ عن ماجد مُحَضِّصٍ
وكان من حديث هذا الشعر ، أَنَّ عُرْوَةَ بِنَ مُرَّةَ أَخَا أَبِي خِرَاشٍ ، وَخِرَاشُ
ابْنُ أَبِي خِرَاشٍ ، اصْطَحَبَا فِي مُتَصَرِّفٍ لهُمَا : فَأَسْرَمَا بَطْنَانِ مِنْ
ثَمَالَةَ : بَنُو رَازِمٍ وَبَنُو بِلَالٍ - وَكَانَا مَوْتُورَيْنِ - فَاخْتَلَفَا فِي الْإِبْقَاءِ
عَلَيْهِمَا وَقَتْلَهُمَا ، فَقَالَ بَنُو بِلَالٍ إِلَى قَتْلِهِمَا ، وَتَفَاقَمَ الْأَمْرُ بَيْنَهُمَا فِي ذَلِكَ ، إِلَى
أَنْ صَارَ يُودَى إِلَى الْمَقَاتِلَةِ ، فَتَفَرَّدَ أُولَئِكَ بِعُرْوَةَ قَتَلُوهُ ، وَتَفَرَّدَ هَؤُلَاءِ بِخِرَاشٍ
فَخَلَا بِهِ وَاحِدٌ مِنْهُمْ : مُسْتَهْزِئاً لِلْفُرْصَةِ فِي الْإِسْدَاءِ ، فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ دَلِيلَاكَ ؟
فَقَالَ : قِطَاعٌ ، فَأَلْقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ وَقَالَ : أَنْجُ ، فَمَرَّ لِطَيْتِهِ ، فَلَمَّا انْحَرَفُوا لِلنَّظَرِ

في أمره قال لهم مُسِكُّهُ ! إنه أفلتَ ، فطردوه - أى تَبِعُوا خراشا - فأعيامهم ، فلما وصل خراش إلى أبيه وخبرته بما جرى على عُرْوَةٍ وبما آتفق من صاحبه في بابه ، اقتَصَّ قِصَّتَهُ في هذه الآيات ... وقوسى اسم مكان ، وقوله : على أنها تعفو الكلام ... أليبت فإن هذا يجري مجرى الاعتذار منه والاستدراك على نفسه فيما أطلقه من قوله : « لا أنسى قتيلا رُزئتَه ما مشيت على الأرض » أى مدة حياتي ؛ والضمير في أنها : للقصة ، وخبر أن : الجملة بعدها ؛ والعفاء : الدروس والذهاب ؛ والكلام جمع كلم ؛ ويعني به : الحز عند ابتداء الفجیعة ، وجلَّ : عَظُمَ ؛ يقول : لا أنساه ولو طال عهده وعفت آثاره ؛ وإنما قال هذا لأن الإنسان يُؤَكِّلُ بالجزع المصيبة القريبة العهد ؛ فأما المتقادم من الارزاء فإن مُضَى الزَمَن يُغْفِيهِ . وقوله : ولم أدر ... أليبت ؛ قال الاصمعي وأبو عبيدة لانعرف من مدح من لا يعرفه غير أبي خراش ،

التأسي بمن مصابه كمصاب المصاب أو يُرَبِّي عليه

وقولهم في عكس ذلك

أما قولهم في عكس ذلك فأحسن ما قيل فيه قول ابن الرومي :

ليس تأسو كلوم غيري كلومي مابه مابه وماي وماي

« تأسو : تداوى ، والكلام : الجروح ، وقبل هذا البيت - وهي آيات يندبُ

بها الشباب - :

يا شبابي ! وأين مني شبابي ؟ أذنتي حباله بانقصاب

لطف نفسي على نعيمى ولهوئى تحت أفنايه اللدان الرطاب

ومعز عن الشباب مؤس بمشيب اللدات والتراب

قلت - لما انتحى يعدُّ أساه من مُصابٍ شبابه فمُصاب :
 ليس نأسو كلوم غيرى كلومى أليت
 وأما قولهم فى التأسى بن مصيبتهم كمصاب المصاب أو تُربى عليه فمن ذلك
 قول أفلاطون لرجل رآه مغموماً : لو أحضرت قلبك ما فيه الناس من
 المصائب ، لقلَّ همك ... « انظر مقالة الكاتب أديسون آخر هذا الباب » ...
 وقالت الخدساء :

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلتُ نفسى
 وما يبيكون مثل أخى ولكن أسلى النفس عنه بالتأسّى
 وقال حريث بن سلة بن مُرارة بن مُحفص ، أحد بنى خزاعى بن مازن -
 شاعر جاهلى - :

ولولا الاثسى ما عشتُ فى الناس بعده ولكن إذا ما شئتُ جاؤ بنى ومثلى

« عروة بن الزبير »

« مثل أعلى للصبر والتأسى »

كان عروة بن الزبير ، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، وابن الزبير بن العوام
 - أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وابنِ صفية عمّة سيدنا رسول الله - وشقيق
 عبد الله بن الزبير - الذى ولى الخلافة فى الحجاز حينما من الدهر أزمان بنى أمية
 والذى تولى قتله الحجاج - وأُم عروة أسماء بنت أبى بكر الصديق - وهى ذات
 النّطّاقين ^(١) ، وغالته عائشة أُم المؤمنين رضى الله عنها ، وكان عالماً صالحاً ،

(١) النطّاق : شقة أو ثوب تلبسه المرأة ثم تشد وسطها بحبل ثم ترسل الأعلى على
 الأسفل إلى الركبة عند معاناة الاشغال لئلا تعثر فى ذيلها ، وكان لاسماء نطّاقان تلبس

أقول : كان عروة هذا من قوة الإيمان والتسليم والرضا بالقدر خيريه وشره ورجحان العقل ، بحيث يُعَدُّ مثلاً أعلى للصبر والتسلي ، وذلك أنه وقد من المديته على الوليد بن عبد الملك بِدِمَشَقَ - عاصمة الأمويين - وكان معه ابنه محمد - وكان من أجل الناس ، فيقال : إن الوليد عانته - أصابه بعينه - فدخل محمد دار الدواب ، فضربته دابةً فخر ميتيناً ، ووقعت في رجل عروة الأكلة - داء في العضو يأكل منه - ولم يدع ورده تلك الليلة ، فقال له الوليد : أقطعها وإلا أفسدت عليك جسدي ، فلما دعى الجزار ليقطعها قال له : نسقيك الخمر حتى لا تجرد لك ألباساً ، فقال : لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية ، قالوا : نسقيك المُرْقِدَ « دواء يُرْقِدُ شاربَه كالأفيون » قال : ما أحب أن أَسْلَبَ عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه « أحتسبه : أطلب به الأجر » . ودخل عليه قوم أنكرهم فقال : ما هؤلاء ؟ قالوا : يُمسكونك فإن الألم ربما يعزب مع الصبر « يعزب : يبعد » قال : أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسي ، ففُطِعت كعُبه بالسكين ، حتى إذا بلغ العظم وُضِعَ عليها المِشْمار ، ففُطِعت وهو يُهلل ويُسكبر « يهلل : يقول : لا إله إلا الله ، ويسكبر : يقول : الله أكبر » ثم إنه أُغِلِّيَ له الزيت في مغارف الحديد ، فحَسِمَ به ، ففُشِيَ عليه ، فأفاق وهو يَمْسَحُ العرق عن وجهه ، ولما رأى القدم بأيديهم دعا بها فقلبها

أحدهما وتحمل في الآخر الزاد إلى سيدنا رسول الله وأبي بكر وهما في الغار ، فلذلك سميت ذات النطاقين ، وروت عائشة : أن النبي صلوات الله عليه لما خرج مع أبي بكر مهاجرين صنعنا له مسفرة ، طعام المسافر ، في جراب « وعاء من جلد » ففُطِعت أسماء بنت أبي بكر من نطاقها وأوكت به الجراب « شدته بالوكاء : الحبل الذي يشد الوعاء » ، فلذلك كانت تسمى ذات النطاقين

في يده ، ثم قال : أما والذي حَمَلَنِي عَلَيْكَ ، إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنِّي مَأْمُونَةٌ بِكَ إِلَى حَرَامٍ ، وَلَمَّا دَخَلَ ابْنُهُ إِصْطَبِلَ الْوَلِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَقَتَلَتْهُ الدَّائِبَةُ كَمَا تَقَدَّمَ لَمْ يُسْمَعْ فِي ذَلِكَ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا قَوْلُهُ « لَقَدْ لَقَيْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ، وَلَمَّا قُطِعَتْ رِجْلُهُ قَالَ : اللَّهُمَّ ، إِنَّهُ كَانَ لِي أَطْرَافُ أَرْبَعَةٍ فَأَخَذْتُ وَاحِدًا وَأَبْقَيْتُ لِي ثَلَاثَةً ، فَكَانَ الْحَمْدُ ، وَأَيُّمُ اللَّهِ ، لَنَنْ أَخَذْتُ لَقَدْ أَبْقَيْتُ ، وَلَئِنْ أَبْتَلَيْتَ لَقَدْ عَافَيْتُ ... وَلَمَّا مَاتَ ابْنُهُ وَقُطِعَتْ رِجْلُهُ ، وَقَدَّ فِي هَذِهِ الْإِيَّامِ عَلَى الْوَلِيدِ قَوْمٌ مِنْ بَنِي عَبْسٍ فِيهِمْ رَجُلٌ ضَرِيرٌ ، فَسَأَلَهُ الْوَلِيدُ عَنْ عَيْنِيهِ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، بَتُّ لَيْلَةٍ فِي بَطْنٍ وَادٍ وَلَا أَعْلَمُ عَبْسِيًّا يَزِيدُ مَالَهُ عَلَى مَالِي ، فَطَرَقْنَا سَيْلٌ فَذَهَبَ بِمَا كَانَ لِي مِنْ أَهْلٍ وَوَلَدٍ وَمَالٍ ، غَيْرَ بَعِيرٍ وَصَبِيٍّ مَوْلُودٍ ، وَكَانَ الْبَعِيرُ صَعْبًا ، فَتَدَّ ، فَوَضَعْتُ الصَّبِيَّ وَاتَّبَعْتُ الْبَعِيرَ لَمْ أَجَاوِزْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى سَمِعْتُ صَيْحَةَ ابْنِي وَرَأْسَهُ فِي فَمِ الذَّنْبِ وَهُوَ يَأْكُلُهُ ، فَلَحَقْتُ الْبَعِيرَ لِأَحْبِسَهُ فَتَفَخَّنِي بِرِجْلِهِ « ضَرْبُهُ بِحَدِّ خُفِّهِ » عَلَى وَجْهِهِ ، فَخَطَمَهُ وَذَهَبَ بَعِينِي ؛ فَأَصْبَحْتُ لَا مَالَ لِي وَلَا أَهْلًا وَلَا وَلَدًا وَلَا بَصَرَ ؛ فَقَالَ الْوَلِيدُ : انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى عُرْوَةَ لِيَعْلَمَ أَنَّ فِي النَّاسِ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ بِلَاءٌ ...

وَمَنْ عَزَى عُرْوَةَ : إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ طَاهِرَةَ قَالَ لَهُ : وَاللَّهِ مَا بَكَ حَاجَةٌ إِلَى الْمَشْيِ وَلَا أَرَبُ فِي السَّعْيِ ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَكَ عُضْوٌ مِنْ أَعْضَائِكَ وَإِنْ مِنْ أَبْنَائِكَ ؛ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْكُلُّ تَبِعُ لِلْبَعْضِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ؛ وَقَدْ أَبْقَى اللَّهُ لِنَامِكَ مَا كُنَّا إِلَيْهِ فَقَرَاءَ ؛ وَعَنْهُ غَيْرُ أَغْنَاءَ ، مِنْ عِلْمِكَ وَرَأْيِكَ ؛ نَفْعَكَ اللَّهُ وَإِيَّانَا بِهِ وَاللَّهُ وَلِيُّ ثَوَابِكَ ؛ وَالضَّمِينُ بِحَسَابِكَ ...

مطرح الهموم

وهذه كلمة طريفة في معنى ما نحن بصدده، كتبها الكاتب «أديسون» ونقلها المرحوم محمد السباعي إلى مجلة البيان التي كان يقوم بإخراجها مؤلف هذا الكتاب، قال أديسون :

«مَا يُؤْثِرُ عَنْ الْحَكِيمِ سُقْرَاطُ أَنَّهُ قَالَ : إِذَا جُمِعَتْ مَصَائِبُ الْبَشَرِ كُلُّهَا فِي وَاحِدٍ ، ثُمَّ قُسِمَتْ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ بِالسَّوَاءِ لَأَصْبَحَ مَنْ كَانَ يَحْسِبُ نَفْسَهُ أَشَقَى النَّاسِ وَأَخْسَرَ هُمْ يُفَضِّلُ أَوَّلَى الْحَالَتَيْنِ عَلَى الثَّانِيَةِ ، وَجَاءَ بَعْدُ سُقْرَاطُ الشَّاعِرُ الرُّومَانِيُّ «هُورَاسُ» ، فَعَدَّلَ هَذَا الْمَعْنَى فَقَالَ : إِنْ مَا يُكَابِدُ أَحَدُنَا مِنَ الْمَصَائِبِ أَخْفُ عَلَيْهِ مِنْ مَصَائِبِ أَى إِنْسَانٍ آخَرَ إِذَا وَقَعَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ تَبَادُلٌ ... فَبَيْنَا أَنَا ذَاتَ يَوْمٍ مُتَّكِئٌ فِي خَلْوَتِي أَفَكَّرْتُ فِي هَاتَيْنِ الْحِكْمَتَيْنِ وَقَدْ أَخَذْتَنِي سِنَةٌ مِنَ النَّوْمِ إِذْ نُحِيلُ إِلَى أَنَّهُ بِأَمْرِ إِلَهٍ الْإِلَهَةِ قَدْ نُوْدِيَ فِي النَّاسِ : أَنْ يَحْمِلَ كُلُّ امْرِئٍ مَصَائِبَهُ فَيَأْتُوا بِهَا جَمِيعاً فَيَطْرَحُوهَا بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، فِي سَهْلٍ فَسِيحٍ ، فَرَقَقْتُ وَنَسِطْتُ ذَلِكَ السَّهْلَ ، وَسَرَّعْتُ أَنْ أَرَى النَّاسَ طُرّاً يَأْتُونَ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ يُلْقُونَ أَثْقَالَهُمُ الْقَدِيدَةَ ، حَتَّى ارْتَفَعَ مِنْ بِجْمُوعِهَا جَبَلٌ طَالَتْ ^(١) ذَوَابِتُهُ السَّحَابِ ..

وكان هنالك امرأة نحيلة خفيفة قد شَمَرَتْ عَنْ سَاعِدِ الْجِدِّ وَشَطَطَ هَذِهِ

(١) سميت فوق السحاب قال :

إِنَّ الْفِرْزْدَقَ صَخْرَةً عَادِيَةً طَالَتْ - فَلَيْسَ تَنَالُهَا - الْأَجْبَالُ

فليس تنالها جملة معترضة والأجبال مفعول طالت والتقدير : طالت الأجبالا
فليس تنالها الأجبال

الخلائق، تحمِلُ في إحدى يديها مجَهْرًا، وعليها ثوبٌ تَضْفَاضٌ مُهْفَافٌ سابِغٌ
الذَّيْلُ مُؤَمَّيٌّ بِعَدَدٍ عَدِيدٍ مِنْ تَصَاوِيرِ الْجَانِ وَالْعَفَارِيثِ، كُلُّهَا ضَرَبَتْ الرِّيحَ
الْجِلْبَابَ تَلَوْنَتْ وَتَشَكَّلَتْ تِلْكَ التَّهَاوِيلُ أَشْكَالًا وَأَلْوَانًا؛ وَكَانَ فِي عَيْنِهَا وَآهٌ
وَتَلَهُّفٌ وَحَيْرَةٌ، وَكَانَ اسْمُهَا «الْوَهْمُ» وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تَسُوقُ كُلَّ فَرْدٍ مِنَ
البَشَرِ إِلَى الْمَكَانِ الْمَعِينِ بَعْدَ إِعَاتِهَا إِيَّاهُ عَلَى رِبْطِ حُزْمَتِهِ وَحَبْكِيهَا وَإِلْقَائِهَا عَلَى
عَاتِقِهِ، فَأَذَابَ قَلْبِي رُؤْيَاهُ إِخْوَتِي وَأَبْنَاءَ أُمِّي وَأَبِي يَنْوُونَ بِأَحْمَالِهِمْ. وَيَذْنُونَ
تَحْتَ أَثْقَالِهِمْ؛ وَفَتَتَ كَيْدِي أَنْ أَبْصَرَ ذَلِكَ الْجَبَلَ الْبَاذِخَ الَّذِي مِنْ أَحْزَانِهِمْ
تَسْكُونُ، وَمِنْ آلامِهِمْ تَأَلَّفَ، عَلَى أَنَّهُ أَلْهَانِي عِنْدَ ذَلِكَ، وَسَلَّانِي هُنَاكَ؛
عِدَّةٌ مِنَ الْقَوْمِ، لَغَرِيبِ أَحْوَالِهِمْ وَعَجِيبِ هَيْئَاتِهِمْ؛ فَبَيْنَ هَؤُلَاءِ رَجُلٌ فِي
حُلَّةٍ مُطَرَّزَةٍ أَقْبَلَ يَسْعَى حَتَّى جَاءَ الْمَكَانَ، فَأَخْرَجَ مِنْ تَحْتِ حُلَّتِهِ الْمَوْشَاةَ
الْمَزْرُكَةَ خَمَلًا، فَأَلْقَاهُ فَحَدَّجَتْ بِيَصْرِي أَتَبَيْتُهُ، فَإِذَا هُوَ: الْفَقْرُ؛ وَأَقْبَلَ
آخَرُ يَرْزُحُ تَحْتَ ثِقَلِهِ، وَبَعْدَ كَثِيرٍ مِنَ التَّنَفُّسِ وَالزَّفِيرِ أَلْقَى خَمَلَهُ؛
فَنَظَرْتُ؛ فَإِذَا هُوَ: زَوْجَتِي؛ وَرَأَيْتُ عِدَدًا عَدِيدًا مِنَ الْعُشَّاقِ عَلَى كَوَاهِلِهِمْ
أَنْقَالَ عَجِيبةً مِنْ سَهَامٍ وَشُعْلٍ؛ وَلَكِنْ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ بَرَّغَمَ مَا رَأَيْتُهُ يَكَادُ
يُمَزِّقُ قُلُوبَهُمْ مِنْ غُلُوِّ الْوَجْدِ وَبُرْهَانِ الْكَمَدِ؛ وَبَرَّغَمَ زَفَرَةَ لَهُمْ تَرَقَّى؛
وَعَبْرَةَ لَا تَرَقَا ^(١) كَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ مَطَاوَعَةَ عَقُولِهِمْ عَلَى إِقَاءِ تِلْكَ الْأَثْقَالِ
عِنْدَ مَا بَلَّغُوا الْكَثِيبَ؛ وَلَكِنَّهُمْ بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الْمَحَاوَلَةِ — مَحَاوَلَةِ الْمُتَشَاوِلِ
الْمُتَكَرِّرِ — هَزُّوا رُؤُسَهُمْ وَرَجَعُوا بِأَثْقَالِهِمْ أَشَدَّ ثِقَلًا وَأَفْدَحَ
خَمَلًا، وَأَبْصَرْتُ كَثِيرًا مِنَ الْعَجَائِزِ يُلْقِينَ تَغَايِضِينَ وَجُوهِينَ

(١) أى: لا تفيض ولا تنجف وأصل ترقا: ترقا فخفف، وترقى الأولى: ترتفع

وكثيراً من الفتيات يُلقين سُمرَ جُلودِهِنَّ . ورأيت كوماً ^(١) من أنوفٍ حمراء وأَسنانٍ قَلحاء ^(٢) وشِفاهٍ قَلحاء ^(٣) . والعَجَبُ العُجَابُ أَنِي رأيتُ معظَمَ الجبلِ مؤلفاً من غاماتٍ بدنية . وآفاتٍ جَسَدِيَّةٍ ، ثُمَّ لَحْتُ من بعيدٍ رجلاً على ظَهْرِهِ جِلٌّ لم أَرِ في سائرِ الاحمالِ ما يُدانيه عِظماً ، فَأَنَعَمْتُ النَظَرَ فَإِذَا هِيَ حَدْبَةٌ ، فَأَلْقَاهَا - فَرِحاً بِذَلِكَ - بين سائرِ البَلايا الآدمية . ورأيتُ كذلك عَمَلًا وأمراضاً من كُلِّ ضَرْبٍ وَصَنيفٍ ، غَيْرَ أَنِي رأيتُ الوَهْمِيَّ من ذلك أَكْثَرَ من الحَقِيقِيَّ وشاهدتُ بين هذه نَوْعا قد أُلِّفَ من جميعِ الأمراضِ والعِللِ يَحْمِلُهُ في الأَكْفِ عَدَدٌ عَظِيمٌ من ذَوِي النعمةِ والرِّفاهيةِ ، واسمُ هذا الداءِ : المَلَلُ ، وأَعظَمُ عَجْبِي وَحَيْرَتِي أَنِي لم أَرِ أَحداً قَطُّ أَلْقَى بين هذه الآفاتِ والمصائبِ شيئاً عما ابْتَلَيْتُ بِهِ نَفُوسَ البَشَرِ مِنَ الرِّذَالِ والحماقاتِ والأضاليلِ والنقائصِ والسخافاتِ والأباطيلِ ، فَأَدْهَشَنِي ذلكَ أَيَّما دَهْشٍ ، إِذْ كُنْتُ قد ظَنَنْتُ أَنَّها فَرْصَةٌ لا يَدْعُها أَحَدٌ حَتَّى يَطْهَرَ نَفْسَهُ من أَدْرانِ الأهواءِ والشهواتِ . وَيُخَلِّصَ طَبْعَهُ مِنْ أَكْدارِ العيوبِ والعوراتِ . ورأيتُ في الجماعةِ رجلاً فاسقاً لم أَشْكُ في أَنه جاء مُثَقَّلاً بأَوْزاريهِ وآثامِهِ : قَلْباً أَقْبَلْتُ على مارِماهِ أَفْتَشُهُ أَفَيْتُ أَنه لم يَرِّمْ شيئاً من تلكِ الذنوبِ والآثامِ وإنما رَمَى ذاكِ رِثَتَهُ ، وتبعَهُ رجلٌ سائطٌ جاهِلٌ ، فَظَنَرْتُهُ إِذَا هُوَ قد نَبَذَ حَياءَهُ لا جَهْلَهُ ... وَلَمَّا قَرَعَ النَّاسُ مِنْ طَرَجٍ أَثْقَالَهُمْ وَفَرَعَتِ الجَنِيَّةُ النَحِيلَةَ الخفيفةَ ^(٤) من عَمَلِها ، وَكَانَتْ قد رَأَتْ مِنِّي رجلاً يَنْظُرُ

(١) جمع كومة ، يقال : كَوَمَ كومةً بالضم : إِذا جَمَعَ قِطْعَةً مِنْ تَرابٍ وَرَفَعَ رَأْسَها وَنَظَرَهُ : الصَّبْرَةَ مِنَ الطَّعامِ

(٢) القلح : صفرة في الأسنان

(٣) فلحاء : مشقوقة

(٤) الوهم كما يذكر التمارني

وَلَا يَعْمَلُ، دَنَتْ مَنِّي، فَلَمْ يَرْغَبْ إِلَّا رَفْعَهَا الْمِجْهَرُ إِزَاءَ عَيْنِي، وَكُنْتُ أَعْرِفُ فِي وَجْهِ الْقِصْرِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ تَنَاهَى قَصْرًا حَتَّى عَادَ أَبْشَعَ شَيْءٍ، فَسَاءَ فِي مَنْظَرِهِ، فَأَلْقَيْتُهُ كَمَا يُلْقَى الْقِنَاعَ. وَكُنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ بِيْرُهُ أَبْصَرْتُ رَجُلًا رَمَى بِوَجْهِهِ لِفَرْطِ طَوْلِهِ، وَكَانَ أَطْوَلَ وَجْهِهِ حَتَّى لَذَقْتُهُ وَحَدَّهَا تَطَوَّلُ^(١) وَجْهِهُ بِأَكْمَلِهِ، فَاسْتَرَاحَ مِنْ مَصِيبَتِهِ وَاسْتَرَحْتُ، وَاسْتَرَاحَ الْخَلْقُ طَرًّا؛ وَأُطْلِقَ لِكُلِّ امْرِئٍ أَنْ يَسْتَبْدِلَ يَكْلُوهُ مَخَنَةً غَيْرَهُ.

على أنه لم يبق في الجمع إلا متعجب من هذه المحن كيف عدها أهلها محناً وكيف كان قد غرَّبها وُحْدِعَ فيها، خَسِبَهَا نَعْمًا وفوائدنا وبيننا نحن تتأمل خليط المصائب، ومزيج التوائب، صدر أمر الإله الأكبر أن يستبدل كل امرئ بمصائبه ويرجع إلى مثواه بحظه الجديد، عند ذلك تحركت «الوهم»، وقسمت الكتيب في أخف نشاط وأكمل سرعة، فأعطت كلاً نصيبه، - وكانى بالبراع يعجز أن ينعت ما حدث إذ ذاك من هرج ومرج^(٢)، ثم كانت أمور كثيرة أذكر الآن بعضها:

رَمَى شَيْخٌ كَبِيرٌ عَلَى كَثِيبِ الْمَصَائِبِ عِلَّةً كَانَتْ فِي بَطْنِهِ، وَكَانَ عَاقِرًا، يَتَمَنَّى وَلَدًا يَكُونُ عِمَادَ شَيْخْرَتِهِ وَوَارِثَ ثَرْوَتِهِ، فَدَّ يَدَهُ لِيَتَعَتَّضَ مِنْ دَائِهِ الَّذِي طَرَحَهُ فَاخْتَلَفَ وَلَدًا فَاجِرًا عَاقًا، كَانَ آفَةً أَبٍ لَهُ، وَكَانَ ذَلِكَ الْآبُ قَدْ نَبَذَهُ فِي النَّبَاتِ^(٣) يَرِيدُ بِهِ بَدِيلًا، وَقَدْ أَخَذَ بَدْلَهُ مَرَضَ الْبَطْنِ الَّذِي رَمَى بِهِ الرَّجُلُ الْأَوَّلُ. فَلَمْ تَمُضْ إِلَّا بَرَّةٌ حَتَّى رَأَيْتَ ذَلِكَ الْغَلَامَ قَدْ ثَارَ بِالشَّيْخِ الْكَبِيرِ فَأَخَذَ بِلِحْيَتِهِ وَنَاصِيَتِهِ، وَهَمَّ أَنْ يَفْلِقَ رَأْسَهُ. فَهُوَ إِلَّا أَنْ أَبْصَرَ الْآبُ

(١) يزيد عليه طولاً (٢) اختلاط (٣) المنبذات، أى: الأشياء المنبوذة
يعنى بها الآفات التي كان الناس يرمونها تخلصاً منها وليتناقضوا بدوها

الأصلي، وكان يسعى نحوَه ممسكا بحشاه من وجع المعدة حتى صاح به :
 يرحمك الله وإيانا، خذْ ولذلك بارك الله فيه وأعطى عِلَّتِي، ولكن قُضِيَ
 الأمر، وكان مالا يكونُ تبديله، ولا يُستطاع تحويله ...

يا ابنُ بُورَان لا مفرَّ منَ الله ولا منَ قضائه المحتوم

ورأيت أسيراً مُقَيِّداً خُلعَ قَيْده، وقُلعَ صَفْده، فاعتاض منه النِقِرْسُ^(١)
 ولكن أبْدَى من التَّأَوُّه والتَّأَقُّبِ والتَّلَوَّى والتَّنَزَّى ما دَلَّ على أنه لم يكن
 في تجارته تلك بالراجح الصَّفقة .

ولقد كان من المُمْتِنِعِ اللَّأْذُ أَنْ تُبَصِّرَ ما وقع إِذْ ذاك من المبادلاتِ
 والمقايضاتِ، من عِلَّةٍ بِخَلَّةٍ^(٢) وجوعٍ يَفْقِدَانِ شهوةً، وهَمٍّ وتسهيِّدٍ، بأَمْرِ
 وتقييدٍ . أما النساءُ فكنَّ من تبادُلِ الأَعْضاء - أَعْضاء الوجه والجسم - في
 شُغْلِ شَاغِلٍ، فواحدةٌ تَسْتَعِضُ لِمَّةً شَمَطَاءَ، من جلدةٍ سَمراءَ، وثانيةٌ تأخذ
 عنقاً قصيراً، وتُعْطِي أنفاً كبيراً، وثالثةٌ تَرْمِي عِرْضاً مَفْضُوحاً . وتَلْقِطُ وجهها
 مقبوحاً، وما مِنْهُنَّ إِلَّا من تُدْرِكُ في الحال أنها اعتاضت من سَيِّئٍ أسوأَ،
 ومن ردىءٍ أَرْدَأَ، وكذلك حال سائرِ الجمعِ في كلِّ بليَّةٍ وآفةٍ، لَعَلَّه لَأَنَّ
 ما أَصابنا به الله مُنَاسِبٌ لمقدارِ صَبْرِنَا واحْتِمَالِنَا، أو لَأَنَّ كلَّ مُصِيبَةٍ تَدُلُّهَا
 العادة ...

فقلت لها : يَا عَزُّ، كُلِّ مُصِيبَةٍ إِذَا وَطَّئَتْ يَوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتْ
 ولقد رَحِمْتُ من صميمِ مُهْجَتِي ذلكَ الاحْدَبَ الْإِنْفَ الذَّكْرَ، إِذْ راح معتدلاً
 الْقَامَةَ وَإِنِّي الشَّطَّاطُ، لكن يَدَاءُ في كُلَّاهِ؛ وَعِلَّةٌ في حَشَاهِ، كما رَحِمْتُ مُعَاقِدَهُ
 وَمُبَايَعَهُ الَّذِي راح مُخْدَوِّدِ الظَّهْرِ يَطَّاعُ وَسْطِ رَبِّ مِنَ الْفَتِيَّاتِ كُنَّ قَبْلَ بهِ مُوَلَّعَاتِ

(١) من مرض بفقر (٢) داء في الرجلين يمنعهما من الحركة .

وفيه هائمات . ولست ناسياً ذِكرَ شأني وشأنِ ذِي الوجهِ الطويل ، فإن ذلك الرفيقَ ما كادَ يأخذُ وجهي القصيرَ حتى أضحى فيه أعجوبةً الأعاجيب ، فاستلقيتُ صاحِكا من وجهي حتى أخجلتُ وجهي ، وأدرك الرجلُ المسكينُ خطيئته وعَرَفَ غَلَطَته ، فحجِلَ واستَحْيَى ، غيرَ أني ما لبثتُ أن فِثْتُ^(١) إلى نفسي فعميتُ أنه ليس لي أن أزهى وأختالَ وأسخرَ من الغيرِ وأنا سُخرَةٌ ، وأضحك منهم وأنا ضُحكة^(٢) ، وإن لي في غرابية هيتي لشُغْلًا عن اللهو بهيناتِ الناسِ ومندوحةً ، وذلك ، أيها القارئ ، أني رفعتُ يدي أريدُ جَنَهي فلم تقعِ لِطولِ وجهي إلا على الشَّفَةِ العُلْيَا ، وكذلك بينا أنا أُجِيلُ يدي في وجهي أريدُ إحدى عينيَّ صَكَتْ يدي أنفي ، لِبروزِهِ وضخامَتِهِ ، مِرَاراً .

ثم نظرتُ ناحيةً مني فأبصرتُ رَجُلَيْنِ في مثلِ حالِنَا من السُّخْرِيَةِ قد أحداثا تبادلاً في زوجين من الأرْجُلِ ، زوج غليظ أعوج قصير ، وزوج طويل نحيل ، فكان صاحبُ الرَجُلَيْنِ النحيلتين كأنما قد رُفِعَ في الهواءِ على عمودَي بيتٍ ، فهائمته تدورُ مع الرِّيحِ حينما دارتْ ، وأما صاحبُ الرَجُلَيْنِ العَوَجَاوَيْنِ القصيرتين فكُلُّهُما حاولَ السَّيرَ دارَ في مكانِهِ لا يَبْرَحُهُ . ولما رأيتُ على نُحْيَاهِ سِيما الحِلْمِ وَالظَّرْفِ والفكاهَةِ أقبلتُ عليه أَمَارِحُهُ فقلتُ له : سأجعلُ لك كذا وكذا إنِ آسَطَعتَ أن تَبْلُغَ هذا ، ورسمتُ له خَطًّا على مسافةِ ذِرَاعَيْنِ من مُرَمِّي قَدَمَيْهِ ، في مُدَّةِ نصفِ ساعة .

وأخيراً تمَّ توزيعُ كَثِيبِ الْحَقِّ وَالْآفَاتِ عَلَى أَهْلِهَا ، مِنْ ذِكْرِ وَأُنْثَى .

(١) رجعت (٢) يقال : فلان مخررة كسفرة : يسخر منه ، وسخره كهزة :

يسخر من الناس ، وضحكة يسكون الحياء : يضحك منه ويفتحها : كثير الضحك

وأقبلوا جميعاً تحت أنفائها الجديدة رُزحاً حَسْرَى . وَلَهَا حَيْرَى . وقد مَأْوَا
السَّهْلَ والحَزْنَ صَجَّةً وَأَيْنَا . وَرَنَّةً وَحَيْنَا . ثم أدركتهم رحمة الله ، فأمرهم
بَطَرْحِ أنفائهم كَرَّةً أُخْرَى ، فالتقوا فَرِحِينَ بِالقائِهَا مسرورين . وأمره الوهم ،
تلك الشيطانة التي غَرَّرَتْ بهم وضَلَّتْهم ، أن تنصرف ، فانصرفت ، وأرسل
الإلهُ بَدَلَهَا ملكاً كريماً ، جِدَّ مُخَالَفٍ لَهَا هَيْئَةً وَشَكْلًا . مُبَايِنًا لَهَا خُلُقًا وَخُلُقًا ،
رزين الحركة ثَابِتَ الجَنَانِ ، قد جَمَعَ فِي هَيْئَتِهِ بَيْنَ الطَّلَاقِ والجِدِّ والوَقَارِ والبِشْرِ ،
لَا يَنْفَكُ مِنْ حِينَ إِلَى آخِرٍ يَرْفَعُ نَحْوَ السَّمَاءِ طَرْفَهُ ، وَيُسْمُو إِلَى عَرْشِ اللَّهِ
بِأَسْمِهِ ؛ وَأَسْمُ هَذَا الْمَلِكِ . الصَّبْرُ ، وَأَعْجَبُ مَا رَأَيْتُ أَنَّ هَذَا الْمَلِكَ مَاقَامَ بِجَانِبِ
جَبَلِ الْأَلَامِ إِلَّا وَأَخَذَ الْجَبَلَ يَهْبِطُ وَيَضُولُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ رُبْعِهِ ،
ثُمَّ أَعَادَ مَلِكُ الصَّبْرِ إِلَى كُلِّ حَظَّةٍ الْأَوَّلِ ، وَأَلْهَمَهُ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ ، وَأَشْعَرَ نَلْبَهُ
قُوَّةَ الْجَلْدِ وَنُورَ الْيَقِينِ ، فَرَاحَ مُتَغَيِّطًا سَعِيدًا بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى كُلِّ مَا عَاطَاه ، ثَابِتًا بِمَا
اِقْتَرَفَهُ مِنَ الْجَهْلِ وَجَنَاهُ .

فَمَا أَقْدَرْتُ مِنْ هَذِهِ الْعِظَاتِ وَالْعِبَرِ أَنِّي لَسْتُ حَقِيقًا أَنْ أَتَبَرَّمَ بِشَيْءٍ مِمَّا
يُصِيبُنِي بِهِ اللَّهُ أَوْ أَنْفَسَ عَلَى امْرِئٍ هَبَّةٌ أَوْ نِعْمَةٌ ، إِذْ كَانَ مُسْتَحِيلًا عَلَى امْرِئٍ
أَنْ يَعْلَمَ حَقِيقَةَ جَارِهِ وَيَعْرِفَ سِرَّ صَاحِبِهِ وَيَقِفَ عَلَى مَبَايِغِ أَحْزَانِهِ وَأَشْجَانِهِ
وَكُرْبِهِ ، وَنُوبِهِ ، وَبَلَايَاهُ ، وَرَزَايَاهُ ، فَكُلُّ لِكُلِّ سِرٍّ غَائِضٌ وَخِزَانَةٌ مُقْفَلَةٌ
وَسِيفَرٌّ مُطْبِقٌ . وَلَكِنِّي آلَيْتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَخْذَ نَفْسِي بَثَلَاتٍ : كِتْمَانُ الْعِلَّةِ ،
وَكِتْمَانُ الْفَاقَةِ ، وَكِتْمَانُ الْمَصِيبَةِ ، مَعَ الصَّبْرِ عَلَيْهَا جَمِيعًا ، وَأَنْ لَا أَحْسُدَ أَمْرًا عَلَى
شَيْءٍ ، وَأَنْ أَكُونَ أَبَدًا حَاضِرَ الصَّفْحِ لِلنَّاسِ ، وَاسِعَ الْعَفْوِ ، إِذْ كَانَ أَعْقَلُ
النَّاسِ أَعَذَرَهُمُ لِلنَّاسِ ...

عقرياتهم في الدنيا

وأنها دار يحزن وأكدار

ولأن الدنيا التي أَسَمَّاها سيدنا رسول الله : أَمَّ دَفْرٍ - والدَّفْرُ ، النَّتْنُ ، دَفْرًا دافراً لهذه الدنيا - أقول : لما كانت هذه الدنيا دارَ مَصَائِبَ وَحَيْنٍ وأكدار ، وحسبك بهادم اللذات - الموت - الذي فَضَحَ هذه الدنيا وبَيَّهَها أيَّما فضيحة والذي هو نهاية كل حي ، من مصيبة أى مصيبة - لأجل هذا قال الأوائل والأواخر في هذه الدنيا وأبدعوا وافتنوا كلَّ الافتنان ؛ ونحن فسوف نورد عليك أطيب ما قالوا في ذلك ، لما بينه وبين الصَّبر من وإشجة الرحم ، ولأنه كلامٌ خالد ، لأنه حق وصدق ، لا يلىق بعاقِلٍ أن لا يكثر له ، وإنما الواجب أن يجعله دائماً نُصَبَ عينيه ، وأن ينظر إليه نظرة رجل ثاقب الرأى بعيد أفق الفكر . لانظرة رجل أحق مُمْتَآخِ العقل أعمته بأباطيل هذه الحياة وألْهُهُ التَّكَاثُرُ وَهَرَجُهَا عن كُنْهها فارتطم في أوحالها وصار يَمْلَخُ في لذائذها تَمْلَخاً ، لاهياً عن المنهاة المؤسفة التي تنتظرنا جميعاً ، جالِباً بنفسه على نفسه ما يضاعف آلامها ، لا ما يخفف أحزانها ويهون ما أمكن شدائدها وأكدارها . ونحن إذ نورد في هذا الكتاب ما قالوا في الدنيا فإننا لاندعو إلى الزهد فيها وفي تعميرها - كما سيمر عليك في هذا الفصل - ولكن مادام كِتَابُنَا في عقريات الأوائل والأواخر ، في كل شيء ، كان واجبا علينا أن نورد عقرياتهم في الدنيا ، وفي الموت ، كما نورد عقرياتهم في سائر المماني التي يعالجها الناس ويتداولونها فيما بينهم ، على أنهم إذ ذمُّوا الدنيا إنما يترامون بذلك وأوَّلاً ، إلى أن يَصْدَدُوا بالحقيقة قهرى أن الدنيا في الواقع دار أحزان وأكدار ، وهذانياء إلى حت الناس على الإجمال في الإقبال عليها ، والتعقل في

التهافت على شهواتها، والاعتبار بعبثها، والتزود فيها لما بعدها، ومن يُنكر أن ذلك جميل ونافع ! ذم رجل الدنيا بحضرة علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال علي: آسكت، إني الدنيا دارُ صديق لمن صدقها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مهبط وحى الله، ومخرج أوليائه... إلى آخر ما قال. ومن كلامه أيضا رضوان الله عليه: الناس أبناء الدنيا ولا يُلام المرء على حب أمه... وسيمر عليك كثير من أمثال هذا...

أسماء الدنيا

الدنيا: اسم لهذه الحياة، وتُكنى الدنيا: أم دُفْر، أسماها بذلك - كما أسلفنا - سيدنا رسول الله، والدُفْر: النَّنْ، وتُكنى كذلك: أم شملة، أنشد ابن الأعرابي:

مِنْ أُمِّ شَمْلَةٍ تَرْمِينَا بِذَانِفِهَا غَرَارَةً زَيْلَتْ مِنْهَا التَّهَاقِيلُ

وكذلك تُكنى: أم شملة. قال أبو عمرو بن العلاء: إنما سُميت الدنيا والخر بذلك - كما سلفنا - لأنهما يشتملان على عقل الإنسان فيغيبانه... أقول: ومن يُنكر أن أبناء الدنيا، من شدة تعلقهم بها وتكالبهم عليها، وضراوتهم بشهواتها، وافتتانهم بزينةا وخوضهم غمراتها، بحيث يُعدون كأنهم مُنزفون مُستلبو العقول حتى إذا رماهم هاذم اللذات بسهامه تحووا وأفاقوا... وصدق سيدنا رسول الله إذ يقول صلوات الله عليه: الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا... أما الدهر - وهو اسم لزمان متصل، والزمان اسم لدهر منفصل - فقد سمّوه أبا العجب قال:

❖ وما الدهر في فعله إلا أبو العجب ❖

والنسبة إلى الدنيا: دنيوى، ويقال: دُنْيَوِيٌّ ودُنْيِيٌّ - وجمها دُنًى، وإنما

سميت دنيا: لِذُنُوهَا، لِأَنهَا ذَنَتْ وَقُرُبَتْ، وتأخرت الآخرة، أما الدهر فالنسبة إليه دَهْرِيٌّ بضم الدال تقول: رجل دَهْرِيٌّ: أى قديم مُسِنَّ، أما رجل دَهْرِيٌّ بفتح الدال فمعناه: ملحد لا يؤمن بالآخرة يقول ببقاء الدهر، وقوله صلى الله عليه وسلم: لَا تُسَبِّرُوا الدهرَ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدهرُ، فمعناه: أن العرب كان من شأنها أن تَدُمَّ الدهرَ وتُسَبِّهه عند الحوادث والنوازل تنزل بهم من موتٍ أو هَرَمٍ فيقولون: أصابهم تَوَارِيعُ الدهرِ وحوادثه وأبَادهم الدهرُ، فيجدلون الدهر الذى يفعل ذلك فيذُمُّونه، وقد أخبر الله بذلك فى كتابه العزيز ثم كَذَّبَهُمْ فقال: وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدهرُ، ثم قال الله: وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ، وجمع الدهر أَدهر ودهور، أما الدهارير فهي تصاريف الدهر، وقيل جمع للدهر على غير قياس، قال الشاعر القديم (١):

فَاسْتَقْدِرَ اللهُ خَيْرًا وَأَرْضَيْنِ بِهِ فَبَيْنَمَا الْعُسْرُ إِذْ دَارَتْ مَيَاسِيرُ
وَبَيْنَمَا الْمَرْءُ فِي الْأَحْيَاءِ مُغْتَبِطٌ إِذَا هُوَ الرَّمْسُ تَعْفُوهُ الْأَعَاصِيرُ
يَبْكِي عَلَيْهِ غَرِيبٌ لَيْسَ يَعْرِفُهُ وَذُو قَرَابَتِهِ فِي الْحَيِّ مُشْرَرُ
حَتَّى كَانَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَذَكُّرُهُ وَالدَّهْرُ أَيَّتَنَا حِينَ دَهَارِيرُ

« قوله: فاستقدر الله خيراً: أى اطلب منه أن يقدر لك خيراً، وقوله:

فبينما العسر؛ فالعسر مبتدأ خبره محذوف تقديره فبينما العسر كائن أو حاضر، إذ دارت مياسير: أى حدثت وحلت، والمياسير جمع ميسور، ومغتبط أى فى غبطة: أى مسرة وحسن حال، والرمس: القبر، وتعفوه: تدرسه وتمحو أثره،

(١) قال أبو عمرو بن العلاء: لرجل من أهل نجد. وقال ابن برقي: لعثير بن لييد العذري، قال: وقيل لحريث بن جبلة العذري

والأعاصير جمع إعصار وهي : الريحُ تهُبُّ بشدةٍ ، وقوله ؛ كأن لم يكن إلا تذكره فيمكن تأتة وإلا تذكره فاعل بها واسم كأن مضمَر تقديره كأنه لم يكن إلا تذكره والهاء في تذكره عائدة على الهاء المقدرة ، والدر مبدأ ودهارير خبره وأيتما حال ظرف زمان والعامل فيه ما في دهارير من معنى الشدة ، والدهارير قال الزمخشري : تصارييف الدهر ونوائبه ، مشتق من لفظ الدهر ليس له واحد من لفظه كعبايد

قِلة لبث الإنسان في الدنيا

قال المصطفى صلوات الله عليه : يَفِمْ أَنَا من الدنيا ؟ ومالي ولها ! وإنما مثلي ومثلها كرا كِب سار في يوم صائِف ، فُرِقَتْ له شجرةٌ فقال تحتها ساعة من نهار ، ثم راح وتركها ، قال : من القيلولة وهي الاستراحة نصف النهار وإن لم يكن معها نوم ، يقال : قال يقيل قيلولة فهو قائل ،

وقال علي بن أبي طالب : الدنيا دارٌ يمرُّ لا دارٌ مَقَرَّ والناس فيها رَجُلانِ رَجُلٌ باعَ نفسه فأوبَقها ورَجُلٌ ابتاعَ نفسه فأعتقها « أوبقها : أهلكها بسبب تهاوته على الدنيا وإعراضه عن الآخرة ، وابتاع : اشترى ، وأعتقها أي من النار ، بتجنبه المعاصي وشهوات الدنيا » وقيل لنوح عليه السلام - وهو الذي عاش ألف سنة إلا خمسين عاماً - : كيف وجدت الدنيا ؟ قال : كدار لها بابان دخلتُ من أحدهما وخرَجْتُ من الآخر

قِلة متاع الدنيا

قال الله تعالى : « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى » قليل : سريع النفضي ، وقال سبحانه : إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلْنَاهُ مِنْ

السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَطَانَ أَهْلِهَا أَنْهُمْ قَادُونَ عَلَيْهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَنْمِ،

« قوله سبحانه: إنما مثل الحياة الدنيا، أى فى سرعة تَقْضِيهَا وَذَهَابِ نَعِيمِهَا بعد إقبالها واغترار الناس بها، وزخرفها: حسنها وبهجتها، وقادرون عليها: أى متمكنون من حصدها، وأنها أمرنا، أى نزل بزرعها ما يحتاجه فجعلها الله كأنها حُصِدَتْ من أصلها فصار زرعها كأنه لم يكن، وقال أبو جعفر المنصور حين حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ: يَعْزَا الْآخِرَةُ بِتَوَمَةٍ ... وقال شاعر:

أَرَاهَا وَإِنْ كَانَتْ تُحِبُّ فَإِنَّهَا سَحَابَةٌ صَافِيَةٌ عَنْ قَلِيلٍ تَقْشَعُ
وقال أعرابي: ما كانت الدنيا على بنى فُذْلَانَ إِلَّا طَيْفًا لَمَّا انْتَبَهَوْا وَلَى
عَنْهُمْ، وقال آخر:

مَرَزْتُ بِدُورِ بَنِي مُضْعَبٍ بِدُورِ السَّرُورِ وَدُورِ الْفَرَحِ
فَشَبَّهْتُ سُرْعَةَ أَيَّامِهِمْ بِسُرْعَةِ قَوَيْسٍ يُسَمَّى فُزَحَ
تَلَوْنَ مُعْتَرِضًا فِي السَّمَاءِ فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهَا نَزَحَ

الماضى والحاضر والمستقبل

قال الحسنُ البَصْرِيُّ: أَمْسَ أَجَلٌ، وَالْيَوْمُ عَمَلٌ، وَغَدَا أَمَلٌ...، وقال حكيم: بَيْنِي وَبَيْنَ الْمُلُوكِ يَوْمٌ وَاحِدٌ؛ أَمَا أَمْسَ فَلَا يَجِدُونَ لِدَتِهِ وَلَا أَجْدُ شِدَّتِهِ وَأَمَا غَدَا فَنَاقِي وَإِيَّاهُمْ مِنْهُ عَلَى خَطَرٍ، وَمَاهُو إِلَّا الْيَوْمُ، فَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ!

تحذيرهم من تضييع الأيام

قال حكيم: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ يَعْمَلَانِ فِيكَ فَاعْمَلْ فِيهِمَا

وقال الحسن البصري: ما وَعَظَنِي شَيْءٌ مِثْلُ ما وَعَظَنِي كَلَامُ الْحِجَاجِ فِي خُطْبَتِهِ: إِنَّ أَمْرًا آتٍ عَلَيْهِ سَاعَةً مِنْ عُمْرِهِ لَمْ يَذْكُرْ فِيهَا رَبَّهُ أَوْ يَسْتَغْفِرَ مِنْ ذَنْبِهِ أَوْ يُفَكِّرَ فِي مَعَادِهِ، لَجْدِيرٌ أَنْ تَطُولَ حَسْرَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ... وكان الحجاج بليغا ومن مصاقع الخطباء، ومن كلماته التي تشبه كلمات الحسن البصري، وهي مما قاله على ذؤابة المنبر: أيها الناس؛ ائذعوا هذه الأنفُسَ، فإنها أَسْأَلُ شَيْءًا إِذَا أُعْطِيَتْ، وَأَمْنَعُ شَيْءًا إِذَا سُئِلَتْ، فَارْحِمَ اللَّهُ أَمْرًا جَعَلَ لِنَفْسِهِ خَطَايَا وَزِمَامًا، فَقَادَهَا بِخَطَايَاهَا فِي اللَّهِ، وَعَظَفَهَا بِزِمَامِهَا عَنْ مَغْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الصَّبْرَ عَنْ مُحَارِمِ اللَّهِ أَيْسَرَ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى عَذَابِهِ... « ائذعوا: أى ائمتوا، والخطام: حبل من ليف أو شعر أو كنان يُشْنَى طَرَفُهُ عَلَى حِطَمِ البعير ليقاد به، والزمام: حبلٌ دقيقٌ يُجْعَلُ فِي أَنْفِهِ »

الأيام تهدم الحياة

قال حكيم: مَنْ كَانَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَطِيَّةَ، سَارًا بِهِ وَإِنْ لَمْ يَسِرْ، أَخَذَهُ الشَّاعِرُ فَقَالَ:

رَأَيْتُ أَخَا الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ خَائِضًا أَخَا سَفَرٍ يُسْرَى بِهِ وَهُوَ لَا يَدْرِي
« خَائِضًا: يريد مقبها في خفض ودعة »

وقالوا: أَنفَاسُ الْمَرءِ خُطَاهُ إِلَى أَجَلِهِ، وَأَمَلُهُ خَادِعُهُ عَنْ عَمَلِهِ؛

وقال الشاعر:

مَا زِلْتُ طَرَفُ امْرِئٍ بِلَحْظَتِهِ إِلَّا وَشَيْءٌ يَمُوتُ مِنْ جَسَدِهِ

وقال أبو العتاهية:

تَظَلُّ تَفْرُحُ بِالْأَيَّامِ تَقْطَعُهَا وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِنَ الْآجِلِ

وقال عمرو بن قيس - شاعر قديم في الجاهلية - :

كَأَنِّي وَقَدْ جَاوَزْتُ تِسْعِينَ حِجَّةً خَلَعْتُ بِهَا عَنِّي عِذَارَ لَجَامِي
عَلَى الرَّاحَتَيْنِ مَرَّةً وَعَلَى الْعَصَا أَنْوَأُ ثَلَاثًا بَعْدَهُنَّ قِيَامِي
رَمَتْنِي بَنَاتُ الدَّهْرِ مِنْ حَيْثُ لَا أَرَى فَكَيْفَ بَيْنَ يَرْمِي وَلَيْسَ بِرَامٍ
فَلَوْ أَنَّهَا تَبْسُلُ إِذْنًا لَا تَقِيْتُهَا وَالْكَتْنَى أُرْمَى بِغَيْرِ سِهَامٍ

« قوله : خلعت بها عني عذار لجامي : فالعرب تقول : خلع فلان العذار يريد : خلع الحياء ، مثل للشاب المنمك في غيئه كما يخلع الفرس العذار فيجمع ويطمح لأن اللجام يمسكه ، والعذار : الذي يضم حبل الخطام إلى رأس البعير والناقة وعلى ذلك يكون معنى قوله : أنه أسام سرح اللهو حيث أسام الغواة في هذا العمر المديد ، ولعله يريد بذلك عدم التفاسك كما بينه في البيت الثاني ، وقوله : « أنوَأُ ثلاثا يعني : أنه ينهض ثلاث مرات بانحناء ثم يستقيم ، وبنات الدهر : نوبه »

البقاء في الدنيا سبب الفناء

قال سيدنا رسول الله : لو لم يكنسب ابن آدم إلا الصحة والسلامة لكان فيهما داء « لأن السلامة تُنسب إليه إلى الهرم وما يستتبعه من الهم والسقم ، وقيل لأعرابي : كيف حالك ؟ فقال : محال أن يفتي ببقائه ، ويسقم بسلامته ، ويؤتى من مآتمه ، ! وقال حميد بن ثور الهلالي - وهو شاعر إسلامي ترجم له أبو الفرج في الجزء الرابع من أغانيه - :

أَرَى بَصَرِي قَدْ رَابَتْ بَعْدَ صِحَّةٍ وَحُسْبِكَ دَاءٌ أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمَا
وَلَا يَلْبِثُ الْعَصْرَانِ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ إِذَا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكَمَا تَيْمَمًا

وقال أبو حية الثُمَيْرِيُّ - من شعراء الدولتين - :

أَلَا حَتَّى مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الْمَغَانِيَا لَبِسْنَ اللَّيْلِيَّ يَمَّا لَبِسْنَ اللَّيْلِيَا
إِذَا مَا تَقَاضَى الْمَرَّةُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ تَقَاضَاهُ شَيْءٌ لَا يَمَلُّ التَّقَاضِيَا

وقال بعض شعراء الجاهلية - وقيل : القائل عبد الرحمن بن سُويْدِ العُرِّيَّ -

كَانَتْ قَنَاتِي لَا تَلِينُ لِغَازِمٍ فَأَلَانَهَا الْإِصْبَاحُ وَالْإِمْسَاءُ
وَدَعَوْتُ رَبِّي فِي السَّلَامَةِ جَاهِدًا لِيُصَحِّحَنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءُ

« كانت قناتي لا تلين لغازم : من الغمز ، وهو العُصْرُ باليد وهو مثل

يريد : أنه كان صُلبَ العود شديد القوة على من يشتد ويجتري عليه » وقال

النَّمِرُ بن تَوَلَّب - شاعر جاهلي إسلامي ، وقد على سيدنا رسول الله وحسن

إسلامه ، ومن قوله : صوم شهر الصبر ، وصوم ثلاثة أيام يُذهِبَن كثيرًا

من وَحَرِ الصدر - قال :

تَدَارَكَ مَا قَبْلَ الشَّبَابِ وَبَعْدَهُ حَوَادِثُ أَيَّامٍ تَمُرُّ وَأَغْفُلُ

يَسُرُّ الْفَتَى طُولُ السَّلَامَةِ وَالْبَقَا فَكَيْفَ يَرَى طُولَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ

يَرُدُّ الْفَتَى بَعْدَ اعْتِدَالٍ وَصِحَّةٍ يَبُوءُ إِذَا رَامَ الْقِيَامَ وَيُحْمَلُ

« والبقاء مقصورٌ لضرورة الشعر وتروى : والغنى ... » وقال الصَّلْتَانُ

العَبْدِيُّ - شاعر إسلامي كان في زمن جرير والفرزدق - :

إِذَا لَيْلَةٌ هَرَمَتْ يَوْمَهَا أَنَّى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٌ قَتَى

وهذا البيت من أبيات جميلة للصَّلْتَان اختارها أبو تمام في حماسه

يقول فيها :

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبَرَ يَرَكُرُ الْغَدَاةَ وَمُرَّ الْقَشَى

إِذَا لَيْلَةٌ ... الْبَيْتِ

نُروُحٌ وَتَعْدُو لِحَاجَاتِنَا وَحَاجَةٌ مِّنْ عَاشٍ لَا تَنْقُضِي
تَمُوتُ مَعَ الْمَرَّةِ حَاجَاتُهُ وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِيَ

فرح الدنيا مشوب بالترح مُعَقَّب بالهموم

نَظَرَ كِسْرَى أَنُو شَرَوَانَ إِلَى مُلْكِهِ يَوْمًا فَأَعْجَبَهُ فَقَالَ : هَذَا مُلْكٌ إِلَّا أَنَّهُ
هُلُكٌ ، وَنَعِيمٌ إِلَّا أَنَّهُ عَدِيمٌ ، وَغَنَاءٌ لَّوْلَا أَنَّهُ عَنَاءٌ ، وَسُرُورٌ لَّوْلَا أَنَّهُ سُورُورٌ ،
وَيَوْمٌ لَّوْكَانَ يُوثِقُ لَهُ بَعْدُ... وَقَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ حَبْنَاءَ - هُوَ وَأَخْرَاهُ صَخْرٌ وَيَزِيدٌ
كَانُوا شَعْرَاءَ ، وَكَانَ الْمُغِيرَةُ مِنْ رِجَالِ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صَفْرَةَ تَوَفَّى سَنَةَ ٩١ هـ :
وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ مَا تَمُّهُ أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ مِنْ عُرْسِهِ

الدنيا هموم وغموم

سَمِعَ حَكِيمٌ رَجُلًا يَقُولُ لِأَخَرٍ : لَا أَرَاكَ اللَّهُ مَكْرُوهًا ، فَقَالَ : دَعَوْتُ
عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ ، مَنَ عَاشَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَكْرُوهٍ ، وَقِيلَ لِلنَّظَامِ - إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَيَّارٍ
الْمَعْتَزَلِيَّ - وَفِي يَدِهِ قَدْحُ دَوَاءٍ - : كَيْفَ حَالُكَ ؟ فَقَالَ :

أَصْبَحْتُ فِي دَارِ بَلِيَّاتٍ أَذْفَعُ آفَاتٍ بَاقَاتٍ

وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّهْمِيُّ الْمَتْوَفَى سَنَةَ ٤١٦ هـ يَصِفُ الدُّنْيَا - :
طَبِيعَتُ عَلٍ كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفْوًا مِنَ الْأَفْدَاءِ وَالْإِكْدَارِ
وَمُكَلَّفُ الْأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبُ فِي الْمَاءِ جُذُودَ نَارٍ
وَإِذَا رَجَوْتَ الْمُسْتَحِيلَ فَإِنَّمَا تَبْنِي الرِّجَاءَ عَلَى شَفِيرِ هَارٍ

« الجذوة : الجرة ، والشفير : ناحية الوادى من أعلاه ، وهار : يقال : هار
الجرف والبناء : انهار وانهدم ،

وقال شاعر :

أَمَرَ الزَّمَانُ لَنَا طَعْمَهُ فَمَا إِنْ تَرَى سَاعَةً عَذْبَهُ

وقال آخر :

أُفٍّ مِنْ الدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا فَإِنَّمَا لِلْحُزَنِ تَخْلُوقُهُ
هُدْمُهَا مَا تَقْضِي سَاعَةً عَنْ مَلِكٍ فِيهَا وَلَا سُوقَهُ

وقال آخر :

تَأْتِي الْمَكَارِهِ حِينَ تَأْتِي جُمْلَةً وَتَرَى الشُّرُورَ يَجِيءُ فِي الْفَلَتَاتِ
وقال ابن نباتة السعدي :

وَمَا خَيْرُ عَيْنٍ نَصَفَهُ سِنَّةُ الْكَرَى وَنَصَفَ بِهِ نَفْسٌ أَوْ تَنَوَّجَعُ
مَعَ الْوَقْتِ يَمْضِي بُؤْسُهُ وَنَعِيمُهُ كَأَنْ لَمْ يَكُنِ وَالْوَقْتُ عُمْرُكَ أَجْمَعُ
وقال الشريف الرضي :

يَا أَمِنْ الْأَقْدَارِ بَادِرْ صَرْفَهَا وَاعْلَمْ أَنَّ الطَّالِبِينَ حِثَّاتُ
خُذْ مِنْ ثَرَاثِكَ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّمَا شُرَكَاءُكَ الْإَيَّامُ وَالْوَرَاثُ
لَمْ يَقْضِ حَقَّ الْمَالِ إِلَّا مَعَشَرُ وَجَدُوا الزَّمَانَ يَعْثُ فِيهِ فَعَاثُوا
تَحْشَوْ عَلَى عَيْبِ الْغِنَى يَدُ الْغِنَى وَالْفَقْرُ عَنْ عَيْبِ الْفَقْرِ بَحَاثُ
الْمَالُ مَالُ الْمَرْءِ مَا بَلَغَتْ بِهِ الشَّدَّ هَوَاتُ أَوْ دَفَعَتْ بِهِ الْأَحْدَاثُ
مَا كَانَ مِنْهُ فَاضِلًا عَنْ قُوَّتِهِ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ مِيرَاثُ
مَالِي إِلَى الدُّنْيَا الْغُرُورِ حَاجَةٌ فَلْيَخْزِ سَاحِرُ كَيْدِهَا النَّفَاثُ
سَكَنَاتُهَا مَحْذُورَةٌ وَعُهُودُهَا مَنَقُوضَةٌ وَجِبَالُهَا أَنْكَاثُ

أَمْ الْمَصَائِبِ لَا يَزَالُ يَرُوعُنَا مِنْهَا ذُكُورُ نَوَائِبٍ وَإِنَّا
إِنِّي لَا عَجَبُ مِنْ رَجَالٍ أَمْسَكُوا بِجَبَائِلِ الدُّنْيَا وَهُمْ رِثَاثُ
كَتَبُوا السُّكُورَ وَأَغْلَوْا شَهَوَاتِهِمْ فَالْأَرْضُ تَشْبَعُ وَالْبُطُونُ غِرَاثُ
«صَرَفَهَا: حَذَّانَهَا وَنَوَائِبَهَا، وَحِثَاثُ: سِرَاعٌ، وَحَثَا التُّرَابُ: صَبَّهُ، يَقُولُ
فِي هَذَا الْبَيْتِ: إِنَّ الْغَنَى يَفْطِي عَيُوبَ الْأَغْنِيَاءِ أَمَا الْفَقْرُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى أَنْ
يَفْتَشُوا عَنْ عَيُوبِ الْفُقَرَاءِ وَيُلْصِقُوا بِهِمُ الْعَيُوبَ الْإِصَافًا. وَنَكْتُ الْحَبْلَ:
نَقَضَهُ، وَرِثَاثُ جَمْعُ رِثَ: بَالٍ، وَغِرَاثُ: جَانَعَاتُ...»

النقصان بعد التمام

قَالُوا: مَنْ بَلَغَ غَايَةَ مَا يُحِبُّ فَلْيَتَوَقَّعْ غَايَةَ مَا يَكْرَهُ... وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ:
وَجَدْتُ لِبَعْضِ الْعَرَبِ يَدَّيْنِ كَأَنَّهُمَا أُخِذَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: حَتَّى إِذَا فَرِحُوا
بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَا هُمُ بَغْتَةً، وَهِيَ:

أَحْسَنْتَ ظَنَكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حُسِنَتْ وَلَمْ تَتَخَفْ غِبَّ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
وَسَأَلْتُكَ اللَّيَالِي فَانْتَرَزْتَ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدَرُ
وَمِنْ دُعَاءِ بَعْضِهِمْ: صَرَفَ اللَّهُ عَنْكَ آفَاتِ التَّمَامِ...

وَالْبَيْتُ الْمَشْهُورُ فِي هَذَا الْمَعْنَى:

إِذَا تَمَّ أَمْرٌ بَدَأَ نَقْضُهُ تَوَقَّعْ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمَّ
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: عَرَضَ الدُّنْيَا عَارِيَّةً، وَمَنْ فِيهَا ضَيْفٌ،
وَالْعَارِيَّةُ مُؤَدَّاةٌ، وَالضَّيْفُ مُرْتَحِّلٌ «الْعَارِيَّةُ: مَا تَسْتَعِيرُهُ مِنْ قَرِيْبِكَ أَوْ صَدِيقِكَ
أَوْ جَارِكَ لِتَنْتَفِعَ بِهِ حِينَئِثُمْ تَرُدُّهُ إِلَى صَاحِبِهِ، وَعَرَضَ الدُّنْيَا: مَا نِيلَ مِنْهَا
مِنْ مَتَاعِهَا وَحُطَّائِمِهَا»

وقال حكيم : الدنيا تُطعمُ أولادها ، وتأكلُ أولادها . وقال الشاعر :
وما المالُ والأهلونَ إلا ودائعُ ولا بُدَّ يوماً أن تُردَّ الودائعُ
وقال المتنبي :

أبدأ تَسْتَرِدُّ ماتمُّبُ الدنيا فياليتَ جودَها كانَ بِخُلا
فكفَّتْ كَوْنُ فرحةٍ تُورِثُ الغمَّ وِخْلُ يُغادِرُ الوجودَ خِلا
ويقول المتنبي : شيمة الدنيا أن تسترِدَّ ماتمُّبُ وتعطى ، فليتها بخلت وما
جاءت إذ لو بخلت . ولم تُعطِ لكففتنا الفرح بوجود شيء يُعقِبُ لنقدِ الغمِّ ،
والفرح بوجود خليل يُؤنسُ بقرْبِهِ ثم نخترمه المنية فيغادرُ الهَمَّ خليلاً للحازن
عليه ، وفي هذه القصيدة يقول المتنبي :

ولذيذِ الحياةِ أنْفُسُ في النَّفْسِ وأشهى من أنْ يُمَلَّ وأُحْلَى
وإذا الشَّيْخُ قالَ أَفٍ فإِ مَلَّ حَيَاةٍ وإِنَّمَا الضَّعْفُ مَلَأَ
آلَهُ العَيْشِ سَحَابٌ وشَبَابٌ فإذا وَلَّيَا عَنِ المَرءِ وَلَى

الدنيا لا يدوم فيها فرح ولا ترح

قال شاعر :
هل الدهر إلا ساعةٌ ثم تَنْقَضِي بما كانَ فيها من بلاءٍ ومن خَفَضِ
فهو نَكَ لا تحفلُ إِسَاءَةً عَارِضٍ ولا فرحةً تَأْتِي فِكَلْتَاهُمَا تَمْضِي
والخَفَضُ : الدَّعةُ ولينُ العيشِ وسَعتهُ ، والهُونُ مُصدرُ الهَيْئِ في معنى
السكينة والتثبُّت والوقار والرفق قال :

فَهو نَكٌ لا يَرُدُّ الدَّهْرُ ما فانا لا تَهْلِكُكَ أَسْفا في إثرِ مَنْ ما نا

وقال آخر :

وما اُكْتُبَتْ نَفْسٌ قَدَامَ اِكْتِنَابِهَا وَلَا اِبْتِهَاجَتْ نَفْسٌ قَدَامَ اِبْتِهَاجِهَا
 ودخل أعرابيٌّ عُمَرُ مائَةٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً عَلَى مَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالَ لَهُ :
 صِفْ لَنَا الدُّنْيَا ، فَقَالَ : سُنَيَاتُ بَلَاءٍ وَسُنَيَاتُ رَخَاءٍ ، يُولَدُ مَوْلُودٌ وَيَهْلِكُ هَالِكٌ
 وَلَوْلَا الْمَوْلُودُ بَادَ الْخَلْقُ ، وَلَوْلَا الْهَالِكُ ضَاقَتِ الْأَرْضُ .

الدنيا غُرارة

قال بعضهم : هذه الدُّنْيَا قَحْبَةٌ يَوْمًا عِنْدَ عِطَارٍ ، وَيَوْمًا عِنْدَ بَيْتَارٍ ...
 وقال المتنبي :

فَدَى الدَّارُ أَخُونُ مِنْ مُومِسٍ وَأَخَذُ مِنْ كَفَّةِ الْحَايِلِ
 تَفَانِي الرِّجَالُ عَلَى حُبِّهَا وَمَا يَحْصُلُونَ عَلَى طَائِلِ

« الحايِل : الصائدُ ذُو الْجِبَالَةِ ، وَهِيَ الشَّرَكُ ، وَالطَّائِلُ : مَا كَانَ لَهُ قَدْرٌ .
 يقول المتنبي : إِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا فَاجِرَةٌ خَوَانَةٌ لِبُذِيهَا كَالْمُومِسِ يُخْلِفُ مَنْ وَثِقَ بِهَا ،
 وَهِيَ كَذَلِكَ أَخَذُ مِنْ جِبَالَةِ الصَّائِدِ تَصْرَعُ مِنَ اطْمَآنِ إِلَيْهَا ، ثُمَّ قَالَ فِي الْبَيْتِ
 الثَّانِي : تَفَانَى النَّاسُ عَلَى حُبِّهَا وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَحْصُلُوا مِنْ أَمْرِهَا عَلَى طَائِلٍ لِأَنَّهَا
 تَسْتَرِدُّ مَا تَعْطِيهِ وَتَهْدِمُ مَا تَبْنِيهِ ، وَتَمُرُّ بَعْدَ حِلَاوَتِهَا وَتَعُوجُ بَعْدَ اسْتِقَامَتِهَا .
 وَقَالُوا : مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ الْحَيَّةِ آيْنُ مَشْهَائِهَا فِي جَوْفِهَا السُّمُّ النَّاظِعُ ، يَهْوِي إِلَيْهَا
 الصَّبِيُّ الْجَاهِلُ ، وَيَحْذَرُهَا الْحَازِمُ الْعَاقِلُ . » يَهْوِي إِلَيْهَا : يُسْرِعُ وَذَلِكَ كَمَا تَقُولُ
 رَأَيْتُ فَلَانًا يَهْوِي نَحْوَكَ ، مَعْنَاهُ : يَرِيدُكَ ، قَالَ تَعَالَى : فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ
 يَهْوِي إِلَيْهِمْ : أَيُّ تَرِيدُهُمْ وَتَسْرِعُ ، وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ : كُنْتُ أُدَوِّرُ فِي
 ضَيْعَتِي فِي شِدَّةِ الْحَرِّ فَسَمِعْتُ هَاتِفًا يَقُولُ :

وَلَنْ أَمْرًا دُنْيَاءَ أَكْبَرُ مِنْهُ لَسْتَمْسِكُ مِنْهَا بِجَنْبِلِ غُرُورِ

فَنَقَشْتُ ذَلِكَ عَلَى خَاتَمِي . وقال الشاعر :

وَمَنْ عَرَفَ الْإِيَّامَ لَمْ يَرْخَفْضَهَا نَعِيمًا وَلَمْ يَعُدْذُ تَصَرُّفَهَا بَلْوَى

حب الدنيا على الرغم من عيوبها

قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه - وقد ذُكِرَ له توَمُّ يُحِبُّونَ الدنيا - :

هُمْ أَبْنَاؤُهَا ، أَفِيلَامُ الرَّجُلِ عَلَى حُبِّ وَالدَّيَةِ ! وقال الشعبي : مَا أَعْلَمُ لَنَا وَلِلدُّنْيَا كَقَوْلِ كَثِيرِ عَزَّةَ :

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةَ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِبَةَ إِنْ تَقَلَّتْ
« وقد تقدم » ، وقال شاعر :

يَذْمُونَ دُنْيَا لَا يُرِيحُونَ دَرَّهَا وَلَمْ أَرَ كَالدُّنْيَا يُذَمُّ وَيُحْلَبُ
« لا يريحون درَّها فالدرُّ : اللبَن يقول : لِمَن مَعَ ذَمِّهِمْ لِيَابَهَا يُلْحُونَ فِي
الإقبال عليها ويكلبون ويشرِّهون حتى ما يتركون درَّها يستريح ، وهذا على
المثل . . . »

وقال أبو العتاهية :

كُنَّا يُكْثِرُ الْمَذَمَّةَ لِلدُّنْيَا وَكُلُّ بِحُبِّهَا مَفْتُونُ

الدنيا تضر محبيها

قالوا في ذلك : الدنيا تضرُّ محبيها ، وما كُرِّمَتْ عَلَى أَحَدٍ نَفْسُهُ إِلَّا هَانَتْ
عَلَيْهِ الدُّنْيَا ، وقالوا : أَوْحَى اللَّهُ إِلَى الدُّنْيَا : أَنْ آخِذِي مَنْ إِيْجْفَاكِ وَاسْتَخِذِي
مَنْ يَهْوَاكِ « وهذا تمثيلٌ جميلٌ وَحَقٌّ ، وقال عُمرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : الدُّنْيَا
لَا تَضُرُّ إِلَّا مَنْ أَمِنَهَا وَلَا تَنْفَعُ إِلَّا مَنْ حَذَرَهَا . وقال الفاروق رضى الله
عنه : مَا كَانَتْ الدُّنْيَا بِهَمِّ امْرِئٍ إِلَّا لَزِمَ قَلْبُهُ خِصَالُ أَرْبَعٍ : فَقَرُّهُ لَا يَذْرُكُ

غناه، وَهَمْ لَا يَنْقِضِي مَدَاهُ، وَشُغْلٌ لَا يَنْفَدُ أَوَّلَاهُ، وَأَمَلٌ لَا يُدْرِكُ مُنْتَاهَهُ .
وقال الشاعر :

أَرَى الدُّنْيَا لِمَنْ هِيَ فِي يَدَيْهِ عَذَابًا كُلُّهَا كَثُرَتْ لَدَيْهِ
تُهِنُ الْمُكْرِمِينَ لَهَا بُصْغٌ وَتُكْرِمُ كُلَّ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ
« الصَّغَرُ : الصَّغَارُ ، أَيْ الذِّلُّ وَالضَّيْمُ ،

وقال المتنبي :

وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا قَدِيمًا ؟ وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوِصَالِ

« مَنْ : استفهامية ، يقول المتنبي : مَنْ ذَا الَّذِي لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا مِنْ قَدِيمِ
الدَّهْرِ ؟ كُلُّ أَحَدٍ يَهْوَى الدُّنْيَا وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى دَوَامِ وَصَالِهَا ، أَيْ أَنْ
كَثِيرًا مِنْ عُشَّاقِهَا وَاصِلَهَا وَوَاصِلَتِهِ وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى دَوَامِ الْوِصَالِ فَإِنَّ
وِصَالَهَا يَعْقِبُهُ الْهَجْرُ وَسُرُورُهَا يَعْقِبُهُ الْحُزْنُ وَأَيَادُهَا تَنْتَهِي بِالْمَوْتِ »

بنو الدنيا أغراض لضروب المحن

قِيلَ لِأَحْسَنِ الْبَصَرِيِّ : كَيْفَ أَصْبَحْتَ ؟ فَقَالَ : كَيْفَ يُصْبِحُ مَنْ دَوَّ
غَرَضَ لثَلَاثَةِ أَشْهُمَ : سَهْمُ رِزْيَةٍ ، وَسَهْمُ بَلِيَّةٍ ، وَسَهْمُ مَنِيَّةٍ . وَقَالُوا : مَنْ
أَخْطَاهُ سَهْمُ الْمَنِيَّةِ لَمْ يُخْطِئْهُ سَهْمُ الرِّزْيَةِ ، وَقَالَ ابْنُ الْمَعْتِزِ :

الدَّهْرُ يَطْرِفُ بِالْعَنَاءِ وَالنَّاسُ بَيْنَ جُفْوَتِهِ

« يَقَالُ : طَرَفَ بَصَرَهُ يَطْرِفُهُ طَرَفًا : إِذَا أَطْبَقَ أَحَدٌ جَفْنَيْهِ عَلَى الْآخَرِ ؛

وَالْعَنَاءُ هُوَ الْعَنَاءُ أَيْ النَّصَبُ » وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ :

أَفِ لِدُنْيَا تَلَاعَبَتْ بِي تَلَاعَبَ الْمَوْجِ بِالْغَرِيقِ

الأيام تمضى في تراذلها

سَمِعَ زِيَادُ بْنُ أَبِيهِ امْرَأَةً تَقُولُ : اللَّهُمَّ اغْزِلْ عَنَّا زِيَادًا ، فَقَالَ : زَيْدِي فِي دَعَائِكَ : وَأَبْدِلْنَا خَيْرًا مِنْهُ ، فَإِنَّ الْآخِرَ أَبْدَأُ شَرًّا ... وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ^(١) :
مَعْرُوفُ زَمَانِنَا مُنْكَرُ زَمَانٍ قَدْ فَاتَ ، وَمُنْكَرُهُ مَعْرُوفُ زَمَانٍ لَمْ يَأْتِ ،

حمدهم ماضى الزمان وذمهم حاضره

كَانَتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَثِيرًا مَا تُنْشِدُ قَوْلَ لَبِيدٍ :
ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كَجَلْدِ الْأَجْرَبِ
وَتَقُولُ : رَحِمَ اللَّهُ كَيْدَا ، كَيْفَ لَوْعَاشُ إِلَى زَمَانِنَا ! وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
الزَّيْبَرِ يُنْشِدُ هَذَا الْبَيْتَ وَيَقُولُ : رَحِمَ اللَّهُ عَائِشَةَ ، كَيْفَ لَوْعَاشَتْ إِلَى
زَمَانِنَا ! وَمِنْ كَلَامِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ : كَانَ النَّاسُ وَرَقًا بَلَا شَوْكٍ فَصَارُوا شَوْكًَا
بَلَا وَرَقٍ ... وَقَالُوا :

رُبَّ يَوْمٍ بَكَيتُ فِيهِ فَلَمَّا صِرْتُ فِي غَيْرِهِ بَكَيتُ عَلَيْهِ
وَهُنَاكَ مَنْ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ مَاضِيَ الزَّمَانِ كَحَاضِرِهِ ، لَا يُفْضَلُ قَدِيمُ الزَّمَانِ
حَدِيثُهُ ، وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ كُلُّهَا ، أَوِ النَّاسُ جَمِيعًا ، قُدَّامُهُمْ وَمُحَدَّثُوهُمْ وَأَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ
سَوَاسِيَّةٌ فِي أَنَّهُمْ خَلْفٌ كَجَلْدِ الْأَجْرَبِ ، وَمَنْ أَحْسَنَ مَا قِيلَ فِي ذَلِكَ تِلْكَ
الْكَلِمَةُ الَّتِي كَتَبَهَا بَدِيعُ الزَّمَانِ الْهَمْدَانِيُّ فِي رِسَالَةٍ لَهُ إِلَى أَسَازِهِ أَبِي الْحَسَنِ
ابْنِ فَارَسٍ صَاحِبِ الْمَجْمَلِ فِي اللُّغَةِ ، جَوَابًا عَلَى رِسَالَةِ كَتَبَهَا ابْنُ فَارَسٍ إِلَى الْبَدِيعِ

(١) هُوَ عُوَيْمَرُ بْنُ قَيْسٍ بْنِ زَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ ، الصَّحَابِيُّ الْمَشْهُورُ ، شَهِدَ مَعَ سَيِّدِنَا
رَسُولِ اللَّهِ وَقَعَةَ أَحَدٍ وَمَا بَعْدَهَا وَتَوَفَّى فِي آخِرِ خِلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ

في ذمّ الزمان ^(١)، قال البديع: نعم أطال الله بقاء الشيخ الإمام، إنه الخمائمسون ^(٢)، وإن طُنّت الظنون، والناس لآدم، وإن كان العهد قد تقدم، وارتبكت الاضداد، واختلط الميلاد؛ والشيخ يقول: فَنَسَدَ الزَّمانَ، أَفْلا يقول: متى كان صالحا؟ أفي الدولة العباسية وقد رأينا آخرها وسَمِعنا أولها؟ أم المدة المروانية وفي أخبارها « لا تَكْتَسِعِ الشَّوْلُ بِأَغْبَارِها » ^(٣)... أم السنين الحريرية ^(٤):

وَالسَّيْفُ يُعْمَلُ فِي الطَّلَى وَالرَّمْحُ يُرَكَّزُ فِي السَّكَلَى ^(٥)

- (١) قيل: ذكر الهمداني في مجلس ابن فارس فقال مامعناه: إن البديع قد نسي حق تعليمنا إياه، وعقنا وشمخ بأنفه عنا، فالحمد لله على فساد الزمان، وتغير نوع الإنسان، فبلغ ذلك، البديع، فكتب إلى ابن فارس هذه الرسالة.
- (٢) الحما: الطين الأسود. والمسنون: المتغير المتتن.
- (٣) هذا من قول الحارث بن حلزة:

لَا تَكْتَسِعِ الشَّوْلُ بِأَغْبَارِها إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَنِ النَّاتِجُ

وَاحْلُبْ لِأَضْيَافِكَ أَلْبَانِها فَإِنَّ شَرَّ اللَّسَنِ الْوَاجِحُ

والكسع: ترك بقية من اللبن في خلف الناقة يراد بذلك تغزيرها، وهو أشد لها والشول من النوق: مامضى على حملها أو وضعها سبعة أشهر فقل لبنها وخف ضرعها والأغبار: جمع الغبر وهو بقية اللبن في الضرع، والواجح: الذي يلج في ظهورها من اللبن المكسوع يقول الحارث: لا تغزري إبلك تطلب بذلك قوة نسلها واحلبها لأضيافك فاعل عدوا يغير عليها فيكون نتاجها له دونك. ولعل البديع يشير بهذا إلى بخل بني مروان وقلة الخير في أيامهم

- (٤) الحريرية: نسبة إلى حرب بن أمية بن عبد شمس، يريد بذلك خلافة معاوية ويزيد ابنة
- (٥) الطلى: الاعتاق واحده طلية بضم الطاء، وركز الرمح. دفعه وأثبتته والسكلى: جمع كلىة وكلاوة، والكليتان أو الكلاوتان معروفتان

وَمَبِيتُ حُجْرٍ فِي الْفَلَا وَالْحَرَّتَانِ وَكَزْبَلَا ^(١)

أُمُ الْبَيْعَةِ الْهَاشِمِيَّةِ وَعَلَى يَقُولُ : لَيْتَ الْعَشْرَةَ مِنْكُمْ بَرَّاسَ ، مِنْ بَنِي فِرَاسَ ؛
أُمُ الْإِيَّامِ الْأُمَوِيَّةِ ^(٢) وَالنَّفِيرُ إِلَى الْحِجَازِ ، وَالْعِيُونُ إِلَى الْإِعْجَازِ ؛ أُمُ الْإِمَارَةِ
الْعَدَوِيَّةِ ^(٣) وَصَاحِبُهَا يَقُولُ : وَهَلْ بَعْدَ الْبُزُولِ إِلَّا النُّزُولُ ؛ ^(٤) أُمُ الْخِلَافَةِ النِّسْمِيَّةِ ^(٥)
وَهُوَ يَقُولُ : طُوبَى لِمَنْ مَاتَ فِي نَائِثَةِ الْإِسْلَامِ ^(٦) أُمُ عَلَى عَهْدِ الرِّسَالَةِ
وَيَوْمَ الْفَتْحِ قِيلَ : اسْكُنِي يَا فُلَانَةَ ، فَقَدْ ذَهَبَتِ الْأَمَانَةُ ؛ أُمُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ
وَلَيْدٌ يَقُولُ :

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْثَانِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كِلْدَ الْأَجْرِبِ

(١) حجر : هو حجر بن عدى الكندى من أهل العراق وقد قتله معاوية بن أبي
سفيان سنة إحدى وخمسين لإظهاره التشيع إلى علي ولعنه معاوية وأصحابه والبراءة
منهم ، وكان يجتمع عليه كل من وافقه في هذا الرأي من أهل المصريين حتى ولى زياد
على العراق فكتب إلى معاوية في أمر حجر وأكثر فأمر معاوية زياداً أن يبعث به
إليه مشدوداً بالحديد ، ففعل ، فلما قدم عليه أمر به معاوية ففُضِرَتْ عُنُقُهُ ، وكان
حجر من أشرف العراق وخياره ، انظر تاريخ الطبرى في حوادث سنة إحدى
وخمسين ، ويشير بقوله والحزتان إلى وقعة الحزاة التى كانت بين جنود يزيد بن معاوية
وأهل المدينة سنة ثلاث وستين وكانت هذه الوقعة في حِزَّةٍ وأقم وهى شرقى المدينة
وقد قتل فيها من أهل المدينة خلق كثير ، وكر بلاه موضع في طرف البرية عند الكوفة
وهو الذى قتل فيه الحسين بن علي رضى الله عنه في خلافة يزيد بن معاوية

(٢) يريد خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه لأن أمية رهطه

(٣) يريد خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، والعُدوية نسبة إلى عدى بن كعب
ابن لؤى ، وهم رهط عمر

(٤) البزول : تشقق ناب البعير ، وذلك في السنة التاسعة ، يريد بهذا : وهل بعد
الوصول إلى الغاية إلا الأخذ في النقصان ؟ (٥) يريد خلافة أبي بكر رضى الله عنه.
والنِسمية : نسبة إلى تيم بن مرة بن كعب بن لؤى ، وهم رهط أبي بكر

(٦) النائثة : أول الإسلام قال الزمخشري : ومعناها : الضعف قبل أن يقوى ويعز

أَمْ قَبْلَ ذَلِكَ وَأَخُو عَادٍ يَقُولُ :
 بِلَادُهَا كُنَّا وَكُنَّا نَحْبُهَا إِذِ النَّاسُ نَاسٌ وَالزَّمَانُ زَمَانُ
 أَمْ قَبْلَ ذَلِكَ وَيُرْوَى لَأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :
 تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا فَوَجَّهَ الْأَرْضَ مُعَبَّرًا قَبِيحُ
 أَمْ قَبْلَ ذَلِكَ وَالْمَلَائِكَةُ تَقُولُ لِأَبَرِئَهَا : أَنْتَجَعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ
 الدِّمَاءَ ؛ ^(١) مَا فَتَسِدُ النَّاسُ ، وَلَكِنْ أَطَرَدَ الْقِيَاسُ ؛ وَلَا أَظَاهَتِ الْأَيَّامُ ،
 وَإِنَّمَا امْتَدَّ الْإِظْلَامُ ؛ وَهَلْ يَفْسُدُ الشَّيْءُ إِلَّا عَنْ صِلَاحٍ ، وَيُمْسِي الْمَرْءُ إِلَّا
 عَنْ صَبَاحٍ !

إنكار ذم الدهر

رَوَّاهُ النَّاعَنُ سَيِّدُ النَّاسِ رَسُولُ اللَّهِ ، لَا تُسَبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ الدَّهْرَ هُوَ اللَّهُ ، وَفِي رِوَايَةٍ :
 فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ ، يَقُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : إِنْ مَا أَصَابَكَ مِنَ الدَّهْرِ فَأَلِّهِ
 فاعمله ليس الدهر ، فإذا شتمت الدهر فكأنك أردت به الله ؛ وَكَانَ مِنْ شَأْنِ
 الْعَرَبِ أَنْ تَذُمَّ الدَّهْرَ وَتُسَبَّهُ عِنْدَ الْحَوَادِثِ وَالنَّوَازِلِ تَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ مَوْتٍ
 أَوْ هَرَمٍ وَيَقُولُونَ : أَبَادَهُمُ الدَّهْرُ وَأَصَابَتْهُمْ قَوَارِعُ الدَّهْرِ وَحَوَادِثُهُ ، فَيَجْعَلُونَ
 الدَّهْرَ الَّذِي يَفْعَلُ ذَلِكَ فَيَذْمُونَهُ ، وَقَدْ ذَكَرُوا ذَلِكَ فِي أَشْعَارِهِمْ وَأَخْبَرَ اللَّهُ
 تَعَالَى عَنْهُمْ بِذَلِكَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ثُمَّ كَذَّبَهُمْ فَقَالَ : وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
 الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَمَا لَهُمْ

(١) قَالَ الشَّيْخُ صِلَاحُ الدِّينِ الصَّفْدِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى لَامِيَةِ الْعَجَمِ لِلطُّغْرَانِيِّ : اسْتَدَلَّ
 بَعْضُهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ خَلَقَ آخِرَ فِي الْأَرْضِ وَأَنَّهُمْ
 أَفْسَدُوا فِيهَا وَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالَتْ : أَنْتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا !

بذلك من عِلْمٍ إِنَّ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ، والدهرُ : الزمانُ الطويلُ ومُدَّةُ الحياةِ الدنيا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لَا تَسُبُّوا الدهرَ ، على تأويل : لَا تَسُبُّوا الذى يفعل بكم هذه الأشياء فإنكم إذا سَبَبْتُمْ فاعِلَهَا فَإِنَّمَا يَقَعُ السَّبُّ عَلَى الله تعالى لأنه الفاعلُ لها لا الدهر... « وقد تقدم ذلك »

وقال أبو بكر الخوارزمي تريبا من هذا المعنى الذى نعالجه :

وَكَمْ نَكْنِي وَكَمْ نَهْجُو أَلْيَالِي وَلَيْسَ بِخَصْمِنَا إِلَّا الْقَضَاءُ ^(١)

وقال رجلٌ للأصمعي : قَسَدَ الزَّمانَ ، فقال :

إِنَّ الْجَدِيدَيْنِ فِي طَوْلِ اخْتِلَافِهِمَا لَا يَفْسُدَانِ وَلَكِنْ يَفْسُدُ النَّاسُ ^(٢)
والبيت المشهور في هذا هو قول بعضهم :

نَعِيبُ زَمَانِنَا وَالْعَيْبُ فِينَا وَلَوْ نَطَقَ الزَّمانُ بَنَّا هَجَانَا

وقال المتنبي :

أَلَا لَا أَرَى الْأَحْدَاثَ حَمْدًا وَلَا ذَمًّا فَمَا يَطُشُّهَا جَهْلًا وَلَا كَفُّهَا حِلْمًا ^(٣)

وقال بعض الصالحين لأبي العتاهية : أَيْ خَلَقَ اللهُ أَصْغَرَ عِنْدَهُ ؟ قَالَ :

الدُّنْيَا ، لَا تُسَاوِي عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، قَالَ : أَصْغَرَ مِنْهَا مُجِبُّهَا ...

المسرة من حيث تُخَشِّي المضرة

قال أبو عمرو بن العلاء : طَلَبَ الْحِجَاجُ بْنُ يُونُسَ التَّقْفِيَّ أَيْ ، تَفَرَّجَ

(١) يقال . كنى عن الامر بغيره يكنى كناية وهو : أن تتكلم بشيء وتريد غيره

(٢) الجديدان : الليل والنهار وذلك لأنهما لا يلبيان أبدا

(٣) يقول المتنبي ، لأحمد الحوادث السارة ولا أذم الضارة فإنها إذا بطشت بنا

أو آذتنا لم يكن ذلك جهلا منها وإذا كفت عن البطش والضرر لم يكن ذلك حلما ،

يعنى : أن الفعل في جميع ذلك ليس لها

منه هاربا إلى اليمن ، فإننا لَدَسِيرِ بَصْحَاءِ الْيَمَنِ إِذْ لَحِقْنَا لِاحِقٍ يُلْشِدُ :
 رُبَّمَا تَكَرَّرَهُ النُّفُوسُ مِنَ الْأُمْرِ لَهُ فَرَجَةٌ كَخَلِّ الْعِقَالِ
 فقال أبي : ما الخبر ؟ قال : مات الحجاج ، قال أبو عمرو . فانا بقوله :
 له فَرَجَةٌ أَشَدُّ سُرُورًا مِنِّي بِمَوْتِ الْحِجَّاجِ ، قال : فقال أبي : أَصْرِفْ رُكَابَنَا
 إِلَى الْبَصْرَةِ ، قال : وكنت يومئذ قد خَنَقْتُ بِضْعًا وَعَشْرِينَ سَنَةً ... وربما
 تكره النفوس ... ألبت هو لَأَمِيَّةِ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ وقوله :

لَا تَضِيقَنَّ فِي الْأَدُورِ فَقَدْ تَكْشَفُ غَمَّاؤُهَا بِغَيْرِ احْتِيَالٍ
 ومن بديع هذه اللغة العربية الكريمة أنها تَفَرِّقُ بَيْنَ فَرَجَةٍ «بفتح الفاء»
 وبينها بالضم ، فالأولى : التَّفَقُّصُ مِنَ الْهَمِّ ، وَالْآخَرَى ، أَى الْفُرْجَةِ بِالضَّمِّ : كُلٌّ
 مِنْفَرَجٍ بَيْنَ جَبَلَيْنِ وَنَحْوَهُمَا . وَالْغَمَاءُ : الْكَرْبُ ، وَقَالُوا : خَفِ الْمَضَارُّ مِنْ
 خَلَلِ الْمَسَارِ ^(١) ، وَارْجُ النَّفْعَ مِنْ مَوْضِعِ الْمَنْعِ ، فَأَكْثَرُ مَا يَأْتِي الْأَنْ مِنْ
 حَلِّ الْفَرْجِ ؛ وَقَالُوا : أَعْنَأَى الْأُمُورِ تَنْشَابُهُ ، فَرُبَّ مَحْبُوبٍ فِي مَكْرُوهٍ وَمَكْرُوهٍ
 فِي مَحْبُوبٍ وَمَغْبُوطٌ بِنِعْمَةٍ هِيَ دَاوَاهُ وَمَرْحُومٌ مِنْ دَاءٍ فِيهِ شِفَاؤُهُ ... وَقَالُوا :
 رَبُّ سَلَامَةٍ تَكُونُ لِلتَّلَفِ سَبَابًا ، وَمَكْرُوهٌ يَكُونُ لِلنَّجَاةِ مِفْتَاحًا :

وَقَدْ يَأْسَفُ الْمَرْءُ مِنْ قُوْتِ مَا لَعَلَّ السَّلَامَةَ فِي قُوْتِهِ
 وقال حكيم : اللَّهُ مَصَالِحُ فِي مَكَارِهِ عِبَادِهِ ، وَقَالُوا : الْعَاقِلُ لَا يَجْزَعُ
 لِأَوَّلِ نَكْبَةٍ وَلَا يَفْرَحُ بِأَوَّلِ نِعْمَةٍ فَرُبَّمَا أَقْلَعَ الْمَحْبُوبُ عَمَّا يُضَرُّ وَأَسْفَرَ
 الْمَكْرُوهَ عَمَّا يُسَرُّ ... وَقَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ « اَشْدَدُّي أَرْزَمَةُ تَنْفَرِجِي ،
 « الْأَرْزَمَةُ : الشَّدَّةُ وَالْفَحْطُ » وَيُقَالُ فِي ذَلِكَ : إِنَّ الشَّدَّةَ إِذَا تَابَعْتَ انْفَرَجَتْ
 وَإِذَا تَوَالَتْ تَوَلَّتْ ... وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ اللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ « فَتَسَى
 أَنْ تَكَرَّهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا »

(١) من خلل المسار : أى من خلاها .

الفرج بعد الشدة

أَتَى يَزِيدُ بِخَارِجِي، فَهَمَّ بِقَتْلِهِ فَقَالَ الْخَارِجِيُّ:
 عَسَى فَرَجٌ يَأْتِي بِهِ اللَّهُ إِنَّهُ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي خَلِيقَتِهِ أَمْرٌ
 فقال يزيد : والله ، لَا ضَرِيبَ عُنُقِكَ ، أَقَاتِلُوهُ ، فدخل الهيثمُ بن الأسود
 النَّخَعِيُّ ، فقال : أَمْسِكُوهُ قَلِيلًا ، فَذَنَا مِنْهُ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، هَبْ
 مُجْرِمَ قَوْمٍ لَوْ أَفْدَيْهِمْ ، فقال : هُوَ لَكَ ، فخرج الخارِجِيُّ وهو يقول : تَأْتِي عَلَى
 اللَّهِ فَأَتِي إِلَّا أَنْ يُكْذِبَهُ وَغَالِبَهُ فَأَتِي إِلَّا أَنْ يَغْلِبَهُ ... وَأُحْضِرَ رَجُلٌ
 أَمَامَ بَعْضِ الْمُلُوكِ ، فدعا بطعام فَأَخَذَ يَأْكُلُ وَيَضْحَكُ ، فَقِيلَ لَهُ : تَضْحَكُ
 وَأَنْتَ مَقْتُولٌ ؟ فقال : مِنْ السَّاعَةِ إِلَى السَّاعَةِ فَرَجٌ ، فَسَمِعَتْ صَيْحَةً فَقِيلَ :
 مَاتَ الْمَلِكُ ، فغَلَّوْا الرَّجُلَ ... وَشَدَّ بَعْضُ الْعُمَّالِ - الْوَلَاةِ - رُجُلًا إِلَى أَسْطُوَانَةٍ
 - عُمُودٍ - يُرِيدُ ضَرْبَهُ ، فَقَالَ حُلَّتِي مِنْ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ ، فَخَلَّه ، فَاحْلَلْهُ إِلَّا وَقَدْ
 عَزَلَ وَشَدَّ إِلَى الْأَسْطُوَانَةِ بَعِيْنَهَا ...

من زال كربُه فَنَسِيَ صُنْعَ اللَّهِ

قالوا : مَا صَاحِبُ الْبَلَاءِ الَّذِي طَالَ بِلَاؤُهُ بِأَحَقَّ بِالِدُعَاءِ مِنَ الْمُعَاتَى . وَقِيلَ :
 مَنْ سَبَّحَ فِي النَّهْرِ الَّذِي فِيهِ التَّمَسَّاحُ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلَكَةِ . وَشَكََا يَوْسُفَ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ طُولَ الْحَبْسِ ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ : أَنْتَ حَبَسْتَ نَفْسَكَ
 حَيْثُ قُلْتَ : السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ . وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَتَعَالَى : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ
 الضُّرُّ دَعَا نَاجِيَهُ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُهَا
 إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ... وَقَالَ سُبْحَانَهُ :
 قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنًا أَنْجَانَا

من هذه لتكوننَّ من الشاكرين ، قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كُلَّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُنْشَرِكُونَ .

لَا تُعْرِفُ النِّعْمَةَ إِلَّا عِنْدَ فَقْدِهَا

قالوا : كم من نعمة عُرِفَتْ بِكَلِيَّةٍ نَزَلَتْ ، وَنِعْمَةٍ جُهِلَتْ بِسَلَامَةٍ لَبِثَتْ .
وقالوا : شيْثَان لا يَعْرِفُ فَضْلَهُمَا إِلَّا مَنْ فَقَدَهُمَا : الْغِنَى وَالْعَافِيَةُ ... وقال الشاعر - :

فَالْوَجْهُ مِثْلُ الصُّبْحِ مُبَيِّضٌ وَالشَّعْرُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسَوِّدٌ
ضِدَّانٍ لَمَّا اسْتَجْمَعَا حُسْنًا وَالضُّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَ الضُّدِّ
وقال المتنبي :

« وَبِضْدِهَا تَتَبَيَّنُ الْأَشْيَاءُ »

وقال أبو تمام :

وَلَيْسَ يَعْرِفُ طَيْبَ الْوَصْلِ صَاحِبُهُ حَتَّى يُصَابَ بِنَأْيٍ أَوْ بِهِجْرَانٍ
وقال المتنبي :

وَلَوْلَا أَيَادِي الدَّهْرِ فِي الْجَمْعِ بَيْنَنَا غَفَلْنَا فَلَمْ تَشْعُرْ لَهُ بِذُنُوبٍ
« يَقُولُ الْمَتْنَبِيُّ : إِنَّ الدَّهْرَ قَارَةٌ يُحْسِنُ وَتَارَةٌ يَسِيءُ فَلَوْلَمْ يُحْسِنْ إِلَيْنَا
بِالْجَمْعِ بَيْنَنَا لِمَا شَعَرْنَا بِذُنُوبِهِ فِي تَفْرِيقِنَا ، فَيَا حَسَنَةً عَرَفْنَا إِسَاءَتَهُ »

فَضْلُ الْعَافِيَةِ وَسَلَامَةِ الدِّينِ

قال سيدنا رسول الله « مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ عِنْدَهُ قُوَّةٌ
يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حَبِرَتْ لَهُ الدُّنْيَا »

« قَالَ ابْنُ بَرِيٍّ : قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ : السَّرْبُ : النَّفْسُ قَالَ : وَأَنْكَرَ

ابنُ دَرَسْتَوِيَه قولَ من قال في نَفْسِه قال : وإنما المعنى : آمِنُ في أهله وماله وولده ، ولو آمن على نفسه وحدها دون أهله وماله وولده لم يُقَلْ هو آمِنٌ في سِرِّه ، وإنما السَّرْبُ هُهنا : ما للرجل من أهل ومالٍ ، ولذلك سمي قطع البقر والظباء والقطا والنساء سِرِّباً ، وكان الأصلُ في ذلك أن يكون الراعي آمناً في سِرِّه والفحلُ آمناً في سِرِّه ، ثم استُعْمِلَ في غير الرعاة استعارةً فيما شَبَّه به . وحيزت : جُمِعَتْ وُضِّمَتْ ، وبِحِذا فيرها : بأَسْرِها «
وقال ابن الرومي :

إذا ما كساكَ اللهُ سِرِّبَالِ حِجَّةٍ ولم تَحُلْ مِنْ قُوْتٍ يَحِلُّ وَيَعْدُبُ
فلا تَغِيظَنَّ الْمُتَرَفِّينَ فَإِنَّهُمْ على حَسَبِ مَا يُعْطِيهِمُ الدَّهْرُ يَسْأُبُ
« السربال : القميص ، وحلٌ : من الحلال مقابل الحرام ، والغبطة : أن تتمنى مثل حال المغبوط - الحسن الحال - من غير أن تريد زوالها ، وعلى حسب : على قدر وعدد ، وقالوا : مَنْ أَوْقَى الْعَافِيَةَ فَظَنَّ أَنَّ أَحَدًا أَوْقَى أَكْثَرَ مِنْهُ فَقَدْ قَلَّلَ كَثِيرًا وَكَثَّرَ قَلِيلًا » كثر قليلاً ، لأن ما عدا العافية فهو قليل بالإضافة إليها ، ... »

عقريات شتى في الدنيا

قال أبو حازم : وما الدنيا ! أنا ما ضي فحلمٌ وأما ما بقي فأما نِيٌّ . وقال بكر بن عبد الله : المستغنى عن الدنيا بالدنيا كالْمُطْفِئِ النَّارِ بِالتَّبَنِ . وقال ابن مسعود : الدنيا كُلُّها غوم ، فما كان فيها من سرور فهو رَيْجٌ . وقال بعض الحكماء : مثلُ الدنيا والآخرة مثلُ رجلٍ له ضَرَّتَانِ إِنْ أَرْضَى إِحْدَاهُمَا أَضْحَكَ الْآخَرَى ... وقال سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : تَرَكَ الْمُلُوكُ لَكُمْ الْحِكْمَةَ فَاتْرُكُوا لَهُمُ الدُّنْيَا . وقال يحيى بن خالد البرمكي : دَخَلْنَا فِي الدُّنْيَا دُخُولًا

أَخْرَجْنَا مِنْهَا . وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ كَثِيرًا مَا يَتَمَثَّلُ كُلَّمَا جَرَى ذِكْرُ الدُّنْيَا - :

الْيَوْمَ عِنْدَكَ دَلُّهَا وَحَدِيثُهَا وَغَدًا لْغَيْرِكَ كَفُّهَا وَالْمِعْصَمُ
وَهَذَا الْبَيْتُ كَذَلِكَ يُقَالُ فِي غَدْرِ الْمَرْأَةِ وَفَلَةِ وَقَاتِهَا . وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ آدَمَ
الْعَجَلِيُّ يَقُولُ :

نُرَقِّعُ دُنْيَانَا بِتَمْرِيقِ دِينِنَا . فَلَا دِينُنَا يَبْقَى وَلَا مَا نُرَقِّعُ
وَقَالَ السَّيِّدُ الْمَسِيحُ : أَنَا الَّذِي كَفَّأْتُ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِهَا ، فَلَيْسَتْ لِي زَوْجَةٌ
تَمُوتُ وَلَا بَيْتٌ يَخْرُبُ . وَقِيلَ لِمُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ : إِنَّكَ لَتَرْضَى بِالْدُّنْيِ فَقَالَ :
إِنَّمَا رَضِيَ بِالْدُّنْيِ مَنْ رَضِيَ بِالدُّنْيَا ... وَقَالَتْ امْرَأَةٌ لَزَوْجِهَا وَرَأَتْهُ مُهْمُومًا :
مِمَّ هَمُّكَ ؟ أِبَالِدُنْيَا فَتَنْدَرُغُ اللَّهُ مِنْهَا أَمْ بِالْآخِرَةِ فَرَادَكَ اللَّهُ هَمًّا ؟ وَقَالَ السَّيِّدُ
الْمَسِيحُ : حُبُّ الدُّنْيَا أَصْلُ كُلِّ خَطِيئَةٍ وَالْمَالُ فِيهَا دَاءٌ كَثِيرٌ ، قِيلَ : مَا دَاوُهُ ؟
قَالَ : لَا يَسْلَمُ صَاحِبُهُ مِنَ الْفَخْرِ وَالْكِبَرِ ، قِيلَ : وَإِنْ سَلِمَ ؟ قَالَ : يَشْفُلُهُ
إِصْلَاحُهُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ . وَقَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ : مَنْ أَصْبَحَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ
وَسَدَمَهُ ^(١) نَزَعُ اللَّهِ الْغِنَى مِنْ قَلْبِهِ ، وَصَيَّرَ الْفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا
إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ ؛ وَمَنْ أَصْبَحَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ وَسَدَمَهُ نَزَعُ اللَّهِ الْفَقْرَ مِنْ قَلْبِهِ
وَصَيَّرَ الْغِنَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ... وَقَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ
لِلضَّحَّاكِ بْنِ سُفْيَانَ : مَا طَعَامُكَ ؟ قَالَ : اللَّحْمُ وَاللَّبَنُ قَالَ : ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى
مَاذَا ؟ قَالَ : ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى مَا قَدْ عَلِمْتُ ، قَالَ : فَإِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ مَا يَخْرُجُ مِنْ
ابْنِ آدَمَ مِثْلًا لِلدُّنْيَا ... وَكَانَ بَشْرُ بْنُ كَعْبٍ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ إِذَا قَرَّغَ مِنْ
حَدِيثِهِ : انْطَلِقُوا حَتَّى أُرِيَكُمْ الدُّنْيَا ، فَيَجِيءُ فَيَقِفُ بِهِمْ عَلَى الشُّوقِ ، وَهِيَ
يَوْمَئِذٍ مَزْبَلَةٌ ، فَيَقُولُ : انْظُرُوا إِلَى عَسَلِهِمْ وَسَمْنِهِمْ وَإِلَى دَجَاجِهِمْ وَبَطْنِهِمْ

(١) السدم : الولوج بالشيء ..

صارَ إلى ما ترون...

وقال محمد بن وهيب: ^(١)

نُراَعُ لِيَذْكُرِ المَوْتَ سَاعَةً ذِكْرِهِ وَتَعْتَرِضُ الدُّنْيَا فَنَلْهُوَ وَنَلْعَبُ
وَنَحْنُ بَنُو الدُّنْيَا حُلُقِنَا لِغَيْرِهَا وَمَا كُنْتَ مِنْهُ فَهُوَ شَيْءٌ مُحَبَّبٌ ^(٢)
يَقِينُ كَأَنَّ الشَّكَّ غَالِبُ أَمْرِهِ عَلَيْهِ وَعِرفَانٌ إِلَى الجَهْلِ يُنْسَبُ
أقول: لعله ينظر إلى قول جرير:

تُرَوِّعُنَا الجَنَائِزُ مُقِيلَاتٍ فَتَلْهُوَ حِينَ تَذْهَبُ مُدِيرَاتٍ
كَرْوَعَةٍ ثَلَاثَةٍ لُمُغَارٍ ذَنْبٍ فَلَمَّا غَابَ عَادَتْ رَاتِعَاتٍ ^(٣)
قال أبو عمرو بن العلاء: جلستُ إلى جرير وهو يُمِيلِي:

• وَدَنَعَ أَمَامَةَ حَانَ مِنْكَ رَجِيلٌ •

ثم طلعت جنازة فأمسك وقال: شَيَّبَتْنِي هذه الجنائز، قلت: فلم تُسَابِ
الناس! قال: يبدأونني ثم لا أعفو وأعتدى ولا أبتدى، ثم قال هــذين
البيتين... وقول محمد بن وهيب: يقين كأن الشك أغلب أمره... أليت
فأخوذ من قول الحسن البصري: ما رأيتُ يقيناً لا شك فيه أشبه بشك
لا يقين فيه، إلا الموت...

(١) شاعر بصرى من أهل بغداد مدح المأمون والمعتصم ويعتد وسطاً في طبقة
دعل وأبي سعيد الخزومي، وكان يتشيع ويستمتع الناس بشعره، انظر ترجمته في
معاهد التنصيص

(٢) يقول: إننا أبناء الدنيا وما دمنا كذلك كانت الدنيا محبوبة لنا.

(٣) الثلاثة: بفتح الثاء. جماعة الغنم، أما الثلاثة بضم الثاء فالجماعة من الناس، وهذا
من غرائب هذه اللغة الكريمة.

وقال أحد الظُرَفَاء : إن الدنيا قدِ اسْتَوَدَّقتْ وأتَعَطَّ الناس : « استودقت يقال : ودَّقت الفرس تَدُقُّ ودَقًّا واستودقت : إذا طلبت الفحل » وقال حكيم : من أراد الدنيا فليَتَهَيَّأْ للذل . ومن كلمة لعلي بن أبي طالب : أهلُ الدنيا كَرَّ كَبِّ يُسَارُّ بهم وهم نيام .. ومن كلامه رضى الله عنه - وقد قال له رجلٌ وهو فى خُطبة : يا أمير المؤمنين ، صِفْ لنا الدنيا فقال : ما أَصْفُ من دارٍ أو لها عَناءٌ وآخِرُها فَناءٌ ، فى حَلالِها حسابٌ وفى حَرَامِها عِقَابٌ ، مَن صَحَّ فيها ما أَمِنَ ، ومن مَرِضَ نَدِمَ ومن استَغْنى فُتِنَ ، ومن افْتَقَرَ فيها حَزِنَ . وقال أيضاً : إنما المرءُ فى الدنيا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فيه المَنابِيا ، وتَنهَبُ للهِصَابِ ، ومع كلِّ جِرْعَةٍ شَرَقٌ ، وفى كلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ ، ولا يَنالُ العَبْدُ فيها نِعْمَةً إلا بفراقٍ أُخْرى ، ولا يَسْتَقْبِلُ يوماً من عمره إلا بهذِمَ آخَرُ من أَجَلِه ، فنحنُ أَعوانُ الحُتوفِ ، وأنفُسنا تسوقُنا إلى الفَناءِ ، فمن أين نرجو البقاء ؟ وهذا الليلُ والنهارُ لم يَرُفعا من شىءٍ شَرَفًا إلا أسرعا السَكْرَةَ فى هَدْمِ ما بَلَّيا ، وتفريقِ ما جَمعا ، فاطلبوا الخيرَ وأَهْلِهِ ، واعلموا أن خيراً من الخيرِ مُعْطِيهِ ، وشرًّا من الشرِّ فاعِلُهُ ... « الغرض : المَهْدَفُ ، والنهب : المال المنهوب غنيمةً واجمع نهباً وقد تقدم شرح الجرعة والشرق والغصص ، وقوله : فنحنُ أَعوانُ الحُتوفِ فالخُتف : الموت ، ومعنى أننا أَعوانُ الموت : أنا نأكل ونشرب ونجامع ونركب الخيل والسفن والطائرات ونحوها وتتصرف فى أسبابنا وحاجتنا وما رَبَّنا ، والموت إنما يكون بأحد هذه الأمور إما من أخلاط تُجَدِّشُها المَآكلُ والمشاربُ ، أو من سَقَطَةٍ يسقط الإنسان من دابةٍ هو راكِبُها أو من ضَعْفٍ يلاحقه من الجَماعِ المفرط أو مصادماتٍ واصطكاكاتٍ تصيبُه عند تصرفه فى ما رَبَّه وحركته وسعيه ونحو ذلك ،

فكأننا نحن أعنّا الموت على أنفسنا»

وقال علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم : مالك من عيشك إلا لذة تزديف بك إلى حمامك وتقربك من يومك ، فأية أكلة ليس معها غصص أو شربة ليس معها شرق ! فنأمل أمرك فكأنك قد صرت الحبيب المفقود والخيال المحترم ، أهل الدنيا أهل سفر لا يحلون عقد رحلهم إلا في غيرها « قوله : تزديف بك إلى حمامك : أى تقربك إلى موتك ، والمحترم المستاصل والمقتطع ».

وقال حكيم : من ذا الذى يبنى على موج البحر داراً ! تلکم الدنيا ، فلا تتخذوها قراراً ... وقيل لبعض الرهبان : كيف ترى الدهر ؟ قال : يُخلق الابدان ، ويُجدد الآمال ، ويُقربُ المنية ، ويُبعد الآمنية ، قيل : فما حال أهله ؟ قال : من ظفر به تعب ، ومن فاته اكتاب ، وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

ومن يحمّد الدنيا لِعَيشِ يُسره فسوف لِعَمْرِى عن قليل يلوها
إذا أدبرت كانت على المرء حَسرة وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

قال حكيم : من عيب الدنيا أنها لا تعطى أحدا ما يستحق ، إما أن تزيد له وإما أن تنقص ... وقال أبو العتاهية :

تعالى الله يا سَلْمُ بنَ عمرو أذلّ الحِرْصُ أعناقَ الرجال
هَبِ الدنيا تُساقُ إليك عَفْوا أليس مَصيرُ ذاك إلى الزَّوالِ
وما دُنْيَاكَ إلا مِثْلُ قِيءٍ أَظْلَكَ ثُمَّ آذَنَ بَاتِقَالِ
ولنجزئ بهذا المقدار قَبقرياتهم فى الدنيا لا يكاد يبلغها الإحصاء.

عقرياتهم في الموت

أسماء الموت ووضفهُ

الموت : ضد الحياة ، ويقال : مات يَمُوتُ وَيَمَاتُ — لغة طائية — وقالوا : مِتَّ تَمُوتُ ؛ قال ابن سيده ؛ ولا نظير لها مِنْ المعتل ، وَرَجُلٌ مَيِّتٌ وَمَيِّتٌ ، وقيل : المَيِّتُ : الذى مات ، والمَيِّت والمائت : الذى لم يَمُتْ بعدُ ، يقال : هو مَيِّتٌ غدا ومائت ولا يقال : مَيِّتٌ ، قالوا : وهذا خطأ ، وإنما مَيِّتٌ يصلح لما قد مات ولما سيموت ، وقد جمع بين اللغتين عدي بن الرغلاء الغساني - والرغلاء أمه - فقال :

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنما الميتُ مَيِّتُ الأحياءِ
إنما الميتُ من يعيش كثيراً كاسفاً بأله قليل الرجاء
فأناسٌ يُصَّصُونَ نِمَاداً^(١) وأناسٌ حُلُوفُهُمْ في الماءِ

فجعل الميتَ كالْمَيِّتِ ... ويقال للموت : الِهْمِيعُ ، وقيل : الِهْمِيعُ : الموتُ المُعْجَلُ : أقول : ولعله سُمي كذلك لأن الروح تَهْمَعُ : أى تسيل ، من هَمَعَ الدمعُ والماء : سال . ومن أسماء الموت أيضاً : النَيْطُ ، روى عن علي رضي الله عنه أنه قال : لَوَدَّ مُعَاوِيَةُ أَنَّهُ مَابِقٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ نَافِخُ ضَرَمَةٍ إِلَّا طُعِنَ فِي نَيْطِهِ^(٢) ، معناه : إلآمات ، قال ابن الأثير : والقياس : النَوُطُ ، لأنه من ناطَ ينوطُ : إذا عُلِقَ ، وقيل : النيط : نياط القلب ، وهو : العِرْقُ الذى يتعلق به القلب ... ومن أسماء الموت : الرَّمْدُ قال أبو وجرة السعدي :

صَبَّيْتُ عَلَيْكُمْ حَاصِبِي فَتَرَكْتُكُمْ كَأَصْرَامٍ عَادٍ حِينَ جَلَّلَهَا الرَّمْدُ

«الحاصب . العذاب يكون بالريح الشديدة تحمل الحصباء ، والأصرام : الجماعات

(١) النِّمَاد : الماء القليل الذى لامادة له (٢) الضربة بتحريك الميم : الجرة أو النار نفسها ، ويقال مابالدار نافع ضربة : أى ما بها أحد .

من الناس ، والرّمادة : الهلاك ؛ ومنه قيل : عام الرّمادة ؛ لأنّ الناس والأموال هلكت فيه كثيرا ^(١) ومن أسمائه : أُمّ قَشَعَم ، قال أبو عبيد : أُمّ قَشَعَم : المَنِيّة ، ويقال للشيخ الكبير والمسنّ من النُّسور والرحم : قَشَعَم ، لِطول عمره . وأُمّ قَشَعَم في قول زهير في معلقته :

قَشَدٌ وَلَمْ يُفْرِغْ يُبَوِّتاً كَثِيرَةً لَدَى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أُمّ قَشَعَمِ

قيل : الحرب ، وقيل : المنية ، وقيل : الضُّبُع ، وقيل : العنكبوت ، وقيل : الذِّلّة ... ومن أسمائه : أُمّ اللّهِم . قال الخليل بن أحمد : أُمّ اللّهِم : المنية ، لأنها تلتهم كل شيء . ومن أسمائه : شَعُوبُ ، قال ابن السكيت : شَعُوبُ : اسم المنية ، مؤنثة مَعْرُفَةٌ لا تنصرف وأنشد :

❖ وَمَنْ تَدْعُ يَوْماً شَعُوبُ يُجِيبُهَا ❖

قال : وإنما سميت المنية شَعُوبَ لأنها أَشْعَبُ — أى تُفَرِّقُ — يقال : شَعَبَ وَأَشْعَبَ وَأَنْشَعَبَ : هَلَكَ . . ومن أسمائه : الْفَوْدُ ، فَادٌ يَفُودُ فَوْدًا : مات ، قال لبيد بن ربيعة يَذكر الحارث بن أبي شمر الغَسَّانِي ، وكان كلُّ ملكٍ منهم كلما مضت عليه سنة زَادَ في تاجِهِ خَرْزَةٌ ، يُرَادُ بذلك أن يُعْلَمَ عَدَدُ السنين التي ملكها ، فأراد أنه عُمِّرَ حتى صارَ في تاجِهِ خَرْزَاتٌ كَثِيرَةٌ :

رَعَى خَرْزَاتِ الْمُلْكِ سِتِّينَ حِجَّةً وَعِشْرِينَ حَتَّى فَادَ وَالشَّيْبُ شَامِلٌ
ومن أسمائه : الْحِمَامُ . يقال نَزَلَ بِهِ حِمَامُهُ : أى مَوْتُهُ وَقَدَرُهُ ، مِنْ حُمٍ كَذَا
أى قَدَّرَ أَنْشَدَ ابْنُ بَرِّى لِحَبَابِ بْنِ عُزَی :

(١) عام الرّمادة كان سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة من الهجرة أيام أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب رضى الله عنه

وَأَرْجَى بِنَفْسِي فِي فُرُوجٍ كَثِيرَةٍ وَلَيْسَ لِأَمْرِ سَمِّهِ اللَّهُ صَارِفٌ
وَمِنْ أَسْمَائِهِ : الْمُنُونُ ، قِيلَ : الْمُنُونُ تَكُونُ وَاحِدًا وَجَمْعًا ، قَالَ أَبُو ذُؤَيْبٍ
الْهَذَلِيُّ ...

❖ أَمِنْ الْمُنُونِ وَرَئِيهِ تَتَوَجَّعُ ❖

وَمِنْ جَمْعِهِ قَوْلُ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ الْعَبَادِيِّ :
مَنْ رَأَيْتَ الْمُنُونَ خَلَدْنَ أَمَّ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ
وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : الْمُنُونُ وَاحِدٌ لَا يَجْمَعُ لَهُ ، فَأَمَّا قَوْلُ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ فَعَلِيَ
مَعْنَى الْعُمُومِ وَالْكَثَرَةِ فِي الْمَوْتِ ، إِذْ كَانَ أَدْمَى الدَّوَاهِي ، وَقَالَ ابْنُ جَنَى : مَنْ
أَنْتَ الْمُنُونُ ذَهَبَ إِلَى مَعْنَى الْمُنِيَّةِ وَمَنْ ذَكَرَ أَرَادَ الدَّهْرَ ، وَسُمِّيَ الدَّهْرُ مُنُونًا
لَأَنَّهُ يَذْهَبُ بِمَنْقَرِ الْإِنْسَانِ : أَيُ قُوَّتِهِ ... وَمِنْ أَسْمَائِهِ : الْمُوتَانُ وَالْمَوْتَانُ ، قَالَ
صَاحِبُ اللِّسَانِ : الْمُوتَانُ وَالْمَوْتَانُ وَالْمَوَاتُ كُلُّهُ : الْمَوْتُ ؛ وَفِي الْحَدِيثِ :
يَكُونُ فِي النَّاسِ مُوتَانٌ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ ، فَالْمَوْتَانُ : الْمَوْتُ الْكَثِيرُ الْوَقُوعُ .

❖ ❖ ❖

وَمِنْ صِفَاتِ الْمَوْتِ : مَوْتُ زَوَامٍ : أَيُ كَرِيهِ ، وَقِيلَ : عَاجِلٌ ، وَقِيلَ :
سَرِيعٌ مُجْهِزٌ ، وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ هُوَ الْأَصَحُّ ؛ وَمِنْ أَوْصَافِهِ أَيْضًا : مَوْتُ زُعَافٍ
وَزُعَافٍ وَزُؤَافٍ وَجُحَافٍ ، جُحَافٌ : شَدِيدٌ يَذْهَبُ بِكُلِّ شَيْءٍ يَقَالُ : سِيلَ
جُحَافٍ وَجُرَافٍ : يَذْهَبُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَزُعَافٍ وَزُؤَافٍ وَزُعَافٍ : سَرِيعٌ
وَحَيٌّ ، وَقِيلَ : شَدِيدٌ ، وَمِنْهَا : مَاتَ قَعَصًا : أَيُ مَوْتًا وَحِيًّا ، وَيُقَالُ لِمَنْ مَاتَ
فُجَاءَةً : فَقَسَ يَفْقَسُ فُقُوسًا ، وَفَقَسَ يَفْقُطُ فُقُطُوسًا ، وَيُقَالُ لَعِقَى إَصْبَعُهُ
وَطَنَّ وَتَلَبَّلَ : أَيُ مَاتَ ، وَيُقَالُ أَطْلَى الرَّجُلُ : أَيُ مَالَتْ عُنُقُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ ،
وَيُقَالُ : جَرَضَ بَرِيقَهُ ، وَأَصْلُ الْجَرَضِ : الْغَضَّةُ ، وَالْمُرَادُ : عَانَى غَضَصَ الْمَوْتِ

ومن ذا المثلُ : حالَ الجريضِ دونَ القريضِ ، قاله عبيد بن الأبرص للمنذر حين أراد قتله وقال له : أنشدني من قولك ، فقال عند ذلك : حال الجريض دون القريض ، «الجريض : الغصصُ واختلاف الفكّين عند الموت ، والقريض : الجرة»^(١) - لأنه إذا غصّ لم يقدر على قرضِ جرّته ، والقريض أيضاً : الشجر ، ويقال استأثر الله به ، وانحلّ تركيبه ، وبخّى لما خُلِقَ له ، وأناه ما كان يحذر ، وأكل الدهر عليهم وشرب ، وهذا مقلوب ، وإنما هو : أكلوا على الدهر وشربوا ؛ وصفر وطابه ، ومعناه : أن جسمه خلا من روحه ؛ وأجود وصف للبوت قول سيدنا رسول الله : أكثرُوا من ذكرها ذمّ اللذات^(٢) ... ولنَجْتزِي بهذا المقدار^(٣)

تعظيم أمر الموت

قال الحسن البصري : إن الموتَ قد فضَحَ الدنيا ...
وكان كثيراً ما يقول : عند الموت يأتيك الخبر ... وقال له رجلٌ يوماً
إن عشتَ تر ما لم تره ، فقال : إن متَّ تر ما لم تره ... وفي الأثر : ما رأيتُ
منظراً فظيماً إلا والموتُ أعظم منه ...

(١) الجرة : ما يخرج البعير وكل ذي كرش ليضعه ثم يياحه
(٢) قرأ هادم بالذال المهملة وبالذال المعجمة ومعناها مزيل الشيء من أصله والرواية بالمعجمة .
(٣) إذا أردت التوسع في أوصاف الموت وأسمائه فإلى الجزء السادس من

المختص لابن سيده

حشهم على تصور الموت

كان الحسنُ البصريُّ إذا خَوَّف من الموت يقول للشَّيرخ : الزرعُ إذا
بانع ما يُصنَّع به ؟ قالوا : يُحصَد ، ويقول : للشَّبان : يامعشرَ الشَّبان كم
من زرع لم يبلُغ أدركته الآفة !

وقال بعضُ الخلفاء لابن السماك ^(١) : عِظني وأَوْجِزْ ، فقال : اعلمُ أنك أوَّل
خليفة تموت ؛ وهذا كما سأل أَرْدَشِيرُ بعضَ الحكماء عن دار بناها وقال : هل
ترى فيها عيبا ؟ قال الحكميم : نعم ، عيبا لا يمكنك إصلاحه ، فقال وما هو ؟
قال : لك منها خُرْجة لا عود بعدها أَرْدَخَلَةُ لا خروج بعدها ... وقالوا :
من ضاق به أمرٌ فليذكر الموت فإنه يتسَّعُ عليه ... ونحوه : مَنْ أَحْسَنَ بآنه
يموتُ فليس يَبْنِي أن يَنْتَمَّ لِأمرٍ صَعْبٍ ينزل به .

وشكا رجلٌ إلى سيدنا رسول الله قسارة قلبه فقال صلوات الله عليه :
أَكْثَرُ من ذكر هاذم اللذات ، فإنه ما ذكره أحدٌ في ضيقٍ إلا وسَّعَهُ عليه
ولا في سَعَةٍ إلا ضَيَّقَهَا عليه ... وقال بعضُ الصالحين : نَعَمْ نصيحةُ القلب
ذِكْرُ الموت ، بطرْدُ فضول الأمل ، وَيُكَفِّفُ غَرْبَ الْمَنَى وَيَهْوِي المصائب ، ويحول
بين القلب وبين الطغيان ... وقال الحسنُ البصريُّ - وقد قعد عند رأس
مَيِّتٍ : إن أمرا هذا آخره لأهلٌ أن يُزَهَّدَ فيما قَبْلَهُ ، وإن أمرا هذا أوله
لَأَهْلٌ أن يُحَذَّرَ ما بعده ، ونظر الحسن إلى صبيَّة بين جنازة أبيها تقول :
يا أبتِ مثلي يومك لم أره ، فضمَّها الحسن وقال : أيُّ بُليَّةٍ ، وأبوكِ مثل
هذا اليوم لم يره ؛ فبكى الناس ... ومر عليُّ بن أبي طالب رضى الله عنه بقابر

(١) هو أبو العباس محمد بن صباح العابد المحدث المتوفى سنة ١٨٣

الكوفة فقال : السلام عليكم أهل الديار الموحشة ، والمحال المفقرة ، أتم لنا
سلف ونحن لكم تبع ، أما الأزواج فقد نكحت ، وأما الديار فقد سكنت ،
وأما الأموال فقد قُسمت ؛ هذا خبر ما عندنا ، فما خبر ما عندكم ؟ ثم النفث
إلى أصحابه فقال : أما إنهم لو تكلموا لقالوا : إنا وجدنا خير الزاد التقوى .

استدلال الإنسان

على موته بمن مات من أهله

قال أبو نواس من آيات قد أوردناها عليك في باب القوى :
أيا ابنَ الذين قنوا وماتوا أما والله ما ماتوا لتبقى
وقال بعض الصالحين : إن امرأة ما بينه وبين آدم أب إلا ميت لمعرق في
الموت ... وقال لييد :

فإن أنت لم تصدقك نفسك فانتسب لملك تهديك القرون الأوائل
فإن لم تجد من دون عدنان باقيا ودون معية فلتزعك العواذل
وهذان البيتان من قصيدة يرثي بها النعمان بن المنذر ملك الحيرة وأولها :
ألا تسألن المرأة ماذا يجاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل
وفيها يقول :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهمته تصفر منها الأنامل
وقوله : فإن أنت لم تصدقك ... أبيت يقول : إن لم تصدقك نفسك عن
هذه الاخبار ، بل كذبتك ، فانتسب : أي قل : أين فلان بن فلان ، فإنك
لا ترى أحدا بقي ، وملك تهديك القرون وتريدك ، وقوله : فإن لم تجد ... أبيت

وَتَزْعَكُ : تَكْفُفُكَ ، وَالْعَوَازِلُ هُنَا : حَوَادِثُ الدَّهْرِ وَزَوَاجِرُهُ ، وَقَالَ
بَعْضُ الشَّرَاحِ : الْعَوَازِلُ : النِّسَاءُ ، يَقُولُ : لَمْ يَبْقَ لَكَ أَبٌ حَتَّى إِلَى عَدْنَانَ
فَكَفَّتْ عَنِ الطَّمَعِ فِي الْحَيَاةِ ، وَمَعْنَى الْبَيْتَيْنِ : إِنْ غَايَةَ كُلِّ حَتَّى الْمَوْتُ ، فَيَنْبَغِي
لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَعَظَّ : بِأَنْ يَلْتَسِبَ نَفْسَهُ إِلَى عَدْنَانَ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ
مِنَ الْآبَاءِ بَاقِيًا فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ يَصِيرُ إِلَى مَصِيرِهِمْ ، فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنْزِعَ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ «
وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ :

فَبَعْضَ اللَّوْمِ عَازِلَتِي فَإِنِّي سَيَكْفِنِي التَّجَارِبُ وَانْتِسَابِي
إِلَى عِرْقِ الثَّرَى وَشَجَّتْ عُروقي وَهَذَا الْمَوْتُ يَسْلُبُنِي سُبَابِي
«وَشَجَّتْ» : اسْتَبَكَتْ ، وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَصِيدَةٍ لَهُ يَمْدَحُ مَالِكَ بْنَ طَوِيقٍ
وَيُعْزِيهِ عَنْ أَخِيهِ الْقَاسِمِ :

تَأْمَلْ رُوَيْدًا هَلْ تَعُدُّنْ سَالِمًا إِلَى آدَمِ أَمْ هَلْ تَعُدُّنْ ابْنَ سَالِمٍ
مَتَى تُرْغِ هَذَا الْمَوْتَ عَيْنًا بَصِيرَةً تَجِدُ عَادِلًا مِنْهُ شَيْمًا بَظَالِمٍ
«قَوْلُهُ : مَتَى تُرْغِ أَلْبَيْتَ يَقُولُ : مَتَى أَنْعَمْتَ النَّظَرَ وَأَفَكَّرْتَ فِي أُمُورِ الْمَوْتِ
وَجَدْتَ مِنْهُ عَادِلًا أَشْبَهَ بَظَالِمٍ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ يَخْتَرِمُ مَنْ يَكُونُ اخْتِرَامُهُ أَصْلَحَ
لَهُ لَدَى الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ الَّذِي يَعْلَمُ مَصَالِحَ خَلْقِهِ وَقَدْ يَخْفَى عَلَيْكَ وَجْهُ الْحِكْمَةِ
فَتَظُنُّ الْعَدْلَ جَوْرًا ،

وَقَالَ الْبُحْتَرِيُّ

وَمَا أَهْلُ الْمَنَازِلِ غَيْرُ رَكْبٍ مَنَابِهْمِ رَوَاحٍ وَابْتِكَارُ
لَنَا فِي الدَّهْرِ آمَالٌ طَوَالُ تُرَجِّيهِمْ وَأَعْمَارُ قِصَارُ
وَالْبَيْتُ الثَّانِي مِثْلُهُ قَوْلُ ابْنِ هَانِي الْأَنْدَلُسِيِّ مِنْ أَيْاتِ يَرْتِي بِهَا وَالِدَةَ
يَحْيَى وَجَعْفَرَ ابْنَيْ عَلِيٍّ صَاحِبِ الْمَدِينَةِ بِالْمَغْرِبِ ، وَهَذِهِ هِيَ الْآيَاتُ :

صَدَقَ الْفَنَاءُ وَكَذَّبَ الْعُمُرُ وَجَلَّ الْعِظَاتِ وَبَالَغَ الذُّنُورُ
 إِنَّا ، وَفِي آمَالِ أَنْفُسِنَا طُولُ وَفِي أَعْمَارِنَا قِصَرُ
 لَنَرَى بِأَعْيُنِنَا مَصَارِعَنَا لَوْ كَانَتِ الْأَلْبَابُ تَعْتَبِرُ
 مِمَّا دَهَانَا أَنْ حَاضِرَنَا أَنْجَفَانَا ، وَالْغَائِبُ الْفَسْكَرُ
 وَإِذَا تَدَبَّرْنَا جَوَارِحَنَا فَأَكْثَرُ الْعَيْنِ وَالنَّظَرُ
 لَوْ كَانَتِ الْأَلْبَابُ تُنْتَحَنُ مَا عُدَّ مِنْهَا السَّمْعُ وَالْبَصَرُ^(١)
 أَى الْحَيَاةِ الَّتِي عَيْشَتَهَا مِنْ بَعْدِ عَلَيَّ أَنْتَى بَشَرُ
 خَرِسَتْ لَعَمْرُ اللَّهِ أَلْسُنَا لَمَّا تَكَلَّمَ فَوْقَنَا الْقَدَرُ

الاعتبار بمن مات من الكبار

قال عدي بن زيد العبادي :

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعِيرُ بِالْذَّهْرِ رَأَيْتُ الْمُهَيَّرَ الْمُفُورُ^(٢)
 أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْوَبِقُ مِنَ الْآيَا إِمَّ بَلْ أَنْتَ جَاعِلٌ مَفُورُ
 مَنْ رَأَيْتَ الْمُنُونِ خَلْدُنَ أَمْ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ^(٣)
 ابْنَ كِسْرَى كِسْرَى الْمُلُوكِ أَنْوَشَرُ وَإِنْ أَمْ أَنْ قَبْلَهُ سَابُورُ^(٤)
 وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْكِرَامُ الْمُلُوكُ الرُّو إِمَّ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكَورُ

(١) أى ما عُدَّ من المتحنات : السمع والبصر ، لأن السمع يسمع المواضع فلا يتعظ والبصر يبصر العبر فلا ينزجر

(٢) المفور : يريد الذى لم تصبه نوائب الدهر

(٣) المنون : المنية أو الدهر كما تقدم

(٤) هناك سابور الجنود وهو ابن أردشير ، وسابور ذو الاكتاف وهو سابور ابن هرمز وكلاهما من ملوك العجم قبل كسرى أنوشروان

وأخو الحضِرْ إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دَجَّ لَهُ مُجْبَى إِلَيْهِ وَالْخَابُورُ ^(١)
 شَادَهُ مَرَمَرًا وَجَلَّاهُ كَأَنَّ سَا فَلَاطِيرَ فِي ذُرَاهُ وَكُورُ ^(٢)
 لَمْ يَهْبَهُ رَبُّ الْمَذُونِ فَبَادَا مُلْكُ عَنْهُ فَبَاهُ مَهْجُورُ
 وَتَذَكَّرَ رَبُّ الْخَوْرَتَيْنِ إِذَا أَصْبَحَ يَوْمًا وَلِلْهَدَى تَفْكِيرُ ^(٣)
 سَرَّهُ حَالَهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمْنَعُ لَكَ وَالْبَحْرُ مُعْرِضًا وَالسَّيْدُ ^(٤)
 فَارْعَوَى قَلْبَهُ فَقَالَ : وَمَا غِبَّ طُهُ حَيَّ إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ
 ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالنَّعْمَةِ مِثْلَ وَارْتَهُمْ هُنَاكَ الْقُبُورُ
 ثُمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ جَفَّ فَأَلَوْتُ بِهِ الصَّبَا وَالْدَّبُورُ ^(٥)

وما كان يصح أن يذكر في هذا الباب مرثية الوزير الشاعر الأندلسي عبد المجيد ابن عبدون التي برئ بها بنى الأفطس - من ملوك الطوائف بالأندلس - وذكر فيها عدة من مشاهير الملوك والخلفاء والأكابر ممن أبادهم الدهر بحوادثه ونكباته، ووثب عليهم الزمن فاوَّجدوا جنةً نعيمهم من وثباته، ودبت عليهم الأيام بصروفها، وسفقتهم

(١) الحضِرْ : قصر كان بجبال تكريت بين دجلة والفرات ، وأخو الحضِرْ كان صاحب تلك الناحية وسائر أرض الجزيرة : وله حديث طريف انظره في الأغاني ج ٢ في ترجمة عدى بن زيد طبع دار الكتب ، والخابور . اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة

(٢) الكلس : الصاروج أى النورة وأخلاطها تطلّى بها المنازل وغيرها، وذراه : أعاليه ، والوكور : جمع وكز : العش

(٣) صاحب الخورتنى - وهو القصر الذى بناه سنار - هو النعمان بن امرئ القيس عامل يزدجرد بن سابور على أرض العرب وله قصة انظرها في الأغاني وهو الذى ساق على وجهه فلم يعرف له خبر

(٤) معروض بمعنى متسع ومنه أعرض الثوب أى اتسع وعرض ، والسدير : نهر

(٥) ألوت به : ذهب به

الْعَيْنِيَّة بِكَاسُ حُتُوفِهَا ، وَمَطْلَعُهَا :

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ فَمَا الْبُكَاءُ عَلَى الْأَشْبَاحِ وَالْأُصُورِ
يَدُ أَنَا لَطَوَلُهَا وَأَيْنَا أَنْ نَضْرِبَ عَنْ إِرَادِهَا هُنَا صَفْحًا ، وَتَرَاهَا فِي الْمَجْلَدِ
الخَامِسِ مِنْ نِهَآيَةِ الْأَرْبِ لِلنُّوْبَرِيِّ الَّذِي قَامَتْ بِطَبْعِهِ دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ ...
وَقَدْ شَرَحَهَا ابْنُ بَدْرُونَ ، وَمِنْ أَيْبَاتِهَا :

فَلَا تَغُرِّكَ مِنْ دُنْيَاكَ تَوَمُّتُهَا فَمَا صِنَاعَةُ عَيْنِهَا سِوَى السَّهْرِ
مَالِيَّالِي - أَقَالَ اللَّهُ عَثَرَتَنَا مِنْ اللَّيَالِي وَخَاتَمَتَهَا يَدُ الْغَيْرِ
فِي كُلِّ حِينٍ لَهَا فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مَنَاجِرَاحٍ وَإِنْ زَاغَتْ عَنِ الْبَصَرِ
تَسُرُّ بِالشَّيْءِ لَكِنْ كَيْ تَغُرَّ بِهِ كَالْأَيْمِ^(١) نَارًا إِلَى الْجَانِي مِنَ الشَّمْرِ
وَقَالَ الْمُنْبِي :

أَبْنِي أَيْنَا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلٍ أَبَدًا عُرَابُ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعِنُ
نَبِيٌّ عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ جَمَعَتْهُمْ الدُّنْيَا فَلَمْ يَنْفَرُقُوا
أَيْنَ الْإِكْلَامَةِ الْجَبَابِرَةُ الْأَهْلَى كَنَزُوا الْكُنُوزَ فَهَآ بَقِيْنَ وَلَا بَقُوا
مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الْفَضَاءُ بِحَيْثِهِ حَتَّى قَوَى فَحَوَاهُ لَحْدٌ ضَيِّقٌ
حُرْسٌ إِذَا تُودُوا كَأَنْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْكَلَامَ لَهُمْ حَلَالٌ مُطْلَقٌ
وَالْمَوْتُ آتٍ وَالنَّفُوسُ تَفَاسُ وَالْمُسْتَغْرِ بِمَا لَدَيْهِ الْأَحَقُّ
وَالْمَرْءُ يَأْمُلُ ، وَالْحَيَاةُ شَيْبَةٌ وَالشَّيْبُ أَوْقَرُ ، وَالشَّيْبَةُ أَزْرَقُ

« أَبْنِي أَيْنَا : يَا إِخْوَتَنَا ، يَا بَنِي آدَمَ ، وَأَرَادَ بِعُرَابِ الْبَيْنِ : دَاعِيَ الْمَوْتِ
يَقُولُ : نَحْنُ نَازِلُونَ فِي مَنَازِلٍ يَنْفَرَقُ عَنْهَا أَهْلُهَا بِالْمَوْتِ ، فَقَوْلُهُ : نَبِيٌّ عَلَى

(١) الْإِيم : الْإِنْسِي .

الدنيا... ألبيت مثله قول جرير يرثى امرأته :

لَا يَلْبَثُ الْقُرْنَاءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا لَيْلٌ يَكُرُّ عَلَيْهِمْ وَنَهَارٌ

وثوى - بالمثلثة : أقام في القبر ؛ وبالمثناة : هلك ، وهذا البيت من قول أشجع :

وَأَصْبَحَ فِي لَحْدٍ مِنَ الْأَرْضِ ضَيْقٌ وَكَانَتْ بِهِ حَيًّا ضَيْقُ الصَّاحِصِ

« الصَّاحِصِ جَمْعُ صَحْصَحَ : وَأَصْلُهُ مَا اسْتَوَى مِنَ الْأَرْضِ وَكَانَ أَجْرَدَ »

والمستغر : المغرور ، يقول في هذا البيت : النفوس يأتي عليها الموت وإن

كانت عزيزة نفيسة لا يمنعها ذلك من أخذها ، واللاحق هو المغرور بالدنيا

وبما يجمعه فيها ، أما العاقل فإنه لا يغتر بما جمعه لعله أنه لا يبقى هو ولا ما جمعه ،

وقوله : والمرء يأمل... ألبيت يقول : المرء يرجو الحياة لطيبها لديه ،

والشيب أكثر له وقاراً من الشباب ، يعني : أن المرء يكره الشيب ويحب

الشباب والشيب خير له ، لأنه يكسبه الحلم والآنسة والوقار ، والشباب شر

له ، لأنه يحمله على الطيش والنزق والحُمق ، وقال الشاعر :

رُبَّ قَوْمٍ عَبَرُوا مِنْ عَيْشِهِمْ فِي نَعِيمٍ وَسُرُورٍ وَغَدَقَ

سَكَتُ الدَّهْرِ زَمَانًا عَنْهُمْ ثُمَّ أَبْكَاهُمْ دَمًا حِينَ نَظَنُّ

« الغدق المراد به الخصب والسعة » ، وقال مالك بن دينار :

أَتَيْتُ الْقُبُورَ فَنَادَيْتُهُنَّ أَيْنَ الْمَعْظَمِ وَالْمُحْتَقَرِ

وَأَيْنَ الْمُدِلِّ بِسُلْطَانِهِ وَأَيْنَ الْمُرَكِّي إِذَا مَا أَفْتَحَرِ

قال : فتوديت من بينها ولا أرى أحدا :

تَفَاتَرُوا جَمِيعًا فَمَا نُخِيرُ وَمَاتُوا جَمِيعًا وَمَاتَ الْخَبِرُ

تَرُوحُ وَتَغْدُو بَنَاتُ النَّرَى وَتَمَحُّوْهُ مَحَاسِنَ تِلْكَ الصُّوَرِ

فِي سَائِلِي عَنْ أَنْاسٍ مَضَوْا أَمَا لَكَ فِيمَا تَرَى مُعْتَبَرًا

« بنات الثرى : الدود » ...

ونزل النعمانُ بنُ المنذرِ ومعه عدىُّ بنُ زيدِ العبادىُّ فى ظلِّ شجرة عظيمة
ليتلُّوها ، فقال له عدى : أتدرى ما نقولُ هذه الشجرة ؟ قال : لا ،
قال : تقول :

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا يَمْزُجُونَ الْخَمْرَ بِالمَاءِ الزَّلَالِ
نُمُّ أَصْحَوَا عَصَفَ الدَّهْرِ بِهِمْ وَكَذَاكَ الدَّهْرُ حَالًا بَعْدَ حَالٍ

ونظرتِ امرأةٌ إلى جعفر بن يحيى البرمكى وزير الرشيد ، وهو مصلوب
فقلت : لئن كنتِ فى الحياة غايَةً فلقد صرتِ فى المماتِ آية ... ولما ماتَ
الإسكندرُ المقدونى وَقَفَ عليه أرسطو الفيلسوف فقال : طالَمَا كان هذا
الشخصُ واعظًا بليغًا ، وما وَعَظَ بمَوْعِظَةٍ فى حَيَاتِهِ أَبْلَغَ من عِظَتِهِ فى مَمَاتِهِ ،
أَخَذَ هذا المعنى أبو العتاهية فقال :

وكانت فى حَيَاتِكَ لى عِظَاتٌ وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيًّا

من مات فَقَدْ تَنَاهَى فى البَعْدِ

قال النابغة الذبياني :

حَسْبُ الخَالِئِينَ نَأَى الأَرْضِ بَيْنَهُمَا هذا عليها وهذا تحتها بالي
وقال أبو حية النميرى :

فلا غائبٌ من كان يُرَجَى إِيَابُهُ وَلَكِنَّهُ مَن ضَمَّنَ اللَّحْدَ غَائِبُ

غفلة الناس عن الموت

قال أبو العتاهية :

الناس في غفلاتهم ورَحَى الْمَنِيَّةِ تَطْحَنُ
وقال الحسن البصري : مارأيتُ يَقيِنًا لاشكَّ فيه أشبه بشكِّ لا يقين فيه
مثل الموت ، وقد تقدم ، وقال عمرُ بنُ عبد العزيز في خطبة له : ما هذا
التغافلُ عما أمرُتم به ، والتسرُّعُ إلى ما نهيتُم عنه ! إن كنتم على يقين فأتتم
حَقَّقُ ، وإن كنتم على شكِّ فأتتم هَلَكى ...

وقال شاعر :

ونأملُ من وعْدِ المَنَى غيرَ صَادِقٍ ونأمنُ من وعْدِ المَنَى غيرَ كاذِبٍ
نُراغُ إذا ما شِيكَ لِمَخْصُ بعضنا وأقدأنا ما بين شوكِ العقاربِ
« المَنَى : جمعُ المَنِيَّةِ وهو ما يَتَمَنَّاهُ المرءُ ، والمَنَى : الموت ، وأصله القَدَرُ
تقول : مَنَى اللهُ لَكَ ما يَسُرُّكَ : أى قدر الله لك ما يَسُرُّكَ ويسمى الموت بالمَنَى
لأنه قَدَرٌ علينا ، وقيل : مَنْ لم يَرْتَدِّعْ بالموتِ وبالقرآنِ ثم تَطَاوَحَتِ الجِبَالُ
بين يَدَيْهِ لم يَرْتَدِّعْ .

لا ينجو من الموت أحد

قيل : مَنْ لَمْ يَمُتْ عاجِلاً ماتَ آجِلاً ؛ وقال أُمَيَّةُ بنُ أَبِي الصَّلْتِ :
مَنْ لَمْ يَمُتْ عِبْطَةً يَمُتْ هَرَمًا لِلْمَوْتِ كَأَنَّ المَرءَ ذَانِقُهَا
مَالِذَةُ النَفْسِ فِي الْحَيَاةِ وَإِنْ عَاشَتْ قَلِيلاً فَاَلْمَوْتُ لَأَحِقُّهَا
يَقْوُدُهَا قَائِدٌ إِلَيْهِ وَيَحْدُوها حَاشِيئاً إِلَيْهِ سَانِقُهَا

« يقال : مات فلان عبطةً : أى شاباً ، وقيل : شاباً صحيحاً ، وأصل العبط من اللحم : ما كان سليماً من الآفات ويقال : عبط الشاة والثاقة وكل دابةً : تحرّها أو ذبحها من غير داء وهي فتية ،

وقيل لابن المقفع : قد كنت نعت لنا فقال : ما بعد كائن ولا قرب بان ... وقال ابن المعتز :

ألا إنما جسمي لروحي مطيةٌ ولا بد يوماً أن يعرّى من الرحل

« الرحل : المنزل ، والسرّج يوضع على ظهر الدابة ، وعرّى منه نزع عنه وهذا على المثل ، وقال محمود الوراق :

وما صاحب السبعين والعشر بعدها بأقرب ممن حنّكته القوايلُ

ولكن آمالاً يؤملها الفتى وفيهنّ للراجلين حتى وباطلُ

« التوابل جمع قابلة : المرأة تتلقى الولد لدى الولادة « المولدة » وحنّكته

فالتحنّيك : أن تمضغ التمر ثم تدلكه بحنك الصبي داخل فيه ، ...

وقال المتنبي :

وأوفى حياة الغارين لصاحب حياة امرئ خاتته بعد مشيب

« يريد المتنبي : أن الحياة وإن طالت فهي إلى انقضاء ، يقول : أوفى عمر

أن يبق حتى المشيب ثم يخونه عمره بعد ذلك ، وتصاراه الموت ، أو تقول : إذا

عاش المرء إلى بلوغ المشيب ثم خاتته حياته يومئذ فقد تناهت في الوفاء .

ومرّ شيخ من العرب بغلام فقال له الغلام : أحصدت ياعمى ، فقال : يا بني ،

وأنحضرّون « أحصدت : آن لك أن تحصد ، وتختضرون : تموتون خضراً في

شبابكم .

الموت لا يتحرز منه بشيء

ولو كان الطبَّ

قال المتنبي :

يموتُ راعي الضأنِ في جَهْلِهِ مَوْتَهُ جالينوسُ في طِبِّهِ
ورُبَّمَا زَادَ على عُمْرِهِ وزادَ في الأَمْنِ على سِرِّهِ ^(١)
وقبل هذين البيتين :

لا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ ضَجْمَةٍ لا تَقْلِبُ المُضْجَعُ عَنْ جَنْبِهِ ^(٢)
يَلْسَى بِهَا مَا كَانَ مِنْ عُنْجِهِ وما أذَاقَ المَوْتَ مِنْ كَرْبِهِ ^(٣)
نَحْنُ بنو المَوْتِ فما بَالُنَا نَعَا فَمَا لَآ بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ ^(٤)
تَبَخَّلْ أَيْدِينَا بِأَرْوَاحِنَا على زَمَانٍ هِيَ مِنْ كَسْبِهِ ^(٥)
فهَذِهِ الأَرْوَاحُ مِنْ جَوْهٍ وهَذِهِ الأَجْسَامُ مِنْ تُرْبِهِ ^(٦)

(١) السرب : النفس (٢) لا بد للإنسان من اضطجاع في القبر يبقى بتلك الضجعة لا يقلبه ذلك الاضطجاع إلى يوم البعث .

(٣) إذ انزل القبر نسي الإعجاب وما ذاق من شدة الموت ، وهكذا الميت .
(٤) نحن بنو الأموات والموت كأس مداراة علينا ولا بد لنا من شربها فما بالنا نكرها !
فكما مات أبائنا فنحن على آثارهم . كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض أصحابه يعزیه في أبيه : أما بعد ، فإيا أمانس من أهل الآخرة سكنا في الدنيا ، أموات ، آباء أموات ، أبناء أموات ، فالعجب لميت يكتب إلى ميت يعزیه عن ميت ...

(٥) تبخل أيدينا بأرواحنا ونمسك بها بخلاها على الزمان والأرواح بما أکسبه الزمان اقال حكيم : إذا كان تناثر الأرواح من كرور الأيام فما لنا نعا فرجوعها إلى أماكنها !

(٦) الإنسان مركب : من جوهر لطيف وجوهر كثيف ، فالأرواح من الجوهر والهواء ، والأجسام من التراب ، وكل عنصر عائد إلى عنصره

لَوْ فَكَّرَ العَاشِقُ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الذِي يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ (١)
لَمْ يُرْ قَرْنُ الشَّمْسِ فِي شَرْقِهِ فَشَكَّتِ الأَنْفُسُ فِي غَرْبِهِ (٢)
إِلَى أَنْ قَالَ بَعْدَ الْبَيْتَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ آتِفًا:

وَعَايَةُ الْمُفْرِطِ فِي سِسْلِهِ كَعَايَةُ الْمُفْرِطِ فِي حَرْبِهِ (٣)
فَلَا قَضَى حَاجَتَهُ طَالِبٌ فَوَادِهِ يَخْفِقُ مِنْ رُغْبِهِ (٤)

وقيل للربيع بن حُثَيْمٍ فِي مَرَضِهِ: أَلَا نَدْعُو لَكَ طَبِيبًا؟ قَالَ: أَنْظِرُونِي،
ثُمَّ فَكَّرَ فَقَالَ: وَعَادًا وَنَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا، لَقَدْ
كَانَ فِيهِمْ أَطِبَّاءُ، فَأَرَى الْمُدَاوِيَ يَبْقَى وَلَا الْمُدَاوِيَ صَلُحَ
وَدَخَلَ الْفَرَزْدَقُ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ فَسَمِعَهُ يَطْلُبُ طَبِيبًا فَقَالَ:

يَا طَالِبَ الطَّبِّ مِنْ دَاءِ نَحْوَتِهِ إِنَّ الطَّبِيبَ الذِي أَهْلَكَ بِالدَّاءِ
هُوَ الطَّبِيبُ الذِي يُرْجَى لِعَاقِبَتِهِ لَا مَنْ يَدُوفُ لَكَ التَّرْيَاقَ بِالدَّاءِ

« الذِي أَبْلَى الْمَرِيضَ بِالدَّاءِ وَالذِي يَرْجَى لِعَاقِبَتِهِ: هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .
وَيَدُوفُ: يَخْلُطُ . وَنَحْوَتُهُ: غَيْرُ حَالِهِ إِلَى أَسْوَأِهَا، وَيُرْوَى: تَخُونُهُ وَالتَّرْيَاقُ:
الدَّوَاءُ هُنَا ، وَأَهْلَاهُ: صَنَعَ بِهِ مَا يَمْتَحِنُ بِهِ وَيَخْتَبِرُ

(١) العَاشِقُ لِلشَّيْءِ الْمُسْتَهَامِ بِهِ لَوْ أَفْكَرَ فِي مُنْتَهَى حَسَنِ الْمَعْشُوقِ وَأَنَّهُ يَصِيرُ إِلَى
زَوَالٍ لَمْ يَعْشَقْهُ وَلَمْ يَمْلِكْ عَشْقُهُ إِيَّاهُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ . وَهَذَا يَطْرُدُ فِي كُلِّ شَيْءٍ .
(٢) لَا بَدَّ مِنَ الْفَنَاءِ فَالْشَّمْسُ مِنْ رَأْيَا طَالَعَةٍ عِلْمُ أَنَّهَا غَارِبَةٌ لَا مُحَالَةَ، كَذَلِكَ كُلِّ شَيْءٍ .
مَصِيرُهُ إِلَى الزَّوَالِ .

(٣) إِنْ الذِي أَفْرَطَ وَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي السَّلَامِ كَالذِي أَفْرَطَ وَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي الْحَرْبِ،
الْكُلُّ إِلَى فَنَاءٍ وَإِذْنٌ لَا عَذْرَ لِمَنْ يَجْزَعُ قَالَ حَكِيمٌ: آخِرُ إِفْرَاطِ التَّوَقُّعِ أَوَّلُ مَوَارِدِ
الْخَوْفِ (٤) مَنْ خَافَ الْمَوْتَ لَا أَدْرَكَ حَاجَتَهُ، يَدْعُو الْمُتَنَبِّئَ عَلَى الْجَبَانِ - لِأَنَّهُ
إِذَا كَانَ الْهَلَاكُ مُتَيَقَّنًا فَلَمْ يَخَافِ الْإِنْسَانُ مِنَ الْمَوْتِ وَيَجْزَعُ فَرَعًا مِنْهُ !

وقال ابن الرومي :

عَلَطَ الطَّيِّبُ عَلَى غُلْظَةٍ وَوَرِدَ عَجَزَتْ مَوَارِدُهُ عَنِ الْإِصْدَارِ
وَالنَّاسُ يَلْحَوْنَ الطَّيِّبَ وَإِنَّمَا عَلَطَ الطَّيِّبُ لِإِصَابَةِ الْمِقْدَارِ^(١)
وقال أبو ذؤيب الهذلي :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَثْبَتَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ
وقال علي بن الجهم :

كَمْ مِنْ عَلِيلٍ قَدْ تَخَطَّاهُ الرَّدَى فَتَجَا وَمَاتَ طَبِيبُهُ وَالْعُودُ

وقد أخذ هذا من قول عدى بن زيد :

أَيْنَ أَهْلُ الدِّيَارِ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ثُمَّ عَادُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمُمُودُ
بَيْنَمَا هُمْ عَلَى الْإِسْرَةِ وَالْأَزَى مَا طِ أَفْضَتْ إِلَى الثُّرَابِ الْخَدُودُ
ثُمَّ لَمْ يَنْقُضِ الْحَدِيثُ وَلَكِنْ بَعْدَ ذَا الْوَعْدِ كُكُلُهُ وَالْوَعِيدُ
وَأَطْبَاءُ بَعْدَهُمْ لِحَقْوِهِمْ ضَلَّ عَنْهُمْ سَعُوطُهُمْ وَاللَّدُودُ
وَصَحِيحُ أَخِي يَعُودُ مَرِيضًا وَهُوَ أَذْنُ الدَّوْتِ يَمْنُ يَعُودُ

« السَّعُوطُ : الدَّوَاءُ الَّذِي يُؤْخَذُ مِنَ الْإِنْفِ ، وَاللَّدُودُ : مَا يُؤْخَذُ مِنْ

الدَّوَاءِ بِالْمُسْقَطِ وَيُصَبُّ فِي أَحَدِ شِقَى الْقَمْرِ ، وَيُرْوَى : أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ
هَرَبَ مِنَ الطَّاعُونَ ، فَركبَ لَيْلاً وَأَخْرَجَ غُلَاماً مَعَهُ ؛ وَكَانَ يَنَامُ عَلَى دَابَّتِهِ ،
فَقَالَ لِلْغُلَامِ : حَدِّثْنِي ، فَأَقْلَ وَمَنْ أَنَا حَتَّى أَحْدِثَ لَكَ ؟ فَقَالَ : عَلَى كُلِّ حَالٍ حَدِّثْ
حَدِيثًا سَمِعْتَهُ ، فَقَالَ : بَلْغَنِي : أَنَّ ثَمَلِيًّا يَخْدُمُ أَسَدًا لِيَتَحَمَّيَهُ وَيَمْنَعَهُ يَمْنُ يُرِيدُهُ
فَكَانَ يَحْمِيهِ ، فَرَأَى الثَّمَلِيَّ عُقَابًا ، فَجَأَ إِلَى الْأَسَدِ ، فَأَقْعَدَهُ عَلَى ظَهْرِهِ ، فَانْقَضَ
الْعُقَابُ وَاخْتَلَسَهُ ، فَصَاحَ الثَّمَلِيُّ : يَا أَبَا الْحَارِثِ ، أَغْنِنِي وَاذْكُرْ عَهْدَكَ لِي

(١) يلحون : يلومون ، والمقدار : القدر

فقال الأسد: إنما أقدر على منعك من أهل الأرض، وأما أهل السماء فلا سبيل لي إليهم، فقال عبدُ الملك: وَعَظَمَتْنِي وَأَحْسَنْتَ، انصرف ورضي بالقضاء...

ولمناسبة الحرب من الطاعون نورد هنا ما أوردنا نظيره في قولنا على التوكل، وهو أن عمر بن الخطاب رضوان الله عليه لما بلغه أن الطاعون وقع بالشام فانصرف بالناس: قال له أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم تفر من قدر الله إلى قدر الله: أرايت لو أن لك إبلاً هبطت بها وادياً له جهتان إحداها خصيبة والأخرى جديبة، أليس لو رعيت في الخصيبة رعيتها بقدر الله، ولو رعيت الجديبة رعيتها بقدر الله؟ وكان عبد الرحمن بن عوف غائباً فأقبل، فقال: عندي في هذا علم سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إذا سمعتم به - بالطاعون - في أرض فلا تقدموا عليها، وإذا وقع في أرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه، فحمد الله عمر ثم انصرف بالناس...

وقال المتنبي:

نُعِدُّ المَشْرِفِيَّةَ والعَوَالِي وَتَقْتُلُنَا المَنُونُ بِلا قِتَالِ
وَنَرْتَبِطُ السَّوَابِقَ مُقَرَّبَاتٍ وَمَا يُنْجِيَنَّ مِنْ حَبِّ اللَّيَالِ
وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا قَدِيماً؟ وَلَكِنْ لَسَبِيلٌ إِلَى الوَصَالِ

«المشرقية: السيوف - والعوالى: الرماح، والمنون: الموت، والسوابق جمع سابق وسابقة، والمقربات من الخيل هي الكرام التي ترتبط لكرامتها على أصحابها أو لفرط الحاجة إليها والخب: عدو ولا يستفرغ الجهد؛ يقول المتنبي: نحن نُعِدُّ السُّيُوفَ والرَّماحَ لِمَنَازِلَةِ الأَعْدَاءِ وَمُدَافَعَةِ الأَقْرَانِ: والموتُ يَخْتَرِمُ نَفُوسَنَا

دُونِ قِتَالٍ أَوْ نِزَالٍ ، لَا يُمَكِّنُنَا حِذَارُهُ وَلَا يَهَيِّئُ لَنَا دِفَاعُهُ ، ثُمَّ قَالَ فِي الْبَيْتِ
الثَّانِي : وَنَرْتَبِطُ الْخِيُولَ الْكَرِيمَةَ وَمَعَ هَذَا لَا تُنَجِّنُنَا مِنْ طَلَبِ الدَّهْرِ إِلَّا بِنَا
وَحَبَّ لِيَالِيهِ فِي آثَارِنَا :

كَأَنَّا فِي حُرُوبٍ مِنْ حَوَادِثِهِ فَتَنَحْنُ مِنْ بَيْنِ مَجْرُوحٍ وَمَطْعُونٍ
وَقَدْ تَقْدُمُ مَعْنَى الْبَيْتِ الثَّلَاثِ .

موت الفجاءة والصحيح يموت

قِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : مَاتَ فُلَانٌ أَصَحَّ مَا كَانَ ! فَقَالَ : أَوْ صَحِيحٌ مَنِ الْمَوْتُ
فِي عُقْفِهِ ! وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ : اللَّهُمَّ اجْرِنِي مِنْ أَنْ أَكُونَ
مُخْتَلِسًا ، أَيْ يَخْتَلِسُهُ الْمَوْتُ عَلَى غَفْلَةٍ ، وَفِي الْحَدِيثِ : بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ مَرَضًا
حَاسِبًا أَوْ مَوْتًا خَالِسًا ، وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : كَيْفَ مَاتَ أَبُوكَ ؟ قَالَ : مَاتَ سِرًّا
« أَيْ بَجَافَةً » ، وَقَالَ الشَّاعِرُ :

وَرُبَّمَا غُوفِصَ ذُو غِرَّةٍ أَصَحَّ مَا كَانَ وَلَمْ يَسْلَمْ
« يَقَالُ : غَافَصَ الرَّجُلُ مُغَافَصَةً وَغِفَافًا . أَخَذَهُ عَلَى غِرَّةٍ فَرَكِبَهُ بِمَسَاءَةٍ »
وَقِيلَ لِرَجُلٍ : مَا كَانَ سَبَبُ مَوْتِ فُلَانٍ ؟ قَالَ : كَوْنُهُ « أَيْ وَجُودُهُ » ، وَالْبَيْتُ
الْمَشْهُورُ فِي هَذَا :

مَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ مَاتَ بَغْيَرِهِ تَنَوَّعَتِ الْأَسْبَابُ وَالْمَوْتُ وَاحِدٌ

كل إنسان معرض لموته أو موت أحبته

قَالَ حَكِيمٌ : مَنْ طَالَ عُمُرُهُ رَأَى الْمَصَائِبَ فِي إِخْوَانِهِ وَجِيرَانِهِ ، وَمَنْ قَصُرَ
عُمُرُهُ كَانَتْ مَصِيبَتُهُ فِي نَفْسِهِ ؛ وَقَالَ الشَّاعِرُ :

فَمُؤَجَّلٌ يَلْقَى الرَّدَى فِي أَهْلِهِ وَمُعْجَلٌ يَلْقَى الرَّدَى فِي نَفْسِهِ
وقال يزيد بن الحكم النقي :

كُلُّ امْرِئٍ سَتَنِيحُ مِنْهُ الْعِرْسُ أَوْ مِنْهَا يَنْيَمُ
« العرس : الزوجة ، وآمت المرأة من زوجها تَنِيحُ وتَأَيَّمَتْ مات عنها
زوجها أو قُتِلَ وأقامت لا تزوج ، وكذلك الرجل ، »

جهل الإنسان بوقت موته

قال الله جل شأنه : وما تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وما تَدْرِي
نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ... وقيل لجعفر بن محمد بن علي رضي الله عنهم :
كيف يأتي الموت من وجوه شتى ، على أحوال شتى ؟ فقال : إن الله أراد أن
لا يُؤْمَنَ في حال ... وقالوا : أُنرُّ لا تَدْرِي مَتَى يَغْشَاكَ إِلَّا تَسْتَعِدُّ لَهُ قَبْلَ
أَنْ يَفْجَأَكَ ! وقال ديك الجن ^(١)

والنَّاسُ قَدْ عَمِلُوا أَنْ لَا بَقَاءَ لَهُمْ لَوْ أَنَّهُمْ عَمِلُوا مِقْدَارَ مَا عَمِلُوا

الموت يسوي بين الأفاضل والأراذل

قال المتنبي في رثائه أبا شجاع فاتكا :

(١) هو أبو محمد عبد السلام بن رغبان الملقب بديك الجن من شعراء الدولة
العباسية ولد سنة ١٦١ هـ وتوفي سنة ٢٣٦ هـ ومن قوله في الخمر وقد أعجب به
أبو نواس :

ظَلَّلْنَا بِأَيْدِينَا نَتَنَبَّعُ رُوحَهَا فَتَأْخُذُ مِنْ أَقْدَامِنَا الرَّاحُ ثَارَهَا
مُورَدَةً مِنْ كَفِّ ظَنِّي كَأَنَّمَا تَنَاوَلَهَا مِنْ خَدِّهِ فَأَدَارَهَا

وَصَلْتُ إِلَيْكَ يَدٌ سَوَاءٌ عِنْدَهَا أَلْبَازُ الْأَشْهَبِ وَالْغُرَابُ الْأَبْقَعُ
 «الباز الأشهب : الذي غلب عليه البياض ، والأبقع : الذي في صدره
 بياض يقول المتنبي : وصلت إليك يدٌ - يريد المنيّة - الشريف والوضيع لديها
 سواء ، فعلمها مع الباز الأشهب مع كرمه كفضلها بالغراب الأبقع مع قبحه
 ودمايته ، وهذا على المثل » ... وَيُرْوَى أَنَّ الْإِسْكَندَرَ الْمَقْدُونِيَّ مَرَّ بِمَدِينَةٍ
 قَدْ مَلَكَهَا غَيْرُهُ مِنَ الْمُلُوكِ ؛ فَقَالَ : انْظُرُوا هَلْ بَقِيَ بِهَا أَحَدٌ مِنْ نَسْلِ
 مُلُوكِهَا ؟ فَقَالُوا : رَجُلٌ يَسْكُنُ الْمَقَابِرَ ، فَأَحْضَرَهُ وَسَأَلَهُ عَنْ إِقَامَتِهِ هَذِهِ ؛
 فَقَالَ : أَرَدْتُ أَنْ أُمَيِّزَ عِظَامَ الْمُلُوكِ مِنْ عِظَامِ عِبِيدِهِمْ فَوَجَدْتُهَا سَوَاءً ،
 فَقَالَ : هَلْ تَتَّبِعُنِي فَأُخْبِيَ لَكَ شَرْكَكَ إِنْ كَانَ لَكَ هِمَّةٌ ؟ فَقَالَ : هِمَّتِي عَظِيمَةٌ
 إِنْ أَنَا تَتَّبَعْتُهَا ، فَقَالَ : مَا هِيَ ؟ قَالَ : حَيَاةٌ لَا مَوْتَ مَعَهَا ، وَشَبَابٌ لَا هَرَمَ مَعَهُ ،
 وَغِنَى لَا فَقْرَ مَعَهُ ، وَسُرُورٌ لَا مَكْرُوهَ فِيهِ ، فَقَالَ : لَيْسَ عِنْدِي هَذَا ، فَقَالَ :
 دَعْنِي أَتَمَتِّسَ بِمَنْ هُوَ عِنْدَهُ ، فَقَالَ : مَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ حَكِيمًا ؛ ... وَقَالَ مَالِكُ بْنُ
 دِينَارٍ : قَدِمَ عَلَيْنَا بَشْرُ بْنُ مَرْوَانَ أَخُو الْخَافِظَةِ - عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ -
 فَطَعَنَ - أَصَابَهُ الطَّاعُونَ - فَمَاتَ فَأُخْرِجْنَاهُ إِلَى الْقَبْرِ ، فَلَمَّا صِرْنَا إِلَى الْجَبَانِ
 - الْجَبَانَةِ - إِذَا نَحْنُ بِسُودَانٍ يَحْمِلُونَ صَاحِبَنَا لَهْمَ إِلَى الْقَبْرِ ، فَدَفَنَاهُ وَدَفَنُوا
 صَاحِبَهُمْ ، فَعُدْتُ قَبْلَ الْأَسْبُوعِ فَلَمْ أَعْرِفْ قَبْرَ الْأَسْوَدِ مِنْ قَبْرِهِ ؛ وَفِي هَذَا
 يَقُولُ الشَّاعِرُ :

ولقد مررتُ على القبور فما ميزتُ بين العبدِ والمولى

وقال صالح بن عبد القدوس :

فيامنزلًا سوى البلى بين أهله فلم يستبين فيه الملوك من السوق

انقضاء ناس بعد ناس

ورجوعهم إلى الموت

قال عليّ كرم الله وجهه : إنّ لله في كلّ يوم ثلاث عساكر : عسكر ينزل من الأضلاب إلى الأرحام ، وعسكر ينزل من الأرحام إلى الأرض ، وعسكر ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة ؛ ^(١) وقال الشاعر :

وما نحن إلا رُفقة غير أننا أقمنا قليلا بعدهم ونزوح

وقال آخر :

إذا زرت أرضاً بعد طول اجتنبها فقذت صديقا والبلاد كما هيّا

وقال : * أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب *

وقيل للبهلول ^(٢) - وقد أقبل من الجبّان - : من أين ؟ فقال :

من عسكر الموتى ، فقبل ما قلت وما قالوا ؟ فقال : سألتهم : متى يرحلون ؟

فقالوا : ننتظر قدر مكم ثم نرحل ... ورووا : أن راهبين دخلا البصرة

من ناحية الشام فنظرا إلى الحسن البصري ، فقال أحدهما : ملّينا إلى

هذا الذي كان سمته سمّ المسيح ، فقد لا إليه ، فألقياه مُقترشا بذقنه ظاهر

كفّه وهو يقول : يا عجبا ^(٣) لقوم قد أمرؤا بالزاد وأذنوا بالرحيل ، وأقام

(١) العسكر : الجماعة من كل شيء . يقال : عسكر من رجال ومن خيل

(٢) كان البهلول هذا مجنونا يمرورا وكان ظريفا وكان يتشيع ، قال له قائل : اشم

فاطمة وأعطيك درهما فقال . بل أشم عائشة وأعطني نصف درهم ! ومز به بعضهم

وهو يأكل خبيصا ، فقال له : أطعمني ، فقال : ليس هو لي ، إنما هو لعاتكة بنت الخليفة

بعته إلى لآكله لها ...

(٣) يا عجبا : لك أن تقرأه بالتوين وبدونه أما بدونه فإنه يريد : يا عجبي قلب يا المختكم

أولهم على آخرهم ، فليْتَ شِعْرى ماذا ينتظرون ! وفي رواية أخرى هذه الزيادة بعد قوله : وأقام أولهم على آخرهم : وآخِرهم قُعود يلعبون ، وقوله : أمِروا بالزاد يعنى زاد الآخرة ، وهو العمل الصالح ، وقوله : وأذنوا بالرحيل : أذنوا : أَعْلِمُوا ، والرحيل يريد به الموت ، وقوله : وأقام أولهم على آخرهم : أَلَعَله يريد : أن أولهم يرضى فعمل آخرهم فلم يُنكَرْ عليه ، ولعله يريد أن موت أولهم كان يجب أن يكون عبرة لآخرهم ، ومن المشهور في هذا آيات قُصِّ بن ساعدة الايادى :

فِي الذَّاهِبِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا يَمُضِي الْأَصَاغِرُ وَالْأَكَابِرُ
لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَى وَلَا مِنَ الْبَاقِينَ غَائِرُ
أَبْقَيْتُ أَنِي لَأَحْمَا لَهَ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ

« في الزاهبين : متعلق ببصائر في آخر البيت ، وبصائر : عبر ، والقرون جمع قرن والقرن من الناس : أهل كل زمان ، قال :

إِذَا ذَهَبَ الْقَرْنُ الَّذِي أَنْتَ فِيهِمْ وَخُلِّفْتَ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبٌ
ولعله مأخوذ من الاقتران ، فكأنه المقدار الذى يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم ، ومن هنا اختلفوا في تحديد القرن من الزمان فقيل : أربعون سنة ، وقيل : ثمانون ، وقيل مائة سنة ، والموارد جمع مورد وهو :

ألفاؤا بالتوين فلك أن تجعل عجبا نادى منكرا ، ولك أن تجعل ديا ، حرف تنبيه وعجبا مصدر منصوب بفعل محذوف أى تعجبوا عجباً وأن تجعل ديا ، حرف نداء والمنادى محذوف أى يا قوم ، وعجبا كذلك ...

محلُّ الورد ، أى الاتيان ، والمصادر جمع مصدر ، وهو : موضع الصدور ،
أى الانصراف والرجوع ، وغابر اسم فاعل من غَبَرَ بمعنى : مكثَ وبقي ،
وبمعنى : مضى أيضا ، فهو من الاضداد ،

من يخاف الموت ولا يستعد له

وحثهم على تعاظم ما بهون أمر الموت

جاء رجلٌ إلى سيدنا رسول الله فقال : يا نبيَّ الله ، ما لي لأحِبَّ الموت ؟
فقال له : هل لك مالٌ ؟ قال : نعم ؛ قال : قدَّمه بين يديك ؛ قال : لا أُطيقُ
ذلك ، فقال سيدنا رسول الله : إنَّ المرءَ مع ماله إنَّ قدَّمه أحبَّ أن يُلحقَ به
وإنَّ آخره أحبَّ أن يتخلَّفَ معه ... وقال الحسن البصرىُّ لشيخ في جنازة :^(١)
أُتري هذا الميتَ لورجع إلى الدنيا أكان يعمل صالحا ؟ قال : نعم ، قال :
إن لم يكن ذاك فكن أنت ذاك ... وقال القاضي أبو الحسن على بن عبد العزيز
المرجاني :

إذا قلت لم يبلغ بي السن مَبْلغا وُعِظْتُ بِطِفْلِ صار قَبلي إلى التُّرْبِ
وقال على رضى الله عنه لرجل : كيف أنتم ؟ قال : نرجو ونخاف ، قال :
من رَجَا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هَرَبَ منه ... وقال أبو الدرداء : العجبُ

(١) قال علماء اللغة : الجنازة بكسر الجيم : السرير محمولا عليه الميت : أما بفتح
الجيم فالميت قال أبو علي الفارسي : لا يسمى جنازة - بالكسر - حتى يكون عليه ميت وإلا
فهو نعش أو سرير قال الليث : وقد جرى في أفواه الناس جنازة بالفتح والتخاير
ينكرونها ، وقال بعضهم إن اللفظ بنبطى وقال آخرون : إنه مشتق من جنز الشيء
يجنزه جنزا ستره وذكروا أن التوار امرأة الفرزدق لما احتضرت أوصت أن
يصلى عليها الحسن البصرى فقبل له في ذلك فقال : إذا جنزتموها فأذنوني

لَمَنْ يَكْرَهُ الْمَوْتَ لِإِسَاءَتِهِ وَلَا يَكْرَهُ الْإِسَاءَةَ فِي حَيَاتِهِ ... وَقَالَ رَجُلٌ
لِأَبِي الدَّرْدَاءِ : مَا بَالُنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ ؟ قَالَ : لِأَنَّكُمْ أَخَّرْتُمْ آخِرَ نَفْسِكُمْ وَغَمَزْتُمْ
دُنْيَاكُمْ فَكِرْتُمْ أَنْ تُتَقَلُّوا مِنَ الْعُمُرَانِ إِلَى الْخَرَابِ ... وَقَالَ أَبُو حَازِمٍ : كُلُّ
عَمَلٍ نَكْرَهُ الْمَوْتَ لِأَجْلِهِ فَدَعَهُ كَيْلًا تَخَافُ مِنْهُ مَتَى أَتَاكَ ...

من أمر ذويه بالبكاء عليه

رَوَى عَنْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ : إِنْ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ ... قَالَ
الْعُلَمَاءُ : أَرَادَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِذَا وَصَّى الْمَيِّتُ بِذَلِكَ وَأَمَرَ بِهِ عَلَى نَحْوِ مَا كَانَ
يَفْعَلُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ ، كَقَوْلِ طَرِيقَةَ بْنِ الْعَبْدِ :

إِذَا مِتَ فَانْعَيْتَنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَشُقِّي عَلَى الْجَيْبِ بِالْبَتَّةِ مَعْبُودٌ^(١)
وَقَوْلِ الْفَرَزْدَقِ :

إِذَا مِتَ فَانْعَيْتَنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ فَكُلُّ جَمِيلٍ قُلْتُ فِي مَصْدَقٍ
وَقَوْلِ ابْنِ الْمَعْتَزِ :

إِذَا مِتَ فَانْعَيْتَنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَلَا تَذْخِرِي دَمْعًا إِذَا قَامَ نَائِحٌ
وَقُولِي : تَوَى طُودُ الْمَكَارِمِ وَالْعَلَى وَعُطِّلَ مِيزَانٌ مِنَ الْحِلْمِ رَاجِحٌ
« تَوَى : هَلَكَ ، وَتَقَرَأَ : تَوَى وَالطُّودُ : الْجَبَلُ الْعَظِيمُ ، وَالْحِلْمُ : الْأَنَاءَةُ وَالْعَقْلُ ،
وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الْأَوَّلَى : أَنْ يُقَالَ فِي تَأْوِيلِ الْحَدِيثِ : يَسْمَعُ صَوْتَ الْبُكَاءِ
هُوَ نَفْسُ الْعَذَابِ ، كَمَا أَنَّا نَعَذِّبُ بِبُكَاءِ الْأَطْفَالِ ، فَالْحَدِيثُ عَلَى ظَاهِرِهِ »

(١) من معلقة طرفة، ومعبود أخوه يوصي ابنة أخيه بأن تشيع خبر هلاكه إذا هو
مات - بالثناء الذي يستحقه وشق جيها عليه وبعد البيت :

وَلَا تَجْعَلَيْنِي كَأَمْرِئٍ لَيْسَ هُمُهُ كَهُمِّي وَلَا يُغْنِي غَنَائِي وَهَشْدَى
الهم : الهمّة والطموح إلى العلا، والغناء : الكفاية . والمشهد : الشهود أى ملابسة

من أظهر الندم عند الموت على ما فرط منه

لَمَّا اخْتُصِرَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ بِجَلَدِ يَدِهِ فِي وَضْعِ الْغُلِّ الْقَيْدِ، مِنْ عُنْقِهِ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَنَا قَقْرَطْنَا، وَنَهَيْتَنَا فَرَكِينَا، اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا يَسْعُنَا إِلَّا رَحْمَتُكَ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ هَجِيرَاهُ حَتَّى قُبِضَ ... وَقِيلَ لِبَعْضِ الْمُلُوكِ حِينَ اخْتُصِرَ: مَا حَالُكَ؟ فَقَالَ: مَا حَالُ مَنْ يُرِيدُ سَفَرًا بَعِيدًا بِلا زَادٍ، وَيَنْزِلُ حُفْرَةً مِنَ الْأَرْضِ مُوَحِّشَةً بِلا مُؤْنِسٍ، وَيَقْدُمُ عَلَى مَلِكٍ جَبَّارٍ قَدْ قَدَّمَ إِلَيْهِ الْعُذْرَ بِلا حِجَّةٍ! وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ عِنْدَ مَوْتِهِ: وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ غَسَّالًا أَكُلُ كُلَّ يَوْمٍ كَسْبَ يَوْمِي لَا يَفْضُلُ عَنِّي ... فَقِيلَ ذَلِكَ لِأَبِي حَازِمٍ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا بِحَيْثُ يَتَمَنَّى الْمُلُوكُ حَالَتَنَا عِنْدَ الْمَوْتِ وَلَا تَتَمَنَّى حَالَهُمْ ... وَلَمَّا أَذْنَفَ^(١) الْمَسَامُونَ بْنُ الرَّشِيدِ أَمَرَ أَنْ يُفَرَّشَ لَهُ جِلْدٌ - بِسَاطٌ - فُجِعِلَ يَتَمَرَّغُ فِيهِ وَيَقُولُ:

كُلُّ عَيْشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ دَهْرًا صَائِرٌ مَرَّةً إِلَى أَنْ يَزُولَا
لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَأَ لِي فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ أَرْعَى الْوُعُولَا^(٢)
وَأُنْغِي عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ وَهُوَ يَقُولُ:

لَيْسَ كَمَا لَيْسَ كَمَا هَا أَنَا ذَا لَدَيْكُمَا

اللَّهُمَّ لَا بَرِيءٌ فَأَعْتَذِرُ وَلَا قَوِيٌّ فَأَتَصَرَّ

ثُمَّ أُنْغِي عَلَيْهِ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ:

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدِكَ لَا أَلْمَا^(٣)

الحروب والوقائع (١) أذنف المريض: نقل مرضه ودنا من الموت.

(٢) الشعر لامية بن أبي الصلت. والوعول: جمع وعل: تيس الجبل

(٣) لامية بن أبي الصلت كذلك وألم الرجل من اللعم وهو مادون الكبار من

الذنوب قال سبحانه: الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللعم وقيل: اللعم:

أن يلم المرء بالمعصية ولم يصر عليها

وقال أبو جعفر المنصور عند موته : اللهم إن كنت تعلم أني قد ارتكبتُ
الأمورَ العظامَ جرأةً مني عليك ؛ فإنك تعلم أني قد أطقمتك في أحبِّ الأشياءِ
إليك : شهادةً إن لا إله إلا أنت ، منّا منك لامتناً عليك ... وكان سببُ إحرامِهِ
من الحضراء أنه كان يوماً نائماً فأناه آت في منامه فقال :

كَأَنِّي بِهَذَا الْقَصْرِ قَدْ بَادَ أَهْلُهُ وَغُرَى مِنْهُ أَهْلُهُ وَمَنَازِلُهُ
وَصَارَ عَمِيدُ الْقَوْمِ مِنْ بَعْدِنَا إِلَى جَدَثٍ تُثْنِي عَلَيْهِ جَنَادِلُهُ
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا رَشْمُهُ وَحَدِيثُهُ تُبْكِي عَلَيْهِ مَعُولَاتِ حِلَالَتِهِ^(١)
فاستيقظ مرعوباً ثم نام فأناه الآتي فقال :

أَبَا جَعْفَرٍ حَانَتْ وَفَاتَكَ وَانْقَضَتْ سِنُوكَ وَأَمْرُ اللَّهِ لَا بَدَّ وَاقِعُ
فَهَلْ كَاهَنُ أَعَدَدَتْهُ أَوْ مَنَجَّمٌ أَبَا جَعْفَرٍ عَنْكَ الْمَنِيَّةُ دَافِعُ
فقال : ياربِّعُ اتَّقِنِي بِطُهورِي ، فَقَامَ وَانْتَغَسَلَ وَصَلَّى وَلَبَّى وَتَجَهَّزَ لِلْحَجِّ ،
فلما صارَ في الثُّلُثِ الأوَّلِ اشْتَدَّتْ عَالَتُهُ ، فجعل يقول : ياربِّعُ أَقْنِي فِي حَرَمِ
اللهِ ، فماتَ بِبَيْتِ مِيمُونَ^(٢) ... وقالوا : أَقْنِ مِيتَكَ - أَيْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ - فَإِذَا
قَالَهَا فَدَعُوهُ يَتَكَلَّمُ بِغَيْرِهَا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَلَا تُضْجِرْهُ .

من امتنع من التوبة عند موته

اَعْتَلَّ أَغْرَابِيٌّ ، فَقِيلَ لَهُ : لَوْ تُبْتُ ، فَقَالَ : لَسْتُ مِنْ يُعْطَى عَلَى الذَّلِّ ،

(١) تبكى - بالتشديد - مثل تبكى بالتخفيف ، وحلالتة : زوجاته ، ومعولات : رافعات
أصواتهن بالبكاء .

(٢) بئر ميمون : بمكة منسوب إلى ميمون بن خالد بن عامر الحضرمي .

إن عافاني الله تُبْتُ وإلا مِت هكذا ... وقيل للحجاج : ألا تتوب ؟ فقال :
 إن كنتُ مسيئاً فليست هذه ساعة التوبة ، وإن كنتُ مُحسناً فليست ساعة الفزع
 « الفزع : الاستغاثة والاستصراخ ، ولعله يريد : أن وقت الموت ليس وقت
 الحساب والمجازاة وإنما ذلك يوم الفزع الأكبر - يوم البعث - ولعل المعنى :
 مادمت محسناً فليس تمت داع للخوف »

من يحبون الموت

قال عبد الله بن مسعود : ما من نفس حية إلا والموت خيرٌ لها ، إن كان
 برا فإن الله تعالى يقول : وما عند الله خيرٌ للأبرار ، وإن كان فاجراً فإن الله
 تعالى يقول : ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملي
 لهم ليزدادوا إثماً ، ولهم عذابٌ مُّهِين ^(١) وحضر أحد الصالحين الموت ، ففرح
 فقيل له : تستبشر بالموت ؟ فقال : أنجعلون قدومي على خالق أرجوه كقاي
 على مخلوق أخافه ! وسئل حكيم عن الموت ، فقال : هو فرعُ الأغنياء وشهوةُ
 الفقراء ... وقال بعضهم : لا يكون الحكيم حكيماً حتى يعلم أن الحياة تُسْرِقُهُ
 والموت يُعَيِّقُهُ .. وقال المتنبي :

تغرُّ حلاواتُ النفوسِ قلوبنا فتختارُ بهِضَ العيشِ وهوَ حِمَامٌ
 « يقول المتنبي : حُب الحياة يغرُّ القلب حتى يختار عيشاً فيه ذل :

(١) قرئ : ولا تحسبن على أنه خطاب للرسول عليه السلام وقرئ ولا يحسبن
 فالذين فاعل وما في إنما نملي لهم مصدرية وكان حتماً أن تفصل في الخط ولكنها وقعت
 متصلة في الإمام - المصحف العثماني - فاتبع ، والإملاء : الإمهال وإطالة العمر ؛ وقيل .
 تخليتهم وشأنهم من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء ، واللام
 في قوله سبحانه ليزدادوا إثماً لام الإرادة وعند المعتزلة لام العاقبة

وَشَرَّ الْحَمَامِينَ الزَّوَامِينَ عِيشَةً
وقال أيضا :

وما الدهرُ أَهْلٌ أَنْ تُؤْمَلَ عندهُ حياةٌ وأن يُشْتاقَ فيه إلى النَّسْلِ
« وقد تقدم » وفي هذه القصيدة يقول المتنبى :

نُبَكِّي مَوْتَانَا عَلَى غَيْرِ رَغْبَةٍ تَفُوتُ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا مَوْهَبٍ جَزَلَ
إِذَا مَا تَأَمَّلْتَ الزَّمَانَ وَصَرَفَهُ تَيَقَّنْتَ أَنَّ الْمَوْتَ ضَرَبُ مِنَ الْقَتْلِ

« يقول : نحن نبكى على موتانا ونحزن لهم ونأسف لفراقهم ونحن على يقين من أنهم لا يفوتهم من الدنيا ما يُرَغَّبُ في مثله ولا يتمتعون منها بما يصح أن يتنافس في نيله ؛ ثم قال في البيت التالى : وأنت إذا ماتت تأملت وأنعمت النظر في تصاريف الدهر وخطوبه تيقنت أن الموت المحتوم على المرء كالذى يتوقعه من القتل وإذن لا داعى للجبن والذعر ولا موجب لحُب الحياة والتهافت عليها قال عنترة :

فَأَجِبْتُهَا : إِنَّ الْمَنِيَّةَ مَنَهْلٌ لَا بُدَّ أَنْ أَسْقَى بِذَلِكَ الْمَنَهْلِ

فَأَقَاتَى حَيَاةً لَا أَبَالِكَ وَأَعْلَى أَنَّى أَمْرٌ سَأَمُوتُ إِنْ لَمْ أَقْتَلِ

« فأقَاتَى خبائك : فالزيمه واحفظيه واتخذيه قنينة ، وقال الإمام الجنيدي :

مَنْ كَانَ حَيَاتُهُ بِنَفْسِهِ يَكُونُ تَمَاتُهُ بِذَهَابِ رُوحِهِ ، فَتَضَعُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ كَانَ حَيَاتُهُ بِرَبِّهِ فَإِنَّهُ بِلَتَقَلُّ مِنْ حَيَاةِ الطَّيْعِ إِلَى حَيَاةِ الْأَصْلِ ، وَهِيَ الْحَيَاةُ الْحَقِيقِيَّةُ .

تمنى الموت

قال أعرابي : خيرٌ من الحياة ما إذا فقدته أبعثت لفقدِهِ الحياة ، وشَرُّ

من الموتِ ما إذا نزلَ بكَ أَحَبَّتْ لِنزولِهِ الموتَ ... وقال المتنبى :
 كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا
 تَمَنِّيَهَا لِمَا تَمَنَيْتَ أَنْ تَرَى صَدِيقًا فَأَعْيَا أَوْ عَدُوًّا مُدَاجِيَا
 وقال المهملِّي الوزير ^(١) :

أَلَا مَوْتُ يُسَاعُ فَأَشْتَرِيهِ فَهَذَا الْعِيشَ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ
 أَلَا مَوْتُ لَذِيذُ الطَّعْمِ يَأْتِي يُخَلِّصُنِي مِنَ الْعِيشِ الْكَرِيهِ
 إِذَا أَبْصَرْتُ قَبْرًا مِنْ بَعِيدٍ وَدَدْتُ لَوْ أَنَّي مِمَّا يَلِيهِ
 أَلَا رَحِمَ الْمُهَيِّمِينَ نَفْسَ حُرٍّ تَصَدَّقَ بِالْوَفَاةِ عَلَى أَخِيهِ
 وَاعْتَلَّ الشُّبْلِيُّ ثُمَّ بَرَأَ ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ كَيْفَ أَنْتَ : فَقَالَ :
 كُلَّمَا قُلْتُ : قَدْ دَنَا حُلَّ قَيْدِي قَدَّمُونِي وَأَوْثَقُوا الْمِسْمَارَا

الحياة لاتمل

قال حكيم : الحياةُ وإن طالَتْ لَا تُمَلُّ ، وإنما يَمَلُّ المرءُ تكاليفَ الحياةِ ،

(١) كان وزير معز الدولة البويهى ، وكان أديباً فاضلاً محباً لأهله وكان قبل اتصاله بمعز الدولة فى ضيق شديد وكان قد سافر مرة ولقى فى سفره مشقة عظيمة واشتهى اللحم فلم يقدر عليه فقال هذه الايات ارنجالا ، وكان معه رفيق يسمى عبدالله الصوفى فلما سمع الايات اشترى له بدرهم لحما وطبخه وأطعمه وضرب الدهر من ضرباته وافترقا حتى تولى المهملِّي الوزارة وضافت الاحوال برفيقه هذا فقصده وكتب إليه :

أَلَا قُلْ لِلْوَزِيرِ فَدَتَهُ نَفْسِي مَقَالَةٌ مُذَكِّرٍ مَا قَدْ نَسِيهِ
 أَتَذَكَّرُ إِذْ تَقُولُ لِنُصْنُكَ عِيشَ أَلَا مَوْتُ يُسَاعُ فَأَشْتَرِيهِ

فلما وقف على ذلك هزته أريحية الكرم وأمر له فى الحال بسبعمائة درهم ووقع فى رقعة : مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ، ثم دعا به فخلع عليه وقلده عملا يرتفق به

ولهذا فُضِّلَ قولُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ :

سَيِّمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَالِكَ يَسَامُ

على قول لبيد :

ولقد سَيِّمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطَوَّلَهَا وَسُؤَالَ هَذَا النَّاسِ : كَيْفَ لَبِيدُ
« تَكَالِيفُ الْحَيَاةِ : مَشَاقِقُهَا وَشِدَائِدُهَا ، أَمَا لَبِيدُ فَإِنَّهُ يَكَادُ يَكُونُ مَعْذُورًا إِذَا
هُوَ مَلَّ الْحَيَاةَ نَفْسَهَا وَلَمْ لَا وَقَدْ عُمِّرَ حَتَّى يَبْلُغَ ثَلَاثِينَ وَمِائَةَ سَنَةٍ ؟ » وَقَالَ الْمُنَبِّيُ :
وَلَذِيذُ الْحَيَاةِ أَنْفُسُ فِي النَّفْسِ وَأَنْشَهُى مِنْ أَنْ يُبْمَلَ وَأَحْلَى
وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ أَفِي فَمَاءٍ لِي حَيَاةٌ وَإِنَّمَا الضَّعْفُ مَلَأَ
آلَةَ الْعَيْشِ صَحَّةٌ وَشَبَابٌ فَإِذَا وَلَّيْنَا عَنِ الْمَرِ وَلَّى
« وَقَدْ تَقَدَّمَتْ » وَدَخَلَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مَسْجِدَ دِمَشْقَ ، فَرَأَى
شَيْخًا ، فَقَالَ : يَا شَيْخُ ، أَيَسْرُكُ أَنْ تَمُوتَ ؟ فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ ، قَالَ : وَلِمَ وَقَدْ
بَلَغْتَ مِنَ السَّنِّ مَا أَرَى ؟ قَالَ : مَضَى الشَّبَابُ وَشُرُّهُ ، وَبَقِيَ الشَّيْبُ وَخَيْرُهُ ،
فَأَنَا إِذَا قَدَعْتُ ذَكَرْتُ اللَّهَ ، وَإِذَا قَتُّ حِدَتِ اللَّهَ ، فَأُحِبُّ أَنْ تَدُومَ لِي
هَاتَانِ الْحَالَتَانِ ...

تسلي الناس عمن مات

قالوا : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْظَرَ النَّاسَ مِنْ بَعْدِكَ فَانْظُرْ إِلَيْهِمْ بَعْدَ مَنْ مَاتَ
قَبْلَكَ ... وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ :

سَيُعَرِّضُ عَنْ ذِكْرِي وَتُنْسَى مَوَدَّتِي وَيَحْدُثُ بَعْدِي لِلْخَلِيلِ خَلِيلُ

وقال منصور الفقيه : ^(١)

(١) هو أبو الحسن منصور بن إسماعيل بن عمر التميمي الفقيه المصري الشافعي

كلُّ مذكورٍ من النَّاسِ إِذَا مَا فَقَدُوهُ
صَارَ فِي حُكْمِ حَدِيثِ حَفِظُوهُ فَلَسُّوهُ

وقال آخر :

هَالُوا عَلَيْهِ التُّرْبُ ثُمَّ انْتَنَوْا عَنْهُ وَخَلَّوْهُ وَأَعْمَالَهُ
لَمْ يَنْقُضِ النَّوْحُ مِنْ دَارِهِ عَلَيْهِ حَتَّى انْقَسَمُوا مَالَهُ
سَهْمَ الْمَنَايَا بِالذَّخَائِرِ مَوْلَعِ

قال أبو تمام ^(١)

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَقَفًّا فَإِنِّي رَأَيْتُ الْكَرِيمَ الْحُرَّ لَيْسَ لَهُ عُمُرُ
وقال من أبيات يروى بنى حميد أيضا :

إِنْ يَلْتَحِلْ حَدَثَانُ الْمَوْتِ أَنْفَسَكُمْ وَيَسْلُمُ النَّاسُ بَيْنَ الْحَوْضِ وَالْعَطَنِ
فَالْمَاءُ لَيْسَ عَجِيْبًا أَنْ أَعَذَّبَهُ يَفْنَى وَيَمْتَدُّ عُمرُ الْآجِنِ الْآسِنِ
وقال ابن النيه المِصْرِي من أبيات مختارة نوردها عليك :

النَّاسُ لِلْمَوْتِ كَحَيْلِ الطَّرَادِ فَالسَّابِقُ السَّابِقُ مِنْهَا الْجَوَادُ

الضريّر، كان فقيهاً شافعيًا وكان أديبا شاعرا متقنا توفي بمصر سنة ٤٣٠٦ هـ ومن شعره السائر:

لِي حِيلَةٌ فِيمَنْ يَنْمُ وَلَيْسَ فِي الْكَذَّابِ حِيلَةٌ
مَنْ كَانَ يَخْلُقُ مَا يَكُونُ وَلِخَيْلِي فِيهِ قَلِيلُهُ
ومنه : إِذَا تَخَلَّفْتَ عَنْ صَدِيقٍ وَلَمْ يُعَايَنْكَ فِي التَّخَلُّفِ
فَلَا تُعَذِّبْ بَعْدَهَا إِلَيْهِ فَإِنَّمَا وَدَّهِ تَكْلُفُ

(١) من مرثيته التي يروى بها محمد بن حميد الطوسي وأولها :

كَذَا فَلْيَجَلَّ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَا وَهَّاهَا عُذْرُ

والله لا يدعو إلى داره إلا من استصاح من ذى العباد
 والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد
 والمرء كالظل ، ولا بد أن يزول ذاك الظل بعد امتداد
 لا تصالح الأرواح إلا إذا سرى إلى الأجساد هذا الفساد
 أرغمت يا موت أنوف الفنا ودنت أعناق السيوف الحداد
 وقال شاعر :

فلا تجزعن من موته وهو نائئ ولا ينكرن هذا من جرب الدهر
 فكل طويل المجد يقصر عمره كذاك سباع الطير أقصرها عمرا

إنكارهم السماتة في الموت

قال عدى بن زيد العبادي :

أيها الشامت المعير بالدهر ر أنت المبرأ الموفور
 أم لذيك العهد الوثيق من الأيا م بل أنت جاهل مغرور
 « وقد تقدمت هذه الآيات ... » وقال شاعر :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
 ولما مات الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما دخل عبد الله
 ابن عباس على معاوية ، فقال له معاوية : يا ابن عباس ، مات الحسن بن علي ؟
 قال : نعم ، وقد بلغت مجودك ، أما والله : ما سد جثمانه حفرتك ، ولا زاد

= وقول أبي تمام : إن ينتحل البتين . فينتحل : يأخذ النفوس نحلة أى عطية ، ولك
 أن تقرأها ينتحل ، والعطن : مبرك الإبل حول الحوض ، والآجن : الماء المتغير الطعم
 واللون ومثله الآسن

انقضاء أجله في عُمرِكَ ، قال : أَحَسْبُهُ تَرَكَ صِغِيَّةً صِغَارًا وَلَمْ يَتْرُكْ عَلَيْهِمْ
كَثِيرَ مَعَاشٍ ؟ فَقَالَ : إِنْ الَّذِي وَكَأْهَمُ إِلَيْهِ غَيْرُكَ ، ... وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ :

قُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفْقُوا سَيْلَقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

وَحَكَى الْمَبْرَدُ عَنْ بَعْضِهِمْ : أَنَّهُ شَهِدَ رَجُلًا عَلَى قَبْرِ وَدُو يُكْثِرُ الْبَكَاءَ ،
فَقُلْتُ : أَعَلَى قَرِيبٍ أَوْ عَلَى صَدِيقٍ ؟ فَقَالَ : أَخَصُّ مِنْهُمَا ، قَدْ كَانَ لِي عَدُوًّا ،
فَخَرَجَ إِلَى الصَّيْدِ ، فَرَأَى ظَبْيًا فَتَبِعَهُ ، فَعَثَرَ بِالسَّهْمِ ، فَخَرَّ هُوَ وَالظَّبْيُ مَيِّتَيْنِ ،
فَدُفِنَ ، فَاتَّيَيْتُ إِلَى قَبْرِهِ شَامِتًا بِهِ ، فَإِذَا عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ :

وَمَا نَحْنُ إِلَّا مِثْلُهُمْ غَيْرَ أَنَّا أَقْمَنَا قَلِيلًا بِمَدَّهِمْ وَتَرَحَّلُوا

فَهَا أَنَا ذَا وَقَفْتُ أَبْكِي عَلَى نَفْسِي ... وَلَمَامَاتِ الْفَرَزْدَقِ بِكَيْ عَلَيْهِ جَرِيرُورثائه ،
فَقِيلَ لَهُ : أَبَعْدَ تِلْكَ الْعِدَاوَةِ ؟ فَقَالَ : لَمْ أَرَأَيْنِي بُلُغَا الْغَايَةِ وَمَاتَ أَحَدُهُمَا إِلَّا وَلِحَقِّهِ
الْآخَرُ عَنْ كَتَبٍ ، فَكَانَ كَذَلِكَ ... وَقَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ : لَا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لِأَخِيكَ
فِي مَا فِيهِ اللَّهُ وَيَتَلِيكَ - أَقُولُ : يَبْدُو أَنَّ الشَّمَاتَةَ - وَهِيَ أَنْ تَفْرَحَ بِالْبَلِيَّةِ تَنْزُلُ بِمَنْ
يُعَادِيكَ - مِنَ الْفَرَائِزِ الْإِنْسَانِيَةِ الْثَمِيمَةِ ، وَمَنْ تَمَّ لَمْ يَنْهَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ عَنْ
كُورِهَا - وَجُودِهَا - وَإِنَّمَا نَهَى عَنْ إِظْهَارِهَا ، لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي فِي اسْتِطَاعَةِ الْمَرءِ ،
مِثْلُهَا مِثْلُ الْحَسَدِ وَالظَّنِّ وَالطَّيْرَةِ ، وَلِذَلِكَ وَرَدَ فِي الْإِثْرِ أَيْضًا : إِذَا ظَنَنْتُمْ فَلَا
تَحْقُقُوا ، وَإِذَا حَسَدْتُمْ فَلَا تَبْغُوا ، وَإِذَا تَطَيَّرْتُمْ فَأُضُوا ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا ..
يَقُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : إِذَا حَسَدْتُمْ : أَيْ تَنَزَّيْتُمْ زَوَالَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى مَنْ
أَنْعَمَ عَلَيْهِ فَلَا تَتَعَدَّوْا وَتَفْعَلُوا مَا يَقْضِيهِ هَذَا الْخَلْقُ الذَّمِيمُ ، وَإِذَا ظَنَنْتُمْ سُوءَ
بِمَنْ لَيْسَ مَحَلًّا لِسُوءِ الظَّنِّ بِهِ فَلَا تَحْقُقُوا ذَلِكَ بِاتِّبَاعِ ، وَارِيدِهِ وَالْعَمَلِ عَلَى
مَقْتَضَاهُ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ،
وَالظَّنُّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ : وَمِنْ أَسَاءِ الظَّنِّ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ دَلٌّ عَلَى عَدَمِ

استقامته في نفسه كما قال المتنبي :

إذا ساءَ فِعْلُ المرءِ ساءَتْ ظَنُونُهُ وَصَدَّقَ مَا يَعتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمٍ
أما من كان مَظَنَّةً للظن، بأن كان رجلاً شريراً فالحزم سوء الظن
والاحتراس والحذر، ثم قال صلوات الله عليه : وإذا تشاءمتم بشيء فامضوا
طَبَائِعَكُمْ ولا يلتفت خاطركم لذلك وسيمر عليك كل هؤلاء في «كتاب
طبائع المذمومة» ... وبما يتصل بما نحن فيه من الشبهة بالميت ما يروى :
انه لما أتى عبد الله بن الزبير خبيرٌ قَتَلَ مُصْعَبَ أخيه احتجَبَ أياماً، فُخِّبَ
بمجيء قَوْمٍ للتعزيزِ، فقال : أَكْرَهُ وَجُوهاً تُعْزِي أَلْسِنَتَهَا وَتَشْمَتُ قُلُوبُهَا.

لا عار بالموت

قالت ليلي الأخيلية :

لَعَمْرُكَ مَا بِالْمَوْتِ عَارٌ عَلَى امْرِئٍ إِذَا لَمْ تُصِبهْ فِي الْحَيَاةِ الْمَعَارِ
«المعاري : المعايير والمسائب يقال : عارَه : إذا عابه ، وتعاري القوم : عَيَّرَ
بعضهم بعضاً»

الموت نهاية كل حي

قال أبو بكر العنبري : كُنْتُ قَاعِداً فِي الْجَامِعِ فَمَرَّ بِي مَعْتُوهُ فَأَقْبَلَ
عَلَيَّ وَقَالَ :

فَهَبْكَ مَلَكَتْ هَذَا النَّاسَ طُرَا وَدَانَ لَكَ الْعِبَادُ فَكَانَ مَاذَا
أَلَسْتَ تَصِيرُ فِي الْحَدِّ وَيَحْوِي تُرَاثِكَ عَنْكَ هَذَا نَحْمٌ هَذَا
وقال الشاعر :

هَبْكَ قَدْ نَلْتَ كُلَّ مَا تَحْمِلُ الْأَرْ ضُ فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا الْعَيْنِيَّةُ

وقال القائل :

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْتُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَى ذَهَابٍ ^(١)

وصية الميت

قالوا : كُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ وَلَا تَجْعَلِ الرِّجَالَ أَوْصِيَاءَكَ ، وَأَعْلَمْ صَدَقَ

(١) جاء في الخزانة للإمام البغدادى ما خلاصته : هذا المصراع - لدوا للموت وابتوا للخراب - هو من آيات في الديوان المنسوب إلى علي بن أبي طالب وهى :

عَجِبْتُ لِمَ جَازِعَ بِكَ مُصَابٍ بِأَهْلٍ أَوْ حَبِيبٍ ذِي اكْتِثَابٍ

شَقِيقِ الْجَبِيبِ دَاعِى الْوَبْلِ جَهْلًا كَانَ الْمَوْتُ كَالشَّيْءِ الْعُجَابِ

وَسَوَّى اللَّهُ فِيهِ الْخَلْقَ حَتَّى نَسِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ يُحَابِ

لَهُ مَلِكٌ يُنَادِى كُلَّ يَوْمٍ لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْتُوا لِلْخَرَابِ

و نبي الله : مفعول مقدم ليحباب بمعنى يخص ، قال : ورأيت في جمهرة أشعار العرب أنه قد روى أن بعض الملائكة قال - وأورد البيت الذى أوردناه ، ثم قال : ولسابق البربرى في هذا المعنى :

فَلِلْمَوْتِ تَغْتَدُو الْوَالِدَاتُ نِزَالَهَا كَمَا لَخَرَابِ الدَّارِ تُبْنَى الْمَسَاكِينُ

هذا : وأما اللام في قولهم للموت فقد سماها الكوفيون لام العاقبة ، مثلها مثل قوله تعالى : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، وأنكر البصريون لام العاقبة قال الزمخشري : والتحقيق أنها لام العلة وأن التعليل فيها وارد على طريق المجاز وذلك أنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوا وحزنا بل المحبة والتبني غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته شبه بالداعى الذى يفعل الفعل لاجله واللام مستعارة لما يشبه التعليل كما استعير الأسد لمن يشبه الأسد . انتهى ... وسابق البربرى : هو أبو سعيد سابق بن عبد الله من موالى بنى أمية ، سكن الرقة ووفد على عمر بن عبد العزيز ، وله أشعار حسنة في الزهد وليس منسوبا إلى البربرى وإنما البربرى لقب له ، والسخال في بيته المذكور : جمع سخلة وهى ولد الشاة من الضأن والمعز ، وقد أقام الظاهر مقام الضمير في المصراع الثانى إلا أنه باللفظ المرادف إذ الأصل : كما تبني المساكن لخرابها .

الذى يقول :

ولا يغررك من توصى إليه فقصر وصية المرء الضياع
 « قصره وقصاراه أن يفعل كذا : أى آخر أمره وغاية جهده هو أن يفعل
 كذا » ... وقال مالك بن ضيفم : لما احتضر أبى قلنا له : ألا توصى ؟ قال :
 بلى ، أوصيكم بما أوصى به إبراهيم بنيه ويعقوب : « يا بني إن الله اصطفى
 لكم الدين فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون » ، وأوصيكم بصلة الرحم وحسن
 الجوار وقيل ما استطعتم من المعروف ، وأذفوني مع المساكين ...
 وقيل لهرم بن حبان : أوص ، فقال : قد صدقتنى نفسى فى الحياة ، ما لى
 شئ أوصى فيه ، ولكن أوصيكم بخواتيم سورة النحل ^(١) ...

إنكارهم وصية الميت بما ليس له

عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : جاء النبى صلى الله عليه
 وسلم يعوذنى وأنا بمكة ، وهو يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها ،
 قال : يرحم الله ابن عفرأ ^(٢) ، قلت : يا رسول الله : أوصى بمالى كله ؟ قال :
 لا ، قلت : فالفطر ؟ قال : لا ، قلت : الثلث ؟ قال : فالثلث ، والثلث
 كثير ، إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون فى
 أيديهم ، وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة ، حتى اللقمة ترفعها إلى فى
 امرأتك ، وعسى الله أن يرفعك فينتفع بك ناس ويضر بك آخرون ،

(١) راجع سورة النحل ، ومن آياتها الكريمة ، الآية الأخيرة : إن الله مع الذين اتقوا
 والذين هم محسنون .

(٢) هو سعد بن خولة وعفرأ أمه ، وبلاحظ أن قول سعد : وهو يكره الخ
 التفات من التكلم إلى الغيبة كما سيمر عليك

ولم يكن له يومئذ إلا ابنةٌ . . . رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن وغيرهم
 « وإليك شرح هذا الحديث الشريف : لما كان سيدنا رسول الله بمكة في
 حجة الوداع ذهب إلى سعد بن أبي وقاص - وهو الصحابي الجليل الذي
 هاجر إلى المدينة قبل أن يهاجر إليها الرسول صلوات الله عليه ، وقد شهد
 بدرًا والمشاهد كلها ، وبشره الرسول بالجنة ، وهو أحد رجال الثورى الستة
 الذين رشحهم الفاروق للخلافة : وهو قائد جيوش عمر في فتح العراق ،
 ثم مات بقصره في العقيق على مقربة من المدينة سنة ٥٥ هـ بعد أن كفَّ بصره
 رضى الله عنه - أقول : لما كان الرسول بمكة ذهب إلى سعد يعود له لمرض
 اشتدَّ به حتى أشقَّى على الموت ، وكان سعد يكره أن يموت بالارض التي
 هاجر منها - مكة - كما مات سعد بن خولة ^(١) فلما سمع الرسول اسم سعد
 ابن خولة من ابن أبي وقاص ترَّحم عليه ، وكان لسعد بن أبي وقاص إذ ذاك
 ابنةٌ واحدة ^(٢) ثم قال سعد لسيدنا رسول الله - كما جاء في بعض الروايات -
 إنه قد بلغ بي من الوجع ما ترى وأنا ذو مال ، ولى ابنةٌ واحدةٌ ، أنا وصى
 بمالى كله ؟ قال الرسول : لا ، قل : أفأوصى بالنصف ؟ قال : لا ، قال :
 أفأوصى بالثلث ؟ قال : فالثلثُ توصى به ، والثلث كثير ، ثم قال الرسول :
 - مُبينا عن الحكمة في ترك الوصية بالكثير إلى الوصية بالقليل : إنَّ تركَ
 ورثتك أغنياء خيرٌ من تركهم فقراء يمدُّون أكَفَّهم إلى الناس مُستجدين . .

(١) من المهاجرين الاولين الذين شهدوا بدرًا وقد توفى بمكة في حجة الوداع
 وأمه عفراء كما تقدم

(٢) أما بعد أن برئ من هذا المرض بفضل دعوة الرسول فقد عاش كثيرًا كما
 قلنا ورزقه الله من الذرية بضعة عشر ابنًا واثنًا عشرة بنتًا

ثم بين الرسول أن كل ما يُنفقه على زوجته أو ولده أو أقاربه أو خدَمه صدقة ولو كان قليلاً، حتى اللقمة يرفعها إلى فم امرأته، يريد صلوات الله عليه: أن المرء إن استقل أمر الوصية بالثلث أو مادونه فليستكثره بالإِنفاق، والأقربون أولى بالمعروف، فإن امتدت به الحياة فليستك هذا الطريق، ثم رجاً له الرسول أن يبرأ وتطول حياته ويرتفع شأنه حتى ينتفع به أناس. ويستضر به آخرون، وقد تحقق هذا كله حتى عزَّ به الإسلام. هذا الوصية بالثلث فأقل قد استقر عليه الإجماع إذا كان هناك ورثة واختلفوا فيمن ليس له وارث «راجع كتب الفقه»... وعن أبي هريرة: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: أن تصدق وأنت صحيحٌ حريصٌ ناملُ الغنى وتخشى الفقر ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا... وفي الأثر أيضاً: مثل الذي يُعتق ويتصدق عند موته، مثل الذي يهدي إذا شبع... وقال بعض الصالحين عن بعض المترفين: يعصون الله في أموالهم مرتين، يتحلون بها وهي في أيديهم - يعني في الحياة - ويسرفون فيها إذا خرجت من أيديهم - يعني بعد الموت.

من أوصى بِشَرٍّ وكان قاسياً

لما حضرت الحطينة الوفاة اجتمع إليه قومه فقالوا: يا أبا مليكة: أوص؛ فقال: وَيْلٌ لِلشَّعْرِ مِنْ رَاوِيَةِ السُّوءِ؛ قالوا: أوص رحمك الله يا حطية؛ قال: مَنْ الذي يقول:

إِذَا أَنْبَضَ^(١) الرامون عنها تَرَنَّمْتُ تَرَنِّمَ تَسْكَلَى أَوْجَعْتَهَا الْجَنَازُ؟

(١) أنبض القوس وأنضبا: جذب وترها لتصوت

قالوا : الشَّهَاحُ ؛ قال : أبلغوا غَطَفَانُ أنه أشعرُ العرب ؛ قالوا : وَيَحْكُ !
أهذه وصية أُرِصَ بما ينفعك ؛ قال : أبلغوا أهلَ ضَابِيٍّ ^(١) أنه شاعرٌ
حيث يقول :

لِكُلِّ جَدِيدٍ لَذَّةٌ غَيْرَ أَنِّي رَأَيْتُ جَدِيدَ الْمَوْتِ غَيْرَ لَذِيدٍ
قالوا : أُرِصَ ويحك بما ينفعك ؛ قال : أبلغوا أهلَ أَمْرِئِ الْقَيْسِ أنه
أشعرُ العرب حيث يقول :

فِيَالِكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نَجْوَمَهُ بِكُلِّ مُغَارٍ الْقَتْلُ سُدَّتْ بِيذْبُلٍ ^(٢)
قالوا : أَتَيْتُ اللَّهَ وَدَعْتُكَ هَذَا ؛ قال : أبلغوا الْأَنْصَارَ أَنَّ صَاحِبَهُمْ ^(٣)
أشعرُ العرب حيث يقول :

يُفْشَوْنَ حَتَّى مَاتَهُ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
قالوا : هَذَا لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ، فَقُلْ غَيْرَ مَا أَنْتَ فِيهِ ؛ فقال :
الشَّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سَلَلُهُ إِذَا آرَتْنِي فِيهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ
زَلَّتْ بِهِ إِلَى الْحَضِيضِ قَدَمُهُ بَرِيدُ أَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهُ ^(٤)
قالوا : هَذَا مِثْلُ الَّذِي كُنْتَ فِيهِ ؛ فقال :

قَدْ كُنْتُ أَحْيَانًا شَدِيدَ الْمُعْتَمَدِ وَكُنْتُ ذَا عَرَبٍ ^(٥) عَلَى النَّخْصِ أَلَدَ

-
- (١) هو ضَابِيٌّ بن الحارثي البرجي الشاعر من بني تميم
(٢) من معلقة ، ومغار القتل : محكمه ، وهو اسم مفعول من أغار الجبل
إغارة : شد قتله ، ويذبل : جبل
(٣) هو حسان بن ثابت الأنصاري شاعر سيدنا رسول الله وقد تقدم شرح هذا البيت
(٤) الفاء هنا للاستئناف ، والمعنى : فإذا هو يعجمه ولا يصح نصبه غطفنا على
قوله « يعربه »
(٥) الغرب : الحد ومنه غرب السيف : حده

لأَحَدِ الْأُمِّ مِنْ حُطْيَةٍ هَاجَا بِلَيْسِهِ وَهَاجَا الْمَرْيَةَ
 * مِنْ لُؤْمِهِ مَاتَ عَلَى فُرْيَةٍ *

« المريه : تصغير مَرَّة - امرأة - يريد : زوجته ، والفريه يريد الفراء
 أى الحمار »

نهيهم عن الإفراط فى البكاء وإظهار الجزع

دخلت أعرابية الحضَرَ فسمعت بُكَاءً مِنْ دَارِ قَمَالَاتٍ : مَا هَذَا أَرَاهِمُ مِنْ
 رَبِّهِمْ يَسْتَغِيثُونَ ، وَمِنْ اسْتِرْجَاعِهِ يَتَضَجَّرُونَ ، وَمِنْ جَزِيلِ ثَوَابِهِ يَتَبَرَّهُونَ ...
 وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْبَلْخَى . مَنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَأَكْثَرَ النِّغَمَ جَمَلَ اللَّهُ عُقُوبَتَهُ
 غَمًّا مِثْلَهُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : فَأَنَابَكُمْ غَمًّا نَغَمٍ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا ... الْآيَةُ ..
 وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ : لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْحُدُودَ ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ ...
 « ودعا بدعوى الجاهلية : أى من نحو قولهم : وَالْأَبْنَاءُ ، وَالْأُمَمَاءُ ، وَالْوُلْدَاءُ ،
 وَامْصِيتَاهُ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ ضُرُوبِ النِّيَاحَةِ وَالنَّدْبَةِ ... ، أَمَّا الْبُكَاءُ وَالْجَزَعُ
 دُونَ إِفْرَاطٍ فَرُخْصٌ فِيهِ ، حَدَّثَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ : دَخَلْنَا عَلَى أَبِي سَيِّفٍ
 الْقَيْنِ ^(١) - وَكَانَ ظَنُرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ^(٢) ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ ، فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمَ
 يَجُودُ بِنَفْسِهِ ، فَجَمَلَتْ عَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ تَذَرِفَانِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ

(١) هو البراء بن أوس زوج أم بردة خولة بنت المنذر مريض إبراهيم بن سيدنا
 رسول الله . والقين : الحداد

(٢) الظنر : المرضع وأطلق عليه ذلك لأنه كان زوج المرضعة

﴿ فَوَرَدَتْ نَفْسِي وَمَا كَادَتْ تَرِدُ ﴾^(١)

قالوا : يَا أَبَا مُلَيْكَةَ ، أَلَيْكَ حَاجَةٌ ؟ قال : لا والله ، ولكن أجزع على المديح الجيد يُمدح به من ليس له أهلاً . قالوا : فَمَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ ؟ فَأَوْماً بيده إلى فيه وقال : هَذَا الْجَحِيرُ إِذَا طُمِعَ فِي خَيْرٍ (بمعنى قَهْر) وَأَسْتَعْبَرَ بِأَكْيَا ؛ فقالوا له : قل لا إله إلا الله ؛ فقال :

قَالَتْ وَفِيهَا حَيِّدَةٌ وَذُعْرُ عَوْذُ رَبِّي مِنْكُمْ وَحَجْرُ^(٢)

فقالوا له : مَا تَقُولُ فِي عبيدك وإمائِكَ ؟ فقال : هُم عبيدٌ قِنْ مَاعَاقِبَ اللَّيْلِ النَّهَارَ ؛ قالوا : فَأَوْصِ لِلْفُقَرَاءِ بِشَيْءٍ ، قال : أَوْصِيهِمْ بِالْإِلْحَاحِ فِي الْمَسْئَلَةِ فَإِنَّهَا تَجَارَةٌ لَا تُبُورُ ، وَأَسْتُ الْمَسْئُولِ أَضْيَقُ^(٣) . قالوا : فَمَا تَقُولُ فِي مَالِكَ ؟ قال : لِلْأَثْنِ مِنْ وَلَدِي مِثْلُ حِظِّ الذِّكْرِ . قالوا ليس هكذا قضى الله جَلَّ وَعِزَّ لَهُنَّ ، قال : لَكِنِّي هَكَذَا قَضَيْتُ . قالوا فَمَا تَوْصِي لِيَتَامَى ؟ قال : كُلُوا أَمْوَالَهُمْ وَانْكَحُوا أُمَّهَاتِهِمْ ؛ قالوا : فَهَلْ شَيْءٌ تَعْهَدُ فِيهِ غَيْرُ هَذَا ؟ قال : نَعَمْ ، تَحْمِلُونَنِي عَلَى أَتَانٍ وَتَتْرَكُونَنِي رَاكِبَتَهَا حَتَّى أَمُوتَ ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَا يَمُوتُ عَلَى فَرَّاشِهِ ، وَالْأَتَانُ مَرْكَبٌ لَمْ يَمُتْ عَلَيْهِ كَرِيمٌ تَطُّ ؛ فحمله على أَتَانٍ وَجَعَلُوا يَذْهَبُونَ بِهِ وَيَجِئُونَ عَلَيْهَا حَتَّى مَاتَ وَهُوَ يَقُولُ :

-
- (١) وردت : أشرفت ، يقال : ورد فلان بلد كذا إذا أشراف عليه وإن لم يدخله ولعله يريد من الوردود : الإشراف على الموت
- (٢) حيدة : من حاد عن الشيء إذا صد عنه أو تغير خوفاته ، وحجر : أى دفع ومنع ، والعرب تقول عند الأمر تنكره : حجراً له ، (بالضم) : أى دفعا
- (٣) هذا كناية عن العجز ، يقال للرجل يستضعف : استك أضيقت من أن تفعل كذا ، ويقال للجماعة أتم أضيقت أستاذها من أن تفعلوا كذا .

رضى الله عنه : وأنت يا رسول الله ! فقال : يا ابن عوف ، إنها رحمة ، ثم أتبعها بأخرى - أى أتبع الدفعة الأولى بأخرى - وقال صلوات الله عليه : إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى الله ، وإننا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون ... قوله صلوات الله عليه : ولا نقول إلا ما يرضى الله وفي رواية : ولا نقول ما يخطئ الرب : أى من النياحة والصراخ وما إلى ذلك مما يوجب سُخْطَ الله عز وجل ، وقيل لأعرابي : اصبر فالصبر أجر ، فقال : أعلَى الله أَتَجَلَدُ والله : لِلْجَزَعِ أَحَبُّ إِلَيْهِ ، لَأَن الْجَزَعَ اسْتِكَانَةٌ وَالصَّبْرُ قَسَاوَةٌ ... وقيل لفيلسوف : أَخْرِجِ الْحُزْنَ مِنْ قَلْبِكَ فَقَالَ : لَمْ يَدْخُلْهُ يَأْذَنِي فَأَخْرِجْهُ يَأْذَنِي ... وأقرط امرأة في الجزع على آبنها ، فعوتبت في ذلك ، فقالت : إِذَا وَقَعَ حُكْمُ الضَّرُورِيَّاتِ لَمْ يَقَعْ عَلَيْهَا حُكْمُ الْمَكْتَسَبَاتِ ، فَأَمَّا جَزَعِي فَلَيْسَ فِي الطَّاقَةِ صَرْفُهُ ، وَلَا فِي الْقُدْرَةِ مَنَعُهُ ، وَلِي عُذْرٌ لِلضَّرُورَةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ...

في البكاء تخفيف من الحزن

قال ابن عباس رضي الله عنه : كنت إذا أصابني مصيبة وأنا شاب لا أبكي ، وكان يؤذيني ذلك ، حتى سمعت أعرابيا يُنشد :
لَعَلَّ انْحِدَارَ الدَّنَعِ يُعْقِبُ رَاحَةً مِنْ الْوَجْدِ أَوْ يَشْفِي شَجَى الْبَلَابِلِ
فسأله لِمَنِ الشعر ؟ فقال : لِذِي الرِّثْمَةِ ، فَكَنتُ إِذَا أَصَبْتُ بِكَيْتٍ ، فَاسْتَرَحْتُ

ضعف بذية الإنسان

سئل جالينوس عن الإنسان فقال : سِرَاجٌ ضَعِيفٌ ، وَكَيْفَ يَدُومُ ضَوْؤُهُ

بين أربع رياح ! » يعنى بالسراج : رُوحه ، وبالرياح الأربع : طبائعه^(١) ، وقال الشاعر كبيد :

وما المرء إلا كالشهابِ وضوئه يحورُ رماداً بعد إذ هو ساطعُ
كل شيء تغير من حال إلى حال فقد حارَ يحور حورا ، وقال أفلاطون :
إذا كانت الطائفة فاسدةً والبينة ضعيفةً ، والطبائع مُتَنَافِيةً ، والعُمُرُ يسيراً ،
والمَنيَّةُ صادقةً ، فالثِقَّةُ باطلة
استنكافهم من أن يموت المرء حتف أنفه

قال خالد بن الوليد : لقد لقيت كذا وكذا زحفاً ، وما في جسدى
موضع شبر إلا وفيه طائنة أو ضربة أو رمية ثم ها أنا ذا أموتُ على فراشى
حَتَفَ أنى ، فلا نامت أعينُ الجبناء . وقال الشنفرى :

(١) قال وهب بن منبه : قرأت في التوراة : أن الله عز وجل حين خلق آدم
ركب جسده من أربعة أشياء ، ثم جعلها وراثته في ولده ، تنمى في أجسادهم وينمون
عليها إلى يوم القيامة : رطب ، ويابس ، وسخن ، وبارد ، قال : وذلك أن الله سبحانه
وتعالى خلقه من تراب وماء ، وجعل فيه نفساً وروحاً ، فيبوسة كل جسد من قبل
التراب ، ورطوبته من قبل الماء ، وحرارته من قبل النفس ، وبرودته من قبل الروح
ثم خلق للجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع أخرى هي ملاك الجسد لا يقوم الجسد إلا بهن ،
ولا تقوم واحدة منهن إلا بالآخرى : المرة السوداء ، والمرة الصفراء ، والدم الرطب
الحار ، والبلغم البارد ، ثم أسكن بعض هذا الخلق في بعض ، فجعل مسكن اليبوسة
في المرة السوداء ، ومسكن الرطوبة في الدم ، ومسكن البرودة في البلغم ، ومسكن
الحرارة في المرة الصفراء ، فأما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع وكانت كل
واحدة فيه وفقاً لا تزيد ولا تنقص ، كملت صحته واعتدلت بيته . فإن زادت واحدة
منهن غلبت وقهرت من ومالت بهن ، دخل على أخواتها السقم من ناحيتها بقدر ما زادت
وإن كانت ناقصة عنهن . ملن بها وعلونما ودخلن عليها السقم من نواحيهن : لفلتها
عنهن حتى تضعف عن طاقتهن وتعجز عن مقاومتهم .

وَلَا تَقْبِرُونِي إِنَّ قَبْرِي مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أُبَشِّرُ أُمَّ عَامِرٍ ^(١)
وقال السموأل أو غيره :

وما مات منا سيد خفف أنفه ولا طلّ منا - حيث كان - قتيل
تسيل على حد السيوف نفوسنا وليس على غير السيوف تسيل
« طلّ : أهدر دمه ، وقيل : أن لا يُثَارَ به وتقبل ، بديته وقال أبو تمام :
لَوْلَمْ يَمُتْ تَحْتَ أَسْيَافِ الْعِدَا كَرَمًا لَمَاتَ - إِذْ لَمْ يَمُتْ - مِنْ شِدَّةِ الْحَزَنِ
وقال آخر :

إِنَّ مَوْتَ الْفِرَاشِ ذُلٌّ وَغَارٌ وَهُوَ تَحْتَ السَّيْفِ فَضْلٌ شَرِيفٌ
وقال :
وَإِنِّي أَتَعَبُ مَيِّتٍ مِنْ يَمُوتُ بِدَاءِ
وسيمر عليك كثير من عبقرياتهم في هذا المعنى ، في « باب الشجاعة »

تم الجزء الأول

من الذخائر والعبقریات

(٢) أم عامر وأم عمرو : كنية الضبع ، قال الراجز :

يَا أُمَّ عَمْرٍو أُبَشِّرُ بِالْبُشْرَى مَوْتُ ذَرِيعٌ وَجَرَادٌ عَظْلَى
وهم يزعمون أن الضبع من أحق الدواب : لأنهم إذا أرادوا صيدها يجيء الرجل
إلى وجارها فيسد فيه بعد ما تدخله لثلا ترى الضوء فتحمل الضبع عليه فيقول لها :
أبشري يا أم عامر بجراد عظمي وكر رجال قتلى . فتذل له حتى يلقهها ثم يجرها
ويستخرجها جراد عظمي : ركب بعضها بعضها كثرة ؛ وأصل العظام : الملازمة في
السفاد من الكلاب والسباع والجراد ، وقولهم وكر رجال قتلى ، فإنهم يزعمون أن
الضبع إذا وجدت قتيلًا قد انتفخ غرموله ألقته على قفاه ثم ركبته قال عباس بن مرداس :
ولومات منهم من جرحنا لأصبحت ضباع بأعلى الرقبتين عرائسا

فهرس

الجزء الأول من الذخائر والعقريات

المقدمة

الكتاب الأول

في الفضائل وصالح الأخلاق والمثل العليا

الباب الأول في البر والتقوى

البر وألوانه

معنى البر - عبقریاتهم في البر مطلقا - من صفحة ٢ - ١٤

بر الوالدين وصلة الرحم وعبقریاتهم في الآباء والأبناء

والأقارب - من بابات شتى

- بر الوالدين ١٤ - ١٨ - من أخبا البررة ١٨ - العقوق وأحوال
العققة ١٨ - من أقوالهم في الأولاد المتخلفين ٢٥ - حق الولد على الوالد ٢٥ -
احتجاج بعض العققة لعقوقهم ٢٦ - ذم الولد وقلة جدواه ٢٩ - الإشفاق
على الأولاد ٣٠ - صلة الرحم ٣٦ - معاملة الخلفاء الراشدين لذوى قرباهم
في التولية ٣٧ - حث الأقارب على التعاون ٣٨ - العطف على القريب
والحيالة ٤٢ - الشكوى من الأقارب ٤٣ - مظاهرة الاجنبى على القريب ٤٦ -
علاج العداء الذى بين الأقارب ٤٧ - كلامهم في الإخوة ٤٧ و ٤٨ - قطيعة
الإخوة ٤٩ - الناس تجاه البنات ٤٩ - ٥٢ - الحال والخثولة ٥٢ -
مدعو القرابة البعيدة ٥٤ - تفاخرهم بالحسب وكرم المحتد ٥٥ - من يشبه أباه
في علاه ابتناه ٥٦ - لا اعتداد بمن شرف أصله إذ لم يشرف بنفسه ٥٧ - اعتذار
المتخلفين الاندال عن تخلفهم عن آبائهم الاشراف ٥٨ - ذم من قصر عن
آبائه ٥٨ - من لا يعتد بأبيه ٥٩ - الابن يجارى أباه ٥٩ - الاسلام يعد
الشرف والحسب بالتقى ٦٠ - الدعوة - أى ادعاء الولد الدعوى غير أبيه ٦٠ -
الولد ينسل من الأقارب فيخرج ضاويا ضعيفا ٦٢ - الرضاة ٦٣

الإحسان

وعبقریاتهم فی الجود واصطناع المعروف وقری الاضياف

وذم البخل والسؤال

تحفی الاسلام بالإحسان ٦٤ - الناس مجبولون علی البخل ٦٥ - مدح الجود
وذم البخل ٦٨ - طرفة الجندي مع معن بن زائدة ٧٦ - حثهم علی الجود حتى
فی حالة العسر ٧٨ - واجبات ذوی الجاه ٨١ - عبقرية أحمد بن أبي دواد فی
اصطناع المعروف ٨٥ - رسالة للجاحظ ینضح فیها عن الجود ٩٥ - كلمة علوية
لسیدنا رسول الله فی الحث علی الإحسان ١٠٦ - هیات أن أیت ببطاناً: لسیدنا
علی ١٠٩ - کان الخلفاء الراشدون مثلاً علیاً فی الرغبة عن شهوات الحیاة
الدنیا ١١٠ - عظمة الفاروق فی زهده وتقواه ١١٢ - عبقریاتهم فی الجود من
بابات شتی ١١٣ - قری الاضياف ١١٨ - وصية بخیل لابنه ١٢٤ - بخیل
بیع القرى ١٢٨ - عبقریاتهم فی قرى الاضياف ١٢٩ - محادثة الضیف
والحدیث علی الطعام ١٣٢

السؤال وعبقریاتهم فیہ من جمیع نواحيه

ذم السؤال ١٣٥ - عبقریاتهم فی آداب السؤال واستدجاح الخوائج ١٣٩ - المسئول
تجاه السائل ١٤٥ - طلب الكثير والرضا بالقليل ١٤٨ - من یسأل حاجة
یرعها صغيرة ١٤٨ - الحث علی الصبر والناة فی طلب الحاجات ١٤٨ -
العطية لا تجدی فی غیر وقتها ١٤٩ - التأسف علی الحرمان ١٥٠ - تعريضهم بمن
خیبهم ١٥٠ - الهدایا والرشی مدرجة للنجاح ١٥٠ - قطع العادة ١٥١ -
شکری العافین من تفضیل بعضهم علی بعض ١٥٢ - بلاغة المکدین ١٥٢ -

حسن الخلق

حسن الخلق ١٥٤ - نهیهم عن سوء الخلق ١٥٧ - صعوبة تغییر الطباع ١٥٨ -
مدارة الناس ١٥٩

التقوى

- التقوى ١٦١ - معنى التقوى ١٦٢ - الحكمة ١٦٥ - عبقرياتهم
 في التقوى ١٧٠ - كليمه في التوكل ١٧١ - التقوى مع الجهل ١٧٧ -
 التماوت والإفراط في الخشوع ١٧٧ - قلة اليقين في الناس ١٧٨ - إصلاح
 الضمير ١٨٠ - احتمال المكاره في العاجل رجاء المسار في الآجل ١٨١ -
 مراعاة الدين والدنيا معاً ١٨٢ - الجمع بين الرجاء والخوف ١٨٣ - العبادة
 لاطلباً للثواب ولا خوفاً من العقاب ١٨٤ - الرياء ١٨٦ - التوبة ١٨٨ -
 الاستغفار ١٩٢ - عبقریات شتى في الخوف والتقوى ١٩٣

الباب الثاني

في الشكر والحمد والثناء

- معنى الشكر ١٩٨ - حثهم على الشكر ٢٠١ - العجز عن الشكر ٢٠٤ -
 من لا تخفى أباديه ٢٠٦ - الشكر بقدر الاستحقاق ٢٠٦ - من لم يردعه خوفه
 عن الشكر ٢٠٧ - شكر من هم بإحسان ولم يفعل ٢٠٨ - نقل الشكر
 والحمد ٢٠٨ - تفضيلهم الثناء على العطاء ٢٠٨ - تسهيل القول على الشاكرين
 بتوافر ما يشكر عليه ٢١٠ - حب المنعم أن يرى أثر إنعامه ٢١١ - لا يمدحون
 إلا إذا أعطوا ٢١٣ - حثهم على الشكر ولو لمن ليس على دينهم ٢١٥ -
 استحياؤهم من المدح ٢١٥ - من يمدح نفسه ٢١٦ - نهيم عن المدح قبل
 الاختبار ٢١٧ - عبقریات شتى في الشكر ٢١٧

الباب الثالث

في الصبر وعبقرياتهم فيه وفي الدنيا وفي المرض وفي هاذم اللذات

- ماذا يراد بالصبر في هذا الباب ٢٢١ - عبقرياتهم في الصبر ٢٢٢ - عود
 إلى أسباب الحزن ٢٢٩ - حثهم على الاستعداد للصائب كي نخف وطأتها ٢٣٠ -
 الغم يورث السقم والحرم ٢٣١ - الحزن يبلى بتقادم العهد ٢٣٢ - التأسي بمن

مصابه كصاحب المصائب وعكس ذلك ٢٣٤ - عروة بن الزبير مثل أعلى للصبر ٢٣٥
 مطرح الموم ٢٣٨ - عبقرياتهم في الدنيا وأنها دار محن ٢٤٥ - أسماء
 الدنيا ٢٤٦ - قلة لبث الإنسان في الدنيا ٢٤٨ - قلة متاع الدنيا ٢٤٨ - الماضي
 والحاضر والمستقبل ٢٤٩ - تحذيرهم من تضييع الأيام ٢٤٩ - الأيام تهدم
 الحياة ٢٥٠ - البقاء في الدنيا سبب الفناء ٢٥١ - فرح الدنيا مشوب بالترح ٢٥٣
 الدنيا هموم وغموم ٢٥٣ - نقصان بعد التمام ٢٥٥ - الدنيا لا يدوم فيها فرح
 ولا ترح ٢٥٦ - الدنيا غزارة ٢٥٧ - حب الدنيا على الرغم من عيوبها ٢٥٨ -
 الدنيا تضر بحبها ٢٥٨ - بنو الدنيا أغراض لضروب المحن ٢٥٩ - الأيام تضي
 في تراذلها ٢٦٥ - حدم ماضى الزمان وذتهم حاضره ٢٦٠ - إنكار ذم
 الدهر ٢٦٣ - المسرة من حيث نخشى المضرة ٢٦٤ - الفرج بعد الشدة ٢٦٦
 - من زال كربه فتى صنع الله ٢٦٦ - لا تعرف النعمة إلا عند
 فقدما ٢٦٧ - فضل العافية وسلامة الدين ٢٦٧ - عبقریات شتى في
 الدنيا ٢٦٨ - عبقریاتهم في الموت ٢٧٣ - أسماء الموت ووصفه ٢٧٣ - تعظيم أمر
 الموت ٢٧٦ - حثهم على تصور الموت ٢٧٧ - استدلال الإنسان على موته
 بمن مات قبله ٢٧٨ - الاعتبار بمن مات من الكبار ٢٨٠ - من مات فقد تنهى
 في البعد ٢٨٤ - غفلة الناس عن الموت ٢٨٥ - لا ينجو من الموت أحد ٢٨٥ -
 الموت لا يتحرز منه بشئ ٢٨٧ - موت الفجأة والصحيح يموت ٢٩١ - كل
 إنسان معرض لموته أو موت أحبته ٢٩١ - جهل الإنسان بوقت موته ٢٩٢
 الموت يستوى بين الأفاضل والأراذل ٢٩٢ - انقضاء ناس بعد ناس ورجوعهم
 إلى الموت ٢٩٤ - من يخاف الموت ولا يستعد له ٢٩٦ - من أمر ذويه بالبكاء
 عليه ٢٩٧ - من أظهر الندم عند الموت على ما فرط منه ٢٩٨ - من امتنع من
 التوبة عند موته ٢٩٩ - من يحبون الموت ٣٠٠ - تمنى الموت ٣٠١ - الحياة
 لا تمل ٣٠٢ - تسلى الناس عن مات ٣٠٣ - سهم المنايا بالذخائر مولع ٣٠٤
 إنكارهم النشأة في الموت ٣٠٥ - لا عار بالموت ٣٠٧ - الموت نهاية كل
 حى ٣٠٧ - وصية الميت ٣٠٩ - إنكارهم وصية الميت بما ليس له ٣٠٩ -
 من أوصى بشر وكان قاسياً حين احتضاره ٣١٢ - نهيمهم عن الإفراط في البكاء
 وإظهار الجزع على الاموات ٣١٤ - ضعف بنية الإنسان ٣١٥ - استكفائهم
 من أن يموت المرء حتف أنفه ٣١٥

تصحیحات واستدراكات

نرجو القارئ الكريم أن يبادر إلى تصحيح هذه الأخطاء

المطبعية التي نلّه إليها هنا

سطر	صفحة	خطأ	صواب
٢٠	٤	فأها	فأها
٢٣	٣	إلا قول خالد لأبي ذؤيب « أنظر الأغاني فقد جاء فيها	
		«ج ٦ ص ٢٧٥» أن البيت لأبي ذؤيب وهناك بقية	
		الآيات وهي قصيدة جميلة	
١	٣٣	مع الوضم	على الوضم
٥	٤٢	فرّعت	فرّعت
٤٩٣	٤٣	وقوله ولم تك منهم الخ	وقوله لست منهم يروى
			« إذا كنت في قوم عدى ولم تك منهم »
٥	٤٣	فأما قوم عدى	فأما قوم عدى بمعنى أعداء
٦	٦٠	في الغبار	من الغبار
١١	٧٠	وقال آخر	وقال بشار بن برد
١٢	٧٠	وتلهع	وتفرق
٢	٧١	يَبْسُ	يَبْسُ
١٢	٧٤	مع غير	مع غير
١٤	٧٨	بعض الشعراء	عبيد الله بن عبد الله بن طاهر
١٥	٧٨	وأنفق إذا أنفقت	وأنفق إذا أسرت غير مُقْتَر

سطر	صفحة	خطاً	صواب
٧٨	٨٤	والجود	والجود
١٥	١١٩	تهدده	تُهدد
٢١	١٤٧	عذرتها	عذرت
٧	١٥٩	صقيل	صَيْقَلُ
٥	١٩٥	بِخْوَيْصَةٍ	بِخْوَيْصَةٍ
			« ويوضع بعدد كلمة تصغير
			خاصة في الشرح هذه الزيادة :
			قال الزمخشري : الخويصة
			تصغير خاعة بسكون الياء
			لأن ياء التصغير لا تكون إلا
			ساكنة وجوز التقاء الساكنين
			فيها أن الأول حرف لين
			والثاني مدغم ،
١٥	١٩٦	وكل شيء	وكل شيء
١٩	٢٠٢	ما أوليتها	ما أوليتها
٢٠	٢٠٠	قول البحري	قول إبراهيم بن العباس الثوري
١٩	٢٠٤	مُنْكَشِفًا	مُنْكَشِفًا

سطر	صفحة	خطأ	صواب
٢	٢٢١	وفي هادم اللذات	وفي هادم اللذات وفي المرض
٢٠	٢٢٢	ونضوا ونضوا	ونضوا ونضوا
١٣	٢٢٩	مُسْتَهْدَفٌ	مُسْتَهْدَفٌ
١٨	٢٥٥	والضيفُ مَرْتَحِلٌ	والضيفُ مَرْتَحِلٌ
١٩	٢٥٥	ثم رُدَّه	ثم رُدَّه
٦	٢٧٠	أقول لعله	أقول لعله قوله نراع... أبيت لعله
٢	٢٨٣	لَا يَلْبَثُ الْقِرْنَاءُ	لَا يَلْبَثُ الْقِرْنَاءُ
١٣	٢٨٨	ويروى تخونه	ويروى: تخوفه
١٥	٣٠١	خباهك	حياءك
